



عالم الفكر

الجلد العشرون - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩

الأسئلة



«مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

(١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزده به بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين . . ١٢٠ ألف كلمة ، ١٦٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطباعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

رئيس التحرير : محمد يوسف الرمزي
مستشارة التحرير : دكتورة نورية صالح الرمزي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص . ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الألسنية

- التصعيد : المصطلح الأسلي العربي الدكتور أحمد خنجر عمر ٥
تحليل عملية التكلم الدكتور عبدالرحمن ايوب ٢٥
الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة الدكتور يحيى أحمد ٢٩
الدراسة الإحصائية للأسلوب الدكتور سعد مصلوح ٩٩
الاكتفاء في التداول اللساني الدكتور عادل فاخوري ١٤١
محاولة السنية في الاعلال الدكتور أحمد الخمو ١٦٧

...

مطالعات

- صور من تطور لغة الشعر العربي الدكتور أحمد محمد قدور ١٨٩
الحديث عن طريق المجاز

...

من الشرق والغرب

- السياق التاريخي واللغوي للشعر الزنجي الدكتور بانيس بوحلة ٢١٩
الإفريقي - الأمريكي

...

صدر حديث

- اللغة العربية والحاسوب تأليف : الدكتور نيل علي ٢٥٥
عرض وتحليل : الدكتور علي صبري فرغلي عرض وتحليل : الدكتور فهد الناصر ٢٧٩
مichael Lipky

مجلس الادارة

- حمّد يوسف الرّومي (رئيساً)
- د. نوريّة صالح الرّومي
- د. رشاد حمّود الصّباح
- د. عبّاد المالك التّميميّ
- د. عيسى المشّوط

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تلقاها للنشر

المحرر الضيف لمحور العدد
الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر

المحرر الضيف لعدد
(الألسنية)

هو الأستاذ الدكتور / أحمد مختار عمر
 أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
 والمعار حالياً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة
 الكويت والحائز على جائزة ووسام صدام للدراسات
 اللغوية ١٩٨٩ م .

التعريف

إذا كانت كتابة العلوم باللغة العربية تعاني من مشكلة نقص المعروض من مصطلحات عربية ، ومن تفضيل كثير من المؤلفين الكتابة بغير العربية - فإن الكتابة الألسنية باللغة العربية تعاني من مشكلتين حادتين هما :

أولاً : كثرة ما تقذفه المطابع كل عام من كتابات باللغة العربية ، وما يصحبها من إدخال مصطلحات جديدة كل يوم دون أن تتوافر لها شروط المصطلح ، مما خلق مجالات كثيرة للتعارض والتصادم بين هذه المصطلحات واستخدامها بعضهم مع بعض .

ثانياً : تشابك الفترة الزمنية للدراسات القديمة والحديثة وامتدادها عبر مئات السنين ، مما أدى إلى اشتداد الصراع بين أنصار المصطلح القديم والمصطلح الجديد واختلاط المفاهيم ، ونشوء نوع من الاحتكاك بين من يسمون بالتراثيين ، ومن يسمون بالتجديدين .

فإذا كانت مصطلحات العلوم تعاني من مشكلة التعريب ، فإن مصطلحات الألسنية تعاني من مشكلة التوحيد . وإذا كان العلميون يشكون من اتخاذ لغة غير العربية أداة للتعبير ، فإن الألسنيين يشكون من استخدام لغة عربية لم ترق في تعبيراتها المتخصصة إلى مستوى « المصطلح » . ولولا أن كثيرين ممن يقدمون المفاهيم الأجنبية في لفظ عربي يقرنون المصطلح العربي بنظيره الأوربي لغنض فهم المصطلح العربي على الكثيرين ، ولكان هذا المصطلح عامل تفرق لا تجميع ، وما كان هناك حد أدنى من الاتصال بين السنتي قطري والسنتي قطري آخر ، بل السنتي وآخر في داخل القطر الواحد .

المصطلح الألسني لعربي وضبط المنهجية

أحمد مختار عمر

الأستاذ بكلية الآداب - قسم اللغة العربية

وإذا كان صحيحاً ما يقال عن ولادة علم جديد أو اتجاه جديد، في الستينيات، في حقن الدراسات اللغوية العربية استحق أن يميز باسم خاص به وهو «الأسنية» فإن التسليم بهذا القول يقتضي أولاً بيان حدود العلم وإنشاء شبكة من المصطلحات له تساعد على ضبط مفاهيمه وتصنيف ظواهره.

وإذا كان أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل رصيدها الفني - كما يقول المسدي - هو إفرازها لبثتها الاصطلاحي الخاص بها، فإن الدراسة الأسنية العربية ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية، وما يزال التأليف المعجمي في مصطلحاتها الحديثة في طور التكوين مقارنة بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللغة العربية^(١).

والحديث عن مشكلات المصطلح الأسني العربي حديث متعدد الجوانب متشعب الأطراف، ولذا لا يستطيع كاتب أن يلم بها في عمالة كهذه، وإنما عليه أن يثارت ما يراه أهم جوانبها.

وقد رأيت في هذا التمهيد أن أركز على جوانب أربعة هي:

- ١ - مصطلح «الأسنية».
- ٢ - واقع المصطلح الأسني العربي.
- ٣ - الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح.
- ٤ - وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح.

مصطلح الأسنية:

راجعت في الأعمار الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقن الدراسات اللغوية الحديثة وهي: «علم اللغة»، و«اللسانيات»، و«الأسنية». وقد اخترنا مصطلح «الأسنية» لتطويعه على هذا العدد الخاص من «عالم الفكر» رغم أنه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة^(٢) شيوعاً لجملة أسباب منها:

(١) قارن ما صدر من معاجم باللغة العربية - على سبيل المثال - بمجلدين واثنين صدرتا باللغة الإنجليزية أحدهما: A Grand Dictionary of Phonetics الذي أصدرته الجمعية الصوتية اليابانية عام ١٩٨١ بعد أن أصدرت معجراً مماثلاً باليابانية عام ١٩٧٦. وقد أنفقت الجمعية عشرين سنة في جمع مصطلحات المعجم واختارت من بين مائة التي جمعتها نحواً من اثنين وعشرين ألف مصطلح عصفها هذا المعجم.

لما العمل الآخر فهو: The Cambridge Encyclopedia of Language تأليف David Crystal الذي هدف من تأليفه - كما قال في تمهيد - إلى الكشف عن سحر الأسنية ودرما اللغوي قامت به سواء في مجال تركيب اللغة ونظورها واستعمالها أو في المجالات التطبيقية الأخرى المتصلة بمشكلات الأفراد والمجتمعات.

(٢) مازال مصطلح «علم اللغة» هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعاً رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين الآخرين.

فيتمثل القائمة البيبليوجرافية التي حصرت الدراسات الأسنية التي تتناول اللغة العربية، الواردة بمجلة والفكر العربي (العدد الخاص بالأسنية ١٩٧٩) والتي اشتملت على خمسة وخمسين بحثاً وكتاباً نشر معظمها في السنوات العشرين السابقة لصدور هذا العدد نجد كلمة «لغة» قد تردت ثلاثاً وثلاثين مرة، في حين تردت كلمتا: «لسان» و«الأسنية» - خمس مرات فقط.

ويجلبل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث - التي ولقت عليها - ويصل عددها إلى نحو خمسين كتاباً وبحثاً نجد النتيجة كما يأتي:

علم اللغة	: ٢٥ عنواناً
الأسنية	: ١٠ عنواناً
لسانيات	: ٥ عنواناً

وبهذه أقل من ذلك عناوين أخرى مثل: علم اللسان - الدراسات اللغوية - البحث اللغوي.

أولا : إن مصطلح « علم اللغة » قد مرّ بمراحل كثيرة ، وتقلب عليه مناهج متعددة قديمة وحديثة ، فصار في حاجة إلى « وصف توضيحي لتحديد مجاله أو منهجه » ، كأن يقال : علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام .

كذلك ، يُختلط مصطلح « علم اللغة » كثيرا ، وبخاصة في مجال الاصطلاح الجامعي بمصطلح آخر هو « فقه اللغة » ، مع الفارق الكبير بينهما .

ثانيا : إن مصطلح « علم اللغة » يلتبس في ذهن الكثيرين بتعليم اللغة ، وأن مصطلح « اللغوي » يلتبس بالمفهوم العام للفظ ، وهو الشخص الذي يتقن عدة لغات أجنبية . وقد حدث هذا الالتباس حتى بالنسبة لمقابله الإنجليزي Linguist الذي يفهمه الكثيرون على أنه من يتقن عدة لغات ، ولهذا ظهر المصطلح الجديد Linguistician ليكون خاصا بعالم اللغة ، وإن لم يكتب لهذا المصطلح الرواج بعد .

ثالثا : إن كلمة « لغة » لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروفة الآن ، وإنما كانت تستخدم بمعنى اللهجة . ولم ترد كلمة « لغة » في القرآن الكريم إطلاقا ، وإنما وردت كلمة « لسان » (وجمعها ألسنة) للدلالة على جملة معان منها :

- ١ - آلة الكلام : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين » (البلد ٩) .
 - ٢ - اللغة ، بمعنى رصد الكلمات والقواعد الذي تملكه الجماعات اللغوية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان فومه » (إبراهيم ٤) .
 - ٣ - الكلام ، بمعنى الاستعمال الفردي للغة : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » (المائدة ٧٨) .
 - ٤ - الأسلوب ، بمعنى الخاصة الفردية للمتكلم : « وأخى هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا ، فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا » (القصص ٣٤) .
- ومعنى هذا أن كلمة « لسان » أكثر شمولية واستيعابا من كلمة « لغة » .

رابعا : إن كلمة « لسان » تعد من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية . وقد ترددت في فهرست ابن النديم بمعنى لغة في مثل قوله : اللسان العربي ، اللسان السرياني ، اللسان اليوناني . في حين أن كلمة « لغة » يونانية الأصل . (علم اللغة العربية لحجازي ص ٣١٠ وما بعدها) .

خامسا : إن إطلاق اسم على الدراسات اللغوية مشتمل على كلمة « لسان » إطلاق قديم ، عكس ما يترجمه الكثيرون . فقد أطلق الفارابي في « إحصاء العلوم » على العلوم اللغوية اسم « علوم اللسان » . وأطلق أبو حيان النحوي على علوم اللغة مصطلح « علوم اللسان العربي » . وتابعه ابن خلدون في هذا فعقد في مقدمته فصلا بعنوان « في علوم اللسان العربي » .

وحتى في العصر الحديث كان استخدام « علم اللسان » ، و « الألسنية » أسبق في الوجود من مصطلح « علم اللغة » .

وقد نشر الأب مرمجي الدومينيكي عدة أبحاث حملت اسم « الألسنية » نشر أولها في مدينة القدس عام ١٩٣٧ باسم « المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية » . وترجم الدكتور محمد مندور بحثاً لأنطون مابيه تحت اسم « علم اللسان » ، ونشر ذلك عام ١٩٤٦ كفصل في كتاب بعنوان « منهج البحث في اللغة والأدب » .

وهكذا حسنا الأمر بالنسبة للاختيار بين مصطلحي « لغة » و « لسان » ، ولكن بقي حسم الأمر بالمصطلح « اللسانيات » و « الألسنية » .

من الواضح - باديء ذي بدء - أن كلا من المصطلحين قد كتبت له السيادة في منطقة عربية دون أخرى . فإذا كان مصطلح « علم اللغة » قد شاع في معظم بلدان المشرق العربي ، فإن مصطلح « الألسنية » قد شاع في لبنان^(٣) بالذات ، ومصطلح « اللسانيات » أصبح هو الشائع الآن في بلدان المغرب العربي ، وبخاصة بعد أن اتخذت ندوة « اللسانيات واللغة العربية » (الملتقى الثالث لللسانيات - تونس ١٩٧٨) توصية باستخدام مصطلح « اللسانيات » اسماً لهذا العلم ، بدلاً من مصطلح « الألسنية » . وأخذ اللغويون التونسيون والمغاربة يلتزمون به في معظم ما ينشرونه أو يقيمونه من ندوات^(٤) ، كما روج له بعض اللغويين السوريين^(٥) .

فلماذا فضلنا مصطلح « الألسنية » على « اللسانيات » ؟ واختارناه عنواناً لهذا العدد الخاص ؟

هناك جملة اعتبارات كانت في الذهن عند اختيار هذا المصطلح ، أهمها :

أولاً : إن علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة ، وإنما يدرس أي لغة ، ويحلل أي مستوى داخل اللغة الواحدة . فمعنى الجمعية ملحوظ في وظيفة هذا العلم ، ولذا يناسبه لفظ الجمع « ألسن » لا المفرد « لسان » .

(٣) مما ظهر من ذلك : الألسنية ولغة الطفل لجورج كلاس ، والألسنية العربية (جزءان) لرعيون طحان ، والألسنية (ثلاثة أجزاء) لميشال زكريا ، والألسنية والتفقد الأدبي لوريس أبو ناهر ، ورواد الألسنية الحديثة فخري بولس .

(٤) مما ظهر من ذلك في المغرب : إيتوبي في اللسانيات ، والتدوينة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات ، وجملة تكامل المعرفة ، عدد خاص من اللسانيات . وفي الجزائر : جملة اللسانيات ، ومحاضرات في اللسانيات الحديثة . وفي تونس : قاموس اللسانيات ، والملتقى الثالث لللسانيات ، واللسانيات واللغة العربية ، واللسانيات من خلال النصوص . ومع ذلك تذبذب الكتاب المغاربي أكثر من مصطلح ، فاستعملوا إلى جانب « اللسانيات » : « الألسنية » مثل « مفتاح الألسنية » (تونس ١٩٨١) ، و « دروس في الألسنية العامة » (تونس ١٩٨٥) . وهذا فلا صحة لما يقوله المسدي من أن مصطلح الألسنية لم يعد يستعمل عند التونسيين بعد عام ١٩٧٨ . قاموس اللسانيات ، ص ٧٠ . كما استخدموا كذلك علم اللسان ، والتفكير اللساني ، والمصطلحات اللغوية (الأخير في كتاب صدر ١٩٨٧) ، وعلم اللغة (في كتابين صدرتا عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٥) . والمسدي نفسه في مقال : الفكر العربي والألسنية (١٩٧٨) استخدم مصطلحات : علوم اللسان ، الألسنية ، البحث الألسني ، علوم اللغة ، الدراسة اللغوية ، الدراسات الألسنية . الخ .

(٥) انظر : مارو الوحر . قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، (١٩٨٨) .

ثانياً : أنه لم يعد هناك حرج في النسب إلى جمع التكسير على لفظه بعد أن أقر جميع اللغة العربية بالقاهرة ذلك ، وبخاصة حين يكون الجمع اسماً لعلم من العلوم . وقدما نسب إلى علم الأصول ، فقيل « أصولي » ، وإلى الأخبار فقيل « أخباري » .

ثالثاً : أن التصرف في لفظ « السنية » أسهل من التصرف في لفظ « لسانيات » فحين نأخذ الصفة من الأول نقول : دراسات السنية ، وحين نتحدث عن المشتغل بهذا العلم نقول : السني ، بإبقاء الجمع على حاله . ولكن إذا أردنا أن نأخذ الوصف من « اللسانيات » فلا نقول - وليس من المستأغ أن نقول - « دراسات لسانياتية » ، ولا « لسانياتي » ، ولذا يراد الجمع إلى مفردة عادة فيقال « لسانية » ، و « لساني » .

رابعاً : أن اللبس الذي يحدث عند استخدام المصطلح « لغوي » وعدم القطع ما إذا كان نسبة إلى « اللغة » أو « علم اللغة » ، والذي فضلنا - من أجله - ترك هذا المصطلح ، يحدث نفسه إذا استخدمنا لفظ « لسانيات » . فحين النسبة ستقول : « لساني » فلا يدرى أي نسبة إلى « اللسان » أم إلى « اللسانيات » .

ولكن هذا المحذور يزول باستخدام كلمة « السنية » اسماً للعلم . فحين النسبة إلى الجمع « السني » يكون المراد النسبة إلى العلم . أما إذا نسبنا إلى المفرد فقلنا « لساني » فتكون النسبة إلى « اللسان » بمعنى « اللغة » لا بمعنى العلم الذي يدرس اللغة^(٦٦) .

واقع المصطلح الأساسي العربي :

هناك نوعان اثنان من المصادر يمكن من خلالها دراسة واقع المصطلح الأساسي العربي :

أولها الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم ، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة ، لها في لغتها مصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي .

وثانيها ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات ، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقاً للبحث ، عن ما إلى عربي . وإن كان العكس

(٦٦) من الغريب أن يكون أشد المدافعين عن المصطلح « لسانيات » هو أشد الرافضين للمصطلح « لغويات » على أساس أن اللفظ الأخير من احتري في تركيبته على صيغة النسبة « لغوي » ، أصح من المفرد أو كالمفرد استعماله مصطلحاً للعلم . سميت به وينسب إليه إذ من غير المستأغ الخطأ « لغوي » أو « لغويات » (السني) فانوس اللسانيات ص ٦٩ .

وقال أن ما اتفده المصطلح « لغويات » ونسجده بالضرورة على المصطلح « لسانيات » إذ من غير المستأغ أن يقال « لسانيات » أو « لسانياتية » . وإذا كان السني قد خُص من هذا المحذور عن طريق النسب وأحد الصفات من المفرد فقال « لساني » - لسان - بعد كان تكس أن يعمل نفس الشيء مع « لغويات » .

وإذا كان محمد رشاد الحمزاوي قد جمع بين المصدرين في عمل واحد هو كتابه « المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية » فإن عمله هذا يعد - من ناحية - قطرة في بحر ، كما يعد - من ناحية أخرى - عملاً ثرائياً دخل ذمة التاريخ . فقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ ، واعتمد على مؤلفات يعود بعضها إلى الخمسينيات ، ومعظمها إلى الستينيات ، مسطاً بذلك عشر سنوات هامة من تاريخ الألسنية . ولم يدخل المؤلف - مع الأسف - على كتابه أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية عام ١٩٨٧ في حين أن البحث الألسني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ، ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحي في الألسنية متخلفاً خلال بضعة سنوات .

ولعل أهم معاجم المصطلحات الألسنية المتعددة اللغة التي صدرت في الثلاثين سنة الأخيرة - إلى جانب معجم الحمزاوي هي :

١ - مجموعة المصطلحات اللغوية ، التي بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضعها عام ١٩٦٢ ، ووردت ضمن مجموعات المصطلحات العلمية والفنية في أجزاء كثيرة متتابعة . وهو المعجم الوحيد الذي ظهر بجهود هيئة علمية حتى الآن . ولكنه - مع الأسف - شديد القصور ، وواضح الجمود بعد هجرة لعدة سنوات ، وعدم تزويده بالمصطلحات المستجدة أولاً وآخراً .

٢ - معجم علوم اللغة ، الذي أعده عبد الرسول شاني ونشرته مجلة اللسان العربي عام ١٩٧٧ في المجلد الخامس عشر - الجزء الثاني .

٣ - معجم علم اللغة النظري ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٢ .

٤ - معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، من إعداد نخبة من اللغويين العرب ، وقد صدر عام ١٩٨٣ .

٥ - قاموس اللسانيات ، من إعداد عبد السلام المسدي ، وقد صدر عام ١٩٨٤ .

٦ - معجم علم اللغة التطبيقي ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٦ .

ومعيب معظم هذه المعاجم اكتشافها بمجرد ذكر المصطلح الأجنبي ومقابلته العربي ، دون تعرضها لشرح المصطلح وتحديد مفهومه ، كما يعيبها جميعاً أنها قاصرة غير مستوعبة ، وأنها تمثل اجتهادات شخصية لأصحابها ، ولا تنفع لمنهجية مضبوطة ، وأنها ينقصها التجديد من آن لآخر .

ولنبداً بمصطلحات عبد القادر الفاسي الفهري في أبحاثه وكتبه فنلاحظ عليها أنها تتسم بالابتكار ، والتوسع في التعريب ، وإدخال صيغ ومشتقات غير مأثوقة في لغة « الألسنية » ، ومن ذلك :

- استخدام مصطلح « التأسيس » في مقابل : nominalisation
- و « المكون الصوتي » في مقابل phonological Component
- و « الموضوع » في مقابل : topicalisation
- و « النفس لسانيات »
- و « السيكولسانيات » - في مقابل psycholinguistics
- و « التأثير » في مقابل focalisation
- و « تركيب مُبَار » في مقابل focused construction
- و « ميتا متغير » في مقابل metavariable

أما رشاد الحمزاوي فهو أكثر جرأة من الفهري من ناحية ، وأكثر ذاتية في صك المصطلح من ناحية ثانية ، وأقل اطرادا مع نفسه في استخدامه للمصطلح من ناحية ثالثة مع أنه يعتبر نفسه من المنظرين في مجال المصطلح بعامة ، والمصطلح اللغوي بخاصة :

- فهو يطلق على علم الدلالة : السيميّة .

- ويستخدم « علم اللغة النفساني » ، بدلا من « النفس » .

● ويبقى المصطلح الأجنبي كما هو - دون حتى محاولة تعريبه وإخضاعه للصياغة العربية - فيستخدم مصطلحات مثل : « إستيمولوجيا » ، و « أبلاييف » ، و « أكوستيكي » ، و « جراماطيقا » ، و « دياكرونى » ، و « فوناتيكي » ، و « برادجماتي » ، و « ستجماتي » و « سامبولوجيا » . . وغير ذلك .

● ولا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبي فكلمة accent يقابلها « بالنبر » ، و « النبرة » ، و « الضغط » . وكلمة synchronic يقابلها مرة بكلمة « متزامن » ، ومرة « أفقى » . و bilabial عنده : « شفوي » ، و « شفتاني » ، و « بين الشفتين » و phoneme عنده مرة « صوتم » ، ومرة « فونم » .

- وهو في معظم حالاته لا يربط الألفاظ المترادفة ، ولا يستخدم نظام الإحالة .

● وقد يجانبه التوفيق في المقابل العربي الذى يستخدمه . فمصطلح affricate قابله بلفظ « شديد » والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الألسنيون وهى « مزجى » ، « مركب » ، « شديد رخو » . ومصطلح assimilation يقابله مرة بلفظ « إدغام » ، ومرة بلفظ « تماثل » . والصحيح مقابلته بلفظ « مماثلة » .

ونعرض الآن بعض المصطلحات اللغوية متبعين إياها في عدد من المصادر العربية لنرى مدى الاضطراب في صوغها ، والتباين في عرضها :

١ - المصطلح Phoneme ويرتبط به مصطلحان آخران هما allophone و phone تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالي :

المصدر	Phone	allophone	phoneme
دراسة الصوت اللغوي	فون	ألفون	١ - فونيم
قاموس اللسانيات	صوت	صوتهم تعامل	٢ - صوتم
دروس في علم أصوات العربية	—	—	٣ - صوت / صوتم
معجم علم اللغة النظرى	صوت لغوي / صوت كلامى	ألفون / متغير صوت	٤ - فونيم / فونيمية / صوتيم / صوت مجرد
معجم مصطلحات علم اللغة الحديث	صوت كلامى	ألفون	٥ - فونيم
المصطلح اللسان	—	بد صوتية	٦ - صوتية
مفاتيح الألسنية	—	—	٧ - صوتم
مجلة الفكر العربى	—	—	٨ - مستصوت / فونيم / لافظ

وأنتج الاكتفاء بمصطلحات المصدر الأول لوضوح العلاقة اللفظية بينها ، ولسهولة تصريفها ، ولأنها أصبحت مصطلحات عالمية تستخدمها اللغات الأوربية . أما إطلاق « صوت » على الفونيم فيعيبه التباسه بمصطلحين آخرين هما Sound, Phone . أما فونيمية وصوتية فيلتبسان بصيغة النسب الوصفية ، فضلاً عن صعوبة تصريفهما . أما المصطلح « صوت مجرد » فيعيبه كونه ثنائياً .

٢ - المصطلح morpheme ، ويرتبط به مصطلحان آخران ، هما allomorph و morph تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالي :

المصدر	morph	allomorph	morpheme
أسس علم اللغة	مورف	ألومورف	١ - مورفيم
قاموس اللسانيات	تشكل	شكلم	٢ - صيغم
معجم مصطلحات علم اللغة الحديث	مورف	ألومورف	٣ - مورفيم / وحدة صرفية
معجم علم اللغة النظري	مورف	ألومورف متغير دلالي	٤ - مورفيم / مورفيمية / صرفية مجردة
المصطلح اللسان	-	بد صرفية	٥ - صرفية صرفية

وأفضل هذه المصطلحات المجموعة الأولى لأنه يمكن ربطها بعضها ببعض ، ولسهولة تصريفها .
والمسدى الذى استعمل « صيغم » في مقابل المورفيم جاء الى المورف والألومورف واستخدم لفظين من مادة أخرى .

٣ - المصطلح bilabial ويعنى الصوت الذى تشترك في نطقه الشفتان وضعت له المقابلات العربية الآتية :
شفثان - شفوى - من بين الشفتين - شفوى ثنائى - شفوى مزدوج . والمصطلح الأول أدقها ، وبخاصة بعد أن أجاز مجمع اللغة العربية النسب الى المثنى على لفظه . أما الثانى فينبغى أن يخصص لمقابلة المصطلح Labial وأما المصطلحات الباقية فيعيها تعدد ألفاظها .

٤ - المصطلح Lexeme وضعت له المقابلات العربية : وحدة معجمية - لكسيم - مفردة - مفردة مجردة - مُأَصِّل - معجمية . وأفضلها اللفظ المغرب .

٥ - المصطلح synchronic وضعت له المقابلات العربية : متزامن - تزامنى - وصفى - متعاصر - متوافق - آن - ثابت - سنكرون - مستقر - أفقى . وأفضلها المصطلحان الأولان ، لغرابة اللفظ المغرب .

٦ - المصطلح diachronic ويستعمل عادة في مقابل المصطلح السابق للدلالة على تعدد الأزمنة . وقد استعمل له المصطلحات : تطورى - تعاقبى - متعاقب - تاريخى - زمانى . وأفضلها التعاقبى الذى يتلاءم مع تزامنى من ناحية ، ولا يلتبس بغيره من ناحية أخرى .

الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح :

إذا أردنا أن نرصد هذه الاتجاهات وجدناها محوطة بالارتجالية من ناحية ، والتحكم من ناحية ثانية ، وعدم الانضباط من ناحية ثالثة . وهي سمات أدت إلى خلق كثير من المشكلات أمام المصطلح الألسني وكادت توصله إلى حال يفقد فيها هويته ، ويتخلل عن أحسن خصائصه ، وهو ضرورة نائه على الاتفاق أو الاصطلاح بين المشتغلين باللغة وعلومها . وأهم هذه المشكلات ما يأتي :

أولاً : ما انحدر إلى المصطلحات الألسنية الحديثة من مشكلات عن المصطلحات القديمة التي لم يراع في وضعها المواصفات الضرورية ، فجاءت مختلفة من عدة جهات مثل :

- أ - استعمال المصطلح في أكثر من مفهوم ، كإطلاق « الناقص » على الفعل الذي لا يكتفى بمرفوعه ، وعلى المعتل الآخر ، وإطلاق « ذوات الثلاثة » على الأجوف ، وعلى الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف أصول .
- ب - إطلاق أكثر من مصطلح على المفهوم الواحد مثل « الواقع » على « المتعدي » ، و « الخفض » على « الجبر » ، و « النعت » على « الصفة » ، و « العماد » على « ضمير الفصل » .
- ج - طول المصطلح وتكونه من عدة كلمات ، ويظهر هذا بوضوح في كتب التراث الأولى .

ثانياً : ما يتحتمه المصطلح الألسني الحديث من مشكلات تتعلق بالمصطلح العلمي بوجه عام مثل :

أ - تعدد جهات وضع المصطلح (المجامع والهيئات) دون تنسيق حقيقي بينها (رغم وجود ما يسمى بمكتب تنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط) ، واختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلح ، وميل معظمهم إلى الفردية .

فمجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد أن يحدد وسائل وضع المصطلح يعطى أفضلية لوسيلتين اثنتين هما :

- ١ - اللفظ العربي على العرب القديم إلا إذا اشتهر العرب .
- ٢ - المصطلح العربي القديم على الجديد إلا إذا اشاع الجديد .

وكلتا الوسيلتين يمكن تحقيقهما عن طريق الاشتقاق أو المجاز . ثم نجد يعطى كذلك أفضلية للترجمة الحرفية حين لا يمكن وضع المصطلح الجديد في كلمة واحدة . وبذا يساوي بين الوسيلتين الداخلية والخارجية في الأفضلية .

ولكنه يعد من باب الضرورة العلمية الالتجاء إلى الوسيلتين الآتيتين :

- ١ - إدخال ألفاظ أعجمية على طريقة العرب في تعريبهم .
- ٢ - اللجوء إلى النحت .

(مجموعة القرارات العلمية في حسين عاماً ص ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، وشوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في خمسين عام ص ١٢٨) .

والمجمع العلمي العراقي يتعصب للفظ العربي لدرجة أنه كان يختار اللفظ الغامض ويفضله على الواضح كإطلاقه الجايبة على الخزان ، وآنوسق على الحمونه ، والإرقال على السرعة ، والكظام على الحشو ، والواجنة على المكبس ، والسدام على القداحة ، والواجنة على آلة التخريم ، والجسوة على الصلاية (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ٨) .

ولكنه رغم سلوكه هذا ، وتفضيله اللفظ العربي على الأجنبي (مطلوب ص ٥ ، ٩) ، ودعوته الى تجنب النحت والتعريب ما أمكن (مطلوب ص ١٠) ، نجده يلجأ الى التعريب كثيراً ، وإلى اللصق أحياناً كما في اللاتهامي ، واللائمدي ، واللائمطي ، واللائمطي ، واللائمطي (مطلوب ص ٦ ، ٧) . ورغم نصحه باختيار المصطلح ذي اللفظ الواحد كان يستعمل بعض السوابق على وزن فُعْل كالفُرط ، والخط ، والسبق ، واللحق ، والبعد . . (مطلوب ص ٩) .

ولكن في نفس الوقت هناك ألسنيون ممن يشاركون بجهودهم في وضع المصطلح يسلكون طرقاً مخالفة :

١ - فزى عبد السلام المسدي يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصور مستحدث قائلًا : « وكثيراً ما يتجاذب الميراث الاصطلاحي ذوى النظر فينزعون صوب إحياء اللفظ واستخدامه في غير معناه الدقيق . . فإذا بالدلول اللساني يتوارى حيناً خلف المفهوم التحوي ، ويتسلل أحياناً أخرى وعليه مسحة من الضباب تمت صورته الاصطلاحية ، فتتلاصق القضايا ، ويعسر حسم الجدل بين المختصين » (قاموس اللسانيات ص ٥٥ ، ٥٦) .

٢ - ونرى عبد القادر الفهري كذلك يحذر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث لأن هذا يخلق توهاماً بصدق المصطلح العربي « على ما يصدق عليه المصطلح الغربي نتيجة إسقاطات ظرفية أو ذاتية يقوم بها المترجم ، وينتهي الى إيجاد مناسبات غير قائمة » (المصطلح اللساني ص ١٤٤) . ويلج على فكرته هذه حين يقول في توضيح منهجه : « تمجيداً بقدر الامكان - استعمال المصطلح المتوفر القديم للتعبير عن المصطلح الداخل ، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والمحلّي على السواء . ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتحصيله إذا كان موظفاً ، لأن هذا يؤدي الى مشترك لفظي غير مرغوب فيه ، بالإضافة الى سوء الفهم » (السابق ص ١٤٥) .

وعلى عكس المجامع اللغوية نراه يشجع التعريب « لصعوبة الانتقال من لغة الى لغة باستخدام الرصيد المصطلحي الداخلي فقط . فتعريب الثقافة العلمية يقتضى اللجوء الى ما أسميناه المصطلح الخارجى » (السابق ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو لهذا يدعو الى تطويع اللغة العربية مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم (السابق ص ١٤٢) .

٣- وعلى نسق ما قال الفهري نجد محمد رشاد الحمازوي يهاجم اللجوء الى الترجمة قائلا : « وتزداد القضية تشعبا عندما ننظر الى الأساليب الفنية التي ترجمت بها هذه المصطلحات . . ولابد أن نشير في هذا الصدد إلى أن كل الترجمات لا تبنى فنياتها وعيا علميا مركزا » . كما أن اللجوء الى الترجمة - في نظره - يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوي والواقع ، وقضية الترادف بين اللغات . (مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) . ويرى أن اللجوء الى الترجمة لن يؤتى أكله « إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها ، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحي الذي يوفر لها التكثيف والتحويل والإسقاط » (السابق ص ٢٦٧) .

ب - عدم الدقة عند وضع المصطلح نتيجة عدم الدقة في فهم ما يعبر عنه . ومن ذلك عدم التفرقة بين المصطلحين الإنجليزيين nasalization مع أن الأول يعني تسرب الهواء كلياً من خلال فتحة الأنف ، والثاني يعني تسرب الهواء من الأنف مع استمرار تسربه من الفم (وذلك كما يحدث في تطبيق بعض العليل) . وقد استخدم المدققون لأول مصطلح الأنفية ، وللتاني مصطلح التأنيف (دراسة الصوت اللغوي ص ٦٠٢ ، ١٠٣) . ومثل هذا يقال عن الفرق بين الغاري palatalized والمغور palatalized . فالأول ينطق عن طريق نطق مذبذبة في منطقة الغار ، والثاني ينطق باجتماع النطق الغاري مع نطق آخر معين . ويمكن - على ضوء هذا - التفريق كذلك بين الصوت الطبقي velar والمطبق velarized والصوت المهموس والمهنس ، والصوت المجهور والمجهز .

ج - ترك حرية وضع المصطلحات للأفراد كل بحسب اجتهاده ، وعلى قدر قربه أو بعده من التراث العربي . وخير مثال لذلك المصطلح phoneme الذي وضع له في العربية المقابلات الآتية : فونيم صوتيم - صوتم - فونيمية - صوت مجرد - مستصوت - لفظ - لافظ . ويلاحظ في هذه المصطلحات تنوع طريقة وضعها بين التعريب الكامل والتعريب الناقص والترجمة الحرفية والترجمة الواسعة والتفسير (انظر المسدي : قاموس اللسانيات ص ٧٦ ، ٨٣ ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

د - الخلط بين المصطلح ، والشرح أو التفسير كإطلاق بعضهم « الوحدة الصوتية » على الفونيم ، و « الوحدة الصرفية » على المورفيم ، وبعضهم « علم تأصيل الكلمات » أو « علم تاريخ الكلمات » على ما يقابل المصطلح الانجليزي etymology . وأفضل من هذا إما تعريب الكلمة أو استخدام مصطلح « التأنيل » (المسدي ص ٨٤ و ٢٢٣ ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص ٢٤) .

ثالثاً : ما ينتقل الى اللغة العربية من مشكلات تتعلق باللغة أو اللغات المنقول عنها المصطلح . ومن أمثلة ذلك المصطلحان الانجليزيان phonology ، phonetics . فعل الرغم من كثرة ترددهما في علم اللغة الانجليزي فإننا نجد لهما عددا من التفسيرات التي توقع الباحث في حيرة وارتباك :

أ - فقد استعمل دي سوسير اللفظ phonetics للدلالة على ذلك الفرع من العلم التاريخي الذي يجلل الأحداث والتغيرات والتطورات عبر السنين ، وعده من أجل ذلك جزءاً أساسياً من الأسس في حين حدد مجال الـ phonology بدراسة العملية الميكانيكية للنطق ، وعده من أجل ذلك علماً مساعداً للأسس .

ب - أما مدرسة براغ فستستعمل مصطلح phonology في عكس ما استعمله فيه دي سوسير ، إذ تريد به ذلك الفرع من الأسلية الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية . ولذلك نجد أنها تعتبر الفونولوجي فرعاً من الأسلية . أما الفوناتيكس فقد أخرجه معظم رجالها من الأسلية ، واعتبروه علماً خالصاً من علوم الطبيعة يقدم يد المساعدة للأسلية .

ج - واستعملت الأسلية الأمريكية والانجليزية مصطلح فونولوجي لعشرات السنين في معنى « تاريخ الأصوات » ودراسة التغيرات والتحويلات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها . وهو حينئذ يكون مرادفاً لما يسمى diachronic phonetics أو historical phonetics أما المصطلح فونتكس فقد استعمل في معنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصفها ويحللها من غير إشارة إلى تطورها التاريخي . وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها ، وانتقالها ، واستقبالها .

وعلى هذا فالفرعان يعدان من صميم الأسلية ، وإن دخل الأول تحت فروع الأسلية التاريخية ، والثاني تحت فروع الأسلية الوصفية .

د - ومن الأسليين من رفض الفصل بين ما يسمى فونتكس وما يسمى فونولوجي لأن أبحاث كل منهما تعتمد على الأخرى ، ووضع الاثنان تحت المصطلح فونتكس أو تحت المصطلح فونولوجي .

هـ - ومن أجل هذا اللبس ظهر المصطلحان الجديدان phonemics و phonematics ، كبديلين للمصطلح فونولوجي .

و - ومعظم الأسليين الآن على تخصيص الفونولوجي للدراسة التي تصف وتصنف النظام الصوتي للغة معينة . أما المصطلح فونتكس فيقتصر على دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها ، وعن تجمعاتها في لغة معينة ، ودون نظر إلى وظائفها اللغوية ، أو حتى معرفة اللغة التي تنتمي إليها . وهم قليلاً ما يستعملون الآن المصطلح فونيميكس ونادراً ما يستعملون المصطلح فونيماتيكس .

وقد انتقل الخلاف في مفهوم المصطلحين إلى اللغة العربية فاستعملها الأسليون العرب كل حسب دراسته ومدرسته الأسلية . كما امتد الخلاف ليشمل كيفية التعبير عن مفهوم كل باللغة العربية ففهم من أبقي المصطلح فوناتيكس وعربه إلى « فوناتيكا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « الصوتيات » ، أو « علم الأصوات » أو « علم الأصوات اللغوية » أو « علم الأصوات العام » . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمصطلح فونولوجي ، ففهم من أبقاء وعربه إلى « فونولوجيا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « علم الفونيمات » ، أو « علم الأصوات » ، أو « علم الأصوات التاريخي » ، أو « علم الأصوات التنظيمي » ، أو « علم وظائف الأصوات » ، أو « علم التشكيل الصوتي » ، أو « علم الأصوات التشكيل » أو « الصوتية » (دراسة الصوت اللغوي ص ٤٥ - ٤٨ ، وقاموس اللسانيات ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

وأبما : كثرة ما تقذف به المطبعة كل يوم من أبحاث ودراسات ألسنية متعددة المنايع والمشارب ، وامتلاء الساحة الألسنية العالمية بالمفاهيم والمصطلحات التي تتزاحم وتتداير . وقد أدى توافر النظريات الألسنية ، وما أنشأته من مصطلحات ، وما استحدثته من مفاهيم جديدة تحتاج الى مصطلحات للتعبير عنها - أدى الى حدوث تراكمات في المفاهيم والمصطلحات التي يتعين نقلها الى اللغة العربية ، مما أظهر المصطلح الألسني العربي بمظهر العاجز عن مواكبة النشاط الألسني العالمي ، واستدعى العجلة في تدارك ما فات ، مما سبب كثيرا من الإرباكات وأدى الى عدد من السلبيات من أبرزها :

أ - اعتماد كثير من المصطلحات الألسنية العربية الحديثة على التعريب أو الترجمة الحرفية ، وبهذا انتقلت مشكلات التعريب والترجمة الى دائرة المصطلح الألسني .

تصنيف المفاهيم يختلف من لغة الى لغة ، ومن ثقافة الى أخرى . ومن الصعب الحصول على لفظ مطابق في لغة ما لفظ آخر ، مما يضع العراقيل أمام الترجمة الدقيقة . والترجمة تقتضى تطويع اللغة مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم ، وهو ما لا يتوفر بسهولة في لغتنا . وترجمة المصطلح الى العربية تقتضى وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، وهو ما قد يتعذر الحصول عليه في شكل كلمة واحدة إذا كان المصطلح الأجنبي يكتب جزءا من معناه عن طريق ما التصق به من سوابق أو لواحق ، وقد يضطر هذا المترجم الى استخدام لفظين مما يجعل المصطلح صعب التصريف ، ثقيلًا في الاستعمال .

أما التعريب فيقودنا الى القذف بمحيط غريب نوعا ما داخل محيطنا ، وبمفاهيم مجسدة في ألفاظ لغات أخرى ضمن مفاهيمنا ، وهو ما قد يفر عن الذوق العربي . وإن كان مما يخفف من هذا النفور إعطاء اللفظ المعرب الصيغة العربية ، والنطق به على مناهج العرب .

والتعريب يقتضى كذلك تماثلا أو تشابها بين اللغتين في الأنساق الصوتية والصرفية وهو ما لا يكاد يتوفر بالنسبة للغتنا . فالانجليزية مثلا تشتمل على أصوات ليست في العربية ، وكذا العكس . والانجليزية تُولف بين جذر ولاحقة أو سابقة للحصول على مفردة جديدة دون تغيير يذكر في البنية الداخلية للجذر في حين أن العربية لغة اشتقاقية تحدث غالبا تغييرا في صيغة الجذر أو أصل الاشتقاق للحصول على صيغة جديدة (الفهري : المصطلح اللساني ص ١٤٢) .

ويقترح عبد القادر الفهري لاحتحام مشكلة الترجمة البدء بمعانية الحقول الدلالية في كل من اللغتين ، وإقامة ما يمكن إقامته من مناسبات ، وفرض ما ليس له مقابل في اللغة الهدف ويحتاج الى الوضع والتوليد . ويرى أن تتبّع الحقول الدلالية في اللغتين قد يساعد على تلافى اضطراب الترجمة ، ويضرب لذلك مثلا بالمصطلح Sign الذي يترجم الى رمز ، علامة ، إشارة ، دليل . فلو نظرنا الى أسرة Sign لوجدنا Symbol من جهة ، وsignifier وsignified من جهة أخرى . ونحن نحدث دي سوسير عن الـ sign يَبَيِّنُ أنه اعباطي في حين أن الـ Symbol توجد فيه العلاقة بين الدال والمدلول . فالأقرب أن يترجم Symbol إلى « رمز » وأن يترجم Sign إلى « دليل » باستعمال نفس المادة المعجمية التي اشتق منها

الدالّ Signifier ، والمندلول Signified والدلالة signification . أما « علامة » فالأقرب أن تكون ترجمة لكلمة mark .
وأما إشارة فتقابل demonstrative (السابق ص ١٤٣) .

ومع الاعتراف بمشروعية التعريب كوسيلة من وسائل وضع المصطلح العربي ، فإن كثيرا من اللغويين يهربون منه ، وخصوصا إذا كان اللفظ المعرّب مما تنفر منه الأذن العربية مثل استعمال المصطلحات polysony و homonymy و paradigmatic و syntagmatic وغيرها (انظر الحمزاوي : مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

كما أن منهم من ينظر الى التعريب كوسيلة مرحلية ينبغي أن تعقبها وسيلة أخرى كالترجمة أو التعريب الجزئي ، كما حدث لمصطلح فونيم الذي فضل بعضهم عليه فيما بعد « الصوتم » أو « الصوتيم » ، وفضل بعضهم « الصوت المجرّد » ، أو « الوحدة الصوتية » أو « المستصوت » .

ب - عدم وضع ترتيب لطرق صوغ المصطلح ، وترك الحبل على الغارب لكل مجتهد يسلك الطريق الذي يريد ، ويفضل الوسيلة التي يميل إليها . فالى جانب الترجمة والتعريب اللذين سبق الحديث عنها نجد طرقا أخرى مثل :

❖ النحت الذي يتم عن طريق مزج عنصرين أوليين على الأقل ، أو نتيجة لصق أو تركيب خارجي . وطبيعي أن يؤدى استعمال النحت الى ظهور صيغ جديدة لا تنضوى تحت أي من الموازين الصرفية أو الاشتقاقية ، ولا يقف طولها عند حد .

❖ الاشتقاق الذي يعد من أكبر خصائص اللغة العربية ، والذي يكسبها طواعية داخلية تمكّنها من تلبية كثير من الحاجات الدلالية والمتطلبات المصطلحية . وطاقة الاشتقاق في صوغ المصطلحات لا تنتهى ، لأن الاستعمال قلما يستفرغ كل الاحتمالات الممكنة .

❖ المجاز ، وهو إحدى طاقات الحركة الذاتية في كل اللغات ، وهو خير معين على استيعاب المدلولات الجديدة دون إدخال أجسام غريبة في اللغة العربية ، ودون إحكام بعض الوسائل التي لا تتلاءم مع طبيعتها . ويستطيع المجاز أن يجد أمام ألفاظ اللغة جسورا وقتية تتحول عليها من دلالة الوضع الأول ، الى دلالة الوضع الطارئ (انظر : المسدي : قاموس اللسانيات ص ٢٩ - ٤٥) .

وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح :

ربما كان من أكثر المشتغلين بتأصيل المصطلح الأساسي ورسم حدوده اثنان ، هما عبدالقادر الفاسي الفهري ، ومحمد رشاد الحمزاوي . ولكن ما قدماه في النهاية لا يعدو أن يكون خطورة على الطريق ، وبعضه قد أثبت الواقع العملي عدم ملائمته .

ومن أهم ما وضعه الفهري من أسس :

١ - اللجوء إلى وسائل التوليد المختلفة سواء منها ما يختص المعنى فقط (المجاز والتضمين) ، أو ما يخص المبنى فقط (المعرّب) ، أو ما يختص المبنى والمعنى (الاشتقاق والنحت والتركيب والترجمة والتعريب الجزئي ...) .

٢ - اللفة بالاشتقاق والاستفادة من معاني الصبغ والأوزان .

٣ - استخدام النحت قليلا مثل نقل السابقة allo إلى « بَدَ » مختصرة من « بَدِلة » كما في allophone التي اقترح لها : بَدَ صوت (= بَدِلة صوتية) و allomorph التي اقترح لها : بَدَ صرفية (= بَدِلة صرفية) .

٤ - اللجوء إلى العرب حين يستعصى إيجاد مقابل عربي مقنع كما في كلمة acoustics التي اقترح لها : أكوستيات .

٥ - تفضيل التعريب الجزئي على التعريب الكلي ، لأنه أخف على اللسان من النحت والتركيب أحيانا مثل : metalanguage التي اقترح لها : ميتالغة ، و psycholinguistics التي اقترح لها : سيكولسانيات .

٦ - إجازة النسب إلى المثنى والجمع مثل bilabial التي استعمل مقابلا لها : شفغاني ، و bilateral التي استعمل مقابلا لها : جانياني ، و dental التي استعمل مقابلا لها : أسناني . وعلى هذا يقاس في bilingual : لُغغاني .

٧ - الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن .

(المصطلح اللساني ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

وأما الحمزاوي فقد طرح تصوره من خلال كتاب له بعنوان « المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها » نشره عام ١٩٨٦ . وإذا كان الكتاب هاما في تاريخ المصطلح العلمي ، وفي تناوله لقرارات المجامع والهيئات والمؤتمرات حول منهجيات المصطلحات العلمية ، فهو لم يبلور رأيا نهائيا يمكن أن يكون مرشدا لكل من يشتغلون بوضع المصطلح ، ولم ينته إلى مبادئ تصلح قانونا يلتزم به الجميع . ومع ذلك فإن ما وضعه من قواعد سماها « مبادئ التنميط » يعد جديدا ومفيدا . وسنشير إلى بعض آرائه حول التنميط فيما بعد .

وفي تصوري أن ضبط العلم عن طريق ضبط مصطلحاته يمكن أن يتم باتباع الخطوات الآتية :

أولا : إنشاء مركز للمصطلحات الألمانية مزود بأحدث الأجهزة التي تساعد على التخزين والتصنيف والاستدعاء .

ويتبع المركز فريق عمل يجيد كل عضويه إحدى اللغات الأوربية إلى جانب العربية ، ويتم من طريقه مسح المصطلحات الألمانية المستعملة خلال العشرين سنة الأخيرة في اللغات الأربع : العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، مع تحديد مفهوم كل مصطلح تحديدا دقيقا . وتتم عملية المسح من طريقين :

أ - المؤلفات ، من خلال قوائم المصطلحات الملحقه بها .

ب - معاجم المصطلحات والموسوعات الألمانية .

ويواكب هذه العملية عملية أخرى في التراث اللساني العربي بهدف حصر المصطلحات الألمانية التراثية ، وتحديد مفاهيمها ، وترتيب هذه المصطلحات في قوائم تارة ، وحسب مجالها اللغوية تارة أخرى حتى يسهل الرجوع إليها عند وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي .

وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف

العلوم والفنون ، والتي ينقص معظمها الكفاءات اللغوية المتنوعة التخصص سواء على مستوى أجهزة التحضير أو الإعداد أو المتابعة ، أو على مستوى البت وإصدار القرار . كما يعيب أمثال هذه المجامع إيقاعها البطيء ، وحركتها المثقلة ، وعجزها عن متابعة سبل المصطلحات والمفاهيم التي ينهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة ، فضلا عن دراسته ووضع المقابلات العربية له . وقد كان بطء المجامع الشديد هو السبب الأساسي في فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية ، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصلوا في الميدان ويجولوا ، ثم تدخلت بواعث السبق ، وحسب الريادة فأفسدت أي محاولة للتنسيق . ولم يكن من المعقول أن نطلب من الباحثين أن يكفوا عن القراءة والبحث والتأليف والتعريب حتى يتلقوا الإذن من المجمع اللغوي (أو المجامع اللغوية) . ولهذا تواردت الاجتهادات دون ضابط أو رابط ، ولم تنجح القرارات التي تصدرها المجامع في توحيد المصطلح ، مثل القرار الذي أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٧ أن يكون هو المرجع الوحيد في وضع المصطلحات (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ١٥) فظل هذا القرار صرخة في واد أو نفخة في رماد .

ثانياً : أن يدعي جميع المشتغلين بالأسس الحديثة ، والمتصلين بمنابعها الأجنبية إلى تزويد المركز بكل ما يصادفهم من مفاهيم جديدة ومصطلحات ، ومناشدة المؤلفين والباحثين منهم التزام وضع المصطلح الأجنبي إلى جوار ما يستعملونه من مقابل عربي ، وإعداد قوائم في آخر بحوثهم تضم المصطلح الأجنبي ، ومقابلة العربي حتى تسهل متابعة هذه المصطلحات ودراساتها .

ثالثاً : احتفاظ المركز بقائمة بأساء وعناوين الألسنيين العرب ، وإيجاد جسور اتصال معهم ، بدلا من ترك الأمور لمجرد الصدفة . وسيحقق هذا الاقتراح غاية أخرى وهي عقد ما أنبت من صلات بين الأجيال المتتابعة ، وبين علماء الأقطار العربية ، مما سيقبل من الفجوة الموجودة بينهم ويزيل الجفوة التي تحكم علاقاتهم العلمية بعضهم مع بعض .

رابعا : العمل على تأليف معاجم متنوعة للمصطلحات الأسسية تبني على منهجية واضحة ويتعاون جميع الألسنيين العرب . وفي تصوري أننا في هذه المرحلة - نحتاج الى ثلاثة أنواع من المعاجم :

- ١ - معجم أحادي اللغة يجمع بين المصطلح العربي والتعريف به .
- ٢ - معجم ثنائي أو ثلاثي اللغة ، يبدأ بالمصطلح الأجنبي ، ويضع مقابله مصطلحا عربيا واحداً يجتازه الألسنيون بناء على منهجية المعجم ، ومن بين المفاهيم والمصطلحات التي ثبتت واستقرت .
- ٣ - معجم كالسابق ، ولكنه لا يكتفي بمصطلح عربي واحد ، وإنما يحشد أمام المصطلح الأجنبي كل ما ورد في مؤلفات الألسنيين من مقابلات .

وسيكون المعجم الثاني بمثابة المرشد أو الدستور لجميع المؤلفين في الأسس ، على أمل أن يلتزموا بمصطلحاته في كل ما يكتبون . أما المعجم الثالث فسيكون بمثابة الدليل للقراء الذين قد يصادفهم في قراءاتهم مصطلحات متعددة ، ولا يفطنون إلى ترادفها أو تقاربها ، ولا يتنبهون إلى الرابطة التي تجمع بينها .

خامساً: اتخاذ المعجم الثاني الذي سبق اقتراحه معياراً للاستخدام ، بعد وضع الأسس والأولويات التي سيتم بمقتضاها اختيار مصطلح واحد من بين جميع مرادفاته ، أو وضع مصطلح بديل في حال عدم وفاء المصطلحات المستخدمة بالغرض .

سادساً: يجب أن يتم فرز المصطلحات الألسنية على مراحل ثلاث ، على النحو التالي :

١ - استبقاء المصطلحات التي تحقق الشروط الآتية :

أ - ألا يكون للفظ معنى آخر في ميدان الألسنية بمعنى ألا يكون من المشترك اللفظي .

ب - أن يكون للفظ قليل الحروف سهل النطق به .

ج - أن يكون اللفظ سهل التصريف ، طبعاً في التوليد والاشتقاق . واستبعاد ما سوى ذلك .

٢ - ويتم في المرحلة الثانية فرز المصطلحات التي حققت الشروط السابقة بناء على الأولويات التالية (وهي مستمدة من قرارات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة - الرباط ١٩٨١) :

أ - وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

ب - استخدام المصطلح في التراث العلمي العربي ، وإلا فيتم توليده عن أحد الطرق الآتية بالترتيب : الاشتقاق - المجاز - النحت - التعريب .

ج - الألفاظ غير العربية يبدأ منها بما عُرب أي خضع للتمط العربي ، ووافق شكله الصيغة العربية .

٣ - فإذا أفرز تطبيق المعايير السابقة أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد أخضعنا المصطلحات المترادفة لمبادئ التتميط الآتية (وهي مأخوذة من كتاب المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها لمحمد رشاد الحمزأوي) :

أ - رواج المصطلح بين المستعملين له من المتخصصين . ويتم ذلك عن طريق الإحصاء وترتيب الألفاظ حسب شيوع استعمالها ترتيباً تنازلياً . وهو ما يفترض أن يكون قد سبق إعداده من خلال عمليات المسح المشار إليها في بند أولاً .

ب - ملاءمة المصطلح ، فيفضل ما قلّت ميادين استعماله على ما توزع على ميادين كثيرة .

ج - توفر الحافزية ، أي ما يحفز المستعمل على اختياره ، إما لصيغته البسيطة أو لتركيبه الصري في الواضح ، أو لعدم غرابته ، أو لموافقته لأنماط التجمعات الصوتية العربية .

ويعد : فإذا كان من العسير فرض منهجية إجبارية على العلماء فإن من الممكن البدء بالاتفاق على الخطوط الرئيسية ، والدعوة إلى الثاني قبل طرح المصطلح للاستعمال . ولعل قرار الجمع العلمي العراقي بعدم تثبيت مصطلح إلا بعد ستة أشهر على تاريخ نشره يفيدنا في هذا الخصوص .

ويجب ألا ننسى أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة . فلا فائدة من مصطلح يظل حبيس الأدراج . وكما رأينا من مصطلحات تقرها الجامعات دون أن يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

مراجع البحث

- ١ - باي (ماريو) :
أسس علم اللغة - ترجمة أحمد مختار عمر - عالم الكتب ط ١٩٨٧ م .
- ٢ - حجازي (محمود فهمي) :
علم اللغة العربية - وكالة المطبوعات بالكويت د . ت .
- ٣ - الحمزاي (محمد رشاد) :
مشاكل وضع المصطلحات اللغوية - ندوة اللسانيات واللغة العربية - نشر المطبعة الثقافية بتونس ١٩٨١ م .
- ٤ - الحمزاي (محمد رشاد) :
المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية .
أ - ط أولى - حوليات الجامعة التونسية ١٩٧٧ م .
ب - ط ثانية - الدار التونسية للنشر ١٩٨٧ م .
٥ - الحمزاي (محمود رشاد) :
المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنظيمها - دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٦ م .
- ٦ - الخولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة التطبيقي - مكتبة لبنان ١٩٨٦ م .
- ٧ - الخولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة النظري - مكتبة لبنان ١٩٨٢ م .
- ٨ - شابي (عبدالرسول) :
معجم علوم اللغة - مجلة اللسان العربي - مجلد ١٥ جزء ٢ عام ١٩٧٧ م .
- ٩ - ضيف (شوقي) :
جمع اللغة العربية في خمسين عاما - أول ١٩٨٤ .
- ١٠ - عمر (أحمد مختار) :
دراسة الصوت اللغوي - عالم الكتب - ط ١٩٨٥ م .
- ١١ - الفهري (عبدالقادر القاسمي) :
المصطلح اللساني - الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات - سلسلة اللسانيات عدد ٦ عام ١٩٨٦ م .
- ١٢ - كاتيتنو (جان) :
دروس في علم أصوات العربية - ترجمة صالح القرمادي - تونس ١٩٦٦ م .
- ١٣ - جميع اللغة العربية بالقاهرة :
مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما - القاهرة ١٩٨٤ م .
- ١٤ - المسدي (هبدا السلام) :
قاموس اللسانيات - الدار العربية للكتاب ١٩٨٤ م .
- ١٥ - مطلوب (أحمد) :
جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات - الملتقى الدولي الثالث للسانيات تونس ١٩٨٥ م .
- ١٦ - معهد الإنماء العربي :
مجلة الفكر العربي (عدد خاص عن الألسنية) - بيروت ١٩٧٩ م .

١٧ - الملتقى الثالث للسانيات :

اللسانيات واللغة العربية - تونس ١٩٧٨ م .

١٨ - مونان (جورج) :

مفاتيح الألسنية - ترجمة الطيب البكوش - تونس ١٩٨١ م .

١٩ - نخبة من اللغويين العرب :

معجم مصطلحات علم اللغة الحديث - مكتبة لبنان ١٩٨٣ م .

Crystal (David) :

The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge, 1988.

The Phonetic Society of Japan : A Grand Dictionary of Phonetics, Japan, 1981

- ٢٠

- ٢١

التفاهم اللغوي عملية متعددة المراحل تشمل الإنتاج ، والانتقال والاستقبال . والإنتاج والاستقبال عمليتان فسيولوجيتان يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق وفي الثانية المخ وجهاز السمع . أما عملية النقل فعملية فيزيائية تعتمد على الوسط الذي ينتقل فيه الكلام وهل هو الهواء مثلا أو سلك التليفون .

أولا .. الإنتاج

عمل المخ :

يقوم المخ بعمله بواسطة الجهاز العصبي ، وهو يتكون من عدد كبير من الخلايا العصبية التي يسمى كل منها باسم النيورون neuron إلى جانب عدد كبير من الحويوط العصبية التي تربط بين المخ والعضلات المحركة للأعضاء الكلامية . وفي داخل الخلية العصبية يحدث تفاعل كيميائي بين العناصر المكونة لها ينتج تيارا كهربائيا - كالذي يحدث في بطارية السيارة بين الحامض والعمود الموجب - وتحمل الحويوط العصبية التيار إلى العضلات فتسبب حركة أعضاء الكلام . ولابد لإنتاج تيار كهربائي كاف لتحريك عضلة ما من تعاون عدد كبير من الخلايا المتجاورة ، يطلق عليها اسم (وحدة تحريك motor unit) وتنتج فيها تيارا يساوي ضغطه ١/٥ فولت أي جزءا من ١٢٠٠ جزء من ضغط التيار الذي يمر بالمصباح الكهربائي .

تحليل عملية التكلم وبعض نتائجها التطبيقية

عبد الرحمن أيوب

أستاذ في قسم اللغة العربية - جامعة الكويت سابقا .

التخطيط والأتماتية :

يخطط المخ للعملية الكلامية باعتبارها كلاً لا يتجزأ . وهذه العملية معقدة تتطلب توجيه ، ومراقبة ، وعدد كبير جدا من العضلات وتصحيح سلوكها . وبفضل القدرة المسماة بالأتماتية ، يمكن للمخ السيطرة عليها . ونحن نعتبر عملية تناول الشاي عملية واحدة مع أنها في السواقع عمليات متعددة من فتح الأصابع وتحريك اليد في اتجاه الكوب

والقبض عليه ورفع وحرك اليد في اتجاه النعم وشفت الشاي . . الخ . ويفضل كثرة المزاولة ينفذ المخ كل هذه الأعمال ويراقبها في نفس الوقت الذي يشرف فيه على عملية المحادثة^(١) كما أننا نشاهد أن المتدرب على الكتابة بالآلة الكاتبة ينظر إلى موضع كل حرف ويحرك إصبعه نحوه ويضغط على المفتاح بنسبة معينة من القوة ولكنه بعد أن يتم تدريبه يقوم بهذه الأعمال دون نظر إلى موضع الحرف . وترجع هذه الكفاءة إلى التدرب الطويل الذي يحقق ما يسمى بأتمتة الأداء .

وعندما يحاول شخص نطق العبارة (التلمذة تقرأ في كتاب) فإن المخ القيام بالعمليات الآتية :

- أ - التحليل التركيبي (النحوي والصرفي) للعبارة .
- ب - توجيه العضلات لتحريك كل من الأعضاء الصوتية على نحو معين .
- ج - مراقبة حركة كل عضو وتصحيحها إذا ما وقع في خطأ .

أ - التحليل التركيبي :

تعتبر القواعد النحوية والصرفية المدونة في الكتب صورة خارجية لنظام سيكولوجي إدراكي عند أبناء اللغة ، يسميه تشومسكي بالقدرة اللغوية competence^(٢) وقد يكون من المسلم به أن الطفل الصغير لا يستطيع تمييز الحال من التمييز ، ولكنه يستطيع ولا شك إدراك الخطأ الذي يقع فيه أجنبي يتعلم العربية . ويفضل القدرة اللغوية الكامنة في المتكلم ، يستطيع المخ أن يخطط لترتيب الكلمات من سواكن وحركات معينة وأن يكون الجملة من كلمات ترتب على نحو معين^(٣) . وقبل نطق العبارة المذكورة يتحتم على المخ الوصول إلى الأحكام التالية التركيبية :

١ - التلمذة تقرأ في كتاب = جملة إسنادية خبرية .

٢ - الجملة = مسند إليه + مسند .

= (تعريف + اسم + تانيث) + مسند

= (تعريف + اسم + تانيث) + (فعل + تانيث) + مكمل

= (تعريف + اسم + تانيث) + (فعل + تانيث) + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمذة + فعل + تانيث + حرف + (اسم + تنكير + تذكير)

= التلمذة + تقرأ + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)

= التلمذة + تقرأ + في + (اسم + تنكير + تذكير)

= التلمذة + تقرأ + في + كتاب .

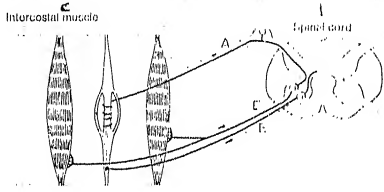
(١) لغال من مرجع ٥ ص ٧٢

(٢) مرجع ٣

(٣) مرجع ٥ ص ٧٠-٧٤

ب - التوجيه والمتابعة :

ينتقل المخ بعد هذا إلى توجيه العضلات للقيام بحركات معينة ، ومراقبة أداؤها في نفس الوقت بواسطة عملية الإرجاع (feed back)^(٤) ، فيصدر المخ تعليماته إلى العضلات بالتحرك في ضوء الرصيد المخزون فيه من خبرات كلامية سابقة موزعة في الآلاف بل والملايين من خلاياه . وفي نفس الوقت تتم عملية الإرجاع بواسطة مستشعرات sensors موزعة في بنية العضلات المتحركة . وتتصل هذه المستشعرات بدورها بالمخ بواسطة خيوط الاستشعار العصبية فتنتقل إليه صورة لما يحدث فيها .



شكل (١)

الرسم يمثل (١)

١ - قطاعا من النضاع الشوكي .

٢ - عضلة في الحجاب الحاجز ، الجزء الأوسط يقوم بعملية الإرجاع والجزء الأيمن والأيسر يقومان بالحركة .

٣ - الحبلوط العصبية الحاملة للشحنة الكهربائية .

٤ - الحبلوط العصبية التي تقوم بإرسال رسالة الإرجاع

ويصدر المخ أمره لكل عضلة من عضلات العضو بتحريكه على نحو يحدث العملية الأدائية الخاصة بالعضو من أول العبارة إلى آخرها ، ويلائم بين حركته وحركات الأعضاء الأخرى لإنتاج الأثر الإدراكي الذي يمكن السامع والمتكلم من تقسيم العبارة إلى أجزاء يطلق عليها الأصوات (أ ، ت ، ل ، الخ) .

وقد شبهنا في مكان آخر الحدث اللغوي بفطيرة مكونة من رقائق يرص بعضها فوق بعض ، ثم تقسم إلى قطع تتكون كل منها من جزء من الرقيقة العليا وجزء من التي تحتها والتي تحتها وهكذا .

ويجب أن نلاحظ أن الصوت ينتج من عمليات بعضها أساسي يوجد فيه في كل موقع ، مثل فتح ممر الأنف عند النطق بالميم وليس اللسان الأسنان مع الدال ، وبعضها مجرد استمرار لحركة العضو الذي قام بها لنطق الصوت السابق ، وليس من الضروري أن توجد في كل موقع ، وذلك كالتقاء اللسان مع اللثة عند النطق بالميم لمجاورتها للام ، وتلك الصفة لا توجد عند نطق الميم بعد فتحة مثلاً في مثل (لام) .

وتتطلب هذه العمليات المتوالية والمتعددة تحريك عدد كبير من العضلات . ويفضل الأوتوماتية ، وهي قدرة نحصل عليها بالتدريب في مرحلة الطفولة ، يقوم المخ بهذه العمليات المعقدة بآلية فورية مع مراقبة كل عضلة وتصحيح عملها إذا لزم هذا ، كما يراقب مركز المراقبة سفن الفضاء ويصحح مدارها^(٥) .

انظر الشكل (٣)

عمل الأعضاء الصوتية :

نتيجة للنشاط العصبي الذي يقوم به المخ تتحرك الأعضاء الصوتية لإنتاج العبارة ، وتتلخص عملياتها فيما يأتي :

- ١ - إنتاج الزفير بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين وطرده إلى خارج الجسم عن طريق الممرات والفراغات النطقية .
- ٢ - تدخل الحنجرة بقبول ممر الهواء قفلاً تاماً لإنتاج الهزمة أو بالانفتاح الجزئي لإنتاج الهمس أو الانفتاح القليل مع التوتر لإنتاج الجهر .
- ٣ - تدخل المريء بالانقباض والتراخي فوق منطقة الحنجرة لإنتاج العين والحاء والهاء .
- ٤ - تدخل اللهاة لفتح ممر الفم لإنتاج الأصوات الفموية أو ممر الأنف لإنتاج الأصوات الأنفية .
- ٥ - حركات اللسان وموقعه من الفم وقربه من بعض أجزاء سقف الفم لإنتاج الحركات أو التلامس معها لإنتاج بعض السواكن .
- ٦ - حركة الشفتين بالتلامس أو الانفراج أو الاستدارة لإنتاج الميم والباء والواو أو المساهمة في إنتاج الحركات . . الخ .

وقد كان الوصف الصوتي قديماً ، من عهد الهنود وسبويه ، وحتى منتصف هذا القرن يعتمد على وصف الحركات العضوية عند إنتاج كل صوت . ثم حدث تطور في معارف اللغويين ، بعد أن ساهم الفيزيائيون وعلماء الأعصاب والتشريح في دراسة الكلام فدخل إلى الوصف العضوي للأصوات الوصف الفيزيائي لما يحدث أثناء انتقال الصوت إلى السامع . واستفاد اللغويون كذلك من الأجهزة التي يستعملها الفيزيائيون وعلماء التشريح والأعصاب .

ضغط الهواء وقياسه^(٦) :

يعتبر ضغط الهواء من العناصر الهامة في إنتاج الصوت . ولا يكون الضغط ثابتاً خلال العملية الصوتية كلها بل إنه يتفاوت قوة وضعفاً ، كما يحدث في البالون المطاطي الذي ينتهي بزمارة يمر الهواء بها فتحدث الصوت . ولوفرص أن ضغطنا على جسم البالون ضغوطات متوالية فإننا نسمع دفعات متوالية مختلفة القوة^١ . وهذا ما يحدث عند خروج الهواء من الرئة ، حيث يقوم الحجاب الحاجز بإحداث اختلافات في مدى الضغط الواقع على الرئة . وتتفاوت الضغط بين نوع من الأصوات ونوع آخر ، فيكون قوياً مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية الملموسة ، وقليلًا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المجهورة وأقل في بقية الأصوات . كما يقسم الضغط - بواسطة النبضات التي أشرنا إليها - الحدث اللغوي إلى مقاطع تتفاوت ضغطها ويطلق على هذه الظاهرة اسم (النبر) .

وتعتمد قوة الضغط على عنصرين : كمية الهواء وكيفية انسيابه - أما كمية الهواء في عملية الزفير فإنها تبلغ خمسة لترات تحتفظ منها الرئتان بمقدار $1\frac{1}{2}$ لتر حتى لا تلتصق جدرانها . أما الكمية الباقية فيكون ضغطها عادة ١٦٠ جراما تستهلك منها العملية الكلامية ما بين ٣ ، ١٥ جراما . ومنها تستهلك ذبذبة الأوتار الصوتية ما يعادل جرامين . أما الانسياب فإنه يزيد أو يقل حسب اتساع أو ضيق المر الذي يسير فيه الهواء وما يحدث فيه من تدخلات . وهناك قوانين رياضية يمكن بواسطتها الوصول إلى مقدار الضغط بواسطة حجم الهواء وانسيابه كماً وشكلاً . ويمكن قياس ضغط الصوت اللغوي باستعمال جهاز يسمى راسم الانسياب pneumotachograph يوصل بحاسوب يتصل في نهايته الأخرى براسم ذبذبات oscilloscope فتظهر على شاشته الخطوط البيانية الممثلة لحجم الهواء وانسيابه وضغطه . ويوجد إلى جانب هذا الجهاز مقاييس أخرى لمعرفة مقدار الضغط في الفم والأنف .

انظر شكل (٤)

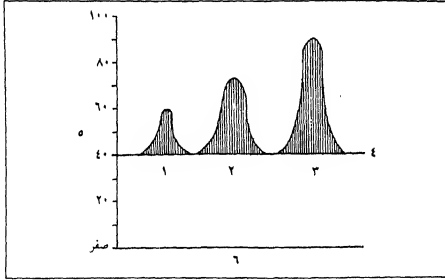
وقد وجد بالتجربة أن ضغط الهواء المستعمل في النطق يختلف تبعاً للجنس والسن .

انظر شكل (٥)سقف الحنك :

يرتفع اللسان بمختلف أجزائه في اتجاه سقف الحنك لإنتاج أنواع من الأصوات هي اللهوية والرخوة (أي التي يتلامس منها اللسان مع الجزء الرخو من سقف الحنك) والصلبة واللثوية . وقد كان موضع اللسان يحدد من قبل بواسطة صناعة سقف حنك صناعي للمتكلم يغطي ببطقة من مسحوق الطباشير ويوضع منطقاً على سقف الحنك ثم ينطق المتكلم بكلمة فيها صوت واحد يلمس فيه اللسان السقف ، فتتطبع صورة التفتاثير بتسمج الطباشير . وقد تطورت هذه الوسيلة البديلة أخيراً إلى جهاز دقيق يسمى (الراسم الكهربائي لسقف الحنك) electropalatograph وهذا الجهاز يتكون من سقف حنك صناعي مثبت فيه عدد من الرؤوس الإلكترونية الموصلة بأسلاك إلى شاشة عرض بها عدد من المصابيح يتصل كل منها بأحد الرؤوس . وعندما يلمس اللسان جزءاً من سقف الحنك تضيء المصابيح المتصلة بالأجزاء التي يلتقي بها . ويقوم الجهاز برسم صور متوالية لتلامس اللسان مع السقف ، وبذلك يمكن الحصول على سلسلة من الصور تمثل ما يحدث في العبارة كلها لا في صوت واحد فقط ويمكن اختزان هذه الصور في ذاكرة حاسب متصل بالجهاز واستدعاؤها لدراستها عند الحاجة ، كما يمكن طبع هذه الصور متوالية حسب حركات اللسان .

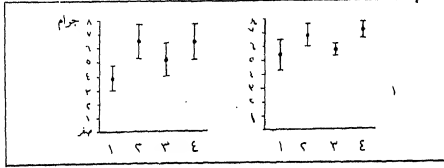
انظر الشكل (٦)

(٦) ص ٤ إلى ٨ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٣٥ - ٧١



شكل (٤)

- كمية الهواء اللازمة عند التنفس والمحادثة والصباح
- ١ - الكمية عند التنفس.
 - ٢ - الكمية عند المحادثة.
 - ٣ - الكمية عند الصباح.
 - ٤ - مستوى وضع الراحة.
 - ٥ - الخط البياني الممثل للكمية الكلية التي يمكن أن توجد في الرئة (الخط الرأسي).
 - ٦ - الخط المبين لنوع النشاط الرئوي.

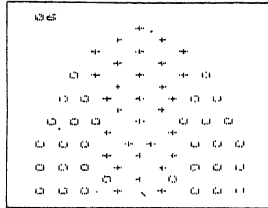


شكل (٥)

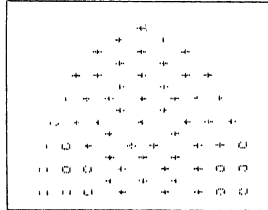
مقارنة بين نطق الرجال والنساء

الشكل (١) على اليمين يمثل نطق النساء والشكل (٢) على اليسار يمثل نطق الرجال والخط الرأسي في الشكلين (١) و (٢) لقياس ضغط الهواء داخل الفم بالجرام. والخط الأفقي فيها لبيان نوع الصوت كما يلي:

- ١ - انفجاري مجهور.
- ٢ - انفجاري مهموس.
- ٣ - احتكاكي مجهور.
- ٤ - احتكاكي مهموس.



في المصرية - بيع (فعل أمر)



في المصرية - بيع (مصدر)

شكل (٦)

مقارنة بين وضع اللسان عند النطق بالحركة (ى ي) والحركة (ى ي) وذلك في الكلمتين المصريتين بيع (فعل أمر) وبيع (مصدر).
 لاحظ الفرق بين عدد الدوائر وموضعها في الرسم

ويستفاد من هذا الجهاز في علاج عيوب الكلام ، وخاصة عيوب تكوين سقف الفم .
مشاهدة العمليات العضلية لأعضاء النطق :

لا يكتفي علماء الأصوات المعاصرون بوصف النشاط الظاهري للعضو ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى وصف حركات العضلات التي تكونه أو التي تتحكم في حركته . وهم يستفيدون في ذلك بعدد من الأجهزة أهمها :

أولاً : المجهر الحيطي :

وهو جهاز مصنوع من خيوط زجاجية شفافة ومرنة ، من حزمتين إحداها تنقل الضوء إلى جزء معين من فراغات النطق الداخلية من مصدر خارجي (كالبطارية) والأخرى تنقل الصورة الممثلة لحركة الأعضاء داخل الفراغات إلى الخارج . ويسمك الأولى ٩/٦٠ ملليمتر والثانية ١/٦ ملليمتر ، أي أن سمك الجزأين معاً يعادل ثلاثة أجزاء من ألف جزء من السنتيمتر . وتنتهي حزمة الضوء بمصباح وحزمة الصور بعدسة تنقل الصورة إلى مرآة خارجية . وتخرج الحزمتان من خلال الفراغ الأنفي حتى تصلا إلى مقربة من اللهاة مثلاً ، أو إلى مسافة أكبر حتى تصل إلى البلعوم أو إلى منطقة الحنجرة . ومن هذه الأوضاع الثلاثة يمكن مشاهدة حركات اللهاة عند إنتاج الأصوات الأنفية والفموية ونشاط البلعوم عند النطق بالحاء والعين والهاء ونشاط الحنجرة عند النطق بالهمزة أو عند إحداث صفة الجهر . ومن الممكن توصيل الجهاز بآلة تصوير سينمائية وجهاز تسجيل صوت حتى يمكن تسجيل أداء العضو أو الأعضاء صوتياً وحركياً للرجوع له عند الحاجة .

ثانياً - جهاز التصوير بأشعة اكس :

ويستعمل هذا الجهاز لتصوير حركات الأعضاء الداخلية من خارج الجسم . والجهاز من ثلاثة أجزاء : مولد أشعة اكس ، ومستقبل للأشعة ، وحاسوب يجمع بين المعلومات الصادرة من المستقبل وآية أجهزة أخرى كأجهزة قياس الضغط مثلاً . واستعداداً لعملية التصوير نقوم بالعمليات الآتية :

أ - يثبت عدد من الرؤوس المشعة محيط كل منها ٣ ميلليمتر تقريباً ، اثنتان على كل من اللسان والفك الأسفل والشففتين ، وهذه هي الأجزاء المتحركة في الفم وواحدة بين الشفتين الأماميتين في الفك الأعلى أو على عظمة الفم وهما جزءان ثابتان .

ب - تصور منطقة الفم والأسنان والشففتين قبل النطق وستظهر الرؤوس المشعة كلها بما فيها التي فوق الأجزاء الثابتة والتي فوق الأجزاء المتحركة .

ج - تصور حركات الأعضاء خلال الكلام بسرعة قدرها ١٤٠ إطاراً في الثانية لفترة ست ثوان فتتحرك الرؤوس المشعة الشبنة على الأعضاء المتحركة .

د - تنقل الصور المتوالية إلى شاشة راسم الذبذبات كما تنقل الصور الثابتة (ب) لمقارنة مقدار حركة الأعضاء كما يمكن طبع فيلم إيجابي من الفيلم السليبي للرجوع إليه عند الحاجة . ويستفاد من هذا الجهاز فيما يلي :

أ - بيان حركات اللسان بالنسبة لسقف الفم في نطق الحركات البسيطة والمركبة .

ب - بيان المواقع الدقيقة لالتقاء اللسان بمختلف مناطق سقف الحنك عند إنتاج السواكن اللفهوية كالكاف والحاء والعين والصلبة كالباء والجيم والشين ، والثلثة كالتون واللام ، والأسنانية والشفوية كالباء والغاء والواو .

ج - بيان تأثير الحركات والسواكن المتجاورة بعضها ببعض من حيث تعديل مخارجها نتيجة للتجاور .

ثالثا - الراسم الكهروعضلي . electromyograph :

يتكون هذا الجهاز من عدد من الرؤوس الإلكترونية تلتصق على عضلات العضو المتحرك ، وتتصل هذه الرؤوس بواسطة أسلاك دقيقة بجهاز تضخيم amplifier وظيفته تقوية التيار الكهربائي الصادر عن الخلايا العصبية . ويوصل جهاز التضخيم بسن stylus يتذبذب بتأثير الذبذبات ويرسمها على ورقة حساسة للاحتفاظ بسجل لشكل الذبذبات وقوتها . ويمكن الاكتفاء بمشاهدة الذبذبات دون تسجيل ينقل صورة الذبذبات إلى راسم الذبذبات لرؤيتها على شاشته .

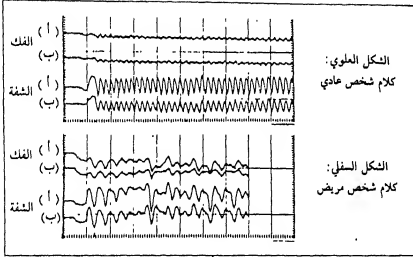
ولما كانت النتائج التي نحصل عليها بواسطة هذا الجهاز تبين عمل العضلات المكونة للعضو لا حركة العضو كله ، فإنه لا بد أن تربط حركة العضلة (لا العضو) بالإيماءات cues الكلامية عند حركة العضلة نفسها . وهذا العمل يتطلب ملاحظة إشارات الكترونية لا حصر لها ، ولهذا يتحتم استعمال حاسوب للقيام بهذا العمل واختزان النتائج التي تصل إليها . ومن الممكن الاستفادة من هذا الجهاز في بيان الفروق الدقيقة في عملية نطق العبارات المشابهة .

رصد عيوب الكلام :

لعل الفائدة العظمى من هذه الأجهزة وخاصة الأخير منها هي استعمالها في الكشف عن أسباب عيوب الكلام ، وهل هي راجعة إلى عدم قيام العضو بعمله كما ينبغي أو لمرض في إحدى عضلاته أو إلى اختلال في إنتاج الطاقة الكهربائية من وحدات التحريك في المخ . ولما يلي صورة تبين الفرق بين كلام شخص عادي وبين كلام شخص مريض بمرض الأتاكسيا ، وهو مرض يصيب بعض مناطق المخ وينتج عنه عجز المريض عن تحريك العضلات المناسبة لتحريك الشفتين واللسان إلى مواضعها اللازمة للنطق بالأصوات . ولهذا فإن هذا المريض ينطق بالباء مبياً فيقول (ناب) عندما يريد أن يقول (نام) ، كما يسبب هذا المرض العجز عند استعمال الأصابع في كتابة هذه الحروف بدقة .

انظر الشكل (٧)

كل ما سبق وسائل مساعدة للوصول إلى وصف فحرجي وأدائي دقيق للأصوات وعدم الاكتفاء بما كان يحدث من قبل من وصفها بالمشاهدة أو الإحساس بمكان التدخل وكيفيته إلى جانب صفة الجهر أو الخف .



شكل (٧)

يظهر الشكل اضطراب حركات عضلات الفك والشفة عند كلام الشخص المريض (الشكل السفلي) بمقارنتها بكلام الشخص السليم

التحليل الصوتي للكلام : Phonemic Analysis

قد يظن أن الوصف الدقيق للعمليات العضوية عند الكلام أمر كاف في دراسة الصوت اللغوي . ولكن هذا غير صحيح . والسبب في هذا أن أحكام المخ لا تتطابق تماماً مع نتائج هذه العمليات العضوية . وقد يعتبر المخ صوتين مختلفين من ناحية الأداء والخصائص السمعية أمراً واحداً كما قد يعتبر أمراً واحداً من هاتين الناحيتين أمرين مختلفين وذلك بسبب وقوعهما في محيطين لغويين مختلفين . وما نقوله هنا طريقة أخرى للتعبير عما يسمى في علم طرق البحث بالتجريد وهو تجاهل لبعض الصفات الواقعة للشيء حتى يمكن وضعه مع سواء تحت نفس النوع . ونحن ندرك أن لفظ رجل ، يعني نوعاً من المخلوقات . . يشمل أفراداً يختلفون في الواقع الخارجي ، منهم القصير والطويل والأبيض والأسود والصحيح والسقيم . وحتى يمكن جمع هذه الأنواع المختلفة مادياً في مفهوم واحد يختار المخ بعض الصفات المميزة المشتركة بينهم وسيلة للتصنيف ويتجاهل الصفات الفردية الأخرى . وتعتبر عملية التجريد ضرورة للتفاهم الإنساني ، حيث لا يمكن أن يخصص (اسم) لكل فرد من أفراد الرجال لاختلافه من ناحية أو أخرى عن الآخرين . والذي يحدث في هذا المثال يحدث بالنسبة للأصوات اللغوية . ولهذا نتحتم أن نقوم بتحليل سلوك الأصوات إلى جانب تحليل صفاتها المادية . وتحليل سلوكها هو ما يسمى بعلم الصوتيات أو النظم السلوكية الصوتية .

لنأخذ مثلاً الوحدة التي نسميها النون ، وسنجد من أفرادها الصوت الأخير في (إن) في العبارة (إن أنت) أو في العبارة (إن بات) أو في العبارة (إن وعد) أو في العبارة (إن يكن) وفي العبارة الأولى تكون النون صوتاً ثلثياً أنفياً . أما في الثانية فلها صوت أنفي شفوي ثنائي (كاليم) وفي الثالثة صوت أنفي شفوي مستدير (واو أنفية) وفي الرابعة

صوت أنفي صلب (ياء أنفية) وهكذا . ورغم هذا الاختلاف المادي بين كل حالة وأخرى نضع هذه الأصوات كلها تحت وحدة نوعية نسميها النون . وهذه الوحدة تسمى الصوتيم Phoneme .

ويشمل التحليل الصوتيمي أو الوظيفي الصوتي ، حصر المجموعات الصوتية الممكنة وغير الممكنة . ففي العربية يمكن أن تلي الهاء العين في مثل « أعهده » ولكن لا يمكن أن تلي العين الهاء أو الحاء دون توسط حركة . كما يشمل الآثار الصوتية الناتجة عن الانفعال كالرضا أو الغضب . والتحليل الصوتيمي كما نرى لا يعتمد على الأجهزة بل هو تحليل يعتمد على اعتبارات سلوكية غير مادية . ويرى البعض أن ما يكشف عنه التحليل الصوتيمي هو الصورة الداخلية للموهبة اللغوية Competence التي توجد لدى أبناء لغة ما ، والتي هي الأساس الذي يعتمد عليه إنتاج الكلام وإدراكه .

ثانياً - الانتقال

كان علماء الفيزياء .. يخلطون الصوت الإنساني وغير الإنساني بتطبيق نظرية فوريير ، وهو عالم عاش في القرن التاسع عشر . وكان ذلك يقتضي إجراء قياسات وحسابات تستغرق بعض الوقت .

وأثناء الحرب العالمية الثانية احتاج الحلفاء إلى طريقة سريعة لتحليل الأصوات التي يجعلها الجو والبحر للتعرف على مواقع أسلحة العدو . وقد تم ذلك بفضل جهود الفيزيائيين في سلاح البحرية الأمريكي ، الذين اخترعوا جهازاً أطلقوا عليه اسم جهاز التحليل الطيفي Spectrograph . وقد تطور هذا الجهاز خلال نصف القرن الحادي وأصبح أهم وسيلة للبحث العلمي في مجال الدراسات الصوتية الطبيعية والإنسانية . وكان على رأس المهتمين بهذه الدراسات شركات التليفونات ، وخاصة شركة بيل الأمريكية ، وذلك لتحسين الاتصالات الهاتفية . وتعتبر أبحاثها من أول الأبحاث الرائدة في هذا المجال . وقد وجد الفيزيائيون أن دراسة الصوت الإنساني تختلف عن دراسة الصوت الطبيعي من ناحيتين ، أولاًهما أن الأصوات الإنسانية تخضع في إنتاجها وإدراكها للعادات الفعلية للتكلم والسامع ، وبالتالي فإن الإنجليزي مثلاً يسمع العين العربية فيظنها من الحركات ، وقد يخلط بين الهزمة والعين والحاء والهاء ، والطاء والتاء . وأما الناحية الثانية فهي أن الأذن الإنسانية لا تسمع الأصوات بالطريقة التي تستقبلها بها الأجهزة ، بل إنها قد تنتهي إلى الحكم بأن صوتين مختلفين فيزيائياً صوت لغوي واحد ، وأنها قد تحكم على وجود فرق بين صوتين ، دون أن يؤيد وجود هذا الفرق الواقع المادي الذي تبينه الأجهزة . ولهذا فقد كان على الفيزيائيين دراسة علم الأصوات اللغوية واتخاذها من وسائل البحث في دراسة الصوت اللغوي ، وقد أضافوا بذلك إلى دراسة الأصوات اللغوية خبرة جديدة لم يكن علماء اللغة قد استفادوا منها . وكان أهم هذه الإضافات الاهتمام بدراسة مرحلة انتقال الصوت بعد إنتاجه وقبل أن يصل إلى أذن السامع .

الموجات الصوتية :

ينتج الصوت الإنساني وغير الإنساني نتيجة اهتزاز ذرات جسم ما بتأثير قوة ما . وتنقل هذه الاهتزازات أو الذبذبات من ذرات الجسم المهتز إلى ذرات الهواء أو ذرات سلك التليفون أو طبقات الجو الأثيرية فتنتج بدورها .

وتشبه حركة الذرات حركة كرة البليارد تتدحرج بتأثير ضربة اللاعب حتى تصل إلى نهاية الطاولة فتصدم حافتها فتترد في الاتجاه الآخر . ولوفرص أنها قد صدمت في طريقها كرة أخرى ، فإنها تحركها في نفس الاتجاه حتى تصدم الثانية كرة أخرى فتغير اتجاهها وهكذا . وتعتبر الدرجة الواحدة نظيراً للذبذبة ، أما الدرجات المتوالية فإنها تناظر الموجة الصوتية .

وتوصف الذبذبة بتحديد أمرين ، الزمن الذي تستغرقه ويسمى (الفترة period) والبعد بين نقطة بدء الحركة ونقطة إرتدادها ويسمى اتساع الذبذبة amplitude وتوصف الموجة بعدد الذبذبات التي تكونها في الثانية ويسمى بدرجة الموجة frequency ومتوسط اتساع ذبذباتها وهو يسمى اتساع الموجة .

التوزيع المنتظم والتوزيع العشوائي^(٧) :

لو سلطنا قوة ما على تحريك عدد من الكرات الصغيرة الملساء على سطح أملس ، وكانت الكرات بنفس الشكل والوزن ، فإنها تتحرك في نفس الاتجاه وبففس السرعة ، أي أنها تنتج درجات متماثلة . ولو سلطنا القوة على تحريك كرات مختلفة الشكل بعضها كامل الاستدارة وبعضها منحرف ، أو مختلفة الوزن لاختلاف مادتها مع تساوي أحجامها ، أو مختلفة الحجم مع اتحاد المادة ، فإن حركات الكرات ستختلف في السرعة والاتجاه . وستكون النتيجة في الحالة الأولى حدوث درجات منتظمة أما في الحالة الثانية فإن الدرجات لن تكون منتظمة . وذلك لأن الكرة الثقيلة تستهلك قدراً من الطاقة يزيد على ما تستهلكه الكرة الخفيفة . ويوصف توزيع الطاقة بالتساوي بأنه توزيع منتظم ويوصف التوزيع غير المتساوي بأنه عشوائي . وما يحدث في هذا المثال يحدث عند إنتاج الصوت ، فعندما توزع الطاقة بين الموجات المنتجة للصوت توزيعاً متساوياً ، يكون الصوت على شكل نغمة . أما إذا كان التوزيع عشوائياً فإن الصوت الناتج يكون ضجيجاً أبيض white noise . ومثاله الصوت الناتج عن فرك البدين أو حفيف الأشجار .

النغمات التوافقية وغير التوافقية :

من خبراتنا السماعية ما نلاحظه أحياناً عندما نسمع مجموعة من دق الطبول . ويكون بين الدقات فترات صادرة عن طبل كبير تتوالى على أبعاد زمنية متساوية وطويلة نسبياً ، ودقات صادرة عن طبل أصغر تتوالى على أزمان متساوية ولكن كل دقتين منه تحدثان في نفس الوقت الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر ، ودقات صادرة عن طبل ثالث بمعدل أربع دقات في الزمن الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر . يطلق على الطبل الأكبر في اللهجة المصرية (ماسك الوحدة) ووظيفته تقسيم زمن العزف إلى وحدات متساوية تحدث مرة كل $\frac{1}{4}$ ثانية مثلاً . وفي خلال الوحدة يدق الطبل الثاني دقتين والطبل الثالث أربع دقات . وتكون النتيجة وجود تداخل زمني من دقات الطبول الثلاثة بحيث تحدث الدقة الثانية من الطبل الأول والدقة الثالثة من الطبل الثاني والدقة الخامسة من الطبل الثالث في نفس اللحظة .

(٧) ص ١١ إلى ١٤ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٢١٥ إلى ٢٣٦

يحدث مثل هذا في حركات الذبذبات المكونة للموجة الصوتية ، وتسمى الموجة في هذه الحالة موجة مركبة ، على نقبض الموجة البسيطة التي تحتل دقة طبل واحدة وتوصف هذه الموجة أيضاً بأنها توافقية لأنها تحدث من عدد من الموجات التي تتداخل ذبذباتها زمنياً كما رأيت .

ولو حدث أن اختلفت دقات الطبول فلم تتسجم زمنياً فإنها توصف بالنشاز أو عدم التوافق . والموجات الصوتية المركبة قد توصف كذلك بالنشاز إذا لم تتسجم أو لم تتوافق ذبذباتها .

والأصوات الإنسانية تنتج عن موجات متوافقة وعن موجات غير متوافقة من النوع الذي أطلقنا عليه من قبل اسم الضجة البيضاء . وعملية التحليل الفيزيائي للصوت تقوم بوصف الموجات التوافقية وغير التوافقية التي تحدث الشعور الوجداني المسمى بالسماع . ويستعان على هذا الوصف بتطبيق بعض الخصائص الطبيعية المشاهدة . ومن هذه :

الرنين resonance :

الرنين ظاهرة تصادفها كثيراً في حياتنا اليومية ، كما لو أنتجنا صوتاً ما وقربنا مصدر الصوت من فراغ مقفول فإننا نلاحظ اختلافاً في شعورنا بالصوت ، كما يحدث عندما نغني في وسط طلق أو في فراغ صغير مقفول . وقد كشفت التجربة عن أن شكل الفراغ وحجمه بالإضافة إلى المادة التي يتكون منها تؤثر في نوع الصوت ، ولهذا تبنى صالات العزف الموسيقي على شكل معين وتغطي بطبقات من مواد معينة تسمى بالمواد العازلة أي التي تمنع زين الصوت غير المنتظم .

وقد كشفت التجارب عن أن لكل جسم طاقة رنينية معينة ، وأن الجسم الرنان يمكن أن يكتسب الصوت من جسم آخر يماثله في طاقته الرنينية كما في التجربة الآتية :

١ - نطرق شوكة رنانة ترددها ١٠٠ ذبذبة في الثانية وسنسمع صوتاً ناتجاً عن هذه الذبذبات .

٢ - نقرب شوكة رنانة أخرى طاقتها الرنينية ١٠٠ ذبذبة في الثانية كذلك-نقربها من الشوكة الأخرى التي تصدر النغمة ، وسنجد أن الشوكة الثانية تبدأ في الذبذبة وإصدار الصوت دون أن تطرق .

معنى هذا أن الشوكة التي لم تطرق اكتسبت الرنين من الشوكة المطروقة لأنها تماثلها في الطاقة الرنينية .

الترشيح Filtering :

لو فرض أن طرقنا شوكة تصدر نغمة توافقية مكونة من موجات تردد إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ د/ث وقربنا منها شوكة تصدر نغمة بسيطة ترددها ١٠٠ د/ث ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية ستردد ولو فرض أن أوقفنا الشوكة الأولى باللمس أو أبعدناها من الغرفة ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية تستمر في الاهتزاز عددة نغمة ترددها ١٠٠ د/ث وهي نغمة اكتسبتها من الموجة المركبة التي أصدرتها الشوكة الأولى .

يقال في هذه الحالة بأننا قد رشحنا من الموجة المركبة إحدى موجاتها التوافقية وهي التي تصدرها الشوكة الثانية .

ولو فرض أننا أننا بثلاث شوكة ونانة درجات ترددها ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ذ/ث وعرضناها للتردد الناتج عن الشوكة الأولى فإن كلا من هذم الشوكلات ستحدث موجة مناسبة لدرجتها أي أننا نستحصل على ثلاث موجات إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث . أي أننا قد وصلنا إلى تحليل الموجة المركبة الصادرة عن الشوكة الأولى إلى النغمات التوافقية التي تكونها . وهذا النوع من الترشيح يسمى بالترشيح المركب على العكس من النوع الأول الذي يسمى بالترشيح البسيط .

التقوية والاستهلاك :

لو فرض أن أصدرنا نغمة من آلة موسيقية ولكن كمثالاً فإن هذه النغمة ستكون ذات قوة خاصة . ولو فرض أن عزفنا آلتين أو ثلاث آلات لإصدار نفس النغمة في نفس الوقت فإننا لن نسمع ثلاث نغمات منفصلة بل سنسمع نغمة واحدة قوتها ضعف أو ثلاثة أمثال النغمة الأولى . ويقال في هذه الحالة بأننا قمنا بتقوية النغمة الأولى .

وكما يمكن تقوية النغمات يمكن استهلاكها كما يتضح من التجربة الآتية :

١ - أصدر صغيراً من بين شفتيك بالنفخ .

٢ - قرب وعاء كبيراً نسبياً من شفتيك .

٣ - ستلاحظ عند وصول الوعاء إلى بعد معين من شفتيك أن الصغير يندم .

السبب في هذا أن الوعاء قد كون غرفة رنين لا تتناسب مع الصغير في الدرجة . ويقال في هذه الحالة بأن الموجة الصوتية أو الصغير قد استهلك .

الصوت الانساني :

هذه الظواهر الطبيعية تلعب دورها في إنتاج الصوت الإنساني ، فعندما يمر الهواء المتدفق من الرئتين خلال الأوتار الصوتية يحدث ترددات أوذبذبات عديدة ، ومختلفة في الفترة والاتساع ، وبالتالي تحدث مجموعة لا تحصى من الموجات الصوتية ، تنتفع إلى الفراغات العليا فيا فوق الحنجرة . وخلال مرورها بكل فراغ تنعدم الموجات التي لا تتوافق مع تردد الغرفة ، وتتقوى بواسطة الرنين تلك التي يتوافق بعضها وبعض مكونة نغمات حنجرية تعرف بالجهر . وللنغمات المركبة الحنجرية خصائص معينة تتعلق بتوزيع الطاقة بين مكوناتها ودرجاتها واتساعها ، كما ترى في الجدول التالي الذي يبين هذه الأمور بالنسبة لنغمة غنائية .

طاقاتها	اتساعها	درجتها	الموجة التوافقية الموجة الأولى (الأساس)
١,٠٠٠	١,١٠٠	١٠٠	الموجة ٥
,٩٦٧	,٩٧٣	٥٠٠	١٠
,٨٧٦	,٩٣٥	١٠٠٠	١٥
,٧٣٧	,٨٥٨	١٥٠٠	٢٠
,٥٧٣	,٧٥٧	٢٠٠٠	٢٢
,٥٠٦	,٧١١	٢٢٠٠	٢٥
,٤٠٥	,٦٣٦	٢٥٠٠	٣٠
,٢٥٥	,٥٠٥	٣٠٠٠	٣٥
,١٣٥	,٣٦٨	٣٥٠٠	٤٠
,٠٥٥	,٢٣٤	٤٠٠٠	٤٥
,٠١٢	,١٠٣	٤٥٠٠	٥٠
—	—	٥٠٠٠	٥٥
,٠٠٨	,٠٨٩	٥٥٠٠	
	إلخ ^(٨)		

ونلاحظ أن الموجة الخمسين قد استهلكت ، أي أنها كانت موجودة بعد فراغ الحنجرة مباشرة ولكنها انعدمت عند مرورها بأحد الفراغات الذي لا تتوافق معه في التردد .

ويستمر توزيع الطاقة بعد الموجة المتعدمة ويزيد بالتدريج ثم يقل ثانية حتى يتعدم مع موجة أخرى ثم يبدأ في الزيادة التدريجية ثم النقص التدريجي حتى تنعدم وهكذا .

ولى جانب هذه الصفة الإنتاجية الخاصة بالصوت الحنجري الإنسانى فإن هناك صفة سماعية أخرى لهذا الصوت ، تتعلق بإحساس الأذن به . ولو فرض أننا أننا نغمة بواسطة ضغط مقداره ١٠ وحدات ثم ضاعفنا هذا الضغط إلى مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات وهكذا ، فإن جهاز الاستقبال الألى ، سيسجل أصواتاً قوتها متضاعفة بنسبة تضاعف الضغط أما الأذن الإنسانية فإنها لا تشعر باختلاف قوة الأصوات بنسبة مضاعفات الضغط بل بنسبة لوغاريتمية كما ترى فيما يلى :

١ - التسجيل الآلي :

مقدار الضغط	قوة الصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	٢٠ وحدة (١٠ + ١٠)
٣٠ وحدة	٣٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠)
٤٠ وحدة	٤٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠ + ١٠)

السخ

٢ - الإحساس السمعي :

مقدار الضغط	قوة الإحساس بالصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	١٠٠ وحدة (١٠ × ١٠)
٣٠ وحدة	١٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠)
٤٠ وحدة	١٠٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠)

السخ

ولهذا نحتج على علماء الفيزياء ابتكار مقياس للإحساس السمعي بالصوت يختلف عن المقياس الآلي لقوة الصوت سموه بالديسيبل Decibel .

باجيت والتحليل الطيفي للحركات :

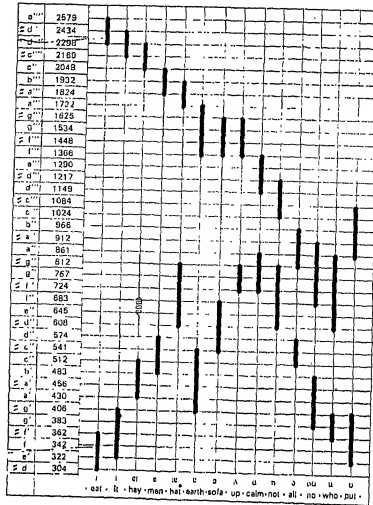
تتكون الحركة من عنصرين ، الجهر وهو ناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية ، واندفاع الهواء في الممرات العليا من أعضاء النطق وما يحدثه ذلك من رنين في هذه الممرات . ومن الطبيعي أن يكون هدف التحليل الفيزيائي للحركات شاملا لهذين العنصرين . ولعل من أولى محاولات هذا التحليل دراسة قام بها العالم الانجليزي ر. س. باجيت R.S. Paget^(٩) الذي كان يتمتع بجانب معارفه الصوتية بقدرة على الفناء ودقة السمع .

وقد فصل باجيت بين عنصر الجهر وعنصر الرنين الناتج في فراغات الممر العلوي أي ما فوق الحنجرة إلى الشفتين ، عند نطق الحركات في الإنجليزية البريطانية دون جهر . وقد لاحظ أن كل حركة تتكون من جزئين من الموجات المتوافقة أحدهما مرتفعة الدرجة تتراوح ذبذبات الموجات التي تكونها بين ٦٠٨ ، ٢٥٩٠ د/ث ، والثانية منخفضة الدرجة وتتراوح ذبذبات الموجات المكونة لها بين ٣٠٤ ، ٩١٢ د/ث . وكانت الحزمة المرتفعة الدرجة أكثر وضوحا في السمع من الثانية ، كما كانت الحزمة المنخفضة أشبه بمحاولة الصغير بالقمع مع الفشل في إنتاجه . ولاحظ كذلك أن الحزمة العليا لا تتأثر بمدى فتح الفم بل بحركة اللسان إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى الأمام أو إلى الخلف . ومن

(٩) تليفون للمرجع رقم ٧ ، وانظر أيضا مرجع ٥ ص ١٣١

تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية

هذا استنتج أن الحزمة العليا تتأثر بغرف الرنين الأمامية ، أي الغرف القموية التي تشكلها حركات اللسان ، ولذا أسماها بالحزمة الأمامية . أما الحزمة السفلى ، فقد انتهى إلى أنها ناتجة عن رنين الغرفة الممتدة من منطقة ما فوق الحنجرة حتى الشفتين ، ولذا فإنها تتأثر بفتح الفم ضيقاً واتساعاً وقد سمي هذه بالحزمة الخلفية وقد سجل نتائج بحثه في الجدول التالي .



شكل (٨)

الشكل يمثل

- ١ - الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الأولى في ١٤ حركة إنجليزية - المجموعة السفلى .
- ٢ - الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الثانية في نفس الحركات في ١ - المجموعة العليا .

ونعبد هنا أن باجيت يتحدث عن حزمتين من الموجات تتكون كل منها من مجموعة من الموجات المتوافقة ، كما يلاحظ وجود فراغ يفصل بين الحزمة الدنيا والحزمة العليا . وهذا الفراغ يزيد أو يقل حسب نوع الحركة . وسيمر بك صورة لتحليل طيفي استعمل فيه الراسم الطيفي يوضح هذه النقطة الأخيرة (انظر الشكل رقم ١٠ ص ٤٦) .

بعد هذا نطق باجيت بنفس الحركات مجهورة ، وبهذا أضاف عنصر النغمة الحنجرية إلى أثر غرقي الرنين الأمامية والخلفية . وقد وجد أن إضافة النغمة الحنجرية تؤثر على درجة حزم بعض الحركات دون الأخرى . مثال ذلك الحركة /e/ التي ظلت درجة حزمها العليا ١٥٤٢ ذ/ث وحزمتها السفلى ٤٠٦ ذ/ث عند الجهر كما كانت عند الهمس . وذلك على العكس من الحركة /a/ في calm التي تغيرت درجة كل من حزمتها عند الجهر عما كانت عليه عند الهمس . بعد هذا صنع باجيت غرفة من طين الصلصال مفتوحة الطرفين رتبها ١٠٢٤ ذ/ث ووضع هذه الغرفة ملاصقة لشفتيه ونطق بنفس الحركات فوجد أن وجودها يؤثر على نوع الحركات بالنحو التالي :

١ - الحركة الطويلة في الكلمة calm (مثل صار في العربية) سمعت كما لو كانت الحركة الطويلة في الكلمة awe (مثل طور في المصرية) .

٢ - الحركة في hat (مثل بات) سمعت كما لو كانت حركة calm (صار) .

٣ - الحركة في up سمعت كما لو كانت الحركة في get .

الخ

معنى هذا أن من الحركات ما يتأثر بوجود غرفة الرنين الثالثة أي أنها تتكون من ثلاث حزم ومنها مالا يتأثر أي أنها تتكون من حزمتين .

جهاز الراسم الطيفي Spectrograph (١٠) :

يتكون هذا الجهاز من :

١ - وحدة تسجيل الصوت ، وهي أسطوانة معدنية يحيطها مغنط يسجل عليها نص وفي مركزها مثبت عمود يديره بقوة موتور عند التسجيل أو السماع .

٢ - ميكروفون للتسجيل وآلة لمحو النص إذا أريد ذلك .

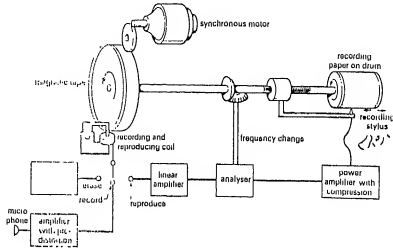
٣ - وحدة تحليل الصوت وهي مجموعة من المرشحات تمر بها الموجات المكونة للرسالة .

٤ - أسطوانة أخرى تلف عليها ورقة حساسة وهي مثبتة في نفس العمود الذي ثبتت فيها أسطوانة التسجيل بحيث تدور معاً .

٥ - حامل لإبره تسجيل Stylus يتحرك بواسطة حلزون محفور في العمود وهذه الإبرة متصلة بتيار كهربائي يحدث شرارة عند ملامستها ورقة التسجيل أثناء دورانها فتترسم عليها خطوطاً متوالية .

بعد تسجيل النص يدور الموتور فيحرك الأسطوانتين وحلزون الإبرة ويمر الصوت بالمرشحات فيعزل أحدها الموجة السفلى وينقلها إلى الإبرة فتتذبذب بنفس شكل ذبذبات الموجة .

وبسبب الشرارات الناتجة من التيار تحدث الإبرة خطأً على ورقة التسجيل يمثل الموجة المرشحة . وتدور الأسطوانة مرة ثانية وثالثة ورابعة ويتم ترشيح الموجات واحدة واحدة وترسم على الورقة الحساسة . وبعد وصول الإبرة إلى نهاية الحلزون يتوقف الجهاز ونحصل على رسم طيفي للنص .



شكل (٩)

رسم تخطيطي لجهاز الرسم الطيفي

أود قبل أن أستمّر في الحديث أن أوضح مفهوم عدد من المصطلحات قد وردت أو سترد خلال الحديث عن الرسوم الطيفية .

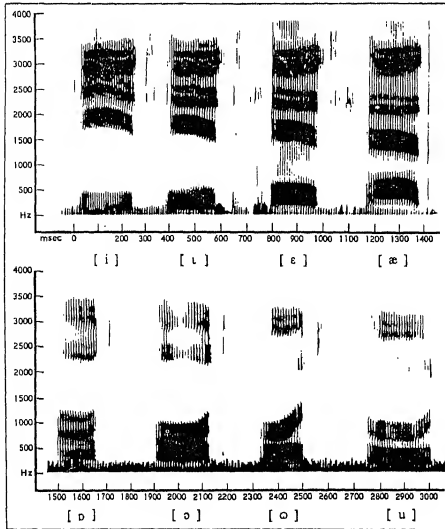
١ - موجة الأساس ، وهي موجة بسيطة من مكونات موجة مركبة وهي أقل المكونات درجة ، وإن كانت أكثرها استهلاكاً للطاقة (انظر الجدول ص ٤١) . وتكون درجة كل من المكونات الأخرى من مضاعفات درجتها . وفي الجدول المشار إليه رأيت أن درجة موجة الأساس ١٠٠ د/ث ودرجات المكونات من مضاعفات هذا العدد (٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ الخ) .

٢ - الحزمة التكوينية Formant ، وقد يطلق عليها اختصاراً لفظ الحزمة ، وهي مجموعة من الموجات التوافقية ، ذات درجات متقاربة في عدد الذبذبات ، وتظهر في الرسم الطيفي كما لو كانت خطأً عريضاً (انظر الشكل ١٠) . ويفصل كل حزمة عن التي تليها فراغ يظهر في صورة بياض في الرسم الطيفي . وتوجد الحزم التكوينية واضحة في

الرسوم الطيفية للحركات ، والسواكن الانطلاقية المجهورة كاللام والنون ، أما السواكن الانحجاسية المجهورة فلا يظهر منها إلا موجة الأساس وبعض الموجات القليلة المجاورة لها .

٣ - حزام التردد ، ويقصد به المنطقة ، بين أدنى درجة وأعلى درجة للحزمة التكوينية أو للترددات العشوائية التي تنتج السواكن الاحتكاكية .

٤ - الحزام الضيق والحزام الواسع ، وهما نوعان من الرسوم الطيفية ينتجها جهاز الراسم الطيفي .
واليك أمثلة لبعض الرسوم الطيفية .

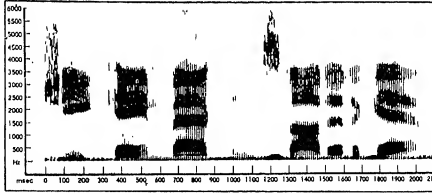


شكل (١٠)

رسم طيفي لكل من الكلمات الإنجليزية (head, bid, had, head, hood, hawed, hood, and who'd)

لاحظ الفرق بين الرسوم الطيفية للحركات

في الشكل ثمانية رسوم طيفية لحركات في كلمات إنجليزية بريطانية تتكون من مقطع واحد يبدأ بالصوت /h/ وينتهي بالصوت /d/ وهي who'd hood, hawed, hod, head, had, hid, head. وهي في الرسم من اليسار لليمين والرسوم الممثلة للكلمات الأربع الأولى في أعلى الشكل والممثلة للأربع التالية في أسفله. ويلاحظ أن بعد الحزم بعضها عن بعض (الناتج عن اختلاف درجاتها) يختلف من حركة إلى أخرى وسنرى ذلك بمقارنة الرسوم الطيفية في الشكل السابق .



شكل (١١)

رسم طيفي للمبارة الانجليزية (She came back and started again)

يظهر في الشكل الحزام الطيفي للساكن في she (ش) على اليسار بين درجة ٢٥٠٠ ، ٥٣٠٠ د/ث والحزام الطيفي للسين /s/ في started وهو بين ٣٥٠٠ ، ٥٥٠٠ د/ث^(١١).

انظر الشكل (١٢)

يمثل تحليلًا طيفيًا للجملة الانجليزية is Pat sad or mad رسم مرة بالحزام الواسع^(١٢) وهو يظهر الحزم بوضوح ومرة أخرى بالحزام الضيق وهو يظهر مكونات الحزم .

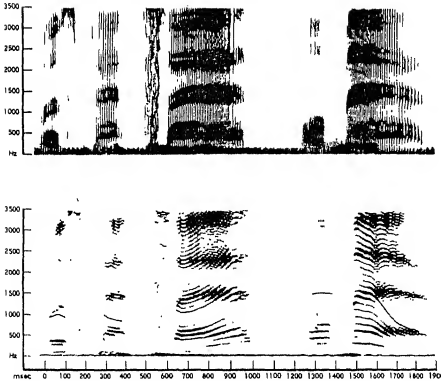
دلالات الحزم التكوينية :

تساعدنا الحزم التكوينية في عدد من الأمور :

١ - التمييز بين الحركات بعضها وبعض ، وذلك بملاحظة عدد الحزم وبعد بعضها عن بعض ودرجة الحزام الترددي لكل منها . انظر شكل ١١ ص ٤٧ بمقارنة الرسم الطيفي للحركة /i/ وهو الأول من اليسار في الجزء العلوي بالرسم الطيفي للحركة /u/ وهو الأخير إلى اليمين في الجزء السفلي ، نلاحظ الفرق في البعد بين الحزمتين في الحركتين ، كما نلاحظ أن درجة الحزام في /i/ بين ١٧٠٠ ، ٢٠٠٠ د/ث أما في /u/ فانه بين ٤٥٠ ، ٩٠٠ د/ث .

(١١) مرجع ١ ص ٢٧٢

(١٢) المرجع السابق ص ٢٧٩



شكل (١٢)

تحليل طيفي للمباراة الانجليزية (Is Pat sad or mad?) باستعمال الحزام الواسع (الجزء العلوي)
والحزام الضيق (الجزء السفلي)

٢ - التمييز بين المتكلمين في الجلوس والسن :

ثبت من اختبار السماع الذي أجراه بيترسون وبارني وجود فرق واضح بين حزمتي التكوين في نفس الحركة عندما ينطقها رجل عنها عندما ينطقها صبي أو امرأة . وسنلخص فيما يلي الفرق الذي يلاحظ بينهم في نطق الحركة /i/ .

نطق الرجل	موجة الأساس	الحزمة الأولى	الثانية	الثالثة
١٣٥	٣٩٠	١٩٩٠	٣٠١٠	
٢٣٢	٤٣٠	٢٤٨	٣٠٧٠	
٢٦٩	٥٣٠	٢٧٣٠	٣٦٠٠	

٣ - المساعدة على التعرف على نوع الساكن المجاور للحركة ، وهو ما نعرضه هنا بالتفصيل :

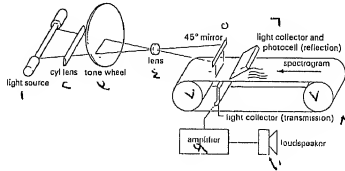
مخرج الساكن وأثره في الحركة المجاورة :

يؤثر مخرج الساكن في غرفة الرنين التي تمر بها الحركة المجاورة له وذلك لأنها تنتقل من الوضع الذي كانت عليه مع الساكن إلى الوضع المطلوب للحركة ، على ثلاث مراحل .

- ١ - مرحلة الاستقرار عند النطق بالساكن .
- ٢ - مرحلة الانتقال من شكلها مع الساكن إلى شكلها مع الحركة .
- ٣ - مرحلة الاستقرار في شكلها مع الحركة .

تجربة كوبر وزملائه^(١٣) :

استعمل في هذه التجربة جهاز إعادة النطق :



شكل (١٣)

ويتكون الجهاز كما يظهر في الرسم من اليسار إلى اليمين مما يأتي :

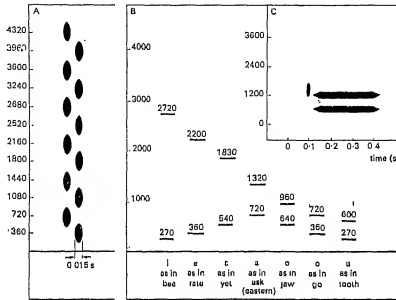
- ١ - مصدر ضوئي .
- ٢ - عدسة ضوئية طويلة ومستديرة .
- ٣ - عجلة نغمية .
- ٤ - عدسة .
- ٥ - مرآة مائلة بزاوية قدرها ٤٥° .
- ٦ - جامع للضوء وخلفية ضوئية عاكسة photocell .
- ٧ - أسطوانتين متباعدتين تلف حولهما ورقة مرسوم عليها طيف .
- ٨ - جامع ضوئي ناقل .
- ٩ - مضخم صوتي .
- ١٠ - سماعة .

وعند عمل الجهاز تلف ورقة الرسم الطيفي على شكل حزام يصل بين الأسطوانتين (رقم ٧) . ويدوران الأسطوانتين تنعكس الصورة الطيفية بفضل الضوء الصادر من المصدر (رقم ١) وتمر بجامع الصوت والخلية الضوئية (٦) فتقوم بتحليل الصورة الطيفية إلى موجات ضوئية وترسلها إلى العجلة النغمية (٣) فتحول الموجات الضوئية إلى موجات صوتية ترسلها للمضخم (٩) والسماعة (١٠) فتصدر الصوت .

الآثار الطيفية للسواكن الانفجارية :

أ - الانفجارية المهموسة

المعروف أن الساكن الانفجاري المهموس يتكون من انحباس وانفجار دون جهر . وبالتالي فإنه لا يظهر في الرسم الطيفي إلا بعد الانفجار الذي يليه ضجة بيضاء وبعدها الحزمتان التكوينيتان لكل حركة كما ترى في الشكل :



شكل (١٤)

يتكون الشكل من ثلاثة أجزاء A , B , C .

الجزء الأيسر A وفيه خط رأسي على اليسار مرقم عليه عدد الذبذبات في الثانية من صفر إلى ٤٣٢٠ وقد وزعت من أسفل إلى أعلى ، على أبعاد متساوية يفصل بين كل منها والتي تليها ٣٦٠ درجة . وعلى بين هذا الخط توجد ١٢ نقطة سوداء ستة إلى اليسار وستة إلى اليمين وضعت على شكل عمودين لسهولة تمييز بعضها عن بعض . وهذه تمثل حزام انفجار الساكن .

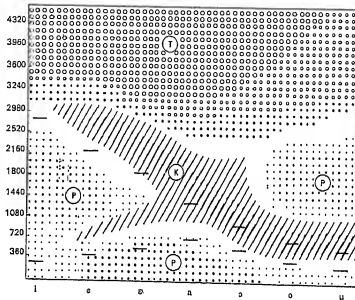
والجزء الأيمن B ويتكون من خط رأسي على اليسار لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي سفلي كتبت تحته الحركات المعيارية السبع وكتبت تحت كل منها كلمة إنجليزية أمريكية تحتوي على الحركة . وفوق كل حركة بعد الخط الأفقي السفلي يوجد خطان فوق كل منهما رقم يبين الأسفل درجة الحزمة التكوينية الأولى والأعلى درجة الحزمة الثانية للحركة (مثلاً u ٢٧٠ ، ٦٠٠ - O ٣٦٠ ، ٧٢٠ الخ) .

والجزء C ، عبارة عن مربع في الركن العلوي من اليمين ويتكون من خط رأسي لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي لقياس الزمن . وداخل المربع يوجد خطان أفقيان الأسفل يمثل الحزمة الأولى والأعلى يمثل الحزمة الثانية . وعلى اليسار من الخطين توجد نقطة سوداء تمثل الانفجار . وهذا الجزء مثال لأحد الرسوم الطيفية التي رسمها يدوياً الباحثون لإجراء التجربة . رسم الباحثون باليد عدداً من الأطياف يتكون كل منها من الحزمتين الأولى والثانية لكل من الحركات المعيارية السبع . ويلاحظ أن هذه الأطياف ليست نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسوم مبسطة لموضع الحزمتين في كل حركة . ووضعوا كل رسم في جهاز إعادة النطق وأدير الجهاز أمام عدد من السامعين الذين طلب إليهم تدوين ما يسمعون كتابياً . وقد كانت النتيجة كما يلي :

١ - سمع انفجار وبعده فترة صمت ثم سمعت بعد ذلك حركة .

٢ - وجد أن الذي يحدد نوع الانفجار هو موضع الحزمة الثانية بالنسبة للخط العمودي أي لقياس عدد الذبذبات .

٣ - لخصت نتائج السماع في الشكل التالي :



شكل (١٥)

الشكل على هيئة مربع عموده الأيسر لقياس الذبذبات وهو مدرج من صفر إلى ٤٣٢٠ والخط الأسفل الأفقي كتب تحته رموز الحركات . وفي داخل المربع يوجد خطان فوق كل حركة : الأسفل للحزمة الأولى والأعلى للثانية . وفي المربع توجد ثلاث مناطق إحداها مظلمة برسم دوائر صغيرة وقد كتب فيها الرمز (T) وثانيها مظلمة بخطوط مائلة وكتب في وسطها الرمز (K) وثالثها مظلمة بنقط وهي موزعة إلى اليسار واليمين وإلى أسفل منطقة (K) وكتب في كل من مناطق توزيعها الرمز (P) . واليك بعض الأمثلة لبيان كيفية الاستفادة منه .

١ - الحركة /i/ ، حزمتهما الأولى في حدود ٣٠٠ ذ/ث فإذا كانت الثانية في المنطقة المحصورة بين ٧٢٠ / ٢٥٢٠ سمع الانفجار /p/ . وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع الانفجار /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٢ - الحركة /e/ الحزمة الأولى ٣٦٠ ذ/ث تقريباً ، وإذا كانت الثانية بين ٧٢٠ ، ٢٠٠٠ سمع الانفجار /p/ وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٣ - الحركة /U/ الحزمة الأولى ترددها ٣٤٠ ذ/ث . وإذا كانت الثانية بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ١٤٤٠ ، ٢٤٠٠ سمع /P/ وإذا كانت بين ٣٢٤٠ ، ٤٣٢٠ سمع /t/ . وهكذا

ونود أن نعيد ملاحظتين سبقت الإشارة إليهما :

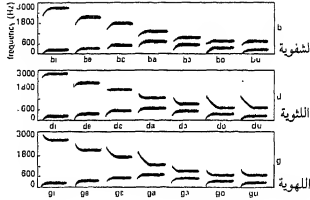
- ١ - ليست هذه الأطياف نتيجة تحليل نطق واقعي بل مجرد رسم يدوي مبسط لصور طيفية .
- ٢ - الانفجار الذي يسمع ليس نتيجة نطق واقعي بل هو ظاهرة طبيعية سمعية لدرجة الحزمة الثانية للحركات .

ب - الانفجارية المجهورة :

في بحث آخر رسم الباحثون الأطياف السابقة مع تعديلين :

- ١ - التخلص من الفراغ الذي يفصل بين الانفجار والحركة .

٢ - رسم شكل الانتقال بين درجة الانفجار ودرجة الحركة التالية له . ولما كان الانتقال لا يظهر إلا في الحزمة الثانية ، ولما كانت درجة جهر الانفجار أقل من درجة جهر الحركة ، فإنها تظهر في الحزمة الأولى وحدها التي لا تختلف كثيراً عن درجة الحزمة الأولى في الحركة . وهذا الفرق يظهر في انتقال صاعد في كل الحالات . أما الحزمة الثانية للحركة فإنها قد تكون مستوية أو صاعدة أو هابطة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٦)

بعد ذلك وضع كل من الرسوم الطيفية المصطنعة في جهاز إعادة النطق وسمعها عدد من المساعدين وسجلوا ماسمعوهم فخرجوا بالأحكام التالية .

١ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا سمع الانفجار /g/ .

٢ - إذا كان انتقال الحزمة الثانية صاعدا من درجة ١٩٠٠ إلى درجة ٣٠٠٠ ذ/ث أو من درجة ١٨٠٠ إلى درجة ١٩٠٠ ذ/ث أو كان مستويا (على الشكل الذى تراه في الصندوق الأوسط من شكل ١٨) ، فإن الذى يسمع هو الانفجار /d/ .

٣ - إذا كان الانتقال صاعدا (على النحو الذى تراه في الصندوق العلوى) كان الانفجار المسموع /b/ .

ج - الأصوات الأنفية والجانبية^(١٤)

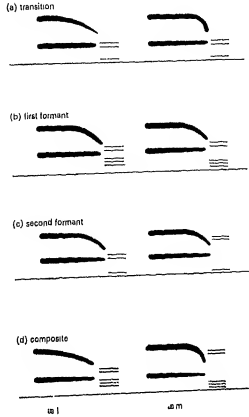
لوحظ فيما سبق أن درجة الحزمة الثانية تختلف باختلاف مخرج الساكن الذى يشبه الانفجار أى باختلاف الصفة من شفوية إلى لثوية إلى لحنوية . ولما كانت السواكن الأنفية تتميز بعضها عن بعض بالشفوية /m/ أو اللثوية /n/ أو اللهوية /ŋ/ (نج) فقد امتد البحث ليشمل هذه السواكن أيضا . وبالتالي أعادوا الرسوم الطيفية السابقة مع تعديلات :
١ - إزالة النقط السوداء المثلثة للانفجار لأن السواكن الأنفية ليست انفجارية .

٢ - إضافة خطوط أخرى تمثل الحزم التكوينية في هذه السواكن لأنها مجهورة ، ثم أعادوا اختبارات السماع فانتهوا إلى الحكم التالي :

تظل الحزمتان الأولى والثانية في كل حركة كما كانت عليه مع الانجاسات المجهورة مع فرق في شكل الانتقال ، ومع وجود حزمتين للسواكن الأنفية تختلف باختلاف الحركة المجاورة .

د - السواكن الجانبية (اللام والراء) :

وجد أنها تشبه السواكن الأنفية في وجود حزمتين إضافيتين يختلف وضعهما مع السواكن الجانبية عنه مع الأنفيات ، وذلك بالنسبة لحزمتي الحركة المجاورة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٧)

في الشكل مجموعة من الرسوم الطيفية المثلة للحركة المعيارية الرابعة (نوع من الفتحة) : أربعة تلي فيها الميم الحركة ، وهي المجموعة اليمنى وأربعة تلي فيها اللام الحركة وهي المجموعة اليسرى . ويظهر في الشكل ما يأتي :

١ - الزوج الأعلى (a) . ويكون الرسم الطيفي للام والميم متشابهين مع فرق واحد هو أن الانتقال إلى الميم أشد انحداراً من الانتقال إلى اللام .

٢ - الزوج الأوسط (b) ويكون فيه الانحدار مع اللام أكثر من الانحدار إلى الميم مع زيادة عدد موجات الحزمة الأولى عن الثانية وانخفاضها مع الميم وارتفاعها مع اللام .

٣ - الزوج الأوسط (c) ويكون الانحدار متماثلاً في حالتي اللام والميم ولكن الحزمة الثانية مع اللام تكون بين الحزمتين الأولى والثانية للحركة أما مع الميم فإنها تكون فوق الحزمة الثانية للحركة . أما الحزمة الأولى فتكون فيها أقل من الحالة (b) .

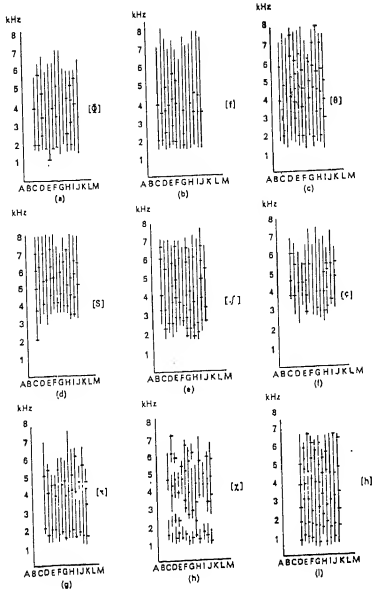
٤ - الزوج الأسفل (d) عبارة عن مجموع الصفات الموجودة في الانتقال وشكل وعلاقة الحزمة الأولى والثانية للام والميم .

هـ- السواكن الاحتكاكية^(١٥)

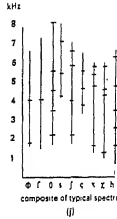
قلنا من قبل إن توزيع الطاقة بين الموجات التي تمثل الاحتكاكات توزيع عشوائي وأنه نتيجة لهذا لا تظهر حزم لهذه السواكن كذلك التي تظهر مع الحركات والسواكن المجهورة . والأمر الوحيد الذي نتعرف به على السواكن الاحتكاكية في الرسوم الطيفية هو وجود حزام ترددي غير منظم يختلف مدى درجته باختلاف الصوت الاحتكاكي . وللوصل هذه النتيجة أجرى البحث التالي :

اختار الباحث تسعة من الأصوات الاحتكاكية هي الفاء الشفوية الشائيه / Φ / ، / f / ، / θ / ، / s / ، / f / والكاف الشينية / C / والحاء الأمامية / X / والحاء الخلفية / h / ، / h' / . وكلف ١٣٠ من طلاب مدرسين على الدراسات الصوتية بنطق هذه السواكن مع إطالتها ، ثم رسم رسماً طيفياً لكل من الأصوات المنطوقة بواسطة الراسم الطيفي فظهرت مناطق التردد الخاصة بهذه الأصوات . ثم رصد الحد الأعلى والحد الأدنى لحزام التردد مع كل صوت ، وسجل نتائج ذلك بالنسبة لكل متكلم وفي الشكل رقم ١١ ص (٢٣) ترى مثالا لحزام التردد في الشين والسين ، في العبارة الإنجليزية *She came back and started again* . ومراجعة الشكل المذكور نلاحظ وجود حزام ترددي على اليسار يبدأ من ٢٣٠٠ ذ/ث وينتهي عند ٥٥٠٠ ذ/ث . وهو يمثل الشين في *she* ، كما نلاحظ وجود حزام آخر تردده بين ٣٧٠٠ ، ٥٦٠٠ ذ/ث وهو الذي يمثل السين في *Started* .

وفيما يلي الرسوم ألبانيه التي تبين المجال الترددي لأحزمة هذه السواكن كما نطقها كل من الطلاب .



شكل (١٨) أولاً



شكل (١٨) ثانياً

تعليق على الشكل

أولاً - في هذا الجزء من الرسم توجد تسعة رسوم بيانية يمثل كل منها أحد الأصوات الاحتكاكية التسعة كما نطق بها كل من المساعدين الثلاثة عشر . وقد رمز لكل مساعد بخط رأسى مواز للخط الرأسى في الرسم البياني لعدد اللبنيات في الثانية .

وقد وضع رمز الصوت الاحتكاكى على يمين كل شكل بحرف صوت دول (f) . كما وضع رمز لكل مساعد بحرف كبير من الحروف الإنجليزية (A و B والـ c) ، ويشير كل حرف إلى أحد الخطوط الرأسية التي تمثل للمساعد . وعلى هذا فالشخص د A يمثل الخط الرأسى الذى على اليسار في الأشكال التسعة والشخص د B يمثل الخط الرأسى الجوار وهكذا في جميع الأشكال من د A إلى د c .

ثانياً - يمثل الشكل د e إجمالاً لفواصل الأشكال التسعة السابقة ولخطوط الرأسية الأصوات التسعة . وكل من هذه الخطوط عبارة عن متوسط تعلق الأشخاص الثلاثة عشر للصوت . وعلى سبيل المثال يمثل الخط الرأسى الثالث على اليسار متوسط الخطوط الرأسية في الشكل د c (الثالث من اليمين في المجموعة العليا) ، والخط التالى يمثل د e أى متوسط الخطوط الرأسية في الشكل د B (الثانى من المجموعة العليا) .

وسنبين فيما يلى مثالا للحزام الترددى للسین والشين والكاف الشينية (مثل ضمير النصب والجزم المتصل للمخاطبة المفردة في الكويتية في الكلمة كتابك / ك ي ت ا ب ي تش /) . وذلك بين شخصين هما A ، M .

A السین من ٢ إلى ٨ والشين من ٢/٣ إلى ٧ والكاف الشينية من ٢/٣ إلى ٧ .
M السین من ٣ إلى ٨ والشين من ٢/٣ إلى ٧/٢ والكاف الشينية من ٣ إلى ٦/٢ .

الأصوات الاحتكاكية المجهورة :

تشبه الرسوم الطيفية هذه السواكن رسوم الاحتكاكية المهموسة مع إضافة حزم تكوينية كحزم الحركات ولكنها تكون شديدة الضعف .

ز - الأصوات الانجاسية الاحتكاكية :

وتتكون من الانجاس يعقبه احتكاك وكما هو متوقع فإن الرسم الطيفى لأى منها يتكون من خصائص التوقف والاحتكاك معا وقد سبق بيانها .

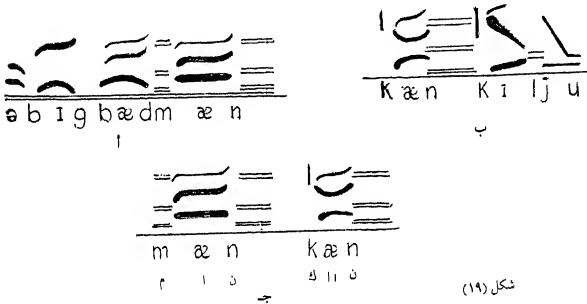
انتهينا من الوصف الطيفي لأنواع الأصوات ، ولكن هذا لايعنى تمام التحليل الطيفي للحدث اللغوي كله ، فهناك العلام الطيفية للنبر والنغم والصفات الخاصة كالتمخيم العارض للصوت . وليس هنا مجال لشرح كل هذه الأمور .

التحليل والتركيب :

مرت بك أمثلة لتحليل العبارات إلى موجات صوتية ، بعضها يمثل حركات وبعضها يمثل انفجاريات مهموسة أو مجهورة أو أنفيات أو احتكاكيات . والرسوم الطيفية التى قدمت إليك فى الأشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، تمثل تحليلا لعبارات قد نطقت فعلا ثم حول كل نطق إلى رسم طيفي أما الأشكال ١٤ - ١٩ ، فإنها لا تمثل أحداثا لغوية واقعة ، بل منطوقات مصطنعة آليا بواسطة إنتاج موجات تكون رسوما طيفية تمثال الرسوم التى نحصل عليها إذا ما حملنا المنطوقات الفعلية .

وقد تمكن المهندسون من الاستمادة تطبيقيا من عمليتي تحليل الأحداث اللغوية وتركيبها تركيبا اصطناعيا . وقبل أن أقدم للقارئ أمثلة هذه التطبيقات أود أن أذكره ببعض التعليقات السابقة لتوضيح ما أقول .

لنأخذ مثلا الأبحاث التى لخصناها بالصفحات من (٢٦ إلى ٣٣) . وسلاحظ أن التجارب قد أجريت على رسوم طيفية مصطنعة . وقد كان كل رسم طيفي تمثيلا مبسطا للتحليل الواقعي لأحداث لغوية عرف منها الباحثون أشكال الموجات التى تكون كل صوت ودرجاتها . وعينوا بالاختبارات السمعية الموجات التى يمكن التخلص منها دون تأثير فى درجة الإفهام والموجات التى يتحتم المحافظة عليها للاحتفاظ بدرجة مقبولة من الإفهام . ثم صنعوا الرسوم الطيفية محتفظين بالموجات الأساسية ومتخلصين من الموجات ثانوية الأهمية . بعد هذا ، أنتجوا الموجات التى تعينها الرسوم المصطنعة فحصلوا على كلام مصطنع .



شكل (١٩)

أ - العبارة الإنجليزية a big bad man^(١٦)

ب - العبارة الإنجليزية can kill you

ج - العبارة العربية « من كان » مكتوبة من اليسار لليمين .

في الجزء العلوي من الشكل رسم طيفي مصطنع للعبارة الإنجليزية التالية : a big bad man ورسم آخر مصطنع للعبارة Can kill you ، وقد اقتطعنا المقطع الأخير من العبارة الأولى ووضعناه قبل المقطع الأول من العبارة الثانية / Can / فحصلنا على رسم طيفي مصطنع يمكن أن يقبل باعتباره مثلاً للعبارة العربية (من كان) . وعلى هذا الفرض نجري مناقشاتنا التالية .

أولاً - جهاز القراءة^(١٧):

قبل قيام الحرب العالمية الثانية كانت شركة بيل للتليفونات تجري أبحاثاً لتحسين الاتصالات الهاتفية والإقلال من تكاليفها . ووصل الخبراء إلى أنه من الممكن اختصار الحزم التكوينية للمجهورات والأحزم الترددية للاحتكاك إلى عدد قليل من الموجات الأساسية الضرورية للإفهام وبالتالي فقد تصوروا أن السلك الذي يعمل رسالة واحدة بكل موجاتها يمكن أن يحمل عشر رسائل ملخصة . وهذا يقل تكاليف مد الخطوط عبر الأطلنطي إلى العشر . وأبتكروا جهازاً سموه Vocoder (وهي كلمة مركبة من coder أى مصنف الصوت) .

وكان الجهاز يتكون من جزأين الأول يحلل الصوت والثاني يتخلص من الموجات غير ذات الأهمية ويصنع من الموجات الهامة صورة طيفية للرسالة . ومن هذه الصورة الطيفية يعاد تركيب الرسالة بعد تلخيص موجاتها بإنساج موجات صوتية مصطنعة تمثل الرسالة الطيفية ونجحت العملية نظرياً ، ولكن الرسالة التي تم الحصول عليها لم تكن تامة الوضوح فعدل عن المشروع . وخلال الحرب استغل الحلفاء هذا الجهاز للسمع على المواصلات الهاتفية للعدو . ويقال إن إسرائيل قد حصلت من أمريكا سنة ١٩٦٧ على أحد هذه الأجهزة . واستمعت إلى المحادثات الهاتفية من القادة العرب .

وبعد الحرب استغل هذا الجهاز في تطوير جهاز يقوم بقراءة النصوص المكتوبة للمكفوفين وذلك بإضافة وحدة لتحويل الرسالة المكتوبة وتحويلها لرسالة مسموعة على النحو الآتي .

نفرض أن العبارة هي : (من كان) في هذه الحالة سيحدث ما يأتي :

١ - يقوم جهاز التصوير بنقل الشكل الكتابي إلى حاسوب مخزن ذاكرته صوراً عديدة هي :

أ - الشكل الكتابي وما يعادله من أصوات .

(من) = م + ا + ن كان = ك + ا + ن .

(١٦) تلخيص من ٢٩

(١٧) عن مرجع ٥ ص ١٣٩

ب - الأصوات وما تتألف منه من موجات وهي في هذا المثال كما يلي :

م = نغمة مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ا = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية إلى ٢٣٠٠ .

ن = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

يلاحظ أن الذي يميز النون عن الميم هو الحزمة الثانية من الحركة (فتحة) حيث إنها تبدأ من نقطة أعلى من الحزمة الثانية للميم وترتفع حتى تستوي في درجة الاستقرار ثم ترتفع إلى اتجاه الحزمة الثالثة للنون (انظر شكل الحزمة الثانية في « من » و « كان ») .

ك = حزام في شكل خط رأسي بعده فراغ .

الفتحة الطويلة = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية في اتجاه الحزمة الثالثة للنون التي تليها .

النون = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + حزمة مستوية درجتها ٢٥٠٠ + حزمة مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ج - يصدر الحاسوب أمراً لجهاز لإنتاج الموجات الآلى لإنتاج الموجات السابقة على الشكل الذى وصفناه .

د - تنتقل هذه الموجات إلى جهاز تضخيم amplifier .

هـ - تنتقل من جهاز التضخيم إلى سماعة فيسمع المكفوف الجملة المكتوبة .

ثانياً - إنتاج الكلام الاصطناعى^(١٨)

ليست محاولة إنتاج الكلام الاصطناعى محاولة جديدة ، بل إنها ترجع إلى مايزيد عن قرنين من الزمان ، ففي سنة ١٧٨٠ نال العالم الروسى كراتسينشاين Kratzenstein جائزة أكاديمية العلوم في مدينة سانت بيتر سبورج (ستالينجراد الآن) لأنه كان أول شخص أنتج الحركات / a / ، / i / ، / u / ميكانيكياً . وقد صنع لتحقيق هذا العمل مزمارة من البوص وصله بأنابيب قامت بعملية ترشيح الصوت الناتج عن مزمارة البوص . وفي سنة ١٨٤٨ قام يوهانس موللر بمحاولة ثانية لإنتاج الصوت الاصطناعى ، وذلك بأن أخذ حنجرة شخص ميت وشدها على فوهة أنبوبة وثبت خيوطاً في غضاريفها ، بحيث يمكن تحريكها كما تتحرك عند الكلام ثم دفع تياراً هوائياً عبر الأوتار الصوتية فأنتج حركات . وفي سنة ١٩٥٦ قام فان دن برج Van den Berg بمحاولة أخرى مستعملاً وسائل تقنية حديثة ، ومستفيداً من النظريات الرياضيه المتعلقة بالحركة والضغط ، فصنع مائلاً للحنجرة من الجبس ، ومرمر تياراً هوائياً خلال فتحاتها فأنتج أصواتاً تماثل الحركات اللغوية . ومع أن مثل هذه المحاولات لم تنتج عبارات اصطناعية كاملة فإنها قد فتحت الباب أمام محاولات أكثر شمولاً ، نذكر فيها بلى عدداً منها :

(١٨) مرجع ١ ص ٢٤٦ وبابها

نظرية الحامل :

لتوضيح هذه النظرية نتحدث عن عمل الإرسال الاذاعي (بالراديو) وسنلاحظ أن أول ما يحدث ، (قبل بدء الإذاعة) صدور صغير مستمر ، هذا الصغير يسمى بالموجة الحامل ، وهي التي تعين درجة الموجة التي يتم عليها الإرسال الإذاعي ، ثم يضاف إلى هذه الموجة عزف الكمان مثلا ، وهذا العزف يمثل العنصر الثاني وهو الرسالة . أما العنصر الثالث وهو المنظم فيمثل الميكروفون ، وهو يتلقى الحامل والرسالة ويمزجها معا وبهذا تتم العملية الإذاعية .

وفي الكلام الطبيعي يحدث عن طرد الزفير إلى الخارج حدوث الموجة الحامل ، ويتدخل الأوتار الصوتية والغرف الرنينية العليا ، أي ما فوق الحنجرة تحدث الرسالة أما الجهاز المنظم modulator الذي يمزج الحامل فإنه نفس الجهاز الذي يصدر الرسالة أي الاعضاء الصوتية من الحنجرة إلى فتحة الفم والأنف .

وقد تمت محاولة لإنتاج الأصوات اللثوية الإنسانيه بإحداث الموجة الحامل والموجات المثلثة للرسالة وإمرارها بمنظم كالليكتروفون لمزجها . وقد تمت هذه التجربة في إصدار الأصوات الإنسانية بنجاح ما . ولكنها لم تكن وسيلة عملية يمكن تطبيقها بسهولة .

نظرية الأطياف والحزم والأحزمة :

وقد تعرضنا فيما سبق لفهوم هذه المصطلحات الثلاثة ، وانتهينا إلى أنه من الممكن تعيين الصفات الصوتية العضوية الأدائية بما يقابلها من صفات طيفية على النحو الآتي :

- الحركات وتعين كل حركة درجة الحزمة التكوينية الأولى والثانية والثالثة (انظر المثال ص ٢٤) .

- السواكن الانفجارية ويعينها الحزام الطيفي ودرجته (انظر المثال ص ٢٦ - ٢٨)

- السواكن الشفوية ويعينها الانتقال المساعد للحزمة الثانية من الحركة المجاورة لها .

- السواكن اللثوية ويعينها صعود طفيف في الحزمة الثانية للحركة التالية لها إذا كانت / i / أو / e / أو استواء في هذه الحزمة إذا كانت الحركة ' e ' (في مثل ساب العربية) أو هبوط مع بقية الحركات المعيارية الأربع الباقية / a / ، / ɔ / ، / u / ، / ɔ / .

- السواكن اللهوية ويعينها هبوط في الحزمة الثانية من الحركة التالية لها ويظهر كل هذا بمراجعة الشكل ص ٢٩ .

- السواكن الأنفية ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية كالتي توجد في الحركات الأولى في نطاق ٢٥٠ والثانية ٢٥٠٠ والثالثة ٣٢٥٠ ذ/ ث

- السواكن الجانبية . ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية درجاتها ٢٥٠ ، ١٢٠٠ ، ٢٤٠٠ ذ/ ث

الخ

وما دام من الممكن تحديد الخصائص والصفات الطيفية لكل صوت فإنه من الممكن بالتالي رسم تحليل طيفي يمثل المقطع الذي يوجد فيه الصوت . وتكون الخطوة التالية القيام برسم طيفي يمثل العبارة كلها .
وقد مر بك وصف عمل جهاز إعادة النطق ، ومن الممكن استغلال هذا الجهاز لنطق العبارة التي يمثلها الرسم الطيفي كما سبق أن رأيت .

وباختراع الحاسوب ، أمكن إنتاج الأصوات من الرسوم الطيفية بسرعة مذهلة ، يسرت عملية إنتاج الكلام الاصطناعي والاستفادة منه في الأجهزة العلمية والمنزلية كالساعة الناطقة والسيارة التي تدار أجهزتها بإصدار الأوامر الكلامية أو التي تنقل إليك بكلام اصطناعي أخبار العوائق التي تكون قد حدثت في الطريق الذي تسلكه عند السفر .

محاولة تجزئة الكلام الطبيعي splicing :

من المحاولات التي جرت لإنتاج الكلام الاصطناعي تسجيل أصوات اللغة منفردة دون إجراء تحليل طيفي لها ، فتسجيل صوت / م / وصوت / ا / (فتحة) وصوت / ن / وصوت / ك / وصوت / ء / ، فإذا أردنا إنتاج اللفظ (كان) وضعنا في الجهاز تسجيل الكاف ثم الفتحة الطويلة ثم النون ، وإن أردنا إنتاج (كأن) وضعنا تسجيل الكاف وبعده تسجيل الفتحة ثم تسجيل الهزعة ثم الفتحة ثم النون ، وهكذا . وكانت النتيجة غير مرضية لأننا لا نسمع كلمات بل أصواتا منفصلة .

وسبب هذا أن الكاف قبل الفتحة لا تقابل الكاف بعد الكسرة ، كما أن الفتحة بعد الميم لا تقابل الفتحة قبل النون وهكذا ، ولهذا جرت محاولة أخرى سجلت فيها عبارات كاملة كثيرة العدد ، ثم قسم الشريط إلى أجزاء (بالقص) بحيث يمثل كل جزء صوتا واحدا في موضع معين ، في الأول أو الآخر أو الوسط قبل كل صوت وبعده كل صوت يمكن أن يجاوره . وبالتالي فإنه لن يكون لدينا تسجيل واحد للكاف بل عدد كبير يمثل جميع مواقعها وتجاوراتها . وقد قدر أننا نحتاج على الأقل إلى ٨٠٠٠ تسجيل دون أن ندخل في الاعتبار ، التبر والنغم الذي يصحب الصوت .

وحتى تتصور صعوبة تحقيق هذه الطريقة سنعرض المثال التالي :

١ - إذا كان لدينا الحرفان ب ، م فإن التجمعات الممكنة اثنان هما ب م ، م ب

٢ - إذا كان لدينا ثلاثة حروف ، ب ، م ، هـ فإن التجمعات ستكون ، ب م هـ ، م هـ ب ، هـ ب م ، ب هـ م ، م هـ ب ، هـ م ب ، أى ستة تجمعات .

٣ - إذا كان لدينا أربعة حروف ، أى ب م هـ د فإن التجمعات ستبلغ ٢٤ تجمعا وهكذا .

هل تتصور العدد الهائل من تجمعات إذا أحرينا هذه العملية بين أصوات تبلغ ٨٠٠٠ صوت .

وهكذا كان من غير الممكن تطبيق هذه الطريقة في إنتاج الكلام المصطنع . ثم اخترع الحاسوب وتطور تقدمه حتى صار من الممكن إجراء ما يبلغ مليون عملية تجميع في الدقيقة ، وبالتالي لم يكن من العسير استعماله في حصر تجمعات الآلاف الثمانية المذكورة . وهذه الطريقة ميزة أخرى ، حيث إنها لا تحتاج للبحث العمل الصوق وهو معقد وطويل . ويكتفى للقيام بعملية التسجيل والتقسيم ، إعداد النصوص الكافية واستعمال الآلات لإجراء تقسيمها بعد تكبير الشريط المسجل وتقسيمه بالقص . ثم اختزان أجزاء النصوص في ذاكرة الحاسوب ، واستدعائها في التجمعات التي نريدها والتي تكون العبارة التي نريد إنتاجها اصطناعيا .

كما أن هذه الطريقة تمتاز على طريقته التحليل والتلخيص الطيفي بأنها لا تتخلص من أية موجات ثانوية بل احتفظت باللفظ كما سجل في الواقع .

ثالثا - البصمات الصوتية :

مر بك أثناء المناقشة جدول بعد شكل ١٢ ص (٢٤) وهو يمثل الفرق بين نطق رجل وامرأة وطفل للحركة /i/ ومر بك أيضا الشكل ١٨ ص (٣٢ ، ٣٣) والتعليق عليه الذي قارنا فيه بين الحزام الترددي للسین والشين كما نطقه شخصان رمزنا لهما بالحرفين (أ) ، (ب) . ومقارنة هذين الشكلين يتضح لك وجود فروق في الصور الطيفية للصوتيات عندما ينطقها شخص عنها عندما ينطقها آخر . وليس هذا قاصرا على الحركة /i/ أو الساكنين س ، ش ، بل هو أمر عام يشمل جميع الأصوات اللغوية التي ينطقها الإنسان .

وعلى أساس هذه النظرية قبل بوجود ما يسمى بالبصمات الصوتية أى الخصائص الطيفية التي توجد ولا تختلف في نطق شخص ما لأى تعبير لغوى . وعلى المهندس الذى يصمم جهازا يقوم بهذا العمل أن يزود الجهاز بوحدة تحليل طيفي ، تخزن الصور الطيفية للعبارة التي محللها في ذاكرة حاسوب ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

ولنفرض أن لصا دخل مع زميل له إلى أحد البنوك لسرقة خزائنه وكان بالخزانة جهاز تسجيل . وعندما تبادل اللص الحديث مع زميله سجلت إحدى عباراته . وأثناء المحاكمة يسمع القاضى النص المسجل ويدار الجهاز فيحلل

تحليلاً طيفياً ، يُخزن في الذاكرة ثم يكلف المتهم بنطق العبارة نفسها ويدار الجهاز مرة ثانية فيسجل مانتقن به المتهم ويحلله تحليلًا طيفيًا كذلك ثم تُجرى عملية ملائمة matching يقارن فيها بين الصورتين الطيفيتين ، فإذا كانتا متطابقتين ، فلن يكون هناك مجال للشك في أن المتهم قد ارتكب جريمة السرقة .

تعرضت في الأمثلة السابقة للنظرية الصوتية للغوية التي يمكن ، بل والتي طبقت فعلاً تطبيقاً عملياً ، أما كيفية التنفيذ الهندسي للأجهزة فهو أمر ليس لديّ الكفاءة أو المعرفة الكافية لوصفه .

ثالثاً - الاستقبال :

يتم التفاهم بين أنواع الحيوان المختلفة بصيحات محدودة العدد كالتعبير عن الجوع أو الرغبة الجنسية . أما التفاهم الإنسان فانه غنى بالأفكار والانفعالات بفضل تعدد أصوات اللغة في صفاتها وطرق تجميعها في كلمات لا حصر لمفهوماتها .

وقد ذكرنا من قبل أن النغمات عالية الدرجة ، وبصفة خاصة الحزمة التكوينية الثانية والثالثة ، هي التي تعين نوع الحركة وتساعد على تعيين السواكن الانفجارية والأنفية والجانبية ، وأن السواكن الاحتكاكية تتميز بوجود حزام ترددي عالى الدرجة . وكل هذا يشير إلى أن الدرجات النغمية العالية ذات قيمة تفاهمية كبرى . وهذا يفسر قدرة الجهاز السمعي الإنسانى على سماع النغمات العالية بأكثر مما عرفناه عن قدرة حيوان كالغزل مثلاً ، إذ يبلغ المدى السمعي عند الفيل ما بين ١٧ إلى ١٠,٠٠٠ ذ/ث بينما يبلغ عند الإنسان من ٣٠ إلى ١٥,٠٠٠ ذ/ث بل وقد يصل لدى بعض الناس إلى ٢٠,٠٠٠ ذ/ث .

ومن المعروف أن النغمات ذات الذبذبات الدنيا يمكن أن تخترق الحواجز أما ذات الذبذبات العليا فإنها تستهلك بامتصاص الحواجز لها . ولهذا زود سكان الغابات وخاصة تلك التي تتعرض للانفاس بوسيلة لإدراك الأصوات ذات الذبذبات السفلى كمخطوات الحيوان المفترس الحذرة قبل الهجوم على فريسته . وهذه الوسيلة هي شكل بوق الأذن ، حيث يكون كالأنبوبة الطويلة المفتوحة من طرفها وأحد جوانبها إلى جانب قرب الأذنين إحداهما من الأخرى والقدرة على تحريكها في اتجاهات معينة مما يمكنها من تكبير الصوت وتحديد مكان مصدره .^(١٩)

ورغم هذا الفرق بين كل من وظيفة اللغة ومدى الإدراك السمعي عند الإنسان والحيوان ، فقد وجد الباحثون أن معرفة النشاط الإدراكي الداخل عند الإنسان لن يتم إلا بدراسة هذا النشاط عند الحيوان . وذلك لأن التجربة المباشرة قد تؤدي إلى الموت أو إلى إصابة المخ بإصابة دائمة لا علاج لها . وقد لوحظ أن نوعاً من الضفادع يسمى بالضفدع الثور Bullfrog يصدر صيحات شبيهة بالحركة /i/ (الكسرة) وأن هذه الصيحة مركبة من حزمتين تشبهان الحزمة الأولى والثانية في هذه الحركة وأن الموجة الأساسية لهذه الصيحات هي ١٠٠ ذ/ث تليها موجات توافقية درجاتها مضاعفات

لهذا العدد أى ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٠٠ الخ وقام الباحثون برسم يدوى للصوت الطيفية لهذه الصيحات وأسمعت لأنواع أخرى من الضفادع فلم تستجيب لها . ثم عرضت على هذه الضفادع واستجابت لها كما لو كانت صادرة عن فرد حي من أفرادها . وكان على الباحثين أن يعرفوا ما إذا كان مخها يحتوي على مراكز إدراكية لهذه الأصوات فوضعوا رؤوسا إلكترونية صغيرة على أجزاء من مخها بعد شح رأسها وعرضوها لسماع الأصوات فحدثت ردود فعل كهربائية في بعض خلايا المخ المعنية . وقد وجد أن هذه الخلايا لا تستجيب إلا لموجات توافقية متحدة في عدد الذبذبات مع هذه الصيحات وهكذا انتهوا إلى وجود مراكز عضوية في المخ وظيفتها استقبال الصوت وإدراكه .

النظرية الآلية Motor Theory^(٢٠) :

تقول هذه النظرية بأننا ندرك الأصوات بنفس الطريقة التي نتتجها بها ، ونحن نشاهد أن بعض الناس يحركون أعضائهم الطيفية عند قراءة نص ما . ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذه الظاهرة تطبيق واضح لنظريتهم ، ويقولون بأننا حين نسمع صوتا ما تقوم أعضاؤنا الصوتية بنفس العمليات التي تتم لإنتاج هذا الصوت ، بأداء دقيق لا يكاد يدرك . ويقارن المخ بين نشاط الأعضاء الصوتية هذا وبين الصور المخزنة فيه عن صور النشاط العضوي اللغوي المختلفة حتى يلائم بينه وبين واحدة من الصور المخزنة فيتم الإدراك . ومثل هذه العملية هو ما يحدث في جهاز الحاسوب عند قيامه باسترجاع المعلومات استعدادا للوصول إلى حكم معين .

ويرفض بعض من يقول بهذه النظرية قيام الأعضاء الصوتية بأية عمليات تمهيد الإدراك الصوت المسموع ويرون أن الجهاز الإدراكي الإنساني شبيه بالجهاز الإدراكي عند الثور الضفدع . أما وسيلتهم إلى إثبات هذا الرأي أو ترحيحه على الأقل ، فهي افتراض أن ملكة الإدراك عند الإنسان تمثل تطورا بيولوجيا عن ملكة قديمة كانت عند الأم الأصل للأنواع الثديية . وتدل الدراسات المقارنة التي قام بها نيجوس في كتابه *Negus, comparative anatomy of the Larynx* ، على أن الحنجرة في الحيوانات الأرضية (فسيأعدا الحشرات) من أبسط أنواعها إلى أرقاها أى إلى الحيوانات كانت تستعمل في إنتاج أصوات مركبة الموجات مكونتها موجة أساسية وحزم تكوينية وأن الموجة الأساسية تنتج عن تذبذب جهاز نغمي (كالحنجرة عند الإنسان) وأن المكونات التوافقية تحدث عن عمليات الترشيع والتقوية ، تماما كما يحدث عند إنتاج الصوت الإنساني وهم يلفتون النظر إلى أن جميع الحيوانات الثديية كالقطة والكلاب مزودة بجهاز إدراكي مركزه بعض خلايا المخ وظيفته الاستجابة الكهربائية للموجات الصوتية . وهم يتصورون أن عمل هذا الجهاز يتم بالملامعة بين الصوت الذي يسمعه والخبرات الصوتية المخزنة في المخ وأنه بواسطة هذه الملامعة يحكم المخ بأن الصوت المسموع من هذا النوع أو ذاك ، تماما كما يحدث في جهاز الحاسوب عندما يراجع المخزن في حتى يصل إلى الحكم على نوع شيء ما . ومع هذا فهناك فرق جوهري بين عمليتي الاختزان والمراجعة عند الإنسان والحيوان . وسبب هذا الفرق ، أن صيحات الحيوان معدودة في عددها ودلالاتها ولهذا يمكن اختزانها باعتبارها من نفس النوع مهما كان موطن الحيوان أو ظروفه المعيشية .

أما الإنسان فإن الكلام الذى يصدر عنه يحتوى على رموز ودلالات لا تكاد تحصى ، كما أنه يختلف حسب موطن الشخص وطبقته الاجتماعية ومستواه الثقافى الخ . ولهذا فإن عملية الاختزان والاستدعاء أكثر تعقيداً عند الإنسان منها عند الحيوان ، حتى ولو كانت متحدة في الأصل التطورى .

التصنيف encoding والحكم decoding :

لا يختزن الصوت الإنسان في الذاكرة بذاته ، بل بنوعه . ونود أن نذكر القارئ بما قلناه من قبل عن عملية التجريد التى نجريها في الدراسات الصوتية . وتتقضى هذه العملية تجاهل الفروق الفردية والتركيز على صفات النوع في كل موقع من المواقع^(٢١) . وقد مثلنا لذلك بالأصوات المختلفة التى نصنفها تحت وحدة / ن / رغم اختلافها من ناحية الأداء بل والتحليل الطيفى .

ويقوم جهاز إدراك المفهومات والرموز وتخزينها بتصنيف الرموز على هذا النحو . والسؤال الهام هو ما إذا كان الجهاز يختزن الأصوات أو المقاطع أو الكلمات .

الثابت أن الأذن حين تتلقى رسالة صوتية تقوم بعملية عكسية لتلك التى تحدث في الخنجرة والفراغات العليا في جهاز النطق . وهذه العملية الأدائية تتخلص من العديد من الموجات الصادرة عن عمليات الزفير في منطقة أسفل الخنجرة ، وذلك بدفعها إلى الفراغات العليا التى تقوم بعملية ترشيح وتقوية يحدث عنها الصوت اللغوى المركب من حزم أو أحزمة طيفية . أما الأذن فلها تقوم بتحليل هذه الحزم إلى الموجات المكونة لها ، حيث تمر كل موجة بالشعيرات السمعية الحساسة في الجزء المسمى بالقوقعة ، فتهتز الشعيرة التى توافق في الدرجة الموجة وينتج عن ذلك تيار كهربائى تنقله الحويوط العصبية إلى خلايا المخ لاختزانه .

ولكن القيام بعملية التحليل هذه لا يعنى أن الأصوات ، أو الموجات التى تكونها تختزن باعتبارها وحدات منفصلة عما يجاورها بل إنها تمثل أفراداً الجنس صوتى (صوتيم) يحدد اختيار الفرد منها المحيط الصوتى المحيط به . ولتأخذ مثالا لتوضيح ما نقول : الفتحة الطويلة التى نسميها بالآلف توجد في عدد من مجموعات التجاور منها :

١ - في اللفظ (أمام) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (أمان) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (لام) يوجد ، ساكن لثوى جانبى + ألف + أنفى شفوى .

(٢١) رابع من ٨ من هذا البحث .

في اللفظ (إيماء) يوجد ساكن أنفى شفوى + ألف + حنجري انفجاري .

في اللفظ « حنان » يوجد ساكن أنفى لثوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (نام) يوجد أنفى لثوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (آناء) يوجد أنفى لثوى + ألف + حنجري انفجاري .

في اللفظ (لأن) يوجد لثوى جانبي + ألف + لثوى أنفى

وفي كل نموذج من النماذج المذكورة توجد في الألف صفات خاصة يفرضها المحيط الصوتي الذي توجد فيه ، وبالتالي فإن تحليلها الطيفي سيختلف في كل نموذج عنه في النموذج الآخر . ولهذا فإن الحيوط العصبية لن تنقل نموذجاً طيفياً واحداً ، بل مستقل في حالة المثال السابق ثمانية أشكال طيفية يختص كل منها بأحد النماذج المذكورة .

وينفس هذه الطريقة يتم اختزان المعلومات في الحاسوب . وعندما يسمع الشخص لفظ (لام) مثلاً فإن الشعيرات العصبية مستقلة إلى المخ صورة طيفية معينة فيراجع المخ مخزناته من الصور الطيفية حتى يجد الصورة المختزنة الملائمة لها في الشكل الطيفي فيحكم بأن هذه الرسالة تمثل الكلمة (لام) . المثال السابق يوضح أن عملية الاختزان تتم مع عملية تصنيف ما تختزن وأن عملية الإدراك تتم بالوصول إلى الحكم بعد مراجعته النماذج المختزنة وملاءمة الرسالة لواحد منها . ويجب أن نذكر هنا بأن هذه النظرية لاتزال محل الجدل وأن الأبحاث لاتزال جارية لكشف هذا السر المحير .



أ - المراجع العربيه :

- ١ - عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، القاهرة ١٩٦٨ .
٢ - عبد الرحمن أيوب : الكلام : إنتاجه وتحليله . نشر جامعة الكويت ١٩٨٤ .

ب - المراجع الانجليزية :

- (3) CHOMSKY. N. The Formal Nature of Language APP. A. in Biological Foundations of Language, U.S.A., 1967.
- (4) LENNEBERG E.H. Biological Foundations of Language, U.S.A., 1978.
- (5) LIEBERMAN P. The Biology and Evolution of Language, U.S.A., 1984.
- (6) LURIA. A.R. The Working Brain, Penguin Books. U.K. 1973.
- (7) PAGET. R.S. Vowel Resonances, International Phonetic Association, 1922.
- (8) STEVENS. P. Spectra of Fricative Noise in Human Speech, Speech and Sound, Vo. 3, 1960, PP 32-49.
- (9) — Journal of the Accoustical Society of America, U.S.A.
- (a) P. COOPER F.S. et al. Some Experiments on the Perception of Synthetic Speech Sounds., Vol. 24, 1952, PP 597-606.
- (b) U. DELATTRE. P.C. et al. Accoustic Loci and Transitional Cues for Consonants, Vol. 27, 1955, PP 769-773.
- (c) PETERSON. G.E. and BARNEY. H.L. Control Methods used in a Study of the Vowels., Vol. 24, 1952, PP 175-84.



مقدمة :

حينما يبرز الاتجاه التوليدي Transformational Grammar على مسرح الدراسات اللغوية في منتصف الخمسينيات ، فإن ذلك كان إيذاناً بتحول جذري في مسرح الدراسات اللغوية . لقد عمل هذا الاتجاه على تأسيس متركزات جديدة في البحث اللغوي . وهذه المتركزات على اختلاف تفاصيلها يجمعها إطار فلسفي واحد حاول شومسكي Chomsky (صاحب الاتجاه) ومن بعده تلاميذه ومريدوه تأسيسها بعمق . وهذا الإطار يتناول اللغة على أنها نشاط عقلي . يقول شومسكي (Chomsky 1965:4) :

« ان النظرية اللغوية نظرية عقلانية ، حيث انها تعنى باكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة تحت السلوك الفعل » .

لقد تغيرت جوانب كثيرة في نظرية النحو التحويلي ، وغير شومسكي نفسه الكثير من أفكاره ، وطور جانباً آخر منها ضمن تفاصيل تتخذ سمات منطقية أو سيكولوجية . ولكن الإطار الفلسفي العام للنظرية بقي ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هي نفسها طبيعة العقل . ويستتبع ذلك أن هدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكلية المعبرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن المتكلم يستعمل في لغته عدداً عدداً من التراكيب . وبدراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعل يكون بالإمكان التوصل الى مجموعة متناهية من الأحكام التي تصف السلوك اللغوي الصحيح للمتكلم . والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذي يمكن المتكلم من إنتاج جل لانهاية لها (من الناحية المنطقية على الأقل) . وهذه

الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة

يحيى أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الكويت

القواعد نفسها هى التى تمكن المتكلم من الحكم على الجملة التى يسمها أو يقرؤها ، فيرفض مالا يتفق منها مع قواعد اللغة . وهى التى تعينه على فهم الجملة الجديدة التى يسمها أو يقرؤها لأول مرة . وهى التى تساعد على فهم الجملة الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية فى تمثل اللغة .

وقد اهتم الاتجاه التحويل بربط العلاقة بين اللغة والعقل فى جانبين آخرين : الأول هو مسمى بالمظاهر العالية للغة ، ويمثل هذا الجانب - من جملة أمور أخرى - فى الجهاز الفطرى الكامن فى الانسان الذى يمكنه من اكتساب اللغة . ويمثل الجانب الثانى فى فكرة البناء العميق . فها دامت اللغة هى عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائما عوامل تكمن تحتها . هذه العوامل هى عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المخزنة فى عقل الإنسان . ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغوية تجمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى . وقد أعطيت القواعد التحويلية - transformational rules مطلق الصلاحيات لاجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة الى بنائها السطحي : الشكل المنطوق أو المكتوب .

إن الذى يهمنى من هذه المقدمة هو أن نخلص الى أن نظرية النحو التحويل قد جعلت النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكل آلى حينما تتبع القواعد الموضوعية لابتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أى تبرير وظيفى لحدوث التحويلات فى مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التى يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاماً مسألة السياق الذى يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقل .

وقد برزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايا مختلفة . ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفى الذى يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويل . وتستولى فى هذه الدراسة بيان أسس الاتجاه الوظيفى ونظريته البراغمية الى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهما لنا ألا وهو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة . ولذلك فقد حرصت على أن أضمن المقالة الجانب التحليل حتى لا يكون السرد مجرد حديث نظرى . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية اضطررت الى استخدام مجموعة مصطلحات عربية هى فى أغلبها ترجمات مقترحة منى شخصيا ، ولذلك رأيت من المناسب أن أردف كل مصطلح عربى بمرادفه الأجنبى لكى يكون القارئ المتخصص على بينة بالأفكار التى أتحدث عنها .

والبحت يبدأ بتعريف الاتجاه الوظيفى وبيان خصائصه المميزة ، ثم يعرض للمدارس الوظيفية المعاصرة مبيناً منهاجها وأفكارها من خلال تطبيقها على اللغة العربية فى حدود ما تسمح به المساحة . وأخيرا يتوقف عند التطورات الحديثة فى الاتجاه الوظيفى :

ما هو المقصود بالاتجاه الوظيفي ؟

الاتجاه الوظيفي مدرسة من مدارس الفكر اللغوي المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استخدام اللغة وبالقيمة الانصالية للغة^(١) . فاللغة في نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل الى أهداف وغايات . وإذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية يمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي فإن ذلك يتمثل في السؤال التالى : لماذا نستعمل اللغة ؟ وقد لاحظنا فيما سطرناه في المقدمة أن المد اللغوي الذى اكتسح حقل الدراسات اللغوية في الستينيات والذي يتمثل في نظرية شومسكى العقلانية قد اهتم بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعانى .

والجانب الوظيفي للغة ليس شيئا منفصلا عن النظام اللغوي نفسه . فتداخل الأدوار roles والمشاركين participants في النظام النحوي حسب نمط معين (كما سيمر بنا) في كل لغة مرتبط ارتباطا مباشرا بالوظيفة التى تؤديها الجمل في السياقات المختلفة . ويزيد هاليدي (Halliday 1973:23) هذه النقطة توضيحا بقوله :

« إذا كان بإمكاننا أن نغير مستوى الرسمية formality في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننقل بحرية من نمط سياتى معين الى نمط آخر ، فنستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم ، وتارة لإلقاء محاضرة عامة ، وتارة لتدبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شاكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقاتها الاستيعابية الكلية » .

وبذلك فإن الاتجاه الوظيفي يربط بين النظام اللغوي وكيفية توظيف هذا النظام لاداء المعانى . ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتراكيب المختلفة الموجودة في لغته . إن كل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة لأنه يمكن المتكلم من تنظيم كتل المعلومات طبقا لظروف الكلام . فالجمل التالية مثلا :

- ١ - استقبلت الأوساط الأدبية نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٢ - استقبل نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٣ - الأوساط الأدبية استقبلت نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
- ٤ - نجيب محفوظ استقبل نبأ حصوله على جائزة نوبل ببالغ السرور .

تؤدي وظائف مختلفة لأن كل واحدة منها تقترب بسياق مختلف وتستعمل في ظروف مختلفة . وانطلاقا من هذا الفهم ، فإن هذه الجمل الأربع لاتعتبر مترادفة لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكل

(١) مزيد من التفاصيل انظر هاليدي (Halliday (1973: 22

واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذي يؤديه كل أسلوب في الحياة الاجتماعية . ولنتذكر هنا أن الانحاء التحويل يعتبر الجمل (٢) و (٣) و (٤) مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية ، ويمكن التوصل إليها بتطبيق القواعد التحويلية على الجملة رقم (١) . وأما التأويل الدلالي الذي يرتبط بهذه الجمل فهو واحد في جميع الأحوال .

المظهر الثان هو أن جذور اللغة تمتد الى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها . فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث والعادات والتقاليد . ان الظواهر الاجتماعية التي يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه الى مجتمع متأخر عليه سلوكا لغويا معينا . ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التي ينتهجها الفرد في المواقف المختلفة . فالتحدث الى رئيس الدولة وإلى زميل في العمل وإلى فراش في دائرة العمل لا يتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة ، وإنما نجد أن الأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن الكلام يعكس الخلفية الاجتماعية والثقافية للفرد . ولذلك فوضعنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام وقح يعتبر وصفًا جماليًا أخلاقيًا نابهاً من اعتقاداتنا الاجتماعية . ان البنية الاجتماعية تنعكس في التركيب اللغوية التي نستعملها . ونجد هذا الانعكاس كذلك في المصطلحات الدالة على صلة القرابة وفي مصطلحات الألوان والتعبيرات المشتقة منها . ونجدها فوق كل ذلك في المستويات الأسلوبية registers ، واللكنة التي يتحدث بها الشخص تعكس مظهرًا اجتماعيًا . حينما نسمع لكمة الصعيدي وهو يتحدث باللهجة المصرية ، أو لكمة البدوي وهو يتحدث باللهجة الكويتية نستطيع أن نفرق مباشرة أن هذا الشخص ينتمي الى شريحة اجتماعية معينة . والتنغم كذلك يرتبط بهذا الجانب ارتباطًا واضحًا ، بحيث إنه بإمكاننا أن نتعرف على الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الشخص وذلك من خلال طريقة تحدثه .

المظهر الثالث تصافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكرة التي يريد المتكلم توصيلها . والأمر هنا يشبه عمل السلك الكهربائي . فالسلك الكهربائي الواحد يتكون من مجموعة أسلاك شعيرية دقيقة . ولا نستطيع عندئذ أن نقول ان سلكاً بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسئول عن توصيل الكهرباء . فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة . وهكذا الأمر بالنسبة للغة . فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوي بأداء الوظيفة . فالوحدة الصوتية - مثلاً - تستطيع أن تؤدي وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تشكل الكلمة ذات الدلالة المفيدة في المعجم ، والكلمة بدورها تؤدي وظيفتها ضمن نظام نحوي .

إذن فالانحاء الوظيفي يتميز من بين الانحاءات الأخرى في الدراسات اللغوية بأنه يربط اللغة بالوظيفة التي تؤديها من جانب ، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر . والتحليل اللغوي الوظيفي يكون من منظور يهدف الى بيان الوظائف التي تؤديها اللغة في البيئة اللغوية . أما الإطار النظري الذي يتم من خلاله التحليل فهو مصمم لأداء هذا الغرض العام . ولذلك لا يحفل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية وإلى أي حد تتمثل فيها الكفاية الوصفية de- scriptive adequacy والكفاية التفسيرية explanatory adequacy فالنظرية ليست هدفاً وإنما هي إطار يتم من خلالها الكشف عن الخيارات المتاحة أمام المتكلم . يقول هاليدى في مقدمة كتابه « مقدمة في النحو الوظيفي » (Halliday 1985:19) :

« إننا لسنا بحاجة إلى نظرية متخصصة إلى حد كبير بحيث يستطيع المرء أن يفعل القليل بها » .

ويقول في الصفحة الثامنة من المقدمة نفسها :

« إن الكلام المنطوق يحتاج إلى شكل مرن وليس إلى بناء جامد من التمثيل الشكلي » .

ونجد هذا المتحى واضحا عند لغوي مدرسة براغ الذين أجروا تحليلاتهم من خلال « مفاهيم وظيفية » وليس من خلال نظرية بالمعنى الذي نجده عند التحوليين أو البنائيين الأمريكيين . ونجده أكثر وضوحا عند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذي نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات إجرائية أكثر مما هو نظرية .

المدارس الوظيفية المعاصرة :

توجد ضمن الاتجاه الوظيفي العام مدارس متعددة ، تختلف في تناولها للمظاهر المدروسة من حيث عمق التحليل ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهرة . وعلى الرغم من التباعد الزماني والثقافي بين هذه المدارس إلا أنه يجمعها تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين .

وسأحاول فيما يلي أن أقدم للقارئ العربي صورة شاملة لمضمون أفكار المدارس الوظيفية . وسيجد القارئ أن بعض الأفكار التي سيرد ذكرها من الممكن تتبع جذورها في الفكر البلاغي العربي أو مقارنتها بأفكار البلاغيين العرب النابيين . ولكن الهدف المرسوم لهذه المقالة يجعلني أتجنب الخوض في هذا الجانب .

مدرسة براغ :

في حوالي سنة ١٩١١ ألقى ماثيسوس Mathesius (١٨٨٢ - ١٩٤٥) محاضرة مهمة حول ماسماه (د) خصيصة اللغة (characterology of language) وقد قال باكيسون عن هذه المحاضرة إنها لو كانت قد ألفت في مكان آخر غير براغ ، في موسكو مثلا ، لأحدثت ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية عندئذ ^(٢) ولذلك لم تكن أفكار ماثيسوس معروفة لدى الأوساط اللغوية حتى انعقد الاجتماع الأول لمدرسة براغ في أكتوبر ١٩٢٦ ، وكان ذلك بمبادرة من ماثيسوس نفسه . وبعد انتهاء جلسات الاجتماع ، اتفق المجتمعون على الالتقاء بصفة دورية ضمن « حلقة براغ اللغوية » . وابتداء من هذه الفترة تجمع حول ماثيسوس مجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية . وقد عرف هذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) .

(٢) انظر في ذلك (5: 1966) vachek .

وقد ضم التجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا . فالتسمية إذن لا تشير إلى المحلية ، ولكنها تستخدم استخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التي تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوي ألا وهي النظرة الوظيفية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تأثر نشاط مدرسة براغ تأثرا بالغا ، حيث أغلقت القوات الألمانية التي احتلت تشيكوسلوفاكيا جميع الجامعات فيها . وشهد عام ١٩٣٩ موت أحد أبرز أفراد المجموعة وهو ترويتسكوي^(٣) . وفي تلك الفترة ونتيجة لظروف الحرب ؛ اضطرت رومان ياكسيون أن يهرب من الحكم النازي ، فرحل إلى الدنمارك ، ثم الترويج وأخيرا حط الرحال في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة ، أي في الثاني عشر من أبريل ١٩٤٥ توفى مؤسس المدرسة ورائدها الأول ماثيسوس . وأدت كل هذه الأمور إلى نشأت أفراد المدرسة .

وبعد استتباب الأوضاع وفي بداية الخمسينيات حاولت الأوساط الأكاديمية في بعض الجامعات التشيكية إحياء اتجاه مدرسة براغ ولكن من خلال مسميات جديدة مثل (الرابطة اللغوية) Linguistic Association و (جماعة علم اللغة الوظيفي) The Group for Functional Linguistics وقد ضمت هذه التجمعات أفرادا نشيطين واصلوا الكتابة ضمن الإطار الفكري للمدرسة ، وأعادوا نشر الدورية المشهورة التي كانت تصدر باسم المدرسة والمسماة « Travaux Linguistique de Prague » .

« ان السمة البارزة للغوي مدرسة براغ هي نظرتهم إلى اللغة في إطار الوظيفية . وأعلى بذلك ليس فقط أنهم نظروا إلى اللغة ككل على أنها تخدم غرضا ، فهذه حقيقة معروفة وهي وحدها لا تميزهم عن غيرهم . بل القصد أيضا أنهم كانوا يحملون اللغة المعينة من خلال وجهة نظر تهدف إلى أن تبين لنا الوظائف الخاصة التي تؤديها الأبنية المختلفة في استخدام اللغة ككل . وهذه النظرة ميزت مدرسة براغ تميزا واضحا عن معاصريهم من البنيويين الأمريكيين (و تميزهم بوضوح كذلك عن التحوليين) الذين نظروا إلى النحو على أنه يتكون من مجموعة من العناصر » . (Sampson 1980:103) .

من معالم مدرسة براغ المهمة اهتمامها بقضية المعنى . ولكي نعرف أهمية هذا الجانب فإنه من المفيد أن نذكر في هذا السياق أن الاتجاه البنائي المتمثل في كتابات بلومفيلد وغيره من اللغويين الأمريكيين ، قد ربط المعنى بعنصرى المثير ورد الفعل . أي أن تحليل المعنى يكون بأن نبين نوع المثير الذي يولد رد فعل معنا والمتمثل في العبارات التي ينطق بها المتكلم ، وأن نبين رد الفعل السلوكي الذي يحدده المتكلم باعتباره مثيرا . فمستعمل اللغة قد يمثل عنصر الاستجابة أو

(٣) نيكولاي ترويتسكوي Trubetzkoy (١٨٩٠ - ١٩٣٨) واحد من أعضاء مدرسة براغ الذين لم يكونوا يعيشون في تشيكوسلوفاكيا ، فهو ينتمي إلى أسرة من نبله روسيا . كان والده أستاذا للفلسفة ، وأصبح مديرا لجامعة موسكو . وقد درس ترويتسكوي اللغات الهندية - الأوروبية ، وأصبح عضو هيئة تدريس في جامعة موسكو عام ١٩١٦ . وحجبا بدأت الثورة البلشفية ، هرب الأمير ترويتسكوي إلى روستوف ، ثم بعد ذلك إلى فينا حيث أسست إليه رئاسة قسم الدراسات السلافية في جامعة فينا عام ١٩٢٢ . ثم أصبح بعد ذلك عضوا في مدرسة براغ (تيمد براغ عن فينا مسالة ١٥٠ ميلا) . وفي ترويتسكوي في فينا حتى توفي في عام ١٩٣٨ أثر أزمة قلبية ، وذلك نتيجة لاستجواب قوات الجشابرله ، حيث كان ترويتسكوي من مناصبي النازية . انظر (Sampson 1980: 107) .

رد الفعل حينها يكون متلقيا ، وقد يمثل عنصر المثير حينها يكون مرسلًا . ان اتخاذ الاتجاه البنائي لهذا الإطار النفسى الضيق للتفسير الدلائى كان بسبب تأثره بأفكار مذهب من مذاهب علم النفس يعرف بالسلوكية Behaviourism ، وهو مذهب يفسر السلوك الإنسانى حسب الأفعال الظاهرية والتي هى عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية في البيئة . ويذهب الى أن خصوصيات ومحتويات العقل يمكن النفاذ إليها عن طريق الاستبطان . ولذلك فإن قضية المعنى تشكل نقطة ضعف في الاتجاه البنائى ، ولم تعط حقها من الاهتمام .

والملاحظ أن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ منحى المنطق الوضعى أو المنحى التجريدى الذى يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوى ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا . وهذا واضح في أن ماسموه بالمحتوى الدلائى semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كالمستوى النحوى والمستوى الأسلوبى ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجى ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم . (راجع 1966:34 Vachek) فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوى ينبغى أن ندركها ألا وهى أن التكلم حينها يوجه خطابه الى المستمع فإنه لا يريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق . إن العبارات المنطوقة تكون دائما مغلفة بمشاعر الفرد . وذلك بحكم انتمائه الى بيئة اجتماعية تموج فيها شتى المعطيات والتغيرات . وقد فهم لغويو مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجة يمثل وظيفة اللغة في المجتمع . وسنجد أن مدرسة لندن قد وظفت هذه الفكرة توظيفا مثاليا من خلال نظرية سياق الحال .

المنهج الوظيفي للجملة :

سأعرض فيما يلى بتفصيل أكثر للمنهج الوظيفي لمدرسة براغ من خلال التحدث عن مجالات الدراسة اللغوية التى ساهمت فيها مدرسة براغ مساهمات مميزة : النحو والدلالة^(٤) .

تعتبر مقالات مائيسوس في تحليل الأبنية التركيبية للانجليزية والتشبيكية نقطة البداية لنمط من التحليل سماه مائيسوس نفسه « المنهج الوظيفي للجملة » .

Functional Sentence Perspective ولكى نتضح لنا طبيعة هذا المصطلح ، فإنه من المفيد أن نذكر هنا أن اللغة

في منظور مدرسة براغ لها ثلاثة مستويات هى :

١ - المستوى النحوى (ويندرج فيه الصرف كذلك) .

٢ - المستوى الدلائى .

٣ - المستوى الكلامى Organisation of utterance .

(٤) في بعض المجال هنا للتحقق الى الأفكار الوظيفية لمدرسة براغ حول الوحدة الصوتية واللامع الصوتية للميزة . وبإمكان القارئ أن يجد تغطية جيدة لبعض تلك الجوانب في

كتاب (أحمد مختار عمر . ١٩٧٦) .

والمستوى الأخير يبين كيف يتفاعل المستوى النحوي والمستوى الدلالي في عملية الاتصال اللغوي^(٥). وضمن نطاق هذا المستوى الثالث برزت فكرة المنظور الوظيفي للجملة. ويقوم هذا التحليل على أساس القيمة الاتصالية للغة. ان اللغة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية. وهي ليست شيئا مجردا عن الواقع الذي توجد فيه، بل ان وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع. والمنظور الوظيفي للجملة ينظر الى الجملة على أنها تتكون من شقين: الأول ويسمى المسند theme، والثاني ويسمى المسند إليه^(٦) rheme.

والأمثلة التالية توضح كلا من الشقين:

« المال والبنون »		زينة الحياة الدنيا	
المسند		المسند إليه	
تمكن	أخى	من الدفاع عن المتهم	
المسند	المسند إليه		
« يريد	الله	بكم اليسر	
المسند	المسند إليه		

ويأتى المسند - في الغالب - أولا ثم يعقبه المسند إليه. هذا هو الترتيب المتبع حينما يكون نسق الجملة محايدا. والنسق المحايد هو الترتيب المألوف لأجزاء الجملة في الاستعمال العادى، أى الاستعمال الذى يراده مجرد الاختبار أو الاستناد. أما حينما يريد المتكلم أن يجذب انتباه السامع الى عنصر معين في الجملة، أو انه يريد التركيز على عنصر معين لأنه يمثل في نظره زيادة الحدث اللغوى، فإنه يلجأ عندئذ الى خرق هذا النسق الطبيعي.

« والله »		يدعو الى دار السلام	
المسند		إليه المسند	
أخوك	أخبرنى	بذلك	
المسند	المسند إليه		

(جوابا للسؤال : من أخبرك بذلك ؟).

(٥) راجع لي تلك مقالة داتش (Danes 1966: 225). وعلى الرغم من تقسيم اللغة الى هذه المستويات فان أي مستوى منها لا يمكن فصله عن بقية المستويات، لأن اللغة ذات أنظمة متداخلة. ولكن لغوي براغ أشار بأن تحديد المستويات ضروري للبحث عن حقائق اللغة.

(٦) استخدمني المصطلحي المسند والمسند إليه منسجم من حيث الاستعمال وليس المتفق مع استعمال سيويه لها. ففي الجملة الأسمية يعتبر المبتدأ مسندا والخبر مسندا إليه: « فالبتدأ مسند والمبتدأ عليه مسند إليه » (الكتاب ٧٨/٢). وفي الجملة الفعلية يكون الفعل مسندا والفاعل مسندا إليه. وأورد أن ألفت نظري الفارسي الى أمرين يتملقان بهذين المصطلحين. الأول أن جوهر النحلة استعمالها على خلاف ما أشار إليه سيويه. الثاني أن سيويه ومن جاء بعده من النحاة قد استعمالوا المصطلحين للإشارة الى اعتبارات نحوية، ولكنني استعمالها هنا للإشارة الى شيئين (أ) عنصر المعلومات في الجملة (ب) مدى ما للوحدة من دينامية في الاتصال اللغوي. وسيرد شرح ذلك في نص المقالة. أنظر كذلك الخاتمة رقم (٨).

وفيا على مثالان توضيحيان آخران يعبران عن فكرة واحدة ، لكن الفرق بينهما هو في مجال التركيز ، وسنجد أن توزيع المسند - المسند اليه يعكس هذا الفرق :

وصل	الوفد الرياضى الصيبي	الى البلاد ليلة أمس
المسند	المسند إليه	

(جوابا للسؤال / ماهى أخبار الوفود الرياضية ؟)

الوفد الرياضى الصيبي	وصل	الى البلاد ليلة أمس .
المسند إليه	المسند	

(جوابا للسؤال : أى وفد وصل الى البلاد ليلة أمس ؟)

إن تحديد موضع المسند في الترتيب المحايد ينبع من الحقيقة المعروفة وهى أن المرء يبدأ كلامه بالمعلومات المعروفة لدى المتكلم أو التى سبقت الإشارة إليها أو التمهيد لها في السياق . ثم يضيف بعد ذلك المعلومات الجديدة التى يظن أنها كفيلة بإثراء القارئ أو السامع . ولكن مفهوم المسند والمسند إليه لا ينحصر في هذا النطاق من الفهم الابتدائى . فالواقع أن اللغويين الذين جاءوا بعد ماثيوس قد طوروا هذا المفهوم . ومن أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس Jan Firbas . يتخذ فرباس « المنظور الوظيفى للجملة » أساسا للتحليل ويحدده بوضوح (Firbas 1959:39) على النحو التالى : « المقصود بالمنظور الوظيفى للجملة هو ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعل » . ويقدم مفهوما وظيفيا جديدا يسميه « دينامية الاتصال » Communicative dynamism ، وهى خاصة من خاصيات الاتصال تتجلى في سياق تنمية المعلومات التى يراد التعبير عنها^(٧) . ذلك أنه في عملية الاتصال اللغوى تتعدد العناصر التى تدخل في تكوين الجملة ، وهذه العناصر لها امكانية متفاوتة في إثراء معلومات المستمع : فبعضها يحتوى على معلومات يعرفها المستمع بالفعل (أو يمكن استعادتها من خلال السياق) ، وبعضها يحتوى على معلومات جديدة . وحينما ننظر إليها من هذه الزاوية نجد أن قدرتها على تحريك الحدث الكلامى متفاوتة ، وهذا انعكاس للطبيعة الديناميكية لعملية الاتصال اللغوى .

وطبقا لمفهوم « دينامية الاتصال » فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة : المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال . المسند إليه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال . وبعد هاتين الوحدتين أو قبلها أو بينها تأتى الوحدة الانتقالية ، transition وتكون غالبا من العناصر الإضافية (الظرف ، الحال) أو العناصر التى نحتاج إليها

(٧) راجع لزيد من التفاصيل مقالة لفرباس (Firbas 1971) ص ١٣٦ لما بعد .

لاستقامة الجملة نحوياً (أدوات النسخ ، أدوات الشرط الخ)^(٨) . وهنا نرى أن تحديد المسند - المسند إليه يكون على أساس وظيفته في الاتصال اللغوي ، بينما التحديد السابق كان يربط بينها بشكل ما يعنصر المعلومات . ولكي يتمكن من تحديد هذه الوحدات في الجملة ، فإنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الثلاثة التالية :

- ١ - نسيق الجملة ، أى كيفية ترتيب الأجزاء فيها .
- ٢ - السياق العام للحدث اللغوي .
- ٣ - السياق الدلالي الخاص للجملة (البنية الدلالية) .

وهذا يبين لنا أن دينامية الاتصال ليست نظاماً منفصلاً ، ولكنها وليدة عدة عوامل مجتمعة . والجمل التالية توضح هذه الوحدات :

السياق : أين رمى الفرائش الأوراق ؟

الجملة : في سلة المهملات	رمى	الفرائش	الأوراق
مسند إليه	وحدة	مسند	مسند إليه
انتقالية			

السياق : هل جميع الناس ظالمون ؟

الجملة : والظلم	من شيم النفوس	فان تجد
مسند	مسند إليه	وحدة انتقالية

الجملة : لا يظلم	فلعله	ذا عفة
(المتنبى)	وحدة انتقالية	مسند إليه

السياق : هل تصدق أنني نسيت أن أغلق باب شقتي ليلة أمس ؟
- وماذا حدث ؟

الجملة : دخلت قطة صغيرة داخل المطبخ .
المسند إليه

(٨) لقد رجعت في الحاشية رقم (٦) أن مصطلحي المسند والمسند إليه يستخدمان بمفهوم جديد . ولكي لا يكون هناك لبس في ذهن القارئ فاني أحب أن أذكر أن البلاغيين العرب يقسمون الجملة الفعلية إلى ركنين أساسيين : المسند (وعمله الفعل) والمسند إليه (وعمله الفاعل) . ويقسمون الجملة الاسمية كذلك إلى ركنين : المسند إليه (وعمله المبتدأ) والمسند (وعمله الخبر) . وقد استخدم البلاغيون العرب مصطلح (متممات الاسماء) للتعبير عن كل ما عدا المسند والمسند إليه . أي أن البلاغيين العرب يربطون في الموقعية بين المسند والمسند إليه والترتيب التصوري لعناصر الجملة (بين المسند إليه وكونه يقع فاعلاً ، أو بين المسند وكونه يقع فعلاً ومكملاً) . ولكن الواضح من استعمالاتنا هنا أن هذا الربط غير ممكن ، لأن ترتيب المسند - المسند إليه والترتيب التصوري مستويان مختلفان من التحليل في المنظور الوظيفي .

ولو "أمعنا النظر في هذه الجمل الثلاث لوجدنا أن تعيين عناصر دينامية الاتصال يتحدد على أساس السياق . فالسياق هو الذي يحدد لنا ما إذا كان أحد عناصر الجملة شيئا معلوما أو شيئا جديدا هو عبارة عن الاضافة التي يريد المتكلم أن يوصلها الى السامع . ولو أعدنا قراءة الجملة الأخيرة لوجدنا أنها تشكل بأكملها المعلومة الجديدة التي يريد المتكلم أن يغير السامع بها . ولذلك فكل العناصر فيها تحمل درجات عالية من دينامية الاتصال . وهنا نجد أن الحقائق الخارجة عن الاطار التركيبي للغة لها دخل في التعرف على المعنى .

وفي الجمل المتعدية نجد أن « المفعول به » يمثل الهدف أو نتيجة الحدث (الذي يعبر عنه فعل الجملة) ، ولذلك فالمفعول به يحمل - في الظروف العادية - درجة من الدينامية هي أعلى من درجة الفعل . وتعليل ذلك أنه من وجهة النظر الوظيفية فإن الهدف (أو النتيجة غير المعروفة) يعتبر أهم من الحدث نفسه .

ومن عناصر السياق الدلالي الخاص للجملة في المنظور الوظيفي استخدام أداة التعريف . فالكلمة المعرفة بأداة التعريف غالبا ما تحمل درجة متدنية من الدينامية وذلك على افتراض أن أداة التعريف تشير إلى شيء معهود أو معروف لدى المستمع . فحينها نقول :

وصلت الرسالة أمس
مسند

ونسند الى (الرسالة) وظيفة المسند . فهذا يعني أن المتكلم كان قد أتى على ذكر الرسالة في فترة سابقة ، أي أنها تشير إلى شيء معلوم . ولكن هذه ليست وظيفة ثابتة لأداة التعريف ، وأعني أنها لا تستخدم دائما بهذه الكيفية . فمع تضافر العوامل الدلالية والسياقية فإن أداة التعريف قد تقترن بالمسند اليه وذلك على نحو ما هو موضح في المثالين التاليين :

السياق : هل جميع الطلبة الذين تدرسهـم حاليا ضعاف في اللغة ؟

الجملة : كلا الطالب المستجد	على وجه الخصوص	يعاني من ضعف في اللغة
المسند اليه	المسند	وحدة انتقالية

السياق : أين ضاع قلمك ؟

الجملة : ضاع	قلمي	في المكتبة
وحدة انتقالية	مسند	مسند اليه

فالمسند اليه هنا يقترن بما يشكل المعلومة الجديدة في الرسالة اللغوية وذلك على الرغم من ارتباط هذا المسند اليه بأداة التعريف . على أنه من الواضح ، كما انتبه الى ذلك فرباس (Firbas 1966:248) أن الوظيفة الأساسية لأداة

التعريف هي أن تبين أن الاسم معروف من حيث الإشارة ، وهي لا تستطيع وجدها أن تجعل الاسم أكثر دينامية . وإذا وجدنا اسما معروفا يؤدي وظيفة المسند اليه فهذا راجع الى وجود عوامل أخرى والتي يعتبر السياق من أهمها .

لقد رأينا كيف يساهم نسق الجملة من جانب والسياق من جانب آخر في توضيح عناصر دينامية الاتصال . وحينما نتعامل مع الجملة بهذه الكيفية فإن بالامكان التعرف على تركيبة المعلومات ومنهجية توالفها بشكل أكثر تفصيلا . من الممكن عندئذ أن نتحدث عن « المسند الصريح » Theme proper ، وهو العنصر الذي يجعل أدنى درجة من درجات الدينامية . « والمسند اليه الصريح » retheme proper ، وهو يجعل أعلى درجة من درجات الدينامية . (انظر مقالة فرباس 1971 Firbas) . وفي الجملة التالية نجد أن الضمير يعود الى شيء معروف قد سبق ذكره في السياق ، ولذلك فقدترته على إثراء معلومات القاريء ضئيلة جدا ، ويصنّف في سلم الدينامية على أنه مسند صريح . .

السياق : أين وجدت المحفظة ؟

الجملة : وجدتها	في الطريق
مسند صريح	مسند إليه

أما في الجملة التالية فهناك عنصران يحملان دينامية عالية ، ولكن الواضح أن احدهما أكثر فعالية من حيث أهميته في الحدث اللغوي .

السياق : من الذي أيد صحة تلك الأنباء ؟

الجملة : (أيد صحة تلك الأنباء)	مصدر دبلوماسي عربي	رفع المستوى
مسند	مسند اليه	مسند اليه صريح

إن الصورة التي رسمناها حتى الآن توضح لنا أن توزيع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حصيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق ، نسق الجملة ، والبنية الدلالية . أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله . وقد يقتضي ذلك تقسيم الكلام الى فقرات والفقرات الى جمل وهكذا (راجع : 1971 Firbas) (138)

وقد يتبادر الى الذهن أن تحليل فرباس لتحليل ذوقي انطباعي وليس تحليلا مبنيا على قواعد مقننة . والواقع أن فرباس ، شأنه شأن سائر لغويي مدرسة براغ ، لم يكن يميل الى التفتين الجامد للمظاهر الوظيفية للغة . والواضح في مسلك مدرسة براغ أنها لم تحفل بالتفتين أو بجعل الدراسة اللغوية دراسة علمية ، كما كان الشأن لدى المدرسة الأمريكية . فقد كان اهتمام مدرسة براغ منصبا بوجه خاص على الكيفية التي تزود بها اللغة المتكلم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لطروف اجتماعية مختلفة (راجع : 1980 : 271 Sampson) . والجانب الانطباعي أو

الشخصي أمر لا مفر منه في التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التي نستعملها كوسيلة اتصال ، لأن مجال التحليل في هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحويًا . ومع ذلك فإن فرباس لم يترك الأمر للذوق وحده ، بل أنه زودنا بالجوانب النظرية الكثيفة بمساعدتنا في تحديد العناصر التي تساهم في تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال .

مدرسة لندن :

إن الجانب الواضح الذي يميز مدرسة لندن هو تأثير الاعتبارات العملية في سير الدراسات اللغوية في بداياتها الأولى . فقد كانت حدود الامبراطورية البريطانية تشمل مساحات شاسعة من المستعمرات في آسيا وأفريقيا . وقد استدعى هذا الوضع التفكير في كيفية وصف أصوات اللغة الإنجليزية وقواعدها لكي يسهل على الأجانب تعلمها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد كانت لتلك المستعمرات لغاتها المحلية الخاصة بها ، بل إن بعض المستعمرات كانت تسود فيها أكثر من ثلاث لغات رئيسية . وبرزت نتيجة لذلك مسألة إيجاد طرق لكتابة اللغات وشرح قواعدها ، وخاصة اللغات المحلية واللغات غير المدونة على نطاق واسع . ومن اللافت للنظر أن مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية School of Oriental and African Studies ، وهي كلية من كليات جامعة لندن ، أنشئت عام ١٩١٦ لخدمة الامبراطورية البريطانية في دراسة لغات المستعمرات وثقافتها وتدريبها لرجال الحكومة . ومن هذا المنطلق فإن دراسة اللغويين الانجليز للغات الأفريقية والآسيوية تختلف عن دراسة اللغويين الأمريكيين للغات الهندية - الأمريكية ، وذلك ليس فقط في أسلوب الدراسة والمصطلحات المستعملة ، ولكن أيضا في الهدف العام للدراسة . فاللغات الأفريقية والآسيوية لم تكن على وشك الانقراض كما كانت كذلك اللغات الهندية - الأمريكية . ولذلك فلم تكن هناك ضغوط تستدعي لأن يفكر اللغويون الانجليز في ابتداء وسائل إجرائية لتدوين اللغات ووصفها قبل أن تفرص . وذلك يعني ، كما أشار سامبسون (1980 : 215) ، أنه بينما شعر الوصفيون الأمريكيون بالحاجة إلى تطوير وسائل استكشاف آلية للغات التي كانوا يصفونها ، فإنه كان يمكن فirth وزملائه أن ينشغلوا ببناء جوانب نظرية .

وفي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية تطورت الدراسات اللغوية ونمت على يدي فirth (١٨٤٥ - ١٩١٢) والذين تتلمذوا على يديه أو عملوا معه . وكان فirth قد عين في عام ١٩٤٤ أستاذًا لعلم اللغة العام في تلك الكلية . ويعد بذلك أول أستاذ يعين في هذا المنصب في الجامعات البريطانية . وقد تركزت كتابات فirth في المعنى والأصوات . أما من جاءوا بعد فirth ، أو الذين يطلق عليهم « الفيرثيون الجدد » neo Firthians فقد توسعوا في هذين الجانبين ونظروا كذلك إلى مجال المفردات والنحو ، كما سيمر بنا . وقد اتخذت كتاباتهم المنحى الوظيفي الذي أصبح سمة لمدرسة لندن ، وتجلى ذلك في مظاهر عديدة من التحليل اللغوي . وستتوقف في البداية عند دراسة المعنى .

المعنى وسباق الحال

نظر فirth إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة ، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع . فالجمل تكتسب دلالاتها في

النهاية من خلال ملابسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال^(٩) context of situation . ولذلك فقد اقترح فيرث أن « تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية » (Firth 1950 : 181) . وفي هذا الجانب يبدو تأثير فيرث بأفكار مالمينوفسكي واضحا . ولتوضيح هذه النقطة ، يستحسن أن نعرض للأفكار الناضجة التي طرحها مالمينوفسكي والتي مهدت السبيل أمام فيرث ليؤصل نظريته في المعنى .

كان مالمينوفسكي Malinowsky (البولندي الأصل) أستاذاً للأنثروبولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وقد تأثر في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى الجزر المحيطة بأستراليا في المحيط الهادسيكي لاجراء بحوث ميدانية عن أهالي جزر تروبريانند . Trobriand وفي أثناء تسجيل ملاحظاته وجد أنه من الصعب ترجمة ما يقوله أهالي تلك الجزيرة من عبارات وجمل ترجمة حرفية إلى اللغة الانجليزية . ووجد أن تلك الصعوبة تزداد حينما يصل الأمر إلى الحديث عن عادات وتقاليد خاصة بأهالي تلك الجزيرة . وفي محاولته لحل تلك المشكلة خرج بملاحظات نشرها في كتاب يعد من أمتع كتب الرحلات (الحقائق الساحلية وسحرها) . Coral Gardens and Their Magic . وهذه الملاحظات هي التي أرسيت مبادئ نظرية سياق الحال في وصف المعنى .

خلاصة كلام مالمينوفسكي حول هذا الموضوع أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه . والسياق الذي قصده مالمينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع ، حيث أنه كان يكتب كائثروبولوجي . ولكن مالمينوفسكي لم يتوسع في الحديث عن السياق وكيف يمكن تناوله ضمن نظرية لتحليل المعنى ، لأن مالمينوفسكي لم يكن مهتماً بصياغة نظرية لغوية .

اقتبس فيرث من مالمينوفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في إطار سياق معين ، وأعطى لهذه الفكرة أبعاداً أعمق ، فقد جعلها تخطيطاً تنظيمياً مجرداً abstract construct ، وحصرها في مجال اللغة بعد أن كانت فكرة عامة تمس النواحي الثقافية في المجتمع . وقد مر بنا أن فيرث ينظر إلى اللغة على أنها عملية اجتماعية أو نشاط اجتماعي . أي أن نظرية فيرث اللغوية تقدم على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع . ولذلك فإن فكرة سياق الحال أصبحت تعني عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية ، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة .

ولكي يتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات « سياق الحال » ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية (راجع : Firth 1950 : 182) :

١ - الحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي ، كان نذكر مثلاً ما إذا كان المشارك طفلاً أو رجلاً ناضجاً ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، أو امرأة . ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين .

(٩) راجع كذلك (تمام حسان ١٩٧٣ : ٣٣٧) فيما بعد) حيث عرضت الفكرة مع مقارنتها بنظرة البلاغيين العرب .

٢ - الأحداث اللغوية نفسها ، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكيفية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنبر الحلافي ، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة ، كحركة اليدين وتعابير الوجه .

٣ - الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي relevant objects .

٤ - أثر العبارات اللغوية المنطوقة فعلا (أي ما يستتبع النطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة) فقد تؤثر جملة ما على أحد السامعين ، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : كيف يمكن تحديد ماله صلة بالسياق ، وبخاصة الأمور المادية ذات الصلة المباشرة بالحدث اللغوي ؟ هذا السؤال كثيرا ما يطرحه منتقدو نظرية سياق الحال . فمثلا تقول الدكتورة ديدري ولسون (D.Wilson : op cit) ، أستاذة علم الدلالة في جامعة لندن (الكلية الجامعية) : ان بإمكان المرء أن يعد قوائم عديدة لما يمكن أن يشكل الأمور المادية جملة من قبيل « أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن » . والقوائم تشتمل أمورا مثل ما يلي :

« هذه الغرفة التي تعد جزءا من بناء قديم في الكلية الجامعية .

هذه الغرفة المملوكة لجامعة لندن .

هذه الغرفة التي تقع في لندن . الخ . . . »

والواقع أن نظرية سياق الحال لا تعني باعداد قوائم عن الظروف المادية ، فاعداد مثل هذه القوائم أمر في غاية الصعوبة . هذا علاوة على أن أية قائمة لن تكون متكاملة في الظروف الطبيعية . ولكن الفكرة ترتكز على مبدأ « الاختيار » Selectivity ، أو الصلة المباشرة ، حيث إنه في كل حدث لغوي تكون هناك عناصر معينة نستطيع أن نختارها على أنها ذات صلة بموضوع الجملة . ولناخذ كمثال توضيحي الجملة التي أوردتها ولسون ، ونضعها في السياق التالية :

الكهربائي : آسف للمقاطعة . يجب أن نقوم ببعض الإصلاحات الاضطرارية؛ على موزع مكيف هذه الغرفة .

المحاضر : حاول أن تجرب ذلك فيما بعد ، من فضلك . أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن .

الكهربائي : مع الأسف أن الانتظار غير ممكن ، فقد أخبرني رئيس المهندسين أن المحول الرئيسي في كلية الآداب في الشويخ سيفصل آليا لو لم نقم بالإصلاحات حالا .

من الواضح من خلال هذا السياق أن الأمور المادية التي لها صلة بالجملة هي وجود جهاز تكييف في قاعة المحاضرة يسبب خللاً للموزع . أما الأمور المادية الأخرى من قبيل أن الغرفة لها ستائر مصنوعة من قماش وليس من معدن ، وأن فيها مقاعد طويلة وليس مقاعد صغيرة منفصلة ، وأن هناك بيوت عنكبوت في زواياها الخ . . فهي لا شك ليست ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي . وكما قال هالدي (Halliday 1978 : 29) فإنه « من المهم أن نعيد فكرة « السياق ، وذلك بأن نضيف لها كلمة « ذات صلة » relevant ، لأن سياق الحال لا يعني كل صغيرة وكبيرة في المحيط المادي ، كذلك التي قد تظهر فيها إذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثاً كلامياً مع كل المشاهد والأصوات المحيطة به . انه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل » .

وللتصور مشهداً آخر . طالب يدخل قاعة المحاضرة متأخراً عن موعد المحاضرة بعشرين دقيقة ولا يبدر أستاذه بالاعتذار بل يتجه مباشرة إلى مقعد فارغ فيجلس فيه . يقطع الأستاذ محاضراته ويقول له : « صباح الخير » (بنجمة صاعدة - هابطة في النهاية ، مع مد المقطع الطويل في الخير) . ان الظروف المادية المحيطة بهذه العبارة (وصول الطالب متأخراً) والتنظيم المستعمل ، تدل على أن الأستاذ يريد أن يلوم الطالب على التأخير وليس أن يلقي عليه نحية الصباح . أما بقية الأمور المادية ، مثل شكل الطالب ونوع لباسه فلا علاقة لها بهذا الحدث اللغوي .

وقد أثار بعض الباحثين اعتراضاً نظرياً آخر حول مفهوم سياق الحال في تحليل المعنى ، وذلك على أساس أن عناصر السياق الأربع (التي ذكرناها فيما مضى) تعطى انطباعاً خاطئاً بأن تلك الحقائق يمكن استعمالها بشكل منهجي حينما نصف كيف يضيف الأفراد التفسير الدلالي على الجمل (Langendoen 1968 : 50) ويبدو أن هذا النقد يتعامل مع فكرة السياق بعقلية المدرسة التحويلية - التوليدية التي تفسر الاستعمال اللغوي على أنه نتيجة مراحل توليدية وتحويلية متتالية . ولكن الاتجاه الوظيفي لا يفصل المعنى عن تركيب الجملة . بمعنى أن التشكل لا ينطق بالجملة عارية أولاً ثم يكسبها ثوب المعنى في مرحلة تالية (كما يرى التحويليون) . ولكن المعنى ينشأ في الظروف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي ، أي في لحظة تفاعل المراء مع الحدث . يقول هالدي (halliday 1978 : 33) :

« ان السياق جزء من التخطيط الكلي . . . ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول ، اللغة إنما تكون لغة عن طريق الاستعمال في سياق الحال . وكل ما فيها مرتبط بالسياق » .

ان جزءاً كبيراً من معاني المفردات والجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والملقي . ولذلك فنحن نحتاج إلى سياق الحال ليس فقط لكي نتكلم من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك ، ولكن أيضاً لكي نستطيع أن نفسر الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية register وطبيعة اللغة نفسها .

وقد طور هالدي فكرة السياق في دراساته عن الترابط اللغوي cohesion وتحليل النصوص text analysis ، فاقترح أسلوباً آخر لتحديد العناصر السياقية التي تلعب دوراً في بيان معنى النص . وهذا الأسلوب يوظف ثلاثة مصطلحات على وجه التحديد هي :

الحقل : Field وهو المجال الطبيعي (الاجتماعي) الذي يكون مسرحاً للنص ، فيشمل بذلك النشاطات المختلفة ، والأهداف الخاصة التي تستعمل اللغة من أجل تحقيقها .

التوجهات Tenor ويشمل العلاقات ما بين المشاركين في الحدث اللغوي : وضع كل مشارك والدور الذي يؤديه كل مشارك .

النمط Mode وهو الوسيلة اللغوية المنتبجة في النص (أو الحدث اللغوي) . ويشمل الأسلوب اللغوي والوسائل البلاغية .

ويحرص هالدي على تأكيد فكرة مهمة وهي أن هذه العناصر لا ينبغي أن تعامل على أنها أنواع من الاستعمال اللغوي ، ولكنها اطار نظري لتمثيل السياق الاجتماعي الذي يستطيع المتكلم من خلاله أداء المعاني .

ونحاول فيما يلي أن نوضح هذه المصطلحات وذلك من خلال تحليل النص التالي^(١٠) .

حكاية أحقين

« حكي أن أحقين اصطحبها في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمنّ على الله ، فإنّ الطريق تقطع بالحديث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطاع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطاع ذئاب أرسلها إلى غنمك حتى لا تترك منها شيئاً . قال : ويحك ، أهذا من حق الصبحة وحرمة العشرة ؟ فصاحبا وتخاصما ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق . ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما . وطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما . فأنزل الزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب . ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحقين » .

(١٠) هذا التحليل لا يغطي الجانب المتعلق بتساقط القدرات وتراكمها ، انه يركز فقط على العناصر السياقية المرتبطة بتفسير النص

(المستطرف في كل فن مستظرف)

المحتوى الدلالي	المحتوى السياقي	
توضيح الأدوار وأنواع المشاركين . أشياء مادية لها صلة مباشرة بالقصة .	أحمان يسيران في طريق ينشأ بينهما نزاع وتشايك بالأيدي بسبب سوء الظن . شيخ معه حمار وعليه جرتان من عسل	الحقل
فعل أمر ، ثم جملة تقريرية مؤكدة . جملة تقريرية مثبتة . جل مثبتة ، معطوفة (حدث متداخل) جملة استفهامية بنغمة صاعدة جل ما ضوية مترابطة بأدوات العطف التي تقيد تسلسل الحدث . الصمت أثناء انزال الزقن القيام بفعل غير لغوي قبل التفوه بالجملة وذلك بقصد توضيح معناها .	رغبة أحد الطرفين في تزجية الوقت أثناء السير . تمنيات خيالية بهدف المداخلة تثير نزاعا حقيقيا . التصايح وتبادل الاتهامات التشايك بالأيدي نتيجة لسوء التفسير التوقف عن العراك والمواقفة على الاحتكام شيخ يبدي موافقته على حل المشكلة بفتح الجرتين وأصالة العسل	التوجهات
تعال نتمن على الله (طلب) أنا أتمنى . . . (توكيد الذات) ويحك (لوم وتقريع) أهذا من حق الصحة وحرمة العشرة ؟ (استفهام استنكاري) « صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحقين » (جملة مركبة ذات وحدتين نغميتين) أدوات الربط والعطف وضمائر التكلم والإشارة .	تكيف الجمل وفقا للأهداف طريقة التكلم الاستعانة بالقيم الأخلاقية والدينية ترابط النص	النمط

مستويات التحليل اللغوي

إن النمط الوظيفي الذي نجده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة . وقبل أن نتعرف على هذه المستويات ، يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث يمثلان الأساس الفكري لهذا التحليل . يرى فيرث أن لغة محوريين : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradi gmatic relations ، أي ثوابت اللغة ، مثل مباني التقسيم في النظام الصرفي . ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التي تتميز بالتجديد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة . ومن النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر . فالأبنية اللغوية في شكلها الصحيح - هي انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسمة . ولا يمكن أن نفهم عنصرا بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط . ويوضح فيرث هذا الارتباط بالرمز الشكلي لكيفية كتابة المصطلحين باللغة الانجليزية على النحو التالي :



ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات نذكرها باختصار فيما يلي :

المستوى الصوتي

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة polysystemic ، وليس من نظام أحادي monosystemic المتمثل في سرد الوحدات الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية prosodic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، كالمظاهر التي تصادفها في حالتي الوقف والوصل مثلا .

وطبقا للتحليل التطريزي prosodic analysis ، فإن الوحدات الصوتية والمقاطع المحددة يمكن أن تدخل ضمن العلاقات الرأسية ، أما العلاقات التي قد تتولد ما بين المقاطع والوحدات الصوتية في الكلام المتصل فأنها تدخل ضمن العلاقات الأفقية .

مستوى المفردات ، في المستوى المفرداتي نجد أن مفهوم « التساوي » collocation يعكس فكرة البناء^(١١) . والتساوي في صياغاته المبكرة كان يعني الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات . أي تصاحب الكلمة مع كلمة أو

(١١) « التساوق » ترجمة مقترحة من المصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هالندي وآخرون . وقد أورد قيام حسان (١٩٧٣) هذا المصطلح وترجمه « بالتضام » . ولكن شرحه و التوضيح (ص ٢١٦) لا ينظم المعنى الأصلي للمصطلح ، فهو يستعمل « كمصطلح عام تتدرج تحته ظاهرتان : التساوق والاتظام . فإزيد من التفاصيل حول مفهوم التساوق في الإنشاء الوظيفي راجع مقالة (أحمد ١٩٨٤) .

كلمات أخرى ، أو رفقة الكلمة أوجيزتها لكلمات أخرى في السياق الطبيعي ، مثل : كذبة إبريل ، حلت أهلا ، صلاة التراويح ، لم ينس بنيت شقة (بالنفي دائما ، أي أننا لا نقول : نيس بنيت شقة) شاي ثقيل (ولكن لا نقول : شاي قوي) . وقد تطور المفهوم فأصبح يعني الى جانب ذلك : دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات أخرى . فالفعل (أطلق) مثلا يمكن أن يتساق مع العناصر التالية :

- أطلق لحيته (جعلها تنمو)
- أطلق ساقيه للريح (ولي هاريا)
- أطلق له الحبل على الغارب (ترك له حرية التصرف)
- أطلق الدواء بطنه (سهله ومشاه)
- أطلق عليه أسما غريبا (سماه باسم غريب)

الى آخر ذلك من تساوقات . ولكن (أطلق) لا تتساق مع (محاضرة) في قولنا : (أطلق محاضرة) معنى ألقى محاضرة .

والواضح من هذه الأمثلة المحدودة أن التساق يمكن استخلاصه من العلاقات الأفقية ما بين الكلمات ، وليس من الربط بين الكلمات وفاهيمها (راجع Firth 1951:1961) .

المستوى النحوي ، ويتضمن تركيب الجملة (النحو وتركيب الكلمة) (الصرف) . في هذا المستوى يعتبر مفهوم « الانتظام » colligation معبرا عن البناء . والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية بحيث يؤدي هذا التجاور الى تلازمها في الاستعمال . فمثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتقلب الصيغة الى المضارع . وضمائر النصب المتصلة تنتظم مع الفعل المتعدي دائما . والفعل رغب يجب أن ينتظم اما مع (في) أو مع (عن) . وطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مسئولا عن جزء من المعنى النحوي .

المستوى الدلالي ، وقد مر بنا أن فكرة سياق الحال ضرورية لفهم المعنى . ولكن الجانب الواضح في اتجاه مدرسة لندن أن المعنى لا يؤدى ولا ينبغي قصر تحليله على المستوى الدلالي فحسب ، بل ان جميع المستويات تتضافر لاداء المعنى . فهناك معنى على المستوى النحوي ، وهناك معنى على المستوى اللفظي وهكذا . وحول هذه الفكرة يقول فيرث (Firth 1951 b: 227) :

« الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي . وهذا المعنى تحدده أنماط الأنظمة النحوية التي تقام للغة . ان حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات اعرابية سيكون لها هذا المفهوم معنى مختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة اعرابية مثلا » .

ويستطرد فيرث في توضيح هذه اللفظة قائلا :

« ان المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي يختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد (كاللغة العربية . المترجم) . أرباعي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمتن والجمع القليل والجمع الكثير » .

ونجد كذلك أن فكرة التحليل الصوتي التطريزي تهدف ، من جهة أشياء ، الى بيان ظلال المعاني في سياق الاستعمال . ولذلك نجد أن فيرث يكرر في مواطن كثيرة من كتاباته أن دراسة اللغة هي بالدرجة الأولى دراسة للمعنى . وهذا التفكير يتخذ منحى واضحا ومحددا عند هالدي الذي ينظر الى اللغة على أنها نوع من السلوك الدلالي المحتمل meaning potentiality . والمقصود بالسلوك الدلالي المحتمل هو ما يستطيع المرء أن يؤديه أو يفعله باللغة (Halliday 1973: 51) .

والإبداع اللغوي creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة ، وإنما يكمن في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة . وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلائي واتجاه هالدي الوظيفي . فعلى حين ينظر شومسكي الى اللغة على أنها شيء نعرفه ، ينظر هالدي الى اللغة على أنها شيء نفعله . ويفسر هالدي ظاهرة اكتساب الطفل للغة بأنها تنطوي على تعلم لاستعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات . والتركيب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التي تتحقق عن طريقها احتمالات المعاني . (راجع أيضا Halliday op. cit) .

النحو النظامي

يعتبر النحو النظامي systemic grammar من أكثر الاتجاهات النظرية تكاملا عند مدرسة لندن . وقد وضع أسسه النظرية البروفيسور مايكل هالدي ، ثم توسع أتباعه ومريدوه في التطبيقات والتفريعات^(١٢) . والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة multiple function . وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة . وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره . هذه الوسائل ليست في الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوي . ومن ثم فانه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات التي من الممكن أن يلجأ إليها مستعمل اللغة تكون في حدود الامكانيات اللغوية الموجودة في اللغة . هذه الامكانيات هي عبارة عن خصوصيات كل لغة .

هذا التركيز على الجانب الوظيفي للغة من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع بها منذ البداية هي تصنيف هذه الوظائف الرئيسية ضمن نظام نحوي يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات . والنظام

(١٢) انظر حول هذه التفريعات مقالة بنتر (Butler 1989) .

النحوي الذي قدمه هالدي عبارة عن شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة لأنه مبني على وظائف اللغة كما تصورها .
وليس من الممكن استيعاب النظام بأكمله في هذه المقالة ، ولذلك فسأكتفي بتوضيح الصورة من خلال التطرق لفكرة
التعدي واللزوم في اللغة .

ان نمط التعدي واللزوم عند هالدي يتمثل في العلاقات التي يمكن تاسيسها ما بين « النشاط » process type
« والمشاركين » participants .

لنقرأ الجمل التالية :

- ١ - بكى الطفل .
- ٢ - أركض في المساء .
- ٣ - انفجر الوضع الأمني في لبنان .
- ٤ - مرض عميد الكلية في بداية الفصل الدراسي .

تحتوي كل جملة من الجمل السابقة على عنصرين :

(أ) نشاط يمثل الفعل .

(ب) ومشارك واحد هو عبارة عن الاسم سواء أكان عاقلاً أم مجاداً . وإذا تأملنا الأمثلة السابقة لتشعر على نوع
النشاط فيها ، فنستجد أن المثالين (١) و (٢) يدلان على حركة action ، بينما المثالان (٣) و (٤) يبينان حدثاً event .
والمشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حركة يسمى « عامل »^(١٣) actor . أما المشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على
حدث فنسميه « متأثر » patient .

وحينما يقتصر النشاط على العامل أو المتأثر فهو « نشاط قاصر » عندئذ non-directed action ، أما حينما ينطلق
النشاط من العامل ولا يتوقف عنده بل يتجاوزه إلى عنصر ثان في الجملة فهو نشاط مجاوز directed action ، كما في
الأمثلة التالية :

- ٥ - كتبت الطالبة المستجدة بحثاً جيداً .
- ٦ - شرح المعلم الدرس .

(١٣) أي الغائم بالعمل أو النشاط . وقد تجتبت استخدام المصطلح الشائع (فاعل) وذلك بهدف توضيح المقام الجديدة . وفي من القول أن هذا المصطلح بمعناه الجديد لا
يمت بآية صلة لمصطلح العامل المعروف في النحو العربي ، والذي يقصد به العنصر المنوي أو الظاهر الذي يتسبب في جلب العلامات الأعرابية الظاهرة أو القدرة على أواخر
الكلمات .

وهذا العنصر الثاني يطلق عليه مصطلح اخذ goal لأنه عبارة عن نتيجة النشاط أو أثر النشاط الذي قام به العامل . ونجد في بعض التراكيب أن ما يمثل نتيجة النشاط هو عبارة عن مشارك نطلق عليه مصطلح الظرف ، كما في الأمثلة التالية :

٧ - أشار الاستاذ الى السبورة .

٨ - غرد العصفور فوق الشجرة .

٩ - جلس التلميذ على الكرسي .

والآن دعونا نقرأ الأمثلة التالية :

١٠ - يكلف الكتاب عشرين ديناراً .

١١ - يشبه زيد أباه .

١٢ - يملك علي سيارتين .

١٣ - بدت الفتاة سعيدة .

إن الأفعال في هذه الأمثلة تشبه النوع الثاني من أنواع النشاط (أي النشاط المجاوز) والاعراب الشكلي الظاهري يعامل (٥ - ٦) و (١٠ - ١٣) معاملة واحدة ولكن الأمر بالنسبة للجمل الأخيرة (١٠ - ١٣) مختلف . فنحن نرى أن النشاط في تلك الأمثلة (أي الفعل) ليس حركة وليس حدثاً ، ولكنه يعبر عن وضع من الأوضاع state ، ولذلك فهو فعل وضع stative verb . أما الاسم المرفوع الذي يأتي بعد أفعال الوضع فلا يقوم بعمل ولا يتأثر به ، ومن ثم فلا يصح أن نطلق عليه مصطلح العامل . وبالتمعن في وظيفته نجده عبارة عن شيء يتصف بالحقيقة التي يرد ذكرها في النشاط (المذكور قبله) . ومن ثم فنستنتج له دوراً نسميه « متصف » . أما الاسم المنصوب في تلك التراكيب فالظاهر من وظيفته العامة أنه يبين الشيء الذي اتصف به المتصف ، ولذلك فنسميه وصفاً . وقد يكون الوصف عدداً وقد يكون اسماً صريحاً .

ونجد أيضاً في اللغة العربية جملاً من قبيل ما يلي :

١٤ - أعطى ابنه مبلغاً من المال .

١٥ - منح المدير سكرتيرته أجازة مرضية .

١٦ - أهدى زوجته خاتماً من الماس .

إن الأفعال في هذه الجمل أفعال حركة ، والنشاط فيها بطبيعة الحال من النوع المجاوز . ولكننا هنا بازاء نوع مختلف من النشاط . فالحركة التي تصدر من العامل ذات بعدين . فهي من جانب تؤثر في شيء (غالباً ما يكون عاقلاً) ، وهي من جانب آخر تبين الأثر الذي ترك في هذا الشيء نتيجة للنشاط . وهذا يعني أن هناك مشتركين اثنين

(غير العامل) في هذا النوع من الجمل . ولوأعدنا قراءة الجمل السابقة (١٤ - ١٦) بدقة فنجد أن المشارك الأول منها عبارة عن شيء أو عنصر استفاد من العمل الذي صدر من العامل . أما الثاني فهو الشيء المستفاد ، أي أنه مجرد أثر أو نتيجة للنشاط . وتبعاً لهذه الوظائف فنسمي الأول « مستفيد » beneficiary ، وسنسمي الثاني « هدف » ، والتسمية الثانية تعد من الوظائف التي مرت بنا قبل قليل .

منح	المدير	سكرتيته	أجازة	مرضية
نشاط	عامل	مستفيد	هدف	صفة
مجاوز				

ونجد في الجدول التالي تلخيصاً لأنواع النشاط والمشاركين التي ذكرنا نماذج لها في هذا العرض الموجز .

نوع النشاط	المشاركون
حدث « مرض »	الفاعل = متأثر « عميد الكلية »
حركة (نشاط قاصر) « أركض »	الفاعل = عامل « أنا »
حركة « نشاط مجاوز » « شرح » « غرد »	المعلم } العصفور } الفاعل = عامل
وضع « يكلف » « يشبه »	الكتاب } « زيد » } الفاعل = متصرف
حركة (نشاط مجاوز) « منح »	الفاعل = عامل « المدير »
	المفعول به = مستفيد « سكرتيته » المفعول به = هدف « أجازة »

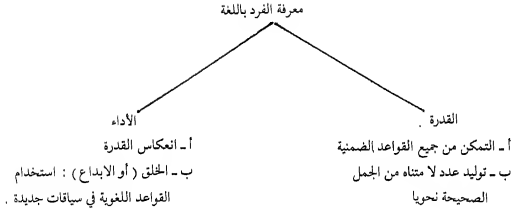
هذه مجموعة محددة من الجمل المستعملة في اللغة العربية ، والفصد منها هر رسم صورة توضيحية لكيفية تداخل الأدوار والمشاركين في النحو النظامي . ولو كان المجال يسمح بالاستطراد لوسّنا من حجم الأمثلة لمعالج مجاميع أخرى من الأدوار والمشاركين^(١٤) . ولكن هذه الأمثلة المحددة تعتبر بعد ذاتها كافية لتوصلنا الى الخلاصة التي نريد التوصل اليها هنا . إن النحو النظامي يلغي ذلك التقسيم الحاسم للأفعال الى لازم ومتعد ، والذي ينبثق من أسس صرفية ، ويعتبر التعدي والوزن من وظيفة الجملة بأكملها ، لأن الوظائف اللغوية تؤتي عن طريق الجملة المتكاملة . ويكون تحديد الأدوار ونوعية المشاركين على أساس وظيفتها الدلالية في الجملة . ولذلك فانه يجب أن تعتبر « العامل » و « الهدف » وغيرهما من الأدوار الوظيفية على أنها وظائف دلالية وليست وظائف نحوية . ومن الواضح بعد ذلك أن نرى هاليدي يحاول أن يقيم نظاما نحويا على أساس دلالية وظيفية ، لأنه يعتقد أن نحو كل لغة مصمم بكيفية معينة لتمكين المستعمل من أداء المعاني المختلفة . والحقيقة الواضحة عندئذ أنه حينما نكتب نحو لغة ما فإننا نبحث عن وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

لكن هذا النمط من التحليل الذي يعول على وظيفة الجملة في التعبير تعويلا تاما لا يخلو من صعوبات . وقد صرحت مارغريت بري (Berry 1982: 77) ، وهي من أقطاب هذا الاتجاه ، بأنه من السهل أن نفكر في أمثلة حيث يتداخل ما نلفظه بنظامين ضمن نظام واحد . وهي تقصد أن تحديد وظيفة المشارك على وجه الدقة قد لا يكون أمرا سهلا في بعض الحالات . فمثلا حينما نقول : « تزوج المدير سكرتيرته » فهل نصف (المدير) في هذا المثال على أنه « عامل » أو « مستفيد » ؟ هناك من الباحثين المعاصرين (Schlesinger 1989: 193) من اقترح أن يكون تعيين عضوية المشارك في مثل هذه الحالات مسألة درجات . أي أنه علينا أن نقبل الأمر على وجوهه ندخل اعتبارات السياق حتى نستطيع أن نرجح وظيفة على أخرى غيرها .

الوظيفية عند هائمز

إن النمط الوظيفي الذي اقترحه هائمز Hymes يعتبر في جوهره رد فعل للتيار العقلاني الذي نشره شومسكي وأتباعه منذ منتصف الستينات . لقد قصر شومسكي معرفة الفرد بلغته على الملكة الذهنية التي سماها « القدرة » competence ، والجانب التنفيذي الذي سماه « الأداء » performance . والقدرة تتمثل في تمكن الفرد من القواعد الضمنية underlying rules التي يلجأ الى استعمالها أثناء الأداء . أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة (Chomsky 1965: 4) ، على نحو ما هو موضح في الشكل التالي :

(١٤) أنظر مصطلح لظني (١٩٧٦) حول الجمل التي تعكس مفهومنا نحيما .



والأمر اللافت للنظر في هذا التعريف أن شومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحصر في الملكة النحوية التي يتمتع بها هذا الفرد والتي تمكنه من توليد الجمل الجديدة . لقد توقف هائيز عند هذه النقطة على وجه التحديد ، ورأى أن تعريف شومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة . ومن ثم فقد اقترح أن تستبدل بفكرة « القدرة على الاتصال » communicative competence ان اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يربط باستعمال اللغة في بيئة ثقافية - حضارية معينة . ويرى هائيز (Hymes 1971: 281 ff.) أن قدرة المرء على اللغة لها أربعة مظاهر تتبع كلها من استعمال اللغة :

أ - إلى أي حد يكون الشيء ممكنا possible (نحويا) . وهذا المظهر يشير إلى امكانيات اللغة وانفتاحها .

ب - إلى أي حد يكون الشيء معقولا feasible استنادا إلى وسائل التنفيذ المتاحة . والتركيز هنا على الجوانب النفسية التي نستخدمها في تنفيذنا للغة ، مثل الذاكرة والتخطيط الذهني للكلام ، والفهم الخ .

ج - إلى أي حد يكون الشيء مناسبا appropriate وذلك ضمن السياق الذي يستعمل فيه هذا الشيء . وهذا يشير إلى فكرة الاستعمالات اللغوية language registers والأساليب اللغوية styles التي يلجأ مستخدم اللغة إليها في الظروف المختلفة متخذاً لكل حالة ما يناسبها من مفردات وطريقة تعبير ، مع مراعاة الأعراف والتقاليد الاجتماعية .

د - إلى أي حد يكون الشيء قد أنجز (من حيث الأداء) . أي ماذا نطق المتكلم من عبارات وجمل وماذا يستتبع هذا النطق من سلوك . وهذا المظهر يتكلم عن محوري المتكلم والمتلقي في آن واحد : ماذا يستطيع أن يقوله الفرد كمتكلم ، وماذا يستطيع أن يتقبله كمتلقي .

والصورة النهائية التي يمكن أن تخرج بها بعد قراءة هذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم « القدرة » لم يعد مقصورا على المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناه من الجمل ، وإنما أدخلت فيه اعتبارات وظيفية جعلته يشمل أموراً أخرى من بينها .

أولاً : أنه يفسح المجال لعنصر النية أو القصد في التعبير . فقد يستعمل المتكلم في موقف ما جملة تبدو من حصيلته مفرداتها أنها جارحة أو تنطوي على اهانة ، ولكن المتكلم يقصد بها المزاح أو الدعابة في ذلك الظرف . وذلك كأن يقول أحدهنا لصديق أو زميل له في العمل رآه لتوه قد صعد السلم وهو يتنفس بقوة : « هكذا العجائز ، حينما يصعدون على السلم يلهثون ، ويحتاجون الى ساعة لالتقاط أنفاسهم » . ولذلك فإن الأمور ستضطرب لو أن المستمع حمل الكلام بحمل الجد .

ثانياً : انه يصرح بوجود مهارات أخرى عديدة يتمتع بها المتكلم والمتلقي بحكم كونها أفراداً في بيئة اجتماعية - ثقافية معينة ، مثلاً مهارة الاستماع واطهار الكياسة والأدب ، والرغبة في الإبقاء على مودة زمالة العمل وغيرها .

ثالثاً : أنه يؤكد على أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمالاتنا للغة وفهمنا وتحليلنا لها .

والملاحظ في اتجاه هائمز أنه لا يقترح نموذجاً لغوياً يمكننا من الاستفادة من هذه الملامح الانصالية في التحليل ، كالذي وجدناه مثلاً عند مدرسة براغ ومدرسة لندن . ولذلك فإن النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي على وجه الخصوص . ومن الممكن توظيف النموذج في مجال تحليل النصوص text analysis . وفي هذا المجال نجد أن آراء هائمز تلتقي مع آراء هاليلدي التقاء واضحاً .

التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي

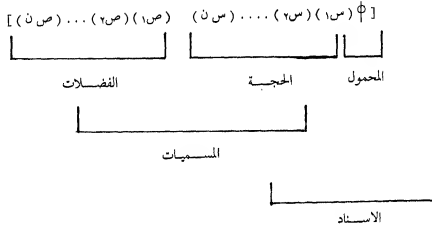
اتخذ الاتجاه الوظيفي منعطفاً واضحاً عند اللغويين الغربيين في جامعات هولندا وألمانيا وبلجيكا واليابان وغيرها . وهذا الاتجاه الجديد يجمع بين المرتكزات النظرية للاتجاه الوظيفي والتي ذكرناها في بداية بحثنا هذا ، وبين المنطق الصوري . لكن الواضح أن الاتجاه الوظيفي في شكله المطور والذي يسميه أصحابه بالنحو الوظيفي Functional Grammar ، يتعامل مع ثلاثة مستويات في التحليل ، لكل واحد منها مجاله ومصطلحاته . يرى « سايون ديك » (Dik) (13: 1978) ، وهو أحد أبرز منظري هذا الاتجاه وكتابه ، أن جملة مثل « أكل محمد التفاحة » يمكن أن تحلل على ثلاثة مستويات مختلفة :

١ - المستوى النحوي	فعل	فاعل	مفعول به
٢ - المستوى الدلالي	فعل	عامل	هدف
٣ - المستوى البراغماتي	مسند	متعم	
	(theme)	(tail)	
أو :	موضوع	بؤرة	
	(topic)	(focus)	

وهناك من الوظيفيين المعاصرين من يكتفي بمستويين اثنين : مستوى يمثل التمثيل النحوي والدلالي للعناصر rep-
resentational level ، ومستوى يمثل العناصر المشاركة في الحديث اللغوي interpersonal level (النظر Hengeveld
1989: 128) .

والجملة في « النحو الوظيفي » عبارة عن إسناد predication ، وهذا الاسناد يتكون من عدد من المسميات
Terms التي هي عبارة عن تعبيرات expressions لها خاصية الإشارة ، أي مسميات يمكن أن تستعمل للإشارة إلى
موجودات في العالم . ونحن نستطيع أن نتوصل إلى الاسناد وذلك بأن نملأ ما يمثل خانة المحمول predicate (وهو يبين
العلاقة ما بين الموجودات أو خصائص الموجودات) وأن نملأ ما يمثل خانة الحججة argument (التي هي عبارة عن
المسميات التي تستبدل بها المتغيرات) . ثم بعد ذلك تأتي الفضلات أو المكملات stellites (أي ما ليس بعمدة مثل
الحال والتمييز والصفة ...) .

ويمكن توضيح المصطلحات بالشكل التالي :



(راجع Dik 1978: 15, 26) .

وفي هذا الشكل يمثل (س١ ... سن) متغيرات يمكن تعيين وظيفتها الدلالية . ولتعيين الوظائف الدلالية
فإن الجملة تقدم في « النحو الوظيفي » على شكل اطار اسنادي predicate frame . والمثال التالي يوضح هذا الجانب :

وزع (س١ : انسان (س٢) (س٣ : ذو حياة (س٤))			
فعل	عامل	هدف	مستلم
وزع	الاستاذ	الأوراق	على التلاميذ

ولنأخذ فيها يلي مثالا توضيحيا آخر :

اغتيال (س ^١ : انسان (س ^١)) (س ^٢ : انسان (س ^٢))		
فعل	عامل	هدف
اغتيال	جنود الاحتلال	شايين فلسطينيين

وهكذا فلنكل جملة اطار اسنادي مصمم لبيان وظيفتها . وفي هذا الاطار الاسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية selectional restriction مع المحمول . أي أن الاطار الاسنادي الثاني لا يصلح لتحليل جملة مثل (اغتيال الظلم فكري) لأن العامل والهدف كليهما أسماء مجردة . ونجد في بعض الكتابات المعاصرة أن هذه المتغيرات يتم استبدال قيمها برموز منطقية على مستوى التمثيل الشكلي (Hengeveld 1989: 131) .

ولعل القارئ يلاحظ أن هذا النمط الوظيفي في شكله المطور يختلف عما قدمته المدارس الوظيفية السابقة من تحليل غير معقد مستمد من الاستعمال المباشر وليس من تطبيق المنطق . ولم يكن الوظيفيون المتقدمون يفتقون عند الوظيفة الذهنية في اللغة إلا بقدر ما تعكس قضية تخطيط المرء للغة . فنقطة الخلاف اذن بين المجموعتين هي أن الوظيفيين يحللون اللغة من خلال مصطلحات دلالية تدل دلالة مباشرة على وظيفة الجملة . بينما الوظيفيون الجدد يرون أن الوظيفة يمكن إبرازها بالاسناد المنطقي . ولكن الجميع يتفقون حول فكرة عامة تجعل الاتجاه الوظيفي متميزا من بين الاتجاهات اللغوية الأخرى ، وهذه الفكرة تتمثل في أن اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية ، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة . وحينما نصف اللغة فالتنا يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها .

وقد أخذت الدراسات الوظيفية في السنوات الخمس الأخيرة تركز على المجالات المتعلقة بالأسلوب والمستويات اللغوية وأسس الترابط في النص cohesion ، وذلك من خلال تحليل النصوص text analysis وهذا المصطلح يطلق على الدراسة الوظيفية لمكونات النص اللغوي سواء أكان هذا النص عبارة عن عمل أدبي مطبوع written text ، أم كان مجرد نص منطوق oral text . ولكن نظرا لأن اختلاف نوعي النص (المكتوب والمنطوق) يثير قضايا تفصيلية مختلفة ، فقد انفردت اللغة المستعملة في التحوار والمناقشات بمصطلح خاص يدل دلالة مباشرة على نوع الدراسة ، وهذا المصطلح هو « تحليل المحادثة » discourse analysis وفي هذا المجال يكون التركيز على ظواهر تبرز في لغة الكلام خاصة ، مثل النبر والتنغيم ، والتقسيم القطعي للكلمات ، وإيقاع الكلام ، وتقسيم الكلام الى وحدات لغوية حسب المعلومات التي يريد المتكلم التعبير عنها .



المراجع

- أحمد مختار عمر (١٩٧٦) «دراسة الصوت اللغوي» . عالم الكتب ، القاهرة .
- تمام حسان (١٩٧٣) «اللغة العربية معناها ومبناها» . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- مصطفى لطفي (١٩٧٦) «اللغة العربية في أطوارها الاجتماعي» . معهد الأنماء العربي ، بيروت .
- يحيى أحمد (١٩٨٤) «المعنى بين الاتجاه التجريدي والاتجاه الوظيفي» . المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، المجلد الرابع ، ص ٥١ - ٧٠
- Berry, M (1982) 'Review of Halliday 1978' *Nottingham Linguistic Circular*, No. 11, pp. 64- 94.
- Butler, Chris S. (1989) 'Systemic models: Unity, diversity and change.' *Word* 40 pp. 1-35.
- Chomsky, N. (1965) 'Aspects of the Theory of Syntax' MIT Press Cambridge, Mass.
- Danes, F. (1966) 'A Three-Level Approach to Syntax' *TLP* 1m pp. 225-240.
- Dikm Simon C. (1978) 'Functional Grammar' North-Holland Publishing Company, Nether Lands.
- Firbas, J. (1959) 'Thoughts on the Communicative Function of the Verb in English, German and Czech' *BSE* 1, pp. 39-63.
- Firbas, J. (1966) 'Non-Thematic Subjects in Contemporary English' *TLP* 2, pp. 239-254.
- Firbas, J. (1971) 'On the Concept of Communicative Dynamism in the Theory of Functional Sentence Perspective' *Shornik Praci Filosoficke Fakulty Brnesk University A* 19, pp. 135-144.
- Firth, J.R. (1950) 'Personality and Language in Society' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951a) 'Models of Meaning' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1951b) 'General Linguistics and Descriptive Grammar.' Reprinted in Firth (1957).
- Firth, J.R. (1957) 'Papers in Linguistics 1934-1951' Oxford University Press.
- Halliday, M.A.K. (1973) 'Exploration in the Functions of Language' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1978) 'Language as Social Semiotic.' Edward Arnold.
- Halliday, M.A.K. (1985) 'An Introduction to Functional Grammar' Edward Arnold.
- Hengeveld, K. (1989) 'Layers and Operators in Functional Grammar,' *JL*, 25, No. 1, pp. 127-157.
- Hymes, D. (1971) 'On Communicative Competence.' in: J.B. Pride and J. Holmes (eds), *Sociolinguistics* Harmondsworth: Penguin Books.
- Langendoen, D.T. (1968) 'The London School of Linguistics.' Cambridge, Mass; MIT Press.
- Sampson, G. (1980) 'Schools of Linguistics' Hutchinson; London.
- Schlesinger, I.M. (1989) 'Instruments as Agents: On the Nature of Semantic Relations.' *JL*, 25 No. 1, pp. 189-210.
- Vachek, J. (1966) 'The Linguistic School of Prague.' Indiana University Press.
- Wilson, D. (1978) 'Introduction to Semantics. Lecture Notes.' Department of Linguistics and Phonetics U.C.

فاتحة البحث :

يقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ) في (الاتقان) : (وقال الهذلي في كامله :) (اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : العدد ليس يعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه^(١) . وقد سبقت مقالة الزعفراني هذه في حق طائفة من العلماء اشتغلت بتتبع بعض المؤشرات الكمية في الأسلوب القرآني . ولكنها - على قديمها - تكاد تكون تغييراً عن شكوك مترادفة يعترضها كثير من المعاصرين في جدوى المعالجة الإحصائية للأساليب^(٢) . وتستند هذه الشكوك إلى بدهية تبدو ظاهرة الصدق ، فقد تحفظ أن جمهور أئمة النقاد من لدن أرسطو إلى العصر الحديث عاجلوا باقتدار أخطر مشكلات النص الأدبي دون أن يحسوا حاجة ملحة تلجئهم إلى اصطناع الطرق الإحصائية والاستدلال بنتائجها . بل إن المقاربة الإحصائية لم تحظ عند عدد من أعلام اللسانيين المحدثين مثل موسيور وبلومفيلد وتشومسكي بنصيب ملحوظ من العناية . على أن ذلك لم يقطع على هؤلاء الأعلام ، ولم يؤخر منزلتهم بين أهل العلم . وإذا كان الدرس الأدبي واللساني كلاهما قد كان ولم يكن إحصاء فما وجه الضرورة إذن في اصطناعه ضرباً من ضروب المقاربة للمظاهرة اللسانية بعامه ، والأسلوبية خاصة؟

الدراسة الإحصائية للأسلوب بحث في المفهوم والإجراء الوظيفية

سعد صليح

أستاذ مشارك بكلية التربية الأساسية - الكويت

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر : حل سبيل المثال لا الحصر : صلاح فضل ، علم الأسلوب : مبادئ وإجراءاته ، كتاب النادي الأدبي الثقافي - جدة ، ط ٣ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .
وشفيح السيد : الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

والحق أن هذا الاعتراض القديم الجديد يعتضد أيضاً بظهور عدد وافر من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي أثارها الظاهرة الأسلوبية نفسها ، وما تزال تتردد في أدبيات هذا العلم دوغما جواب حاسم . وحسبنا هنا أن نشير إلى رؤى من هذه المسائل : فما حذا الأسلوب ؟ ، وهل يعرف بالإضافة إلى المنشيء بوصفه اختياراً ؟ أم إلى ذات الرسالة بوصفها شفرة لغوية ؟ أم إلى المتلقى بوصفه مجموعة من المثيرات والمنهيات التي تستدعي انفعالات ومواقف وأحكاماً معينة (٣) ؟ وهل ثمة مشروعية معرفية لاختصاص ظاهرة الأسلوب بعلم قائم برأسه بحيث يكون من العلوم المتجاذبة الاختصاص interdisciplinary ؟ أم أن دراسة الأسلوب ينبغي أن تكون فرعاً من علم آخر ؟ وإذا صح الفرض الأخير فأي العلوم في هذه العلاقة يكون أصيلاً وأياً يكون تابعاً ؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الأصل والتابع ؟

ويتنقل الخلاف حول هذه المسائل المنهجية إلى معسكر اللسانيين مع اتفاق جهمتهم على اعتبار ظاهرة الأسلوب موضوعاً من موضوعات العلوم اللسانية ، وذلك حين ينظرون في أمر العلاقة بين الدرس الأسلوبي والدرس اللساني ، هل هي علاقة فرع بأصل (٤) ؟ أم أن كليهما أصل بنفسه ؟ وما كان المكون الأسلوبي من بنية النص ، أثره ينتشر على كافة مستويات التحليل الصوتية والصرفية والنحوية على ما يقول شاتمان S. Chatman أم أنه مستوى قائم بنفسه على قول جالبييرين Galperin (٥) ؟ على أن المدارس اللسانية تتفاوتت تفاوتاً كبيراً في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب ، وفي تحديد موضع المكون الأسلوبي من ثنائيات كثيرة اشتهرت بين النقاد اللسانيين ، مثل ثنائية الشكل والمضمون ، وثنائية النمط والانحراف (أو الأصل والعدل) ، وثنائية النطق والتدوين ، وثنائية لغة الفكر ولغة اللسان ، وثنائية اللغة والكلام ، وثنائية الجملة وما وراء الجملة . وهو اختلاف ينتج آثاراً بعيدة المدى على المستويات النظرية والتطبيقية وإجراءات التحليل . وثمة أيضاً مسألة تتعلق بالخيار الأسلوبي ، أهو خيار يتم فيه التشكيل الأسلوبي عن وعي واختيار وإرادة من المنشيء أم أنه عملية خاضعة للغة بوصفها من المعطيات التاريخية القاهرة والمهيمنة على عملية الإبداع (٦) .

تلکم السلسلة التي لا نهاية لها من الخلافات لم تحسم بعد ، ولا نتوقع لها حسماً قريباً . إنها أسئلة تكاد تكون أبدية ،

(٣) أدت هذه التلائي إلى تقسيم الأسلوبيات إلى أسلوبيات تعبيرية ، وأسلوبيات تأثيرية وأسلوبيات موضوعية . وانظر مرعاً بعللاً لهذه الاتجاهات وغيرها في .

1-H. F. Plett, "Concepts of style : A Classificatory and a Critical Approach", *Language and Style*, Vol. no 4, Fall, 1977, PP. 268-9.

2- W. O. Hendricks, "The Notion of Style", *Language and Style*, Vol. V111, No. 1, Winter, PP. 35-41.

(٤) حول العلاقة بين الأسلوبيات واللسانيات انظر

Nils Erik Enkvist, "Linguistic Stylistics" Mouton, 1973, PP. 16-17.

(٥) نرفش هذان الرأيان بالتفصيل في :

Nils Erik Enkvist "On the place of Style in Some linguistic theories" in *Literary style : Asymposium*" ed. S. Chatman, Oxford Univ. Press, 1971, PP. 52-3.

(٦) الرأي الأخير هو لولان بارت وفريد من التفصيل ينظر .

Roland Barthes, "Style and Its Image", in *Literary Style*, Op. cit, P. 8.

وأيضاً عبد الله صولة : (الأسلوبية الدلالية أو الشعرية) ، مجلة فصول ، مج ٥ ، ج ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٩ .

وستظل دائماً محاور للحوار والخلاف بين أهل العلم . وكل هذه الخلافات وارد على أصل قضية الأسلوب بما هو ظاهرة ، وعلى قضية الأسلوبيات بما هي علم أو مجال معرفي متعين . ومن البدهي أن قضية المعالجة الإحصائية للأسلوب لن تكون بمنجى من تأثير هذه الخلافات سواء من جهة المفهوم أو الإجراء أو الوظيفة ، بل من جهة الحاجة إليها أصلاً .

وإذا كان من الصعب أن يُستوفى القول في جميع ما سبق من قضايا ، إذ يفضي بنا ذلك إلى الخروج عن أصل الغاية التي نصبت لهذه الدراسة = وكان من المحالات المنهجية أيضاً أن نُعرض عنها بالكلية في هذا المقام ؛ لوثاقة العلاقة القائمة بينها وبين سلسلة التصورات المنهجية والتحليلية التي تشكل قوام البحث - لذلك كان سؤا الأمر هو أن نستفرغ الوسع في استصفاء ما يتصل من هذه المعضلات الخلافية بقضية الدراسة الإحصائية للأسلوب اتصالاً مباشراً ، وفي إرجاء الحديث المفصل حول الفروع والجزئيات ، مع الإشارة إليها في مظانها ، ليستقيم لنا البحث في أمر الإحصاء الأسلوبي من حيث المفهوم والإجراء والوظيفة . وهذه الثلاثة المحاور تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها درس الإحصائي للأسلوب . وتشكل في الوقت نفسه البنية الأساسية لهذا البحث على الوجه التالي :

١ - مبحث المفهوم ، ويشمل :

- ١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي .
- ١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي .

٢ - مبحث الإجراء ، ويشمل :

- ٢ - ١ - التغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية .
- ٢ - ٢ - التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال) .
- ٢ - ٣ - أسلوبيات المقام .
- ٢ - ٤ - التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال .
- ٢ - ٥ - التشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٦ - المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص .
- ٢ - ٧ - النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي .
- ٢ - ٨ - إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي .

٣ - مبحث الوظيفة ، ويشمل :

- ٣ - ١ - مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي .
- ٣ - ٢ - مجالات تطبيقه

٣ - ٣ - أنماط المقاييس الأسلوبية .

٣ - ٤ - مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية ، والمعالجة الإحصائية :

وفي ما يلي يعالج البحث هذه المسائل على الترتيب السابق ذكره .

١ - مبحث المفهوم

١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي :

لا شك أن ظواهر السلوك اللغوي لدى أي جماعة لغوية إنما تنصف ، في بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفي بنيتها شفرتها ، بالوحدة والتجانس ، لأنها لو لم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها . وأول الشروط لتحقيق التفاهم أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بالشفرة المشتركة ، ويتحققها الغزيقي من حيث رموزها ، وعلاماتها ، وقواعد تأليفها ، ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصدقها العلم ، فالسلوك اللغوي يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في ظرفين مختلفين ، وهكذا تتنازع السلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية ، وانتفاءات اجتماعية موحدة Group affiliations وانتفاءات اجتماعية متعارضة Cross affiliations في خطوط ودوائر متداخلة ومتقاطعة حتى يبلغ التنوع مداه ، مُشكِّلاً ما اصطلاح على تسميته بلهجة الفرد idiolect ، وهي مجموعة السمات المميزة للسلوك اللغوي عند فرد بعينه في جماعة لغوية بعينها .

هذا التنوع في إطار الوحدة هو ما حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام / Language Parole عند سوسور ، أو ثنائية الكفاءة والأداء Competence/Performance عند تشومسكي على خلاف بين الثنائيين في المطلق الفلسفي ، ومن ثم في الإجراءات التحليلية والغايات^(٨) . غير أن النظرية اللسانية الحديثة قامت في الأساس على افتراض الوحدة والتجانس ، وصرفت عنايتها في المقام الأول إلى دراسة ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية deterministic linguistics ، وشغلت دراسة التنوعات والفروق المحل الثاني من الاهتمام ، واضطلعت به مجموعة من العلوم تدخل ضمن ما يسمى باللسانيات الاحتمالية Probabilistic linguistics . وإلى هذه

(٧) سعد مصلوح : الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٨) عن الأصول النفسية والفلسفية لنظرية تشومسكي انظر : جون ليويز : نظرية تشومسكي للغة ترجمة حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٧ - ٢١٠ وص ٢٤٧ - ٢٥١ . وعبد حمزة فالي : أئمة النحاة في التاريخ ، ج ١ ، ١٩٧٦ ، ص ١٦٠ - ١٦١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ وجون سيرل : تشومسكي والفرقة اللغوية ، مجلة الفكر العربي ، ٩/٨٤ ، ص ١٢٤ - ١٢٧ .

المجموعة من العلوم تنتمي الأسلوبيات اللسانية Linguostylistics ويتوزع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متنافستان ، هما بحسب تصنيف بير جيرو Pierre Guiraud : مدرسة الأسلوبيات التقليدية Tra-ditional Stylistics التي وضع أصولها بالي Bally ، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة new Stylistics التي اشتقها جاكوبسون Jacobson من الاتجاه البنيوي لمدرسة براغ . وتتفق المدرستان على تعريف الأسلوب بأنه الصيغة المميزة للنص . غير أن الطائفة الأولى تبحث عن مصدر تعريفاتها في دراسة الخواص الأسلوبية للنظام (أو الشفرة) The Code على حين تلتزمه الطائفة الثانية في وصف البني الداخلي للرسالة The message^(٩) .

ونحن اذا اعتبرنا الصيغة المقترحة للأسلوبيات اللسانية عند بالي ومدرسته من جهة ، ثم عند جاكوبسون ومن نهج نهجه من جهة أخرى ، ثم اعتبرنا كذلك العوامل الاجتماعية والنفسانية الفاعلة في تشكيل الرسالة - أدركنا ما عليه موقف الأسلوبيات اللسانية من تعقد ، فهي دراسة تتقاطع مع اللسانيات التقريرية (بوصفها إطاراً مرجعياً لوصف التنوعات حتى داخل النظام نفسه) ، وتكملها في آن معاً . كذلك تتقاطع هذه الدراسة مع اللسانيات الاجتماعية (في مبحث محددات المقام ، وفي تحديد الإطار المرجعي للتنوع الاجتماعي) ، ومنغ اللسانيات النفسانية (في مبحث الشخصية والنمو) ، ومع النقد الأدبي (في معالجة النص الأدبي ، الذي هو من أعظم التنوعات اللغوية تميزاً) . ويتمتاز الدرس الأسلوبي من كل علم من هذه العلوم جميعاً بخصوصية تحدد له مجال بحثه ، فهو يفارق (اللسانيات التقريرية) باحتفائه بمبدأ التنوع ، وهو لا يتلمس من اللسانيات الاجتماعية الا بعض الأطر المرجعية المعينة على التصنيف ، وهو بإزاء اللسانيات النفسانية يختص بالسلوك اللغوي - السوي عادة - دون سائر أنواع السلوك البشري الأخرى . وهو بإزاء النقد الأدبي إنما ينصرف إلى السلوك اللغوي في النص ، وإلى التشخيص بالأصالة والتقييم بالتبعية ، وهو إذا عالج في النص جوانب أخرى مما يهم الناقد الخالص فليس إلا من خلال المكون اللغوي وما يتصل ببنيته من قضايا - وهي - لحسن الحظ - كثيرة وخطيرة .

وموجز القول أن الدرس الأسلوبي يتم بدراسة مظهر هام من مظاهر التنوع في السلوك اللغوي ، ويتتبع بذلك إلى (اللسانيات الاجتماعية) ، على حين تقوم (اللسانيات التقريرية) على إهمال مبدأ التنوع وإفترض الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف التواصل اللغوي . وعن هذا يعبر تشومسكي بأوضح عبارة إذ يقول :

(إن النظرية اللسانية مَعْنِيَّة ، أولاً وقبل كل شيء بإنسلا مثالي في 'سلوكه اللغوي' ، تكلماً وسماعاً ، يعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس . وهو عارف بلغته تمام المعرفة ، ولا يخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي لتلك الظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي ، مثل عدودية الذاكرة ، والارتباك ، والعوارض التي تتوزع اهتمامه وانتباهه ، ولما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو مميزة .

(٩) Pierre Guiraud, "Immanence and Transitivity of Stylistic Criteria", in *Literary style : A symposium*, op cit. P. 16.

ذلك هو الموقف - كما يبدو لي - لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة . ولم يظراً بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف (١٠) .

ذلكم الفرد المثالي في سلوكه اللغوي ، وتلك الجماعة اللغوية المتجانسة التي تمارس التواصل اللغوي في ظروف مثالية ليس إلا فرضاً نظرياً تنطلق منه مباحث النظرية اللسانية . وإذن فقد كتب على اللسانيات الاحتمالية ، ومن بينها الأسلوبيات اللسانية مواجهة مشكلة التنوع اللغوي ، أو - بعبارة أخرى - امتحان فروض (اللسانيات النظرية) ، وتكملة نواقصها ، والإسهام في معالجة أوجه القصور في النظرية اللسانية الحديثة .

من هنا تبرز وثيقة العلاقة بين الدرس الأسلوبي وأهمية المعالجة الإحصائية لظاهرة الأسلوب ، بل بين (اللسانيات الاحتمالية) في جعلها والإحصاء ، فما دام التنوع هو موضوع الدراسة فلا بد من رواة لغويين informants يتم اختيارهم من الجماعة اللغوية ويتحقق في سلوكهم التنوع ، ولا بد من اختيار عينات من النصوص تمثل المجتمع الإحصائي Statistical Population إذا لم يتيسر دراسة المجتمع نفسه . وهو الأمر الغالب دائماً ، ولم يكن بُدٌ كذلك من إقامة الاختيار ، سواء للعينات أو الرواة ، على أساس يضمن دقة النتائج وسلامة الأحكام ، ومن وسائل علمية يتحتم بها ثبات هذه الأحكام وصدقها . فماذا كان موقف الدراسات اللسانية بنوعها حيال الاستعانة بالمعالجة الإحصائية للمادة اللغوية الخافلة لمظاهر التنوع والاختلاف ؟

يقرر فرانك أنشين Frank Anshen أن الدراسات اللسانية قد سلكت حيال اعتبار التنوع ومعالجته إحصائياً واحداً من مسالك ثلاثة :

أما المسلك الأول فهو تجاهل التنوع ، والاعتراف بأن كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية المعينة هو متكلم مثالي بالضرورة ، ومن ثم له الحق في أن يكون المتحدث الوحيد باسم جماعته في هذا المجال ، إذ هي بدورها جماعة مثالية متجانسة في سلوكها اللغوي ولما كان هذا التجانس لا وجود له على الحقيقة = وكانت دراسة التنوع اللغوي مرادة في ذاتها لأهميتها النظرية ، ولأنها قوام علوم لسانية بأسرها - وجدنا أنشين يطلق على هذا الاتجاه تسمية لا تحل محل من سخرية ، إذ يسميه اتجاه (عَدَّ عن ذا) (ignore it) .

وأما ثانيها فقد توسط بين الأمور ، وطالب بتقييد المادة المدروسة بالبيئة والمقام . وإن كان ذلك قد جرى على نحو غامض لا يمكن الاطمئنان إلى أسسه وإجراءاته ونتائجه .

وأما ثالثها فقد أثر اللجوء إلى المعالجة الإحصائية لضبط طرق اختيار الرواة والعينات ضبطاً علمياً ، وبحول البيانات غير الرقمية إلى بيانات رقمية ، ويختبر الصدق والثبات في النتائج ، ويستكنه الدلالات الإحصائية للأرقام^(١١) .

ولا شك أن المسلك الأخير هو الحل العلمي المنهجي لمعالجة ظاهرة التنوع اللغوي على نحو علمي منضبط ، بل إن أهمية الإحصاء قد ثبتت لكثير من علوم اللسانيات التقريرية مثل اللسانيات التاريخية على سبيل المثال^(١٢) . أما في الأسلوبيات اللسانية فالحاجة إليه أشد إلحاحاً ، لأنها لا تقارب السلوك اللغوي بما هو ظاهرة متنوعة فحسب ، بل تقاربه أيضاً بما هو استعمال لغوي متميز بالقياس إلى غيره . وبذلك يتجاوز اللجوء إلى الإحصاء هنا دائرة الجواز إلى دائرة التنبؤ . بل إلى دائرة الوجوب إذا أريد للتشخيص الأسلوبي وللأحكام النقدية الناتجة عنه أن تناط جميعها بأوصاف ظاهرة منضبطة .

١ - ٢ - ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي

ثمة مفاهيم تكتسب بشيوعها في الاستعمال العام وضوحاً زائفاً ، حتى إذا ما رازها العلماء واختبروها ، وتناوشتها المدارس العلمية على اختلاف أصولها ومنهجها وإجراءاتها البحثية تكشف أمرها عن قدر لا يستهان به من الغموض والتعقيد . وإلى هذا الصنف من المفاهيم ينتمي مصطلح (الأسلوب) ، سواء في مصنفات اللسانيين أو النقاد^(١٣) . وتجرب هذا المفهوم جدير بأن يكون مطلباً علمياً لذاته . بيد أن التزام البحث بقضية المعالجة الإحصائية للأسلوب سوف يضطرنا إلى أن نقبل نوعاً من الحد هو إلى التفسير أقرب منه إلى التعريف ، فعلماء اللسان والنقاد - على وجه الإجمال - يرون في الأسلوب واحداً من تجليات التنوع في السلوك القولي . إلا أن مصادقات هذا التنوع من اللساني أوسع منها عند النقاد . وفرق ما بين الرجلين هو فرق في الغاية تتبعه سلسلة من الفروق ، فغاية اللساني هو الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية ، وما سوى ذلك من غايات هو عنده تالٍ وتبع . وغاية الناقد هو قراءة العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه ، وما سوى ذلك عنده من الغايات تالٍ وتبع وينشأ من ذلك أن النص الأدبي هو واحد من مظاهر استخدام اللغة التي يوليها اللساني عنيته في بحث الأسلوب من منظوره الخاص . أما الناقد فالتص الأدبي هو كل بضاعته ، والموضع الوحيد لتأمله ونظره . وبديهي أن المكون الأسلوبي اللساني هو بالنسبة إليه واحد من مكونات أخرى ، لا يكمل عمله إلا بالوقوف

Frank Annsen, "Statistics for Linguists", Newbury House publishers, U.S.A., 1978, PP. 2-3.

(١١)

(١٢) من الإحصائيات المحمية في اللسانيات التاريخية انظر .

-Milka Ivic, "Trends in Linguistics" Trans. by Muriel Heppell, 2nd Printing, Mouton, 1970 PP. 219-220.

-D. L. Omsited, "Lexicostatistics as" Prooe "of Genetic Relationship", "Anthropological Linguistics", Vol. 3, No. 4, PP. 9-14.

-H. A. Gleason, Jr., "Counting and Calculating for Historical Reconstruction", Anth. Linguistics, Vol. 1, No. 2, PP. 11-32.

(١٣) من مفهوم الأسلوب انظر : سمد مصطفي . المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣ - ٢٩ .

عليه ، وينقص عمله بالوقوف عنده . تلك هي المنطقة التي يتقاطع عندها عمل اللساني والناقد ، ثم يتجاوزها كل منهما ماضياً إلى غايته ، إنها منطقة الوصف والتشخيص ، وسنعود إلى هذه القضية بفضل بيان في فقرة قادمة . وحسبنا هنا أن نشير إلى سعة ماصدقات مفهوم (الأسلوب) في البحث اللساني ، فهو إذا أضيف إلى فرد كان أسلوباً فردياً ، وإذا أضيف إلى فئة من فئات المجتمع كان أسلوباً فئوياً ، وإذا أضيف إلى عصر بعينه كان أسلوباً مميزاً لحقبة من حقب تاريخ اللغة ، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوباً نثرياً أو شعرياً أو قصصياً أو مسرحياً ، وإذا أضيف إلى الوساطة الناقلة كان أسلوباً صحفياً أو إذاعياً أو مكتوباً أو مقروءاً . وإن القاريء لواجب في هذا العرض المختصر أمرين : سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني وبالقياس إليه عند الناقد ، وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما .

ويمكن أن تنلمس مجال المعالجة الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تعاريف (الأسلوب) .

الأول : تعريف يجد الأسلوب بأنه مفارقة departure (أو انحراف deviation)^(١٤) عن النموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه معيار norm . وبالمقارنة بينهما يقع التمييز بين (النص المقارن) و (النص - النمط) . ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني : تعريف يجد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشيء لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين - وإن كان لهما من طابع البساطة ما يكاد يبلغ مبلغ البداية - يثيران من الإشكالات النظرية أو المنهجية أكثر مما يجلان ، فأولها يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصيل (أو النمطي) (أو المعتاد) ليكون في الامكان قياس التعبير المعدول deviant إليه . وهو أمر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجماع ، كما إن السبيل إليه صعبة متوعدة المسالك . وثانيها يلزمنا بمعرفة قائمة الأبدال المتاحة ، تلك التي يُعْمَلُ المنشيء فيها فكره بالاختيار والاستبعاد . والأسئلة التي يطرحها هذا التعريف كثيرة متشعبة ، لعل من أهمها : هل لمثل هذه القائمة وجود بالفعل ؟ وهل من الميسور التوصل إلى صياغتها ولو على وجه التقريب ؟ . ثم ماذا عن طبيعة هذا الاختيار : أترأه يتم من المنشيء عن وعي وقصد ؟ أم أنه يتم بطريقة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشيء ؟^(١٥)

(١٤) انظر مناقشة بارت هذا المفهوم في المرجع السابق ذكره P. وآياً فقد تسليتان لودورف في دراسته له بعنوان :

"The Place of Style in the Structure of the Text", in Literary style : A Symposium" Op. Cit, PP. 30-1.

(١٥) لمة دراسان هاتان في مقالة (الاختيار) هما :

-Louis T. Milic, "Rhetorical Choice and stylistic option", in Literary Style, Op. cit, PP. 77-88.

-Jane R. Walpole, "Style as Option" in College Composition and Communication", Vol. XXXI, No. 2, 1980, PP. 205-212.

بيد أن من المثير حقاً أن هذه الإشكالات هي التي تفتح الباب لتدخل المعالجة الإحصائية للأسلوب على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية . وهو ما سيعرض له هذا البحث فيما بعد . ونبادر هنا إلى تأكيد أن ما بين التعريفين من وجوه التكامل هو أوسع من وجوه الاختلاف أو التناقض . ويرجع التعريف الثاني نظيره من الوجهة العملية - فيما نرى - لأمر ، منها أولاً : أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيها يكتبون . وثانياً : لأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معدول عن أصل معتاد يمكن أن يؤدي إلى القول بأن كل تعبير جاء على الأصل دون عدول هو خلو من الجمال . وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه . وثالثاً : لأن الانحراف عن النمط ومغافقته يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاختيار ومحصلة له . ورابعاً : لأن مفهوم الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية وضم شتاتها في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار امر يفترض أن يقوم به المنشيء على كافة مستويات التواصل بدرجات متفاوتة . ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب ، بل هو محكوم من جهة بإمكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام Context of situation . وتشمل مقتضيات المقام عوامل كثيرة ، منها مصدر الخطاب ، والمقصود بالخطاب ، وموضوعه ، والوسيلة المعتمدة للإبلاغ ، وجنس الخطاب ، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به ، والحضور الذهني أو العيني للمخاطب ، والمسرح الذي تجري عليه وقائع الخطاب ، وغير ذلك كثير مما سنعرض له في حينه .

وأياً ما كان المفهوم الذي يعتمد أساساً للتحليل ، فثمة أمران نحسبهما موضع اتفاق بين الدارسين :

أولهما : أن الأسلوب مفهوم احتمالي في جوهره . وهو بهذه الصفة مستحق لأن يكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية إذا شئت إحصاء أحكام الوصف والتشخيص .

وثانيهما : أن الأسلوب بمصادقاته المختلفة لا يمكن تحليله تحليلاً شافياً إلا في ضوء التحليل الشامل للغة المعنية ، ذلك أن هذا التحليل الشامل هو بمثابة تحديد لخلفية الصورة (أو الأرضية) The background التي تبرز بالقياس إليها الشكل The foreground ، فلا بد من قياس المتنوع إلى المتجانس ، والخاص إلى العام ، يقول هالداي Halliday : (إذا كان لعالم اللسان أن يأمل في الإسهام في تحليل الأدب الإنجليزي ، فإن عليه أولاً أن ينجز وصفاً شاملاً للإنجليزية العصر على كل المستويات)^(١٦) .

وإذا كان الوصف الشامل للغة هو الأساس المعبر لفحص الظاهرة الأسلوبية فإن التشخيص الإحصائي للأسلوب لا يمكن أن يستغني فيه أوبه عن التشخيص الإحصائي لباني اللغة ، وذلك في إطار الظاهرة المدروسة على أقل

M-A. K. Halliday, "The Linguistic Study of Literary Texts", Proceedings of the Ninth International Congress of Linguists, ed. Huraecede Lunt, The Hanguue, 1964, P. 302. (١٦)

تقدير . ومن هنا تنشأ علاقة وثيقة بين اللسانيات الإحصائية والأسلوبيات الإحصائية ، بحيث تتولى الأولى بيان الخصائص المشتركة في الاستعمالات اللغوية وتقوم الأخرى بالدراسة الدالة للخصوصيات والفروق . أما حين يتعذر وجود الوصف أو الإحصاء الشامل - كما هو الحال في العربية - فإن قصارانا أن نقبس انحرافاً إلى انحراف ، أو اختياراً إلى اختيار . وسيلينا إلى ذلك هي المقارنة بين الخصائص الأسلوبية لأكثر من نص عند منشيء واحد ، أو عند أكثر من منشيء ، أو في نوع بعينه من النصوص عند عدد من المنشئين ، أو في جزء من أجزاء نص بعينه إلى غيره من أجزاء النص ، أو في مدونة كاملة .

٢ - مبحث الإجراء

٢ - ١ - المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية :

٢ - ١ - ١ - تعريف : تعني بالمتغيرات الأسلوبية Stylistic Variables مجموعة السمات اللغوية (بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح) ، التي يعمل فيها المنشيء بالاختيار أو الاستبعاد ، وبالتكثيف أو التخفيف ، وبتابع طرق مختلفة في التوزيع ليشكل بها النص ، وحينئذ تصبح المتغيرات الأسلوبية خصائص مميزة Stylistic features أو مواثر Dis Crimators ، ومن ثم ينبغي التمييز بين مفهوم المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية ، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة غفل متاحة من جهة الإمكان العقلي على الأقل أمام جميع المنشئين ، ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية . وإذن يكون المتغير خاصية أسلوبية بالقوة ، تتحول في النص إلى خاصية أسلوبية بالفعل .

٢ - ١ - ٢ - أنواع المتغيرات الأسلوبية

المدخل الأساسي لتصنيف المتغيرات الأسلوبية هو الوساطة الناقلة المستخدمة في الرسالة اللغوية (أو النص) ، فللإلقاء والأداء الشفهي أساليب تفارق أساليب النص المسطر على الأوراق . ويمكن تصنيف المتغيرات الأسلوبية إجرائياً وتبعاً لذلك إلى متغيرات شكلية وصوتية وصفية وتركيبية ودلالية . ونود هنا أن نورد ملاحظ ثلاثة :

أولها : أن المتغيرات الشكلية تنصرف معظمها إلى النص المدون ، وتعالج الصورة الطباعية أو التدوينية التي يظهر بها النص على الورق ، ومظاهر التشكيل الجمالي للحروف بما هي كم فيزيقي يدرك بالبصر . ولا ينبغي ذلك أن يكون لهذه التشكيلات الجمالية أبعاد أخرى على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي .

ثانيها : أن المتغيرات الأسلوبية مختلف أنواعها يمكن اعتبارها على مستويين : مستوى الجملة في ما نطلق عليه مصطلح (نحو الجملة) Sentence Grammar ومستوى النص في ما اصطلح على تسميته (نحو النص)^(١٧) Text Grammar .

(١٧) لبنان المقصود من مابين المصطلحين انظر :

Teun A. Van Dijk, "Some Aspects of Text Grammar : A Study in Theoretical Linguistics and Poetics", Mouton, The Hague, 1972, PP. 10-12.
-Wilbur Pickering, "A Frame Work for Discourse Analysis", Summer Institute of Linguistics, Publication No. 64, 1980, P. 5

فالنتها : أن ما ذكر من أنواع المتغيرات هنا إنما ذكر على سبيل التمثيل لا على جهة الاستقصاء والخضر . وقد سوغ ذكرها أنها من أكثر المتغيرات سيورة في البحث الأسلوبي ، وهي أطوعها للمعالجة الإحصائية ، وفي ما يلي قائمة بالمتغيرات الأسلوبية المختارة :

أولاً : من المتغيرات الشكلية :

- (١) الشكليات التي تميز الشعر من النثر (قسمة البيت إلى شطرين) .
- (٢) توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة .
- (٣) الأشكال الهندسية البديعية .
- (٤) نظام الفراغات على الصفحة .
- (٥) فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف .
- (٦) طول الكلمة (مقياساً بعدد الحروف) .
- (٧) طول الجملة (مقياساً بعدد الكلمات بحسبان الكلمة كما فيزيقياً متصلاً مسبوقةً وملحوقاً بفراغ)^(١٨) .
- (٨) أنواع من الجناس (المركب والمتشابه) .
- (٩) علامات الترقيم^(١٩) .

ثانياً : من المتغيرات الصوتية :

- (١) التوزيع النسبي لفئات الفونيمات^(٢٠) .
- (٢) أنواع المقاطع (المفتوحة / المغلقة)^(٢١) .
- (٣) التشاكل المقطعي isosyllabism^(٢٢) .
- (٤) الكلمات الموحية onomatopoeic .

(١٨) هذا المعيار لتحديد الكلمة هو المعيار المعترف به إحصائياً بالنسبة للتصريح المرددة . وقد حول عليه كاتب البحث في دراسة خاصة تنوع المقدرات (انظر حاشية رقم ٢٤) . وأيضاً :

-Jan Helbich, "Statistical Methods on Evaluating Words for Indexing Purposes" in Prague Studies in Mathematical Linguistics Academia, Prague, 1972, No. 4, P. 66.

(١٩) علامات الترقيم هي أحد المتغيرات التي يمكن استخدامها في قياس أسلوبية طول الجملة ونوعها . انظر :

George A. Miller, *Language and Communication*, New York, Toronto, London, 1963, PP. 126-7.

(٢٠) قامت بعض البحوث باستغلال مقياس كاي ٢ في دراسة توزيع فونيمات الصوائت في خمس مملكات جاعلةً انظر :

Mary C. Bateson, "Structural Continuity in Poetry", Mouton, 1970, PP. 60-67.

(٢١) يرى بعض العلماء ارتباطاً بين حسن الجرس في الشعر ونسب المقاطع المقترنة انظر : إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، القاهرة ، الاندول المصرية ، ١٩٦٥ ، ط ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢٢) عن التشاكل المقطعي انظر :

A. W. DeGroot, "Phonetics in its Relation to Aesthetics", in *Manual of Phonetics*, ed. B. Malmberg, Amsterdam, 1968, P. 538.

- (٥) أنساق نبر الكلمات Word-Stress (أو أشكال الوزن العروضي) .
- (٦) قافية الصدارة alliteration .
- (٧) الجناس بأنواعه (التام والناقص) .
- (٨) السجع .
- (٩) نظم التنغية ومعناها :
- (أ) القافية التامة True rhyme (ويراعى فيها التطابق التام) .
- (ب) لزوم ما لا يلزم .
- (ج) القافية البصرية eye rhyme (وتقوم على التطابق في الرسم الكتابي دون النطق) .
- (د) القافية الناقصة half rhyme (وتقوم على التشابه لا التطابق في النطق ، ومنها ما يسمى بمصطلح العروضيين الإكتفاء والإجازة والسند بأنواعه)^(٢٣) .
- (هـ) القافية السمعية ear rhyme (ويراعى فيها تطابق الانطباع السمعي دون الرسم الكتابي) .
- (١٠) القلب .
- (١١) تشاكل البدايات anaphora .
- (١٢) التشريع .
- (١٣) طول الكلمة (مقيسا بعدد المقاطع أو الفونيمات) .
- (١٤) تماثل الصوائت assonance .
- (١٥) تماثل الصوائت Consonance .
- (١٦) انسجام الصوائب Vowel harmony .
- (١٧) حسن الوقع euphony . وترتبط بالشيوع النسبي لفئات معينة من الأصوات وهي الصوائت ، والصوائت الرنانة resonants الألفية والجانبية والترددية وأنصاف الصوائب في مقابيل الفئات الأخرى : الاحتماسيات والاحتكاكيات . كذلك يرتبط حسن الوقع - كما أسلفنا بالشيوع النسبي للمقاطع المفتوحة في مقابل المقاطع المغلقة) .
- (١٨) تقابل السمات الفارقة distinctive features .
- (١٩) التخالف الصوتي dissonance .
- ثالثاً : من المتغيرات الصرفية :**
- (١) أقسام الكلم ؛ (الاسم ، الفعل ، الصفة ، الظرف .

(٢٣) عرّجت ظاهرة القافية التامة والناقصة باستطاعة في :

س . مويدي : الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ - ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب العربي ، ترجمة شفيق السيد وسعد ممدوح ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ - ٢٢٦ .

(٢) الصيغ الصرفية . (الأفعال ، المجموع ، المصادر ، المشتقات) .

(٣) مبتكرات الصيغ .

رابعاً : من المتغيرات التركيبية :

(١) المركبات النحوية : (المركب الجري / الظرفي / النعتي / البدلي / العطف) .

(٢) أنواع الجمل : (اسمية / فعلية ، بسيطة / مركبة / معقدة ، إنشائية / ، خبرية) .

(٣) التنافر والتعقيد التركيبي .

(٤) جميع مباحث علم المعاني في البلاغة العربية .

(٥) المجاز بالخلف (من مباحث علم البيان) .

(٦) البعد التركيبي من المقابلة .

(٧) البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل (بالمصطلح البلاغي) .

(٨) فنون بلاغية من مباحث علم البيان والبدیع مثل :

(التثويف ، والعكس ، واللف والنشر ، والابتداء والتخلص والانتهاء ، والجمع والتفريق والتقسيم ، ورد الأعجاز

على الصدور ، وغير ذلك)

(٩) الصحة النحوية grammaticality .

(١٠) الجواز النحوي acceptability .

خامساً : من المتغيرات الدلالية :

(١) الوحدات المعجمية lexemes .

(٢) السجل المعجمي register .

(٣) المفردات القديمة archaism .

(٤) المفردات الدخيلة .

(٥) التركيز والتشتت في توزيع المفردات .

(٦) المولد .

(٧) تنوع المفردات^(٢٤) .

(٨) الثروة اللفظية^(٢٥) .

(٢٤) انظر : سميد مصلوح : قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب . دراسة تطبيقية على نماذج من كتابات العقاد والراعي وطه حسين ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مج ١ ، ١٩٨١ ، ص ١٤٩ - ١٦٩ .
(٢٥) صاغ المعادلة الخاصة بقياس الثروة اللفظية بيرجيرو . وانظر نقداً هذه المعادلة وتطبيقها في :

Marie Tesitelova "On The SO-Calld Vocabulary Richness", in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, 1972, No. 3, PP. 104-115.

- (٩) البعد الدلالي للاستعارة (بأنواعها : التجريدية / الإحيائية animation التشخيصية Personification) .
- (١٠) البعد الدلالي للتشبيه والمجاز المرسل والكناية .
- (١١) فنون بديعة في التراث البلاغي مثل : الطباق ، والتدبيح ، ومراعاة النظر ، وإيهام التناسب ، والإيراد ، والمشاكلة ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والتبليغ ، والإغراق والغلو ، والتشويق والعكس . . الخ) .

سادسا : من متغيرات ما فوق الجملة^(٢٦)

- (١) طول الفقرات وتوزيعها .
- (٢) هرمية البنية المنطقية للنص .
- (٣) انفتاح النص أو انغلاقه^(٢٧) .
- (٤) هرمية البنية النحوية : (الكلمة ← المركب ← العبارة ← الجملة ← الفقرة) .
- (٥) الربط بين الجمل .
- (٦) التوافق والتخالف في مباني الجمل .
- (٧) وسائل السبك Cohesion (صوتية / حرفية / تركيبية / معجمية) .
- (٨) المعلومات المقدمة given information^(٢٨) .
- (٩) معدل وروود المعلومات rate of information^(٢٨) .
- (١٠) الالتفات (على مستوى النص) pronominalisation .

تلكم الأنواع من المتغيرات الأسلوبية ذكرت هنا لا قصدا إلى الحصر . ويمكن القول - على وجه الإجمال - إن أي خاصية لغوية ماثرة distinctive أو فائضة redundant^(٢٩) هي متغير أسلوبى بالفعل وخاصية أسلوبية بالقوة . وبهي بذلك قابلة لأن تكون موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية بهدف التشخيص الأسلوبى للنص ، أو للكشف عن أنواع التشكيل الأسلوبى الذي خضعت له من قبل المنشئ .

(٢٦) ثمة خلاف في تحديد الوحدة الحاملة للأسلوب : أهي الجملة أم ما فوق الجملة . ومن الغالبين بالأول ريتشارد إيمان انظر :

R. Ohmann, "Literature as Sentences" in *Essays on the Language of Literature*, eds. S. Chatman and S. Levin, Boston, 1967, PP. 232-3.

على حين يرى أ . ميد الساليات شخص محسوس الجملة وتفرده الأسلوبيات بمسرى ما فوق الجملة . انظر :

A. Hill, "Essays in Literary Analysis", Austin, Texas, 1965, P. 69.

(٢٧) انفتاح النص أو انغلاقه ، إحدى الخصائص الأسلوبية التي يحول عليها بعض الباحثين لتشخيص الفرق ما بين لغة النساء ولغة الرجال . انظر :

Thomas J. Farrell, "The Female and Male Modes of Rhetoric", *College English*, Vol. 40, No.-8, April, 1979, PP. 909-910.

W. Longacre, *Op. Cit*, PP. 71-74 and 79-81.

(٢٨)

(٢٩) للتمييز بين الخواص الماثرة والماثرة بهورهما في التشكيل الأسلوبى انظر :

A. W. Degroot, *Op. Cit*, PP. 537-8.

٢ - ١ : المتغيرات الأسلوبية والطرز النحوي :

تشتمل قائمة المتغيرات الأسلوبية على تصورات ومصطلحات لسانية ، وعلى مفاهيم يكثر استخدامها في البلاغة المدرسية . ومعلوم أن التعاريف التي تساق لأكثر هذه التصورات ، وتوظيف ما هو معروف منها في التحليل الأسلوبي إنما يختلف باختلاف المدارس والاتجاهات اللسانية ، فكثير منها ليس موضع اتفاق وإجماع ؛ ضرورة أن هذه المدارس يختلف بعضها عن بعض في المنطلق الفلسفي والغاية ومناهج التحليل وإجراءاته .

وتطرح هذه الحقيقة البديهية على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي grammatical model الذي يعتمد أساساً لتحديد مفاهيمه ، ومن ثم لتحديد المنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس . وقد جهل فضيلة هذا الأمر - على أهميته البالغة - كثير من الذين عاجلوا بعض مسائل تاريخ العربية أو بنيتها أو ظواهرها الأسلوبية ، حين استخدموا هذه المصطلحات ملقن إياها ملقن المسلمين ، على توهم وضوح مفاهيمها واستقرارها وثباتها . وليس هذا الظن صواباً بإطلاق . ولا يتسع المجال هنا لتتبع أشهر الطرز النحوية واستعراض علاقتها بالدراسة الأسلوبية بعامة والإحصائية منها بخاصة . بيد أننا هنا نعيد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من أن (الطرز النحوية جميعها - بما في ذلك الطراز التقليدي - كلها قابل من حيث المبدأ لأن تشكل أساساً منهجياً للبحث الأسلوبي)^(٣٠) . هذا وإن كان من الطبيعي أن تتفاوت الطرز في مدى كفاءتها ووفائها بمتطلبات الوصف الدقيق للخصائص الأسلوبية .

٢ - ٢ : أساليب المقال :

يقصد بأساليب المقال التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية Stylistization أو بعبارة أخرى - تنظيم السمات اللغوية في النص على نحو تتحول به من مجرد كونها بنوداً في قائمة المتغيرات إلى خصائص أسلوبية ماثرة للنص . وينبغي هنا إيراد عدد من الملاحظات الهامة :

الأول : أن قائمة المتغيرات الأسلوبية التي سبق إيرادها هي محصلة رصد وتأمل لعدد غير قليل من الدراسات الأسلوبية . وقد يكتب بعضها الصفة الجامعة Universal بحيث يمكن أن تصادف في اللغات على اختلافها ، وقد يكون لبعضها طابع من الخصوصية يجعله وقفاً على لغة بعينها ، كما أن أهمية بعضها قد متفاوت من لغة إلى لغة بحسب خصائص بنيتها وقوانينها .

الثاني : أن هذه القائمة ليست جامعة ولا ماثرة ، ولا يبعد أن يجتهد مجتهد فيضيف إليها ، أو ينقص منها ، أو يعدل من العلاقات بين وحداتها بما يؤيده إليه تأمله للنصوص واجتهاده في رصد خصائصها .

الثالث : من المحال أن يستخدم منشئ واحد لا في نص واحد ولا في مجموعة من النصوص جميع المتغيرات الأسلوبية التي سبق ذكرها . وإنما يتحقق التشكيل الأسلوبي باختيار عدد منها يتم استخدامه نماذج الأساليب^(٣١) .

(٣٠) سمع مصطلح - الأسلوب - . ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣١) هذا خلافاً لما يتصوره بعض الباحثين من إمكان ذلك بل وجوبه . يقول صلاح لفظي : (لا يمكن الوصول إلى نتائج هامة دون حصر شامل لكل الحواصص في جلة النص) علم الأسلوب ، ص ٣٠٦ . وانظر رداً على هذه المقالة في : .

سمع مصطلح - دراسات نظمية في اللسانيات العربية المعاصرة ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٨٩ م ، ص ٦٥ - ٦٦ .

الرابع : إن التشكيل الأسلوبي عملية مركبة تتم في نسيج متشابك معقد على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية في آن معاً .

الخامس : أن تعقد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة مماثلة من جانب الباحث عند محاولته فك تداخلات النسيج . وتشخيص الخصائص المائزة ، واستكناه دلالاتها .

السادس : أن المستويات السابق ذكرها تتفاوت في مدى طواعيتها للتشكيل الأسلوبي . وتحتل المتغيرات الدلالية قمة القابلية للتشكيل ، يليها المتغيرات الصرفية والتركيبية . أما المتغيرات الصوتية فهي أكثر خضوعاً لنظام اللغة ، ومن هنا تبدو مهمة الشاعر في التشكيل الأسلوبي صعبة بالقياس إلى غيره من النشئين ، وبها يتفاوت الشعراء في قدراتهم وخصائص شاعريتهم .

السابع : أن القول بقيام نص ما على متغيرات أسلوبية معينة لا ينفي إمكان وقوع أبعداها أو نقائصها من المتغيرات في النص نفسه ، أو في غيره من نصوص المنشئ الواحد . وإثنا الفصيل في تقويم دورها في التشكيل الأسلوبي هو لدرجة الشبوع وطرق التوزيع .

الثامن : أن الاختيار ، والشبوع ، والتوزيع ، هي العوامل الثلاثة التي تحدد متضافرة التشكيل النهائي لأسلوب النص . وبها تتحقق مفارقة النص للمعيار المعتاد .

هذه الملاحظ الثمانية هي أهم ما ينبغي اعتباره عند النظر في شأن المتغيرات الأسلوبية والطريقة التي تتحول بها من مجرد قائمة صماء إلى خصائص أسلوبية فاعلة في التشكيل الأسلوبي للنص . بقي أن نقرر أن جميع ما سبق إيرادها هو واقع تحت تسمية المتغيرات الأسلوبية إنما يمثل القسم الأول في عملية التشكيل الأسلوبي ، ونعني به القسم المقالي . وهذه الحقيقة تفتح باب القول في أمر القسم الثاني وهو القسم المقامي . وكلا القسمين يرتبط بالآخر أوثق ارتباط في هذا الصدد . ومن ثم كان لا بد أن نتخذ من مفهوم المقام ومحدداته context parameters موضوعاً للفقرة التالية .

٢- ٣ : أساليب المقام :

من جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان ، أولاهما : (لكل مقام مقال) (الأخرى : (البلاغة هي موافقة الكلام لمتقضى الحال) . وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعاً تعليمياً . ولكنهما تقرران من الوجهة العلمية مبدأً تطبق على صحتة جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها - تنظيراً أو تحليلاً - بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي . ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلاً من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومون إلا به . وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال^(٣٢) .

(٣٢) انظر : السويطي : المرجع السابق لقرء ، ج ١ / ص ١٠٧ - ١١٠ . وقد ناقش هذه المسألة أيضاً : حماد حسان : انظر : العربية معناها ومعناها ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب ، بل تحكمها كذلك محددات المقام . ونعني بها الخصائص التي تحدد الظرف الاجتماعي - المادي الذي سيق في إطاره الكلام ، سواء أكان منظوقا أم مكتوبا Socio-physical envelope .

والعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال . ونظّل العلاقة الجدلية قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية ، (فحين يتكلم زيد إلى عمرو يكون عمرو متعبا لاستنباط الطريقة التي صنف بها زيد مقام الكلام ، أي أنه - على سبيل المثال - سيلحظ نظرة زيد إلى مستوى الألفة بينهما أو إلى ما ألزم زيد نفسه باتباعه أثناء الكلام من التأدب اللائق . وسيؤدي ذلك إلى تأثير مرتد ، أي أن الأفكار التي كونها زيد حول ما استنبطه عمرو من أفكار عنه تؤثر على نظرة عمرو إليه ، كما تؤثر أيضا على تصنيفه هو - أي زيد - لمقام الكلام مع عمرو ، ومن ثم تؤثر على أسلوبه^(٣٣) .

وهكذا يبين لنا أن العلاقة التي تحكم المقام والمقال - في الموقف الحي - ليست بالبساطة التي تبدو بها بادي النظر .

على أن ثمة جانبا آخر يزيد من تعقد تلك العلاقة ، ذلك أن ثمة فنونا من القول والكتابة كالمعارض والتوبيخ والسخرية وغيرها تعتمد في تشكيلاتها الأسلوبية وفي بلوغ غايتها من التأثير والإبلاغ على المفارقة القائمة بين أجزاء المقال^(٣٤) ، أو المفارقة القائمة بين المقال والمقام^(٣٥) . وما ينشأ عن هذه المفارقات من خذلان للتوقع يتحقق به التأثير الأسلوبي المراد . ومن ثم فإن العلاقة بينهما في هذا الصدد يراد لها أن تخالف قصدا عن المؤلف والمتوقع ، على نحو لا يتحقق الغرض من المقال إلا به ، وهو نمط من العلاقة العكسية غير المباشرة لا يقل أهمية في هذا المجال عن العلاقة الإيجابية المباشرة بين القولتين .

وبالنظر إلى ما تتمتع به فكرة المقام من أهمية محورية في عملية التشكيل الأسلوبي - على النحو الذي سلف بيانه - وبالنظر إلى أن اعتبار محددات المقام وإدخالها في المعادلة الإحصائية لتشخيص الأساليب يواجه الأسلوبيات الإحصائية بتحدٍّ حقيقي يندر مثيله في التشخيص الإحصائي لأسلوبيات المقال - نقول : نظرا لما تقدم كان لزاما أن نعرض بالبيان هذه المحددات ولكيفية التي يمكن أن تكون بها موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية .

ثمة محاولات مختلفة بذلها مشتغلون بعلوم اللسان والدراسات الاجتماعية لوضع صيغة جامعة لمحددات المقام تكون لها القابلية للتطبيق عند تصنيف المقامات والمقالات في مختلف اللغات . ولا شك أن الفروق الثقافية بين الجماعات الكبرى والجماعات الصغرى واختلاف المقامات في تفاصيلها الدقيقة ذات التأثير المحتمل على تشكيل الأسلوب - كل أولئك يجعل مهمة وضع التصنيف الجامع لمحددات المقام أمرا لا ينقاد للباحثين في سر . ومن ثم ، لا

N. Enkvist, *Linguistic Stylistics*, P. 63.

(٣٣)

(٣٤) مثاله قوله تعالى : « فبشرهم بذبذباب ألم » آل عمران : ٢١ (إذا ما قرئت بقوله تعالى : « وبشر الصابرين » البقرة : ١٥٥) .

(٣٥) مثاله قوله تعالى : « فقل إنك أنت العزيز الكريم » (الدخان : ٤٩) (إذا ما قرئت بقوله تعالى : « فذوقوا فإن لتزيدكم ألعابا » (الأنعام : ٣٠) .

وجود لصيغة نهائية أو مثالية من هذا النوع . وعلى من يستخدم أيا من هذه الصيغ المقترحة أن يعيد النظر فيها لاستيفاء ما يراه ناقصا ، واستبعاد العناصر غير ذات التأثير على الظاهرة موضوع الدراسة .

ولعل النموذج الذي اقترحه دافيد كريستال D.Crystal ودريك دافي D.Davy من أكثر نماذج محددات المقام بساطة وشمولا وقابلية للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب ، ويتخذ هذا النموذج الشكل التالي (٣٦) :

(أ) محددات التفرد individuality

- اللهجة

- العصر

(ب) محددات الخطاب

- واسطة الاتصال medium

(كتابية ، كلام شفهي)

(واسطة بسيطة / واسطة مركبة)

- المشاركة participation

(- أداء فردي ، حوار)

(مشاركة بسيطة / مشاركة مركبة)

(ج) محددات المجال province

مثال : لغة العبادة ، الإعلان ، القانون . . . الخ .

(د) محددات الموقف الاجتماعي

وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشاركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية ، والتأديب ، والقراءة ، وعلاقات العمل .

(هـ) المحددات الشكلية modality

وتشمل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل ، وبطاقات البريد ، والملاحظات والبرقيات ، والتقارير والمقالات العلمية ، والمتون الدراسية .

(و) العوارض الشخصية singularity

وتختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ويمكن استخدامها في التلاعب أو المناورة . ويتم إقحامها في الموقف لإحداث تقابل لغوي محدد (ومثلها أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكنه أعجمية) . أما عوامل التفرد فتتمتاز بالدوام والثبات .

٢ - ٤ : التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام/ المعنى/ المقال :

عالمج هذا البحث فيها مضى من فقرات جانب المتغيرات الأسلوبية المقالية ، وجانب محددات المقام ، مقترحاً أحد النماذج التي أثبتت كفاءتها في هذا الصدد ، ونعني به نموذج كريستال وداني على ما سبق بيانه .

بيد أن عملية التشكيل الأسلوبي لا يمكن حصرها في ثنائية المقام والمقال ، ذلك أن هذا الحصر إنما يغفل الضلع الثالث من مثلث التشكيل الأسلوبي وهو جانب (المعنى) أو (المكون الدلالي) ، كما يغفل الإشارة إلى الآلية mechanism التي تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ثم إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) وتتمثل تلك الآلية في وظائف اللغة Language Functions ، وقد تولى هاليداي تحديد دور (المكون الدلالي) و (وظائف اللغة) في تشكيل الخصائص المائزة للمقال ، وقدم صيغة لهذه العلاقة تستحق التوقف عندها بشيء من البيان^(٣٧).

يتميز هاليداي ما بين وظائف اللغة عند الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة ، وما يطرأ على هذه الوظائف من تطور بنمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة النضج . ويرى هاليداي أن الوظائف اللغوية عند الطفل مرتبطة بحاجاته ارتباطاً مباشراً . ومن ثم نرى لديه شكلاً لغوياً واحداً يتكرر كلما أراد التعبير عن حاجة بعينها دون اعتبار للأبدال الأخرى المتاحة . وبذلك يمكن القول إن النظام اللغوي عند الطفل في طفولته المبكرة يتشكل من مجموعة من التنوعات المشروطة والمقيدة تقييداً مباشراً بالمواقف والمقامات ، أي أن ما يريد الطفل أن يعبر عنه هو الذي يحدد التركيب اللغوي تحديداً مباشراً .

وخلال المسار الذي يقطعه الطفل نحو النضج تتوارى الوظائف المتعددة تدريجياً ليحل محلها نظام وظيفي هو أمعن في الرمزية والتجريد وإن كان أبسط في التركيب من سابقه . ويتشكل هذا النظام من ثلاث وظائف كبرى macrofunctions هي : الوظيفة التصورية ideational ، أو الوظيفة التعاملية interpersonal والوظيفة النصية textual .

يتمثل جوهر (الوظيفة التصورية) في التعبير عن التجربة وعما يتضمنه الموقف من تقويم للأحداث والأشخاص والأفكار ، ومن جوانب عاطفية تأثيرية . ويؤخذ من ذلك أن هذه الوظيفة معنية بالتعبير عن التجربة تعبيراً يشمل العمليات التي تجري داخل نفس الإنسان وخارجها ، أي يشمل الظواهر القائمة في العالم الخارجي وظواهر الوعي البشري ، كما يشمل العلاقات المنطقية التي يمكن استنباطها من هذه الظواهر .

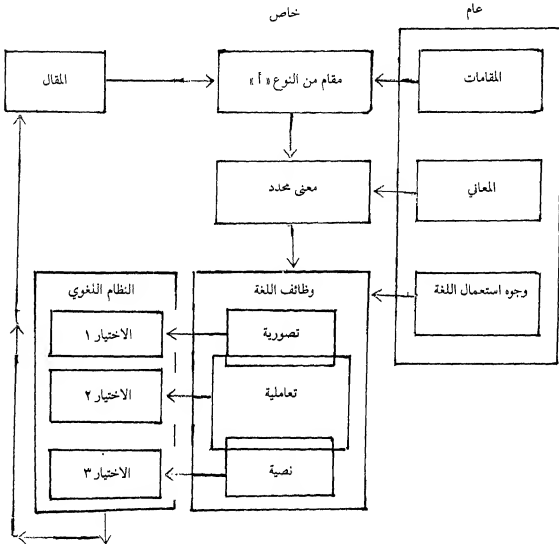
وتعتبر (الوظيفة التعاملية) عن دور المتكلم في مقام الكلام ، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين . وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها ، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية ، وتتشكل وتقوى شخصية الفرد ، إذ إن تمكنه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها .

(٣٧) أعلنا هذا العرض المفصل لنظرية هاليداي من :

roger T. Bell, "Sociolinguistics, Goals, Approaches, and Problems", London, 1976, PP. 84-7.

أما (الوظيفة النصية) فتختص ببناء الحدث اللغوي أي (المقال) ، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ، ولقوانين النحو ، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها .

وتتكامل هذه الوظائف الثلاث الكبرى لتقوم ، من خلال نظرية نحوية قائمة للغة معينة ، بإقامة علاقات مفصلية بين (المكون الدلالي) من جهة ، وكل من المكونين (الاجتماعي) و (اللغوي) من جهة أخرى . ويرى هاليداي أن (الدلالة) تمثل مستوى تركيبيا وسيطا بين أوجه الاستعمال الاجتماعية للغة والأشكال اللغوية ، أي أنه إذا غاب هذا العنصر الدلالي الحاسم فإن أي شكل لغوي يمكن أن يعبر به عن أي وجه من وجوه استعمال اللغة . ومن ثم تكون الوظائف الكبرى للغة - كما سبق البيان - آلية تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ، ثم في نهاية الأمر إلى (مباني نحوية) و (أحداث مقالية) . وفي الشكل التالي تمثيل للعلاقة بين العناصر المكونة لثلاثية التشكيل الأسلوبي : المقام والمعنى والمقال .



ونحاول الآن أن نلتزم في الشكل السابق توضيحاً للآليات والعلاقات المتضمنة في عملية التشكيل الأسلوبي .
ولنبداً قراءة الشكل من اليمين :

يبدأ الشكل في أقصى اليمين بما هو عام من مقامات ومعان واستعمالات للغة . ويعتمد التكلم أو المنشئ إلى هذا العام فيقوم بعزل عدد محدود من مجموع المقامات الممكنة (وقد اكتفى الرسم بالإشارة إلى مقام واحد منها على سبيل التمثيل وأطلق عليه تسمية المقام «أ») . ثم يقوم باختيار ما يناسب المقام المختار من المعاني ، وكذلك باختيار وجه واحد من وجوه الاستعمالات اللغوية الممكنة يناسب ما وقع عليه اختياره من مقام ومعنى . وبهذه الاختيارات الثلاثة تتحدد الوظائف اللغوية ودورها . ويدخل جميع ما وقع عليه اختيار المنشئ في دائرة ماهو « خاص » ، ثم إن كل وظيفة من الوظائف الثلاث تتطلب إجراء اختيارات معينة من مجموع النظام اللغوي للغة المعنية . ومن مجموع ذلك كله يتشكل المقال الذي يتم تشكيله وصياغته للتعبير عن مقام بعينه .

ونعود الآن إلى نموذج كريستال ودافي لتعرف - من خلال استطلاع الشكل السابق - تلك العلاقة القائمة بينه وبين نموذج هاليداي . وحيث سبين لنا أن نموذج كريستال ودافي وما شاكله يحتل في شكل هاليداي المربع الأول مما هو « عام » ، وأن أعمال محدداته في تشكيل مقام بعينه يحتل المربع الأول مما هو « خاص » . وأنه باستخدام كلا النموذجين تتكامل العناصر اللازمة لوصف عملية التشكيل الأسلوبي بعناصرها الثلاثة : المقام والمعنى والمقال .

بقيت كلمة أخيرة تتعلق بإعمال نموذج كريستال ودافي في تحديد المقامات ؛ فيعوض أوصاف المقام قد تلازم بحيث يمكن بالنص على وجود أحدها حجب أوصاف أخرى بطريق التضمن ، أو استبعاد أوصاف أخرى بطريق التنافي ، أي أن بعض الأوصاف قد يتضمن - أو قد ينفي - بالضرورة أوصافاً أخرى . ويوجب هذا على الباحث أن يقوم بتنظيم محددات المقام بحيث يقتصر على المحددات الأساسية دون حشو ، وفضول . فلا يضيف إليها ماهو معلوم وجوده بالضرورة ، أو ماهو معلوم غيابه بالضرورة . هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال^(٣٨) . ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم .

٢ - ٥ : التشخيص الأسلوبي :

فرق ما بين التشكيل الأسلوبي Stylization - وهو ما سبق الحديث عنه - والتشخيص الأسلوبي Stylistic diagnosis الذي هو موضوع هذا المطلب هو أن الأول عمل تركيبي يقوم به الثنشاء ، أما الثاني فنشاط تحليلي يقوم به الباحث . وهدف الأول إنتاج النص أما هدف الثاني فهو الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص . ومادة الأول هي المتغيرات الأسلوبية أما مادة الثاني فالتصورات والإجراءات المنهجية . وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشروع فلا بد أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشف به عن أجدر المتغيرات الأسلوبية بأن تكون

(٣٨) انظر نموذجاً لاستكشاف المقام من خلال المقال في :

Deborah Schiffin, "Discovering the Context of an Utterance", Linguistics, Vol. 25. 1987, PP. 11-32.

خصائص أسلوبية مائزة للنص ، أي تلك التي يمكن أن توصف بأنها اختيارات للمنشىء ، وعن درجات شيوع هذه الاختيارات وأنماط توزيعها .

وإذا كانت تقنيات المعالجة الإحصائية من الكفاءة بحيث تعين الباحث على الكشف عن درجات الشيوع وأنماط التوزيع فإن القطع باختيارات معينة للمنشىء أمر هو من الصعوبة بمكان . وثمة حالات نادرة - بالنسبة لأدباء العربية - يصرح فيها المنشىء باختياره قولاً أو كتابة . كما أن من الممكن في حالات أخرى الاستدلال بمسودات النصوص التي أعمل فيها المنشىء قلمه بالاستنباط والاستبعاد^(٣٩) . على أن الباحث في غيبة مسودات النصوص - وهو الظرف الغالب - لا يمكنه أن يعثر على دليل مباشر يحدد الخصائص المستبعدة ، علماً بأن الاستبعاد له في ميزان التشخيص الأسلوبى مالمستباعد من أهمية . وإذن فليس أمام الباحث إلا طريق افتراض الفروض واختبارها على ما سيأتي بيانه .

ويهدف التشخيص الأسلوبى الإحصائي إلى تحقيق غايات ثلاث تتدرج هرمياً على النحو التالي :

- (١) الوصف الإحصائي الأسلوبى للنص للكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة فيه .
- (٢) التحليل الإحصائي للنص .
- (٣) الحكم التقويى ، أو ما يمكن الاصطلاح على تسميته (نوع الأسلوب) .

وترجع خاصية التدرج الهرمية بين هذه الغايات إلى أن الوصف أساس لا غنى عنه في التحليل ، وأن كليهما أساس لا غنى عنه في الحكم والتقويم . ولدارس الأسلوب دراسة إحصائية أن يستبعد الغاية التقويمية بالكلية وأن يقنع في عمله بالوصف والتحليل ، إما لأن الحكم والتقويم خارجان عن مهمة البحث (كما في البحوث الهادفة إلى الكشف عن المؤلف المجهول^(٤٠) ، أو ترجيح نسبة نص ما إلى منشىء بعينه من بين عدد من الاحتمالات البديلة) . وإما لأن الوصف والتحليل قد لا يؤدىان إلى حكم تقويى يطمئن الباحث إليه . ويحصل من ذلك أن الغايتين الأولىين متلازمان غالباً . أما الغاية الثالثة فغير لازمة على وجه الضرورة . أما الأبحاث التي تنغياً تمييز نوع الأساليب فلا مندوحة لها من التوغل في مجال الحكم التقويى شريطة أن تسلم مقدمات الوصف والتحليل إلى حكم موضوعي منوط بأوصاف ظاهرة منضبطة .

وتتنظم إجراءات التشخيص الأسلوبى في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الفرض وفيها يحدد الباحث المتغيرات الأسلوبية التي يرجع مسئوليتها عن التميز الأسلوبى للنص المدروس اعتماداً على خبرته وأطلاعه على ما سبق من دراسات ، أو على وضع استجابات عدد من المتلقين موضع الاختبار .

(٣٩) انظر :

- مصطفى سويق : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥١ - ٢٧٧ .

- حسين حبس : الإبداع في الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

(٤٠) انظر :

سعد مصلح : تحقيق نسبة النص إلى المؤلف : دراسة أسلوبية إحصائية في الثابت والتدوير من شعر شوقي ، مجلة نضول ، ص ٣ ، ع ١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

الثانية : مرحلة اختبار الفروض . وتقوم على معالجة النص المدرّوس إحصائياً بهدف إثبات صحة الفروض أو بطلانها . وتشتمل هذه المرحلة على جانبين : أولهما جانب الوصف الإحصائي ، والثاني جانب التحليل الإحصائي . وسنخصص هذه المرحلة ببيان فيه شيء من التفصيل ، إذ هي الغاية الأساسية من هذا البحث .

الثالثة : مرحلة الاستنتاج . وهي الثمرة المرجوة من وضع الفروض واختبارها .

٢ - ٦ - المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص

أشرنا في غير هذا البحث إلى أن كثيراً من الدراسات والرسائل الجامعية التي اعتمدت الوسيلة الإحصائية لمعالجة النصوص ، ولاسيما نصوص الأدب لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفته البدائية الأولى ، ونعني بها وظيفة العد ، أو الحصر Counting^(١) . وهذه الوظيفة - وإن كانت من أساسيات العمل الإحصائي - ليست إحصاء Statistics بالمفهوم العلمي المنتج ، فلقد تجاوزت وظيفة الإحصاء عملية الحصر والعد لإجمالي المفردات وأقسام الكلام وأنواع الجمل وغير ذلك ، لتعطي مزيداً من البيانات القابلة للتوظيف في مجال الكشف عن أدق خواص النص على كافة المستويات التحليلية المختلفة . ليست الغاية إذن هي الحصول على أرقام مطلقة عارية من الدلالة ، ولكنها الوصول إلى الأرقام والبيانات النسبية القادرة على إنتاج مقارنات دالة .

وإذا كانت مرحلة اختبار الفروض هي المرحلة التي يتجلى فيها دور المعالجة الإحصائية للنصوص فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة هامة ، وهي أن التدخل الإحصائي يبدأ مع مرحلة وضع الفروض وربما قبلها . إننا في الدرس الإحصائي أمام أحد خيارين : فإما أن نخضع للمفهوم مادة تمثل مجتمعاً إحصائياً كاملاً Statistical population ، كديوان شعر ، أو عمل أدبي برمته ، أو مدونة كاملة . وإما أن نستغني عن ذلك - مختارين أو مجبرين - باختيار عينات Samples يشترط بها أن تكون جيدة التمثيل للمجتمع الإحصائي المطلوب دراسته . واختيار العينات - وهو الظرف السائد - مطلب له ضوابطه وقواعده في بحث العينات والاحتمالات ؛ حيث تتحدد خصائص العينة وحجمها بالنسبة للمدونة أو المجتمع الإحصائي . ومن هنا فإن الإحصاء يبدأ غالباً قبل مرحلة الوصف والتحليل ، أي عند اختيار العينات المدروسة . وعمل الباحث الذي تلجئه ظروف بحثه إلى اصطناع المعالجة الإحصائية وليس له بها سابق خبرة كافية - أن يناقش مع بعض المتخصصين في الإحصاء مسائلتين مبدئيتين :

أولهما : تحديد نوع العينة وحجمها ، فالحل العلمي الدقيق لهذه المسألة يوفر للباحث وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً قد يضيئها بلا جدوى ، كما يستنقذ الباحث من متاهات أخرى به أن يتجنبها من أول الطريق .

الثانية : هي اختيار أساليب المعالجة الإحصائية المناسبة لاختبار فروضه ولنوع العينة وحجمها .

(١) سمد مصطلح : (الأسلوب) ، ص ٧ ، وأيضاً :
عنا محمد محمود العائلي : مقدمة في طرق الإحصاء الاجتماعي ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٢ - ٤ .

ويتصل بما سبق أوهام تشيع في بعض الدراسات الإنسانية التي تستخدم المعالجة الإحصائية ؛ منها ما سبق أن ذكرنا من الخلط بين العد والإحصاء ، ومنها : الاعتقاد بأن الخطأ في اختيار نوع العينة الجيدة التمثيل يعوضه زيادة حجم العينة . والحق أن الأمر على النقيض تماماً ، فزيادة حجم العينة إذا بني على خطأ في اختيار نوعها يزيد من فرص فساد النتائج . ومنها : الاعتقاد بأن هذا النوع من الدراسات إنما يتفاضل بحسب ما تمتاز به الطرق الإحصائية المختارة من دقة . والحق أن مقياس التفاضل هو موافقة الطرق المستخدمة لطبيعة البيانات العددية الخاضعة للمعالجة^(٤٢) .

وليس ينتظر من مثل هذا البحث تقديم تعريف مفصل بالطرق الإحصائية الممكن استخدامها في دراسة الأسلوب ، فممكن ذلك هو متون الإحصاء . لكن ذلك لا يعني من محاولة لإضاءة هذه الطرق على نحو يزيل الوحشة القائمة بين كثير من النقاد واللسانيين وهذا الأسلوب المنضبط في معالجة النصوص .

ومادام مفهوم الدرس الإحصائي للأسلوب يتضمن بالضرورة مفهوم المقارنة بين أكثر من متغير أسلوب في نص واحد ، أو بين متغير واحد في أكثر من نص ، أو بين أكثر من متغير في أكثر من نص - فإن هذا المفهوم يستدعي طرقاً إحصائية معينة تنفيذ في تحقيق التشخيص الأسلوبي سواء على مستوى وصف النص أو على مستوى تحليله .

نبدأ الآن أولاً بتحديد لأهم الطرق الإحصائية المستخدمة في الوصف . ثم ننتهي بما يستخدم منها في التحليل أو الاستدلال الإحصائي . وتشمل طرق الوصف إمكانات كثيرة أهمها وأكثرها شيوعاً في الإحصاء الأسلوبي (واللساني) ما يلي :

أولاً : مقاييس الوصف الإحصائي :

(١) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنواع الجمل (الاسمي / الفعلي / السيط المركب / المعقد / الإنشائي / الخبري) . ويتحقق بقسمة عدد الجمل من النوع المراد قياسه على المجموع الكلي لعدد العمل المكونة النص^(٤٣) . ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمة عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية collocations في النص^(٤٤) .

(٢) قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio

وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرارات الآخر . ومن ذلك قياس نسبة الأفعال إلى الصفات (معامل بوزيمان)^(٤٥) ، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة ، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقية .

(٤٢) فؤاد الجبلي السيد : علم النفس الإحصائي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٦٤ .

(٤٣) انظر : Curtis W-Hayes, "A study in Prose Style, Edward Gibbon and Ernst Hemingway", in Statistics and Stylistics, ed. L. Dolezel and R.W. Bailey, New York, 1969, PP. 80-81.

(٤٤) انظر : سعد مصلوح . في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستمارة : دراسة تطبيقية للعقاد على أشعار البارودي وضوي والنابلسي ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، ٤٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ، وما بعدها .

(٤٥) سعد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٦١-٦٢ .

(٣) قياس النزعة المركزية للمتغيرات Central tendencies

(وبيان ذلك أن نميز نص أو منشئ ما باستخدام جمل طويلة مثلا لا يعنى انعدام الجمل القصيرة ، بل كل مايعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبية الى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل . وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبية الأخرى) وأهم مقاييس النزعة المركزية . الوسط الحسابي arithmetic mean ، والوسيط median ، والنوال mode والوسط الهندسي geometrical mean^(١٦)

(٤) قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion

حين تتفق النصوص في نزعة مركزية واحدة فإن ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام مقاييس التشتت ، أى قياس الدرجة التى تنتجها البيانات الرقمية للانتشار حول قيمة وسطى . ومن أهم مقاييس التشتت : المدى range ، والتباين variance والانحراف المعياري standard deviation^(١٧)

(٥) قياس التوزيع الاحتمالى للمتغيرات probabilistic distribution

ويقصد به قياس تكرارات متغير أسلوبي ما (وليكن المتغير^(١٨) أ) بوصفه واحدا من أبدال متاحة (وليكن أ ، ب ، ج . . . ن) في ارتباطه بمقام معين . وسياق مناقشة النموذج الرياضى الذى يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدد الاحتمالات .

(٦) قياس معامل الارتباط بين المتغيرات .

ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) ، أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرات المقام (كالارتباط بين طول الجملة واختلاف الوسط الناقل media ، أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين البرقية والرسالة البريدية) ، أو بين المتغيرات الأسلوبية والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوع المفردات والحكم بصعوبة الأسلوب)^(١٨) .

ثانيا : طرق الاستدلال الإحصائى .

بينا - فيما سلف - أهم طرق الوصف الإحصائى وأكثرها شيوعا في الدراسة الإحصائية للأسلوب . وقد يكون الوصف كافيا بذاته ليشكل أساسا مقنعا لاختيار المتغير الأسلوبي أو العلاقة بين المتغيرات ، وتحديد أهميتها في التشخيص الأسلوبي لنص ما ، إما باعترافها بسمة مائزة للنص ، وإما باستبعادها واعتبارها من السمات الفائضة redundant features . وأمثلة الحالات التى يكتفى فيها بالوصف الإحصائى هى تلك التى يجرى فيها الوصف على المجتمع

(١٦) المرجع السابق : ٤٥ .

(١٧)

F. Anshen, Op. Cit, PP. 17-18.

(١٨) استخدم ل : دوليجهيل معامل الارتباط في التشخيص الأسلوبي للعلاقة بين طول الجملة وطول الكلمة في نصوص اللغة التشيكية . وقد ثبت وجود معامل ارتباط عال بينها إلا في الشعر . انظر :

I. Dolezel, "A Framework of Statistical Analysis of Style", in "Statistics and Stylistics", Op. Cit, PP. 19-20.

الإحصائي . أما عند اللجوء الى فحص عينات من المجتمع الإحصائي فقد تنشأ الحاجة الى استجلاء الدلالة الإحصائية للبيانات المستخرجة من العينات بغية استنتاج المميزات الرئيسة للأصل (أو المجتمع الإحصائي) ، وحيشد نحو الباحث (نحو التعميم العلمي للظاهرة التي يبحثها ، ويهدف الى استنتاج خواصها الإحصائية في صورتها العامة . ولذا يسمى هذا النحو الاستدلال الإحصائي ، لأنه يستدل على الخواص الإحصائية للأصل من الخواص الإحصائية لإحدى عيناته أو بعضها ، أي أنه يستنبط صفات الكل من الجزء أو الأجزاء التي تنطوي تحت إطاره والمشكلة لا تقف عند هذا الحد ، بل تمتد في جوهرها الى الكشف عن مدى صحة ذلك الاستنتاج ودلالته الإحصائية ، فنستطيع أن نلوك مدى ثقتنا في تعميم نتائج الأبحاث المختلفة التي نقوم بإجرائها) (٤٩) .

وجدير بالذكر هنا أن بعض ما سلف بيانه من طرق الوصف الإحصائي صالح للاستخدام في مجال الاستدلال الإحصائي . ومن أهمها قياس التباين والانحراف المعياري ومعامل الارتباط . وبقي أن نعرض لمقياس يعتمد عليه اعتمادا كبيرا في اختبار الدلالة الإحصائية أسلوبيا ولغويا ، وهو مقياس كاي^٢

(١) مقياس كاي^٢ : Chi-Square (٥٠)

يعتبر مقياس كاي^٢ من مقاييس التوزيعات الحرة التي لا تعتمد على شكل التوزيع التكراري ، ويكثر استخدامه في البحوث الأسلوبية واللغوية الإحصائية لاختبار دلالة التكرارات على المستوى الفروني ، وإن كانت إمكانات استخدامه أوسع من ذلك بكثير . وتقوم فكرة المقياس على اختبار دلالة الارتباط بين ظاهري والبيانات العديدة المتعلقة بتوزيعها . (مثال ذلك : الارتباط بين جنس المتكلم ذكرا أو أنثى واشتمال الكلام على ظواهر صوتية أو تركيبية أو أسلوبية معينة) . ونحن - في هذه المسألة بين فرضين : إما أن الارتباط بين جنس المتكلم وهذه الظواهر هو ارتباط منعدم ويسمى هذا الفرض : فرض العدم أو الفرض الصفري null hypothesis وإما أن يكون ثمة ارتباط دال بين الأثرين . ويقوم المقياس باختبار فرض العدم . وينشأ عن رفض فرض العدم . قبول الفرض البديل (أي إثبات وجود العلاقة) ، كما أن عكس ذلك أيضا صحيح . ويتم الاختبار بإدخال التوزيع الفعل (أو التوزيع المشاهد) للظواهر مع التوزيع المتوقع لها في معادلة وهي : إيجاد ناتج طرح رقم التوزيع الفعل من رقم التوزيع المتوقع ، ثم تربيع ناتج الطرح وقسمته على الرقم المتوقع . وتتم هذه العملية بالنسبة لكل خانة من خانات الجدول ، ثم نقرم بإيجاد المجموع الكلي لناتج هذه العملية في جميع خانات الجدول .

وتقدم لنا المعادلة السابقة طريقة حساب مقياس كاي^٢ . أما حساب دلالة المقياس (أي حساب المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العدم) فيلزم له حساب درجة الحرية degree of freedom . (وهي حاصل ضرب عدد الصفوف الأفقية في جدول التوزيع المعنى باستثناء الصف الخاص بالمجموع الكلي مطروحا منه واحد صحيح x عدد

(٤٩) فواد الهي السيد - المرجع السابق ذكره ، ص ٤١٢ - ٤١٣

(٥٠) النظر :

ومن تطبيقاته في الحرية النظر :

- احد طلمت سليمان : علاقة الجنس والجهر بالعاني في المضادات العربية . دراسة إحصائية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، مج ٩ ، ع ٣٤ ، ربيع ١٩٨٩ م ، ص ٢٦ .

الأعمدة الرأسية للجدول باستثناء عمود المجموع الكلي ، مطروحا منه واحد صحيح . وثمة جداول إحصائية جاهزة لتحديد المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العدم (أى إثبات العلاقة) مع كل درجة من درجات الحرية .

(٢) مقياس النسبة المخرجة z - score (٥١)

يفيد هذا المقياس في إجراء حساب مباشر لدلالة فرق المتوسطات ، أى لتحديد ما إذا كان الفرق بين متوسطي مجموعتين من القيم كافيا لاعتباره دالا من الوجهة الإحصائية أم لا . ويتطلب هذا المقياس معرفة مائتين :

(أ) متوسط القيم في المجموعتين المعنيتين .

(ب) عدد المشاهدات في كل مجموعة .

(ج) حساب درجة التباين Variance لكل مجموعة (مربع الانحراف المعياري) .

أما المعادلة الخاصة به فتتكون بإيجاد : الفرق بين متوسطي قيم المجموعتين ثم قسمته على الجذر التربيعي لحاصل جمع (درجة تباين المجموعة الأولى مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها + درجة تباين المجموعة الثانية مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها) .

تلكم هي أهم الطرق الإحصائية المعتبرة عند اللسانيين والأسلوبيين في معالجة النصوص اللغوية . وننتقل الآن الى التعريف بمفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى وأنواعه .

٢ - ٧ . النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبى :

يكثر ظهور المعادلات الرياضية في الدراسات الإحصائية للأسلوب ، مما يشكل حاجزا نفسيا بين كثير من المهتمين بأمر النص اللغوى - والأدبى خاصة - وهذا النوع من الدرس العلمى ، وربما كان للألفة في ذلك دخل كبير . وقد أمحضت هذه الفقرة مناقشة فكرة النماذج الرياضية المستخدمة في التشخيص الأسلوبى mathematical models وأنواعها ، وكيفيات استخدامها في فحص الأساليب .

يقصد بالنموذج الرياضى الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذى تشكل به خاصية أسلوبية مائزة . بذلك يكون النموذج الرياضى صياغة للمقياس الأسلوبى في شكل معادلة رياضية تلخص العلاقة بين المتغيرات الأسلوبية في المقياس . وينشأ مما سبق توقع اختلاف النماذج الرياضية الأسلوبية بحسب حفظها من التجريد أو البساطة ، فالبسط النماذج هو ما كان خاصا بالكشف عن خاصية أسلوبية واحدة . أما حين يضبط النموذج العلاقة بين أكثر من خاصية أسلوبية فمن المتوقع أن تكون المعادلة أشد تركيبا حتى إذا افترضنا وحدة المقام . أما إذا اختلفت مواصفات المقام ، واختلفت ، تبعاً لذلك ، عدد الخصائص المفحوصة وعلاقتها ببعضها البعض من جهة ، وعلاقتها بالمقام من جهة أخرى ، فحينئذ يكون على النموذج أن يخطو في سلم التركيب درجة أعلى من سابقيه .

وتتنوع النماذج الرياضية المستخدمة في فحص الأسلوب باعتبار آخر ، ونعني به تعدد فروع الرياضيات نفسها . وقد حددها هـ . ب . ادموندسون H. P. Edmondson فسلكتها في نوعين رئيسيين هما : النماذج الحتمية - deterministic tie models ، والنماذج الاختيارية stochastic models . وتشمل النماذج الحتمية بحسب تصنيف ادموندسون : (٥٢)

(١) النماذج الهندسية geometric models وتمثلها بحوث هيردان Herdan (٥٣) .

(٢) النماذج التحليلية analytic models وتمثلها بحوث زيف Zipf (٥٤)

(٣) النماذج المنطقية Logical models ومن دعائها لويس ميليك Louis Milic (٥٥) .

(٤) النماذج الجبرية algebraic models ومنها دراسات هايس Hayes (٥٦)

أما النماذج الاختيارية فتشمل :

(١) النماذج الاحتمالية probabilistic models

(٢) النماذج الإحصائية Statistic Models

ويمثل هذين الاتجاهين أودن يول O. Yule ، ولوبوموار دوليجيل L. Dolezel .

ويرى د . د . تالنتير D.R. Tallentire أنه لا بأس باعتبار هذا التصنيف أساساً للنظر . بيد أنه أورد عليه ملحظتين :

أولهما : (أن هذه الأنواع ليست منفصلة الصلة بعضها ببعض كما يوحي بذلك الرسم التوضيحي الذي قدمه ادموندسون ، فالتحليل والتحليل أساسيان لنماذج الاحتمالات والنماذج الإحصائية ، كما أن هذين النوعين يعتبران فرعاً واحداً من فروع الرياضيات) .

(٥٢)

D. R. Tallentire, "Mathematical Modelling in Stylistics, its extent and General Limitations", in : Computer in Literary and Linguistic Research, ed. R. A. Wisbey, Univ. of Cambridge, 1971, P. 118.

(٥٣) ينتمي المنظور الذي يقترحه هيردان إلى الهندسة الإسقاطية Projective Geometry وهي فرع من فروع الهندسة التي جاءت لتعرج الهندسة الإقليدية في المجال الذي حصرته نفسها فيه ، وهو دراسة السطوح المسطحة ، ودراسة الأشياء في أبعادها الثلاثة الصارمة : الطول والعرض والارتفاع ، وهو ما يعرف بهندسة الجسمات . ويرى هيردان أن الثنائية الهندسية المنطقية (في النقطة) و (الخط) يمكن وضعها على الترتيب بثنائية (النقط) و (المقرد) Type-Token في دراسة اللغة . أما تالنتير فيرى أن النموذج الهندسي يبدوا أن النماذج الرياضية اتصالاً بالأساليب . انظر : D. R. Tallentire, Op. Cit. PP. 120-121.

ونظراً لظهور هذه الثنائية الرياضية في دراسة لكاتب هذا البحث عن تنوع المفردات عند الراعي والمعاد ومه حسين لكاتب هذا البحث (مرجع سبق ذكره الحاشية ٢٤) .

(٥٤) من جهود زيف في المسائل الرياضية انظر :

Milka Ivic, Op. Cit, PP. 217-218.

(٥٥) يحقق النموذج المنطقي - كما يصوره لويس ميليك بإجراء عملية اختصار افراشي للجملة بترسل به الباحث إلى أبسط صيغة تكون غاربية من كل ما يمكن أن يحد حلبة أسلوبية . ثم تجري مقارنة هذه الصورة المبسطة بالجميل الواردة معاً في النص . ولذا تكون الصورة المبسطة بنية افراشية أعيدت صياغتها صياغة منطقية وترسم بالجملة - التواة Kernel Sentence أو جملة ما قبل التناقص Pre-Styled والنظر لزيد من التفصيل :

سعد مصطوح : (الأسلوب ...) ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٥٦) من أوضاع الدراسات دلالة على اتجاه هايس دراساته للأساليب الثرية عند جيرون ومنجوي (انظر رسالته رقم ٤٣) .

والملاحظ الثاني فحواء أن كل فرع من الفروع الستة يمد الدراسات الأسلوبية بنموذج محدد . وهذا لا ينفى إمكانية استخدام توليفات من هذه النماذج الأساسية في دراسة المشكلة الواحدة . وقد أنجزت دراسات ناجحة باستخدام مزيج من هذه النماذج (٥٧) .

وتفاوتت النماذج الحتمية بأنواعها المختلفة : الهندسية والتحليلية والمنطقية والجبرية في قدرتها على استيعاب العلاقات في التشخيص الأسلوبي ، فأقلها عطاء وشيوعاً النموذجان الهندسي والتحليلي ، ولا كذلك المنطقي والجبري ، فهما - بهذا الترتيب - أكثرها شيوعاً . ويستفاد مما سبق أمور :

أولها : أن مفهوم النموذج الرياضي في التشخيص الأسلوبي أعم من مفهوم النموذج الإحصائي الاحتمالي ، أو أن التشخيص الإحصائي الاحتمالي هو واحد من عدة نماذج رياضية ممكنة التطبيق في مجال التشخيص الأسلوبي . (ويلحظ هنا أننا اعتبرنا النموذجين الإحصائي والاحتمالي بحسب تصنيف ادموندسون نموذجاً واحداً) .

ثانيها : أن موضوع هذا البحث يوجب علينا أن نصرف اهتمامنا الأصيل إلى معالجة النموذج الرياضي الاختياري . أما النماذج الرياضية الحتمية فمجالها هو دراسة التشخيص الأسلوبي بإطلاق ، وليس خصوص التشخيص الأسلوبي الإحصائي .

ثالثها : أن الملاحظ السابق - وإن كان صحيحاً بوجه عام - يرد عليه استثناء في مايتصل بالنموذج الجبري ، لأسباب : منها قدرته على حصر التنوعات اللغوية التي تشكل قائمة الاختيار ، أو تحدد مجال الاحتمالات التي يمكن تصنيفها إلى : (تعبير - نمط) و (تنوعات انحراف) . كما أن ثمة صلة نحوية بين النموذج الجبري والأنحاء الجبرية ، ولأسباب النحو التوليدي التحويلي . وسنرى حين نعرض لمشروع دوليجيل في التشخيص الأسلوبي الإحصائي احتفاءه الشديد بمقولات النحو التحويلي ، وإيمانه بقدرتها على تزويد النظرية الأسلوبية الإحصائية بما يمكنها من أداء مهمتها على الوجه المأمول . لذلك كان من المفيد - فيما نرى - أن نعرض بشيء من التفصيل للنموذج الرياضي الجبري من بين النماذج الحتمية وبتفصيل أشد للنموذج الإحصائي الاحتمالي إذ هو المقصود بالأصالة .

أولاً النموذج الجبري .

الأنحاء الجبرية - ومن بينها الطراز التوليدي التحويلي - وثيقة الصلة بالرياضيات من جهة ، وبالنطق من جهة أخرى ، إذ إن قوامه هو استخدام نماذج شكلية (أوصورية) في اللسانيات النظرية وفي الوصف التحليلي لتراكيب اللغة . وعلى الرغم من أن استخدام الصياغة الشكلية ينحى غالباً قضية التنوعات الراجعة إلى تمايز الأفراد واختلاف المقامات - فقد أثبت النحو التوليدي قدرة على استيعاب التنوعات من خلال استخدام لمقولات التوليد والتحويل . وترجع أهميته في هذا المجال إلى اهتمامه بالمستوى التركيبي (أي مستوى النظم) Syntactic level ، وهو مستوى يحظى بعناية الأسلوبيين الذين يقدمون الإثارات التركيبية على الخيارات المعجمية في تشخيص الأساليب . وقد وجد هؤلاء

ضالهم . في كثير من مقولات التحويليين مثل مقولة الكفاءة والأداء / Competence performance ، ومقولة البنية الباطنة والبنية الظاهرة deep/ surface structure بالإضافة إلى الإجراء التحليلي المتمثل في قواعد التحويل transformational rules . وكان في ذلك عون لهم على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية منضبطة .

ولقد دفعت الحاجة إلى تطويع قواعد التحويل للدرس الأسلوبى بعض العلماء مثل وليام لايوف W. Labov إلى القول بوجود التمييز بين نوعين من القواعد ، أولها القواعد الملزمة (أو مانوثر تسميته قواعد الوجوب Categorical rules) والقواعد الاختيارية (ونسبها قواعد الجواز Variable rules) ورأى أن الحاجة ماسة إلى نوع من التحليل النحوى تعمل فيه القواعد في نسبة مئوية معينة من الحالات وتتخلف عن العمل في الحالات الباقية . ويلحظ إنكفيست Enkvist أن اقتراح لايوف قد أطلع الباحثين على مثال للكيفية التى يمكن بها تزويد النحو التحويل بقواعد تقيس الاحتمالات قياسا كميا . وهاهوذا تلخيص للمعادلة الرياضية الإحصائية التى اقترحها لايوف .

يبدأ لايوف فيلحظ أن القواعد السائدة في النحو التحويل تتخذ صيغة عامة هي :

$$X \longrightarrow Y/A-B$$

وتفسير ذلك أنه حيثما ترد X في الوسط $A-B$ فإن كتابتها تعاد لتصبح Y . ولا تعمل القاعدة إلا إذا توافر هذا الشرط وتسمى مثل هذه القواعد بالتعليمات الوجوبية Categorical instructions نبيد أننا إذا أدخلنا في التحليل قواعد جوازية optional rules - على نحو ما فعل تشومسكى في تصوره الأول الذى نشره عام ١٩٥٧ - أمكننا أن نتجنب الوقوع في تلك المشكلة العويصة ، مشكلة تحديد ظروف الإعمال والإهمال بالنسبة للقاعدة . ويرى لايوف أن الحل الأمثل هو إدخال قواعد للتنوع Variable rules تتضمن كمية محددة يرمز إليها بالرمز ϕ وتشير هذه الكمية إلى التمثيل النسبي للحالات التى تنطبق عليها القاعدة ، بحيث تكون هذه الحالات جزءا من تركيب القاعدة نفسها . وهذا التمثيل النسبي هو نسبة الحالات التى تنطبق عليها القاعدة بالفعل بالنسبة إلى المجموع الكلى للجمل أو الأحداث الكلامية التى يمكن أن تنطبق عليها القاعدة بالشروط التى حددتها للوسط ، إذا افترضنا أنها من القواعد الوجوبية .

وتتدرج قيمة K_0 في قواعد التنوع بين الصفر والواحد الصحيح . أما في القواعد الوجوبية فليس لها إلا قيمة ثابتة هي الواحد الصحيح . وتأخذ قاعدة التنوع الاحتمالى شكل المعادلة الآتية :

$$\phi = 1 - \tau$$

حيث تمثل K_0 المدخلات المتغيرة التى تتضمنها المعادلة ، تلك التى ترسم حدود تطبيقها . وكلما زادت قيمة K_0 ضاق مجال العمل بالنسبة للقاعدة ، أو - بعبارة أخرى - قلت نسبة الحالات التى تنطبق عليها القاعدة . وحين تتعدد عوامل المدخلات بتعدد الرمز المقابل لها في المعادلة على هذا النحو

$$(K_n = X \cdot K_{n-1} \cdot \beta \cdot 2^{n-1} \cdot K_0)$$

وتمثل K_0, \dots, K_n ثوابت يجرى تحديدها بالاختيار الأمريقى .

أما الرمزان χ و \sim فيمثلان أوزان هذه العوامل .

وقد صممت المعادلة بحيث إذا اشتملت بعض تفرعات الجمل المدروسة على أحد الثوابت الموجبة أدى ذلك إلى نقص قيمة K_0 . وهكذا يتسع مجال تطبيق القاعدة بتناقض قيود تطبيقها وزيادة قيمة ϕ .

وحين نعطى الثوابت المختلفة قيما تتحدد في ضوء اختبار المادة ودراستها ينبغي ترتيب الثوابت في تسلسل هرمي . ويقوم معيار الترتيب على أساس البدء بالقيّد (أى العامل الثابت) الذى يجوز الوزن الأكبر ، ثم الذى يليه . . . وهكذا .

وبخلاصة القول أن استخدام النماذج الجبرية التى تمّذنا بها قواعد التحويل يمكن أن تتم بطريقتين مختلفتان ببساطة وتركيبا ، في الأولى يجرى إحصاء تكرارات استخدام المنشئ لقاعدة معينة أو المجموعة من القواعد . ومن المتوقع أن يتفاوت المنشئون في إظهارهم قواعد معينة على غيرها ، مما يشكل سمة أسلوبية نحوية يمكن اعتمادها في المقاربة الأسلوبية . أما الطريقة الثانية فهو مركبة نسبيا ، إذ تقوم على تزويد النحو نفسه بنوع من قواعد التنوع يختلف عن قواعد الوجوب والجواز في النحو التحويلي التقليدى .

ثانيا : النموذج الإحصائي الاحتمالي .

هذا النوع من النماذج الرياضية هو أقدمها فيما نرى على تقديم النموذج الموفق الذى يمكن الباحث من التعبير الصورى عن تميز الأساليب باعتباريات مختلفة . وتكاد ترقى هذه المقولة الى أن تكون موضع اتفاق بين أكثر الدارسين لظاهرة الأسلوب ، إذ هو أكثرها انسجاما مع طبيعة هذه الظاهرة . ولعل في ماسلف من حديث عن الأساس النظرى للإحصاء الأسلوبى ومفاهيم الأسلوب ما يميز صحة هذا الرأى ويثبت صوابه .

وحين نذكر النماذج الإحصائية الاحتمالية في الدرس الأسلوبى تبرز جهود عالمن من أعلام هذا الاتجاه هما اودن يول ولويوموار دوليجيل . وقد صاغ أولهما واحدا من أهم المقاييس وأكثرها حساسية في مجال تمييز البصمة الأسلوبية ، وهو ما أصبح يعرف بخاصية يول Yule's Characteristic (٤٨) . أما لاني الرجلين فكان من بين جهوده دراسة مفصلة أرادها أن تكون (إطار عمل للتحليل الإحصائى الأسلوبى) A Framework of Statistical Analysis of Style ، وقد توافرت لهذه الدراسة ميزة الدقة والشمول على نحو يجعل منها مشروعا بحثيا يمكن - في حالة استيعابه - أن يكون منطلقا للبحث في كافة مجالات الإحصاء الأسلوبى ، ولناقشة ما يثيره من قضايا ومشكلات . وفي مايل عرض لمشروع دوليجيل حاولنا أن نستوفى فيه الدقة والتبسيط في آن معا .

(٥٨) تلك الخاصة التى استخدمها كاتب هذا البحث في دراسته للشرقيات المجهولة (انظر حاشية ٤٠) . ونرجد مناقشة مفصلة لخاصية يول في مقال بإعالم فاشالك (بالروسية) ، واستخدام لما في تحقيق نسبة نص من نعروض القرن التاسع عشر .
Paval Vásk : "Metodi ustanoveniya Spornogo avtorstva" (Methods of Determination of Disputed Authorship), in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, No. 3, 1972, PP. 143-161.

٢-٨ إطار عمل لتحليل الإحصائي الأسلوب (مشروع دوليجيل)^(٥٩)

٢-٨-١ . الأسلوب مفهوم احتمالي

تقوم النظرية الإحصائية للأسلوب - عند دوليجيل - على أساس مقولة بسيطة هي أن (الأسلوب مفهوم احتمالي) . ويمتاز المفهوم الاحتمالي بسمتين أساسيتين :

الأولى : أنه في عالم الاحتمالات لا يتوقف وقوع الظاهرة (أ) على وجود الشرط (س) ، بحيث توجد بوجوده وتعدم بانعدامه . لكن الذي يقال هو أن الظاهرة (أ) تقع في وجود الشرط (س) باحتمال معين ، أي أن وجود الشرط (س) لا يمتنع معه وقوع الظاهر (أ) أو (ب) أو (ج) . . الخ . ولكن تختلف درجات الاحتمال . وهذا هو الأمر القابل للقياس الإحصائي ، ويسمى بالتوزيع الاحتمالي Probability distribution .

والسمة الثانية للمفهوم الاحتمالي هي أن التوزيع الاحتمالي يصف توقع حدوث الظاهرة في مجتمع إحصائي مثالي . لكننا نستطيع - عمليا - أن نكتفي بملاحظة وقوع الظاهرة بعينات ممثلة للمجتمع الإحصائي . ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جميع العينات أن تتجانس تجانسا تاما في توزيع الظاهرة المدروسة . فالمشاهد بالتجربة أن قيم الاحتمالات تتأرجح حول قيمة معينة تارجحا غير ذي دلالة من الناحية الإحصائية . وهنا يتجلى التوزيع الاحتمالي (الذي سبقت الإشارة إليه في السمة الأولى) في شكل آخر يسمى بالتوزيع التكراري للعينة Sample frequency distribution .

ويرى دوليجيل أن ثمة براهين قوية على أن كلتا هاتين السمتين تتجلى في الخواص الأسلوبية للنصوص . وينشأ عن تقرير الصفة الاحتمالية للظواهر الأسلوبية وجوب تحديد الصفة العامة للأسلوب على أساس من درجة الحضور (أو الغياب) لأشكال معينة من التعبير ، لأن هذه الأشكال هي نتيجة لإشارات المنشئ أكثر من كونها نتيجة عادات ثابتة . إن العادات الثابتة تؤدي إما إلى الاستعمال المطلق وإما إلى الكبت المطلق لبعض أشكال التعبير . وهذا الأمر غير وارد في الأسلوب . ولذلك كان من الأرجح أن ننظر إلى الأسلوب على أنه نتاج إثار واختيار لا أنه نتيجة عادات ثوابت . وإذن فالسمات الأسلوبية هي التجاهات وليست عادات .

على أن القياس الإحصائي قادر على تحديد الدلالة الإحصائية لتأرجح قيم العينات حول القيمة الاحتمالية ، أي أنه قادر على التوصل إلى القرار الصحيح : إما بإهمال التأرجح واعتباره غير ذي قيمة وإما بالاعتداد به . من ثم يمكن بالقياس الإحصائي الكشف عن الاتجاهات الأسلوبية المستقرة Stylistic Stability المخفية وراء التارجمات الظاهرة . ونستظهر مما سبق أمرين هامين :

أولها : اعتبار الخواص الأسلوبية الاتجاهات لاعادات .

(٥٩) هذا عرض لإطار العمل الذي اقترحه دوليجيل للكيفية التي تصاغ بها معادلة رياضية لتشخيص الخصائص الأسلوبية للنص في علاقتها ببعضها البعض ، وفي علاقتها بالقام ، مع إعطاء كل خاصية وزنها الحقيقي في المعادلة نظر .

L. Dolezel, "A Framework for the Statistical Analysis of Style", in Statistics and Stylistics, Op. Cit, PP. 57-65.

والثاني أنها اتجاهات مستقرة تختفى وراء ما يبدو من تأرجح لقيمتها في العينات . والتسليم بهذين الأمرين - عند دوليجيل - يمكن أن يجعل من المعالجة الإحصائية نظرية أسلوبية تمتاز بالكفاءة ، وليس مجرد مظهر ثانوي من مظاهر النظرية الأسلوبية لكنه يقرر أن الطريق إلى تحقيق ذلك ما يزال طويلا ، وأن مشروعه هذا ليس إلا خطوة على الطريق .

ويبرز دوليجيل في مشروعه أهمية ثنائية الكفاءة/ الأداء في إمداد النظرية الأسلوبية بالخلفية العامة المناسبة لتفسير التنوع الأسلوبى . وهو يعد عمليات التشكيل الأسلوبى مكونا أساسيا من مكونات مقولة (الأداء) . أما مقولة (الكفاءة) فإنها تشكل خلفية ضرورية لأي نظرية أسلوبية . ومن خلال بعض الملاحظات النقدية التى يبدئها على نظرية (الأداء) يجدد لنا الشروط المتوقعة في أى مخطط كامل للأداء ، فيرى أن على هذا المخطط :

(١) أن يفسر السمات البراجماتية للسلوك اللغوى .

(٢) أن يفسر الفروق الجوهرية بين النصوص .

إن على هذا المخطط - بعبارة أخرى - أن يعطى وصفا لعملية التشكيل الأسلوبى *Style - Formation Process* التى يتجلى فيها تأثير السمات البراجماتية من جهة ، كما أنه مسئول - من جهة أخرى - عن كشف الفروق الأسلوبية بين النصوص .

٢ - ٨ - ٢ - عملية الاختيار .

عملية الاختيار هى مكون أساسى من مكونات عملية التشكيل الأسلوبى . وهى في جوهرها ، اختيار شكل تعبيرى واحد من بين مجموعة إبدال متاحة ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بديلين . أما في الحالات المعقدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال .

ويحكم عملية الاختيار عوامل براجماتية يمكن تصنيفها إلى نوعين :

(١) عامل ذاتى : subjective ويشمل الإثارات اللغوية للمتكلم ، وطابع تفكيره ، ومهاراته الأسلوبية .

(٢) عامل موضوعى : Objective ويشكله المقام Context (بأوسع مفهومات هذا المصطلح) . وهذا العامل مستقل عن المتكلم ، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله . ويشمل العوامل المتبطة بالاتصال اللغوى . مثل شكل اللغة : منطوقة أو مكتوبة ، وشكل الخطاب : فردى أم حوارى ، وجنس القول . . إلى غير ذلك من العوامل وكلا هذين النوعين من العوامل البراجماتية جاضر دائما أثناء إنتاج النص . ويمكن - نظريا - استنباط ثلاثة احتمالات للعلاقة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأسلوب .

الاحتمال الأول : قد يخفض الاختيار عند النشأة لإثاراته الخاصة ، وينحى تماما اثر المقام (العامل الموضوعى) . ويمكن التمثيل لهذا النمط بشاعر تسيطر خواصه الأسلوبية المميزة على جميع قصائده في جميع

الموضوعات . ويعنى هذا هيمنة العامل الذاتى عنده وتنحية العامل الموضوعى . ويسمى هذا النمط من المنشئين : المنشئ المتحرر من المقام (Context - Free Speaker) .

الاحتمال الثانى : أن يكتب المنشئ إشارات الفردية كتباً تاماً ، ويخضع تمام الخضوع لما يمليه المقام . ويمكن التمثيل لذلك بكتابات الأجهزة الإدارية وكتاب الدواوين ، حيث يسود العامل الموضوعى وينحى العامل الذاتى تنحية تامة . ويسمى مثل هذا (المنشئ الخاضع للمقام) Context - Bound Speaker

الاحتمال الثالث : أن يضبط المنشئ اختياراته تبعاً لما يتطلبه المقام . وهو العامل الموضوعى الذى يتجاوز الفرد Supra U individuai context ولكنه يحتفظ فى الوقت نفسه بفردية ، وخصوصيته التى تميزه عن غيره من المنشئين ومثل هذا المنشئ يسمى المنشئ الحساس للمقام Context u Sensitive Speaker إذ هو يخضع اختياراته . . . الخ

والنمط الثالث هو أكثر الأنماط شيوعاً ، ومثاله المنشئ الذى يحتفظ بخصوصياته الأسلوبية ، وهو - مع ذلك - ينوع ما بين أسلوبه منطوقاً ومكتوباً . والملاحظ أن المنشئ الواحد لا يلزم نمطاً واحداً من الأنماط الثلاثة بل قد يراوح في أسلوبه بينها جميعاً ويمكن القول بأن هذا النوع من الأسلوب هو حصيلة تدافع قوتين : العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية . وهما تعملان في اتجاهين متضادين ، وتحاولان السيطرة على المسافة الاتصالية في لغات البشر .

٢ - ٨ - ٣ . البنية الإحصائية للنص

تحدد البنية الإحصائية للنص مجموع الخواص الذى تثبت له بالقياس . ويمكن أن تصاغ المعادلة العامة للبنية الإحصائية للنص كما يلى : ص = χ_1 ، χ_2 ، χ_3 ، . . . χ_n و {

حيث ص = نص ، χ = خاصية ، (. . .) وتشير الى جميع خواص النص التى تم فحصها . ويطلق على هذه المعادلة :

المعادلة المبدئية للنص Elementary - Text Formula وهى معادلة معية نظراً لما نتوقه من عدم تجانس القياسات الإحصائية للخواص المختلفة ، وهو ما يجعل من جمعها في معادلة واحدة مشكلة إحصائية تتطلب حلاً . وحين ندخل في الاعتبار التصنيف القامى القائم على أساس ماهو موجود من العوامل البراجماتية المؤثرة في إنتاج النص يتحصل لنا أن مجموع نصوص لغة ما (ويرمز لها بالرمز : ص (ل) ، حيث ل = لغة ، ص = نص) يمكن تصنيفها باعتبارين :

١ . الأول : أن تصنف تبعاً للعوامل الذاتية . ويتبع لنا هذا التصنيف ص (ل) .

حيث ص = نص ، و (ل) = منشئ أو متكلم يعينه مع تنوع المقامات . ويصبح مدلول ص (ل) هو مجموعة النصوص التى ينتجها منشئ بعينه يقطع النظر عن اختلاف المقامات .

الاعتبار الثاني : أن تصنف تبعاً للعوامل الموضوعية . وينتج لنا هذا التصنيف ص (ق_٢) ، حيث (ق_١) = مقام بعينه . ويصبح مدلول الرمز ص (ق_٢) هو مجموعة النصوص التي تنتج في مقام معين بقطع النظر عن اختلاف المنشئين .

ولما كانت الجهة منفكة بين التصنيفين فإنه يحصل لنا باجتماعها ص (ك ق_٢) ، أي مجموعة النصوص التي ينتجها منشئ معين في مقام معين . ومن الطبيعي أن نتوقع خلوص بعض المجموعات من هذا النوع ، ضرورة أن المنشئ المعين لا يتوقع منه أن يكتب في جميع المقامات .

وقد نتساءل : كيف يجدد الباحث العوامل الذاتية والموضوعية التي يتم على أساسها تصنيف مجموع نصوص اللغة : ص (ل) . والجواب أن هذه العوامل يمكن تحديدها إمبيريقاً ، فالتصنيف البراجماتي هو إطار تجريبي إمبيرقي لتحليل الإحصائي يمكن تحديده دون أن نعرف شيئاً عن البنية الإحصائية للنصوص . وتتحول النصوص بعد تحديدها على هذا الأساس البراجماتي إلى مجتمعات إحصائية . وبذلك يمكن استخدامها لتحديد الخصائص الإحصائية للنصوص .

ولقد سبق لنا الحديث عن المعادلة المبدئية للنص ، ووصفناها بأنها معينة مع بيان لحيزات هذا الحكم . ومن ثم لم يكن بد من تهذيب هذه المعادلة . وأول مراحل هذا التهذيب أن نحذف منها بعض الخصائص التي تعوق عملية التشخيص الإحصائي للنص . ولدنياً - عادة - نوعان من هذه الخصائص :

الأول : خصائص مافوق الأسلوب Supra - Stylistic Features

ويقصد بها بعض الخصائص التي تتجاوز الخيار الأسلوبي ، وتفرض نفسها على جميع المنشئين فلا تنقاد للتشكيل الأسلوبي . وليس لهذا النوع من الخصائص اللغوية ما يؤهله ليشكل سمات مائزة بين الأساليب . ومنزمله بالرمز (خ - ل) ، حيث خ = خاصية ول = لغة .

ومثل هذه الخصائص - وإن لم تكن مادة للتشكيل الأسلوبي - هي خلقية ضرورية لإدراك الفروق الأسلوبية بين النصوص . وإلى هذا النوع تعزى الفونيمات والجرافيمات (أي وحدات نظام الهجاء) .

الثاني : خصائص ما دون الأسلوب Sub - Stylistic Features

ويندرج تحت هذا المفهوم خصائص يثبت من فحص ص (ك ق_٢) أنها تتسم بعدم الثبات non-stationary ، أو أنها تتأرجع تأرجحاً ذا دلالة إحصائية . وتمثل هذه الخصائص تحديداً حقيقياً للنظرية الإحصائية في دراسة الأسلوب . ولأمر أمام الباحث من عزل هذا النوع واستبعاده ، لكي تستقيم البنية الإحصائية للنص .

وحيث يتم عزل هذين النوعين من الخصائص غير الأسلوبية يصبح من الممكن إجراء أولى خطوات تهذيب المعادلة المبدئية للنص ، حيث نحصل لنا : المعادلة المبدئية لأسلوب النص elementary text - Style formula . ولا يسمح

بدخول المعادلة إلا للمتغيرات الأسلوبية التي يثبت بالفحص الإحصائي أنها سمات أسلوبية . وصيغة هذه المعادلة هي :

ص = (خ س_١، خ س_٢، خ س_٣) . حيث خ س = خاصية أسلوبية ، أما ١ ، ٢ ، ٣ فهي مجموع الخواص الأسلوبية بما فيها الخواص التي ترتبط بخواص سبق ورودها ارتباطاً على وجه اللزوم .

وتتجه الخطوة التالية في تهذيب المعادلة إلى استبعاد الخواص التابعة ، أي المتضمنة في خواص أخرى على وجه التلازم ، واستبقاء الخواص الأسلوبية الأساسية والمستقلة دون غيرها . وتنتج هذه الخطوة : المعادلة المخفضة لأسلوب النص reduced text - style Formula ، وهي :

ص = (خ_١، خ_٢، خ_٣...) ، حيث تساوى خ_١ في هذه المعادلة خاصية أسلوبية مستقلة (وحيث يكون عدد الخواص المستقلة ن أصغر من مجموع الخواص المستقلة والتابعة) .

٢ - ٨ - ٤ . مادة الفحص والفروض

على الباحث أن يجري فحصه الإحصائي على فئات النصوص من النوع ص (ك ق) ، أي نصوص منسوبة في مقام محدد . ويرمز إلى المجموع الكلي للنصوص ص (ل ق) بالرمز ص (ق) ، ويعني مجموع فئات النصوص في مقام محدد بقطع النظر عن اختلاف المنشئين . وتشكل ص (ق) المدونة الأساسية للمادة التي تخضع للفحص بهدف تحديد البنية الإحصائية للنصوص . وثمة احتمالان متعارضان يمكن أن يؤدي إلى أحدهما فحص التجانس في (خ) (أي الخواص الأسلوبية المستقلة) . ولكل منهما تفسيره :

أولهما : أن تتأرجح قيم ص (ق) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تارجحاً ذا دلالة إحصائية . وحيث يمكن اعتبارها خواص مستقرة في نصوص منسوبة يعينه بحيث تميزه تمييزاً واضحاً عن غيره من المنشئين ، أي أنها خاصية أسلوبية ذاتية . وسنرمز لهذه الخواص بالرمز (ش - خ) حيث ش = شخصية .

ثانيهما : أن تتأرجح قيم ص (ق) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق) من المدونة ص (ق) تارجحاً غير ذي دلالة إحصائية ، أي أن (خ) تبدو متجانسة في جميع المدونة . وحيث ينبغي أن تعزى (خ) إلى الخواص الأسلوبية الموضوعية objective stylistic characteristics لأنها خواص تتجاوز الفرد - Supra-individual وسيكون رمزها (ض -

خ) ، حيث ض = موضوعية :

على أن ثمة احتمالاً ثالثاً هو أن تتجانس (خ) في أسلوب بعض المنشئين دون بعض ، مع افتراض وحدة المقام (ق) . ويفسر دويليجيل هذا الاحتمال بأنه تشابه في أسلوب الأفراد أكثر من كونه خواص أسلوبية موضوعية .

ونعود إلى فحص الخواص الأسلوبية الذاتية (ش - خ) من جديد لكي نحدد مكانها ذاتياً خالصاً ، وما كان ذاتياً موضوعياً (ش - ض - خ) ، وذلك بتعريضها للاختبارين التاليين :

الثاني: بحسب الباحث متوسط قيمة (ش - خ) في المدونتين (ق₁) و (ص₁) ثم يرى هل تختلف القيمتان اختلافاً دالاً ؟ وإذا كان الجواب عن السؤالين السابقين بالإيجاب فإن الخصائص الذاتية المميزة لا تكون ذاتية خالصة ، بل هي خصائص ذاتية موضوعية (ش - ص - خ) في آن معاً . فهي ذاتية باعتبار تأرجح قيمها الدال خلال المدونة ، مما يعنى إقبالها لدى المنشئ الواحد واختلافها عند سائر المشنئين . وهي موضوعية بحكم اختلاف مسافة تأرجح قيمها أو اختلاف متوسط قيمة التأرجح باختلاف المقام . أما الخصائص التي لانائى متطلبات الاختيارين السابقين فتكون ذاتية خالصة (ش - خ) . وهكذا يتحصل لنا ما سبق ثلاثة أنواع من الخصائص الأسلوبية هي :

- (٣) خواص أسلوبية موضوعية خالصة (ض - خ)

وتتخذ الصيغة الآتية :

خ ... ض - خ)
ن ۲+م

وتعني هذه المعادلة ببساطة أن الخواص المحددة لأسلوب النص (ص) تساوي مجموع الخواص الأسلوبية المستقلة (لا التابعة) بأنواعها الثلاثة: الذاتي (ش-خ) ... ش-خ) ، والذاتي الموضوعي (ش-ض) ... ش-ض) ، والموضوعي (ض-م) ، والموضوعي (ض-خ) ... ض-خ) .

وتتميز العادلة المحددة لأسلوب النص بأنها تمثل النص تمثيلا شكليا باستخدام منظومات من مكوناتها المستقلة المتنوعة . كما أنها تعبر عن الدرجة التي تسهم بها المكونات الذاتية والموضوعية في تشكيل النص ، وما يتمتع به كل منها من وزن خاص . كذلك تظهر لنا هذه العادلة أسلوب النص في هيئة بنية إحصائية مركبة . وهكذا يمكن تشخيص أسلوب النص إحصائيا بتجزئته إلى عدد محدد من المكونات الأسلوبية الموصفة القابلة للقياس الدقيق . وعشَل هذا

الإنجاز في رأي دوليجيل أهم إسهام يقدمه المفهوم الإحصائي لنظرية الأسلوب . وجدير بالذكر أن صفة الذاتية والموضوعية في المعادلة لاتحددها الخواص اللغوية ، بل العوامل البراجماتية المتحركة في توليدها .

٢-٨-٥ . خلاصة

بمخلص لنا مما سبق :

أولا : أن التوصل الى المعادلة القادرة على تشخيص البنية الإحصائية لأسلوب النص قد مر بالمراحل الآتية :

- (١) المعادلة المبدئية للنص .
- (٢) المعادلة المبدئية لأسلوب النص .
- (٣) المعادلة المختصرة لأسلوب النص .
- (٤) المعادلة المحددة لأسلوب النص .

ثانيا : أن المعادلة المحددة لأسلوب النص تتنوع بحسب العوامل الذاتية والموضوعية التي تحكم الاختيار من البدائل .

ثالثا : أن الاختيار من بين مجموعة الأبدال المتاحة إذا كان محكوما بالعوامل الذاتية الخالصة كانت صيغة المعادلة هي :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{خ} , \text{ش} - \text{خ} \dots \text{ش} - \text{خ})$$

رابعا : إذا كان الاختيار محكوما بالعوامل الموضوعية الخالصة فإن المعادلة تكون كما يلي :

$$\text{ص} = (\text{ص} - \text{خ} , \text{ص} - \text{خ} \dots \text{ص} - \text{خ})$$

خامسا : إذا كان الاختيار محكوما بعوامل ذاتية موضوعية كانت صيغة المعادلة :

$$\text{ص} = (\text{ش} - \text{ص} , \text{خ} - \text{ش} - \text{ص} \dots \text{ش} - \text{ص} - \text{خ})$$

سادسا : أن الحالات الثلاثة السابقة تفترض وجود نصوص متجانسة نجانسا تاما . وهذا استثناء . أما الغالب فهو أن تتألف النصوص من الأنواع الثلاثة السابقة وتعتبر عن ذلك المعادلة المركبة التي سبق إيرادها .

سابعا : ينهنا دوليجيل - في ختام مشروعه - الى مشكلة هامة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد تختلف طبيعتها الإحصائية باختلاف النصوص أو باختلاف أنواع النصوص ، فقد يكون طول الجملة خاصة ذاتية في نص ، وموضوعية في نص آخر ، وذاتية موضوعية في نص ثالث . وينشأ عن ذلك اختلاف وظيفة الخاصية في عملية التشخيص . إنها في النص الأول صالحة لأن تكون مميزا لأسلوب المنشئ الفرد ، وفي الثاني لا تصلح البتة لهذه الوظيفة . أما حين تكون الخاصية ذاتية - موضوعية فإن صلاحيتها لتمييز فردية الأسلوب تكون مقيدة بمنطق معينة ، أي أنها لا تكون مميزا إلا في حدود مقام واحد ثابت . وهذه المشكلة - عند دوليجيل - من أكبر المشكلات التي تواجه النظرية الإحصائية في التحليل الأسلوب صعبة وخطرا ، ولم تلق حتى الآن ما هي جدية به من اهتمام .

ثامنا : قد يتخذ من هذا التعارض المثير للدهشة في التفسيرات المتنوعة للخواص الأسلوبية دليل على وجود نقص في النظرية . غير أن النقص في النظرية ليس هو وحده المسئول عما يشيع في نتائج الأسلوبيات الإحصائية من مظاهر التردد والتناقض . ذلك أن التفسيرات ذات طابع افتراضي ظاهر . كما أن الحساب الدقيق لهذه المادة صعب بسبب العلاقة المعقدة بين (النص - العينة) و (النص - المجتمع) .

يضاف الى ذلك أن وضع حدود مرضية للمجتمع الإحصائي للنص (أو المجتمعات) هو مهمة معقدة ، لأن المجتمعات الإحصائية هي بالنسبة لدراسة النصوص مجموعات مفتوحة ، أي لا يمكن وقوعها تحت حصر .
وأخيرا : يقرر دوليجيل أن الأمل معقود على استخدام الحاسوب للتوسع في معالجة مجموعات كبيرة ومتكاملة - وبها تتمكن من الاختبار العلمي للفروض الأساسية في نظرية الأسلوبيات الإحصائية . ولابد من تضافر الجهود في هذا الاتجاه ليكتسب هذا الدرس صفة المنهج العلمي الحديث عن جدارة .

٣ - مبحث الوظيفة

٣ - ١ . المقياس الأسلوبي الإحصائي

نعاول بهذا المبحث الثالث أن نستوفي أنحاء التقسيم المقترح لهذه الدراسة ببيان للكيفيات والمجالات التي يمكن بها وفيها توظيف الإحصاء في دراسة الظاهرة الأسلوبية . ونحسب أن أول ما ينبغي البدء به هنا هو بيان مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي ، واستخداماته ، ومجالات تطبيقه .
المقياس الأسلوبي الإحصائي هو : (صيغة شكلية تؤسس علاقة بين المتغيرات أو الخصائص وما يتنازه به النص من غيره من النصوص ، أو ما يستدعيه من أحكام ونعوت) .

٣ - ٢ . مجالات تطبيقه .

وينشأ مما سبق وجود وجهين لاستخدام المقياس الأسلوبي :

أولها : تأسيس علاقة بين المتغيرات الأسلوبية بهدف الكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة ، (وهو الهدف الوصفي)

ثانيها : تأسيس علاقة بين الخصائص الأسلوبية المائزة بهدف الكشف عن نعوت الأسلوب . (وهو الهدف التقريري) ، كلا الهدفين واقع في مجال التشخيص الأسلوبي ، إلا أن أولها ينصرف الى تشخيص الأساليب ، وثانيها ينصرف الى تشخيص نعوت الأساليب .

ويشكل كلا هذين الاستخدامين بابا واسعا يدلف منه الباحثون الى ميدان عريض ، ويستشفون فيها آفاقا رحبة للبحث الأسلوبي . وتتنوع مجالات التطبيق والإفادة من المقياس الأسلوبية الإحصائية لتشمل :

(١) في اللسانيات الاجتماعية : Sociolinguistics : قضايا الاستعمال الاجتماعي للغة ، والسجل اللغوي

register ، وتحليل الخطاب discourse Analysis ، ومقاييس اللغة Pragmatics of language

(٢) وفي اللسانيات التاريخية : historical linguistics : قضايا تمايز الأساليب باعتبار العصر ، والتغير التاريخي للأساليب dynamic Stylistics وفحص الوثائق التاريخية اللغوية .

(٣) وفي اللسانيات النفسانية قضايا اللغة والفكر ، واللغة والشخصية ، والعقلانية والانفعالية ، ومبحث الإبداع .

(٤) وفي اللسانيات الأدبية : قضايا تمايز أساليب الأفراد ، والكشف عن المؤلف المجهول ، وتصحيح نسبة النصوص ، وتحقيق قضايا الانتحال والوضع والتقليد ، وتمييز نعوت الأساليب ، وتشخيص العلاقة بين المنشئ وشخصياته الروائية أو المسرحية ، وأنماط اللغة الأدبية ، والترتيب التاريخي لأعمال المنشئين ، وبحث الأنواع الأدبية ، وجماليات التشكيل اللغوي للنص الأدبي .

(٥) وفي الدراسات التربوية : قضايا المعجم الأساسي ، والثروة اللفظية ، وقابلية النصوص للقراءة readability ، والتشويق والإثارة في تشكيل لغة النصوص التعليمية .

هذا الى مجالات أخرى كثيرة في علم الاجتماع ، وعلم الثقافات ، وعلم المعلومات ، والسمياتيات ، وعلوم الإعلام نوردها لا على وجه الحصر وإنما لنشير بها الى ما ينتظر الأسلوبيات الإحصائية من مهمات جسام في جميع ميادين الدراسات الإنسانية على تنوعها ورحابتها .

٣-٢ . أنماط المقاييس الأسلوبية .

تتعدد أنماط المقاييس الأسلوبية بحسب المبدأ الذي تستند إليه . ومن الأهمية بمكان أن تحدد هذه الأنماط ، فذلك أنسب المداخل لمناقشة قضية كثر حولها الجدل واختلطت فيها الأوراق ، ونعني بها مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي ، ومدى شرعية افتراض المقاييس وتجاوزها حدود اللغة التي استنبطت فيها الى غيرها من لغات البشر . وسنعود الى ذلك في مايلي من حديث .

ويمكن أن نستظهر مبادئ أربعة تقوم على أساسها الاستدلال بالمقاييس الأسلوبية الإحصائية .

(١) مبدأ رياضي : وإليه تنتمي المقاييس الأسلوبية التي تقوم على حساب العلاقة بين الكميات في صيغة معادلة رياضية ، ومنها حساب التباين ، والانحراف المعياري ، والارتباط ، وكأي^٢ ، والنسبة المخرجة وسائر طرق الاستدلال الإحصائي .

(٢) مبدأ لغوي : يقوم على الكشف عن الدلالة اللغوية للعلاقة بين المتغيرات الأسلوبية المقالية ، ومنه مقاييس طول الجملة ، وأنواعها ، والمقاييس المعجمية وغير ذلك مما يقى الشيوخ والتوزيع لمتغيرات المقال .

(٣) مبدأ منطقي : وهو حساب رياضي للمتغيرات الأسلوبية يستمد حجته من موافقته لبيدهات المنطق . ومن هذه المقاييس قياس تنوع المفردات Vocabulary diversification الذي استنبطه ت . م . جونستون T.M. Joneston . وقد أقامه على أساس من رد مجموع مفردات الكلمات التي يتشكل منها النص Tokens الى الأنماط الأساسية بعد حذف جميع تكراراتها Types ، ثم قياس التنوع بطرق ذات دلالات مختلفة بحساب النسبة بين المجموع الكلي للكلمات وأنماطها .

(٤) مبدأ نفسان : وأكثر المقاييس التي تقوم على مبدأ نفسان تستمد أساسها من الفروض العلمية في الدراسات النفسية . وإلى هذا النمط ينتمي معامل بوزيمان Busemann's Coefficient لقياس درجات الانفعالية والعقلانية في الأسلوب عن طريق حساب النسبة بين الأفعال والصفات ، وقد أوحى بفكرة المقياس له ما لاحظته من دراساته في اللسانيات النفسية للغة الأطفال ، إذ لاحظ غلبة الأفعال على الصفات فيها يمكنه من قيص ، وتغير هذه النسبة باتجاهها نحو الانخفاض بنمو الطفل ونضوج قدراته وملكاته الفكرية والإدراكية . وهكذا تشكل هذا الفرض العلمي في إطار البحوث النفسية ، وجرى اختباره فأسفر عن إمكانيات طيبة في قياس درجة الاستقرار العاطفي ، وقياس أنماط الشخصية ، وحفظها من الانفعالية والعقلانية .

ولقد كانت هذه الملاحظة العلمية منطلق بوزيمان لوضع هذا المقياس الأسلوبي ، ومنطلق من جاءوا بعده لتطويعه . وأصبح ممكنا به اختبار الفوارق الأسلوبية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وبين الأسلوب العلمي والأدبي ، وبين الشعرية والنثرية ، وبين لغة الفرد ولغة الحوار ، وبين لغة الرجال ولغة النساء ، وبين لغة الصغار ولغة الكبار ، ولغة الأنواع الأدبية ، وقياس الخط الدرامي في القصة والمسرحية والرواية (٦٠) .

٣ - ٣ . مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي :

نعود هنا - في ضوء ما تقدم - لمناقشة مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي بمحاولة للإجابة عن هذا السؤال الهام : إلى أي مدى يجوز للغات أن تتعارض المقاييس الأسلوبية فيها بينها ، وإلى حجية تكون للمقياس إذا جاوزنا به حدود اللغة التي استنبط فيها إلى غيرها من لغات البشر ؟ (ومن الضامن لتلك المقاييس أن تتحول إلى كليات معرفية مهما اختلفت اللسان التي تجري عليها ؟ أمليس من الطبيعي أن تختبر الجهاز الإجرائي أولا ؟ بل أليس يديها أن نعمل على استنباط هذا الجهاز من صلب المدونة التي نتخذها مناطا لبحثنا التطبيقي ؟) (٦١) .

ولأن هذه التساؤلات تتردد في غير موضوع ومن غير باحث فلنأب - ولاشك - مستحقة لأن تكون موضع اعتبار . وعلمنا - لدى مناقشتها - أن ننبه إلى أنها لاترد إلا على النمط الأخير من المقاييس ، إذ إن حجية المقاييس القائمة على المبدأ الرياضي أو المنطقي ثابتة في كل لسان ، كما أن حجية المقياس القائم على مبدأ لغوي في إطار اللغة الواحدة ليست موضع خلاف . من هنا كان حظ المحاولة التي بذلت لإعمال معامل بوزيمان وتطبيقه على المادة العربية من النقد والمناقشة موفورا . وقد كان من كتاب هذه السطور رد مفصل في غير هذا المكان على ما أثر من ملاحظات وحسبنا هنا أن نقول : إن مثل هذا المقياس إذا كان قد استنبط من لغة معينها فإن ذلك يمنحه شرعية الفرض العلمي الذي يبقى قابلا للإثبات أو النفي بحسب ما يؤدي إليه الجهد التطبيقي . وقد أثبتت الدراسات التي أجريت عليه في الألمانية والانجليزية والفرنسية

(٦٠) انظر : سعد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٥٩ و ٦٢ و ١٢٣ - ١٢٤ .

(٦١) من رسالة كريمة للقلماء كاتب هذا البحث من الدكتور عبد السلام السندي مؤرخه في ١٠/١٠/١٩٨٤م . يتعلق على استخدامات معامل بوزيمان في التحصيل الأسلوبي ، وغريب من ذلك ما ورد في :

صلاح فضل : علم الأسلوب : مبادئ وإجراءاته ، ص ٣٢٦ ، وانظر دنا علي : في دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة ، ص ٧٦ - ٧٨ .

أما السليويون فقد دأب كثير منهم إلى تزكية هذه التجربة وتأكيد أهميتها . وانظر في ذلك عرمأنا إنلدا وألأا لثكتاب في : مازن الوهر : دراسات لسانية تطبيقية ، دمشق ، دار طلاس ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٢٣ - ٢٠٠ وقد غمسته المؤلف وجهة نظره في إيجابيات التجربة وسلباتها .

صدقه وقدرته على أن يكون مؤشرا كاشفا لأنواع الأساليب . ولم تكن درجة صدقه على العربية بأقل منها في غيرها من اللغات .

بيد أن الاحتراز الأساسي - في هذا المقام - إنما ينصرف إلى المتغيرات اللغوية الأسلوبية الداخلة في الكميات المقيسة ، إذ ينبغي تحديدها تحديداً قاطعاً ونافياً لكل ليس . ومن ثم كان لابد من تكيف المقاييس من هذه الوجهة لتكون صالحة للتطبيق وتحقيقه للغاية المطلوبة بها . إن هذه المتغيرات . وإن اتفقت في طبيعتها اللسانية العامة (صوتية كانت أو صرفية أو تركيبية أو دلالية) هي تصورات ذات ماصدقات مختلفة باختلاف النظم اللغوية المعينة ، ومن ثم نتوقع اختلاف حدود القوانين وأنواع المورفيمات والجمل والحقول الدلالية من لغة إلى لغة ، كما نتوقع أيضاً اختلاف التيوب والتقييد وإجراءات الوصف باختلاف الطرز النحوية . ومن هنا كان تحرير مفاهيمها وتحديد ماصدقاتها وعلاقاتها النظامية ضرورة منهجية لا ترخص فيها . بيد أن اختلاف هذه المفاهيم ، وخصوصية المباني والاستعمالات الأسلوبية في لغة ما لا ينفي ما للظاهرة الأسلوبية من طبيعة لسانية عامة ، وهي بذلك إحدى الجوامع اللسانية - Linguistic Universals التي لا تخلو منها لغة ، ولا تختص بها إحداها دون سائرها .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية والمعالجة الإحصائية

لعل استحصار الأفاق الرحبة التي تعد بها المعالجة الإحصائية ، بـله الحاسوبية (٦٢) ، لنصوص اللغة تقضي بنا إلى ضرورة وضعها في جائق موضوعها من المفهوم العلمية للباحث العربي المعاصر . ولأنك أن رصد ماتم إنجازه في هذا المقام ربما كان أيسر مثالا من تعدد المجالات التي تتطلع العربية إلى احتكامها والإفادة منها . (٦٣) :

بيد أننا نشير هنا إلى عدة مجالات تمثل بالنسبة لجمهور الباحثين أحملا تستعصى على التحقيق إلا باستنفار الجهود وتضافر المؤسسات العلمية القادرة على التخطيط والمتابعة والإنجاز .

أولها : إنجاز وصف دقيق للعربية المعاصرة على اختلاف تنوعاتها الإقليمية ، والاجتماعية .

وثانيها : إنجاز المعجم التاريخي للعربية .

وثالثها : إنجاز الأطلس اللساني العربي .

ورابعها : الإسهام الجاد من اللسانيين في صياغة نظرية نقدية تستوفي أشراف العلمية والموضوعية في دراسة النص الأدبي بتأنيده المختلفة .

وفي كل ما تقدم نحسب أن إعمال المعالجة الإحصائية والحاسوبية في دراسة نصوص العربية قديمها وحديثها هو أمر لا يمكن تجاهزه بحال .

(٦٢) لا يلتزم أن نترجم هنا بكتاب نيل على : اللغة العربية والحاسوب ، (القاهرة ، دار تعريب ١٩٨٨) - وهو دراسة تحتاج إلى متابعة لسانية جادة . وقد أورد المؤلف في حاشية قائمة لرية يبحرث مقترحة في مجال اللسانيات الحاسوبية مطبقة على اللغة العربية (ص ٥٣٦ - ٥٥٠) .

(٦٣) قلع محمد الخروط الدولي للغة العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) شرعاً في إنجاز مشروع الدراسات الإحصائية على اللغة العربية . وكان لكتاب البحث شرف الإشراف على بعض مراحله . ولكن ضعف الإمكانيات وضياع الشروع تلفق عائقاً دون إتمامه . وانظر لكتاب البحث . ومؤشرات لغوية إحصائية في هاتين الصحائف العربية : مصر - ليبيا - السودان) ، في (دراسات إحصائية استطلاعية في العربية المعاصرة) ، الخروط ، ١٩٨٥ ، ص ١ - ٣٣ .

مثلاً ان اللزوم المنطقي logical implication هو محور علم المعاني، كذلك الاقتضاء implicature هو من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم التداول Pragmatics. وبالرغم من التقارب بين هاتين العمليتين، إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت غرايس Grice، ووضح هذا المفهوم، الى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر « implicate » ذاته وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم ال implicature تمييزاً لها عن ال implication المتعارف عليها.

في التراث العربي، أي في كتب المنطق والأصول والبلاغة، تستعمل نفس لفظة « اللزوم » أو « الاستلزام » للدلالة بنوع عام على أية واحدة من عمليتي الاستدلال المذكورتين، دون تفرقة^(١). انهاء، نظراً للاختلاف الجوهرى بينهما، أخذنا بمصطلح « الاقتضاء » المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم غرايس، للدلالة على الاستدلال. التداولي، وحصرنا لفظة « اللزوم » بالاستدلال المنطقي وحده.

خلافاً للزوم، يستند الاقتضاء إلى مبادئ عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف إلى الاتصال القائم على التعاون. ومع ذلك فللاقتضاء تأثير فعال على بنية اللغة ذاتها.

من أهم ميزات الاقتضاء، أنه يقدم تفسيراً صريحاً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر. مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة. فبالنسبة للمتل:

أ: كم الساعة ؟
ب: لقد أذن العصر .

الاقتضاء في التداول الساسي

عادل فاضوري

الأستاذ بقسم الفلسفة - جامعة الكويت

(١) هكذا يقال مثلاً ويلزم من كل غراب أسود أن بعض الغربان سوده بمعنى اللزوم أو الاستنتاج المنطقي. وكذلك يقال مثلاً أن قول «راكب الجارية في المطر» هو لازم لانه قول «كنت الجارية في المطر»، بمعنى اللزوم التداولي.

لا يستطيع علم المعاني وحده أن يمدنا إلا بالتوضيح الآتي على الأكثر :

أ : أنا أرغب أن تقول لي (كم الساعة ؟)

ب : لقد (أذن العصر) في وقت سابق لاستفسارك .

لكن من الظاهر، لكل من يتكلم العربية، أن الجواب بهذا التخاطب يتجاوز بكثير المنطوق الحرفي . فالحوار يقصد بالتفصيل :

أ : أرغب أن تقول لي (كم الساعة) بحسب التوقيت المحلي المتعارف عليه دولياً، في اللحظة التي أتكلم فيها معك الآن، إذا كان باستطاعتك ذلك .

ب : بالحقيقة أنا لا أعرف الوقت الدقيق الآن، لكنني أستطيع أن أفيدك بخبر يمكنك من أن تستنتج الوقت على وجه التقريب وهو (أن أذان العصر قد مضى) منذ فترة وجيزة .

ولا ريب أن هذا المقصود التفصيلي بالذات، أي الاستخبار عن الوقت الدقيق ومحاولة إفادة المعلومات على قدر المستطاع، لا يمكن الوصول إليه كلياً بواسطة علم المعاني، بل لابد من اللجوء إلى الاقتضاء التخاطبي لسد الثغرة الحاصلة بين القول حرفياً وبين ما يتلغ المستمع .

ومن فوائد الاقتضاء كذلك أنه قادر على إحداث تبسيط في بنية الأوصاف الدلالية semantic description، كما في مضمون هذه الأوصاف . فإذا ما قارنا بين المثالين الآتيين .

١ - فتح سمرقنية البيسي وشربها دفعة واحدة .

٢ - بيروت عاصمة لبنان والقاهرة عاصمة مصر .

نجد أن معنى وإو العطف في المثال الأول يغاير جزئياً معناها في المثال الثاني . فالواو في (١) تدل على التعقيب بحيث أنه من الصعب تصور عكس الترتيب الزمني، إذ قولنا :

شرب سمرقنية البيسي دفعة واحدة وفتحها :

يبدو غير معقول : بينما في (٢) لا تفيد الواو أكثر من مطلق الاشتراك والجمع، أي تماماً المعنى الذي يحدد جدول الصديق لرابط الوصل (٨)، وهو صديق المركب فقط عند صديق الطرفين :

ب	ج	ب أ ج
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

وبالتالي، فإن عكس ترتيب الطرفين لا يغير شيئا في المعنى. فقولنا:

القاهرة عاصمة مصر وبيروت عاصمة لبنان

لا يختلف مع قولنا في المثل (٢). لأن تقييم (ج ٨ ب) هو مرادف لتقييم (ب ٨ ج) كما يستبان من الجدول الآتي :

ب	ج	ج ٨ ب
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

أمام هذه الاشكالات، لا يجد علم المعاني من حل سوى الادعاء بأن الواو يشوبها الالتباس، إذ تحتل عدة معاني مختلفة، أو الزعم أن معاني الكلمات هي بنوع عام غامضة ومضطربة تتقلب مع تغير السياق والتركيب. لكن في الحالة الأولى، يلزمه تشعب المعاني حتى بالنسبة لأبسط الكلمات. فمثلا عند اعتبار الجملتين:

العلم أبيض

العلم أبيض وأحمر وأزرق

يضطر علم المعاني لأن يضيف كل مرة على كلمة «أبيض» معنى مختلفا فهي في الجملة الأولى تعني «كلية أبيض» وفي الثانية «جزئية أبيض».

وفي الحالة الأخرى، أي عند الزعم أن المعاني في اللغات الطبيعية غير مستقرة، يعمز هذا العلم عن كيفية تحديد معنى الكلمة المتغير، عند كل وقوع لها.

أما مفهوم الافتضاء فهو بلاشك يقدم الحل الأنسب، إذ يقرر ان الفاظ اللغة الطبيعية انما تنزع الى المعاني الموحدة الثابتة، لكن من طبيعة هذا الكنه الدلالي ان تتعلق به غالبا لواحق متغيرة يقتضيها السياق وفقا لقواعد معينة.

وأخيرا، من ميزات الافتضاء، بالاضافة الى ما سبق، انه استنادا الى غدد قليل من المبادئ، قادر على تفسير كثير من الامور التي تبدو في غاية الغفوات والتباعد.

المعنى غير الطبيعي

من الواضح انه عند تلفظ ما، غالبا ما نستطيع أن نستدل على توابيع مختلفة، لكن هذه التوابيع ليست واقعة جميعا تحت المعنى المقصود بإبلاغه، أي المعنى المقصود به أن يدرك انه مقصود، وهو ما يسميه غرايس « المعنى غير الطبيعي » non-natural meaning . وحذوها تلك الاستدلالات التي أطلقنا عليها اسم «المتنضيات» implicature هي

من المعاني التي يراد إبلاغها على النحو المذكور، وهي بالتالي، إلى جانب المقول *what is said* أو المنطوق، تشكل القسم الثاني للمعنى غير الطبيعي. لذلك كان لابد من ربط نظرية الاقتضاء بنظرية المعنى غير الطبيعي.

تتمحور نظرية الاتصال^(١) عند غرايس H.P. Grice حول ما يخصه باسم « المعنى غير الطبيعي » أو « الدلالة غير الطبيعية » *non - natural meaning*. وبالاختصار « المعنى غ ط » أو « الدلالة غ ط » *meaning nn*. لتعيين هذا المفهوم ونميزه عما عداه يستعرض غرايس مختلف الاستعمالات التي تنقلها لفظة « meaning » في التداول العادي.

فالتمييز العام الذي ينطلق منه هو التفرقة بين الاستعمال الذي يحتمل القصد والاستعمال الذي لا يحتمله.

هكذا مثلاً في العبارات الآتية :

الغيوم تعني أو تدل على المطر
الاحمرار يعني أو يدل على الخجل
تقطيب الحاجبين يعني أو يدل على الاستياء

تكون الدلالة طبيعية، من حيث أن الأمور الدالة، أي الغيوم والاحمرار وتقطيب الحاجبين، لم تحدث قصداً من قبل شخص ما، للدلالة على المطر والخجل والاستياء على التوالي، بل إن دلالتها تعود لمجرد علاقة عليية بين الدال والمُدلول. ومن الواضح أنه في هذا الاستعمال لا تنطوي كلمة « معنى » أو كلمة « دلالة » على القصد البتة.

بينما في أمثلة أخرى، كأن يتكلف أحدهم تقطيب حاجبيه ليدل على استيائه، أو يلوح بيده لالقاء التحية على صديق، أو في أثناء التخاطب المجهود، لاشك أن الدلالة مقصودة من قبل المرسل. فالتلويح مثلاً هو فعل قام به المرسل قصداً لإبلاغ صديقه التحية.

بين الدلالات التي تحتمل القصد يميز غرايس عدة أنواع تختلف ما بينها باختلاف موقف المتلقي من القصد الدلالي بالذات.

ففي بعض الحالات، كما في حال ترك أحدهم بيته مضاعاً عند غيابه لإيهام السارق بوجوده فيه، أو كما في حال تعمد تقطيب الحاجبين لإظهار الاستياء، لابد لقصد المرسل حتى يتحقق، أن يبقى خفياً عن المتلقي. فدارية المتلقي بقصد المرسل تتضارب ولاشك مع تحقيق هذا القصد. فلنكن يعني البيت المضاع للسارق أنه ليس خالياً، من الضروري أن يكون السارق جاهلاً بأن صاحب البيت إنما تركه مضاعاً ليقتصد بذلك عدم دخوله البيت. فإن عرف

(٢) هذه النظرية معروفة في عدة مقالات نشرها غرايس خلال فترة من الزمن تزيد على عشر سنوات.
راجع :

Meaning, philosophical Review, Vol. 66. 1957

Utterer' Meaning, sentence - Meaning and Word Meaning, Foundations of Language, Vol 4, 1968.

Utterer's Meaning and intentions, philosophical Review, Vol. 78, 1969.

(٣) كلمة « meanings » الانكليزية قد تؤخذ بالعربية بكلمة ومعنى، أو بكلمة « دلالة »، دون فرق لكن. الاستعمال الشامل لكلمة « meanings » يقربها بالأحرى من كلمة « دلالة » ذات المفهوم العام. بينما لفظة « معنى »، تيل إلى الاستعمال في الطابع القصدي.

السارق قصد صاحب البيت فشل تحقيق القصد. وكذلك بالنسبة لتعطيب الحاجبين، إذ متى أدرك المتلقي قصد المرسل بطلان أن يدل التعطيب على المعنى الطبيعي أي الإستهاء.

إلى جانب هذا النمط من الدلالة القصدية، ثمة نمط آخر حيث الدراية بالقصد لا تتنافى مع تحقق الدلالة. لنفترض مثلاً أني ناولت صديقاً لي صورة فوتوغرافية تمثل امرأته في أحضان رجل ما، قاصداً بذلك الدلالة على أن امرأته تخونه، فلاشك أن قصدي يتحقق إذا ما أدرك الصديق أن هذه الصورة تعني أن امرأته تخونه، وهو يتحقق حتى وإن ذرى الصديق قصدي أن أعني له ذلك بعرض الصورة عليه. انما، في هذا المثل، مع أن دراية المتلقي بقصد المرسل لا تتنافى مع تحقق القصد، إلا أنها غير منوطة به: فدراية القصد ليست شرطاً ضرورياً لتحقيقه. فلو وقع صديقي صدفة على الصورة دون علمي، أو لو أنني تصرفت بشكل يستطيع معه ملاحظتها، دون أن أظهر له قصدي بالدلالة على خيانة امرأته، فإنه سيدرك بالاربيب الرسالة التي تحملها الصورة^(٤).

بالنسبة لفئة من الدلالة القصدية لا يكفي حتى تصح، ان لا تتنافى دراية المتلقي بقصد المرسل مع تحقق قصد الدلالة، بل لابد من الدراية لتحقيق القصد المذكور. فلا يستطيع المرسل أن يُبلغ شيئاً إلى المتلقي إلا إذا استطاع ان يبلغه قصده بالدلالة على ذلك. هذه الفئة من الدلالة القصدية هي ما يخصها غرايس باسم « الدلالة غير الطبيعية ». هكذا مثلاً، إذا التفتيت بشخص ما في الشارع ولوحت له يدي أو قلت له « مرحبا » فإني بذلك أقصد إلغاء النتيجة عليه. لكن قصدي هذا لن يتحقق إلا إذا درى الشخص به. فحالما يدرك المتلقي قصدي يتحقق هذا القصد، وبالعكس أي أنه إن لم يدرك به فلن يتحقق. إذ ان دراية قصد الدلالة غير الطبيعية هو شرط لابد منه لتحقيق القصد. بهذا الصدد يقول سول « إن للاتصال بين الناس خصائص عجيبة ينفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني. ومن عجيب تلك الخصائص انه إذا حاولت أن أقول شيئاً لشخص ما، فحالما يدري أنني أحاول أن أقول له شيئاً، ويدري ما أحاول أن أقوله له بالضبط، أكون « عند توفر بعض الشروط » قد نجحت في إبلاغه ذلك. بل إنه طالما يدري أنني أحاول أن أقول له شيئاً، ولم يدرك ما أحاول أن أقوله له، فإني أكون لم أنجح كلياً بإبلاغه ذلك^(٥). » أو وفقاً لتعبير غرايس: « أن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه. فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد.

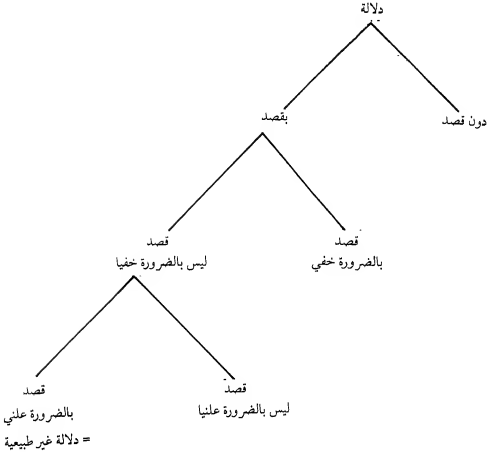
من هذا التحليل يتبين لنا أن خصوصية الانعكاس هي خصوصية جوهرية للاتصال القصدي. فحتى يحصل الاتصال القصدي بالمعنى الحصري للكلمة، لا يكفي ان يتم توصيل المحتوى بشكل قصدي، بل لابد بالإضافة إلى ذلك أن يُقصد توصيل أن هذا المحتوى قد أريد توصيله بشكل قصدي. ففعل التوصيل ينعكس على ذاته ويشكل جزءاً مما يجري توصيله^(٦).

(٤) أغلب الدلالات الاجتماعية هي عادة من هذا النمط، مثل ارتداء الأزياء الدالة على المكانة أو الرتبة (برؤ الجنرال) أو على نشاط أو عمل ما (ارتياب السهرة أو الرياضة)، ومثل الفناء واستعمال بعض الأشياء الخاصة بطبقة اجتماعية (قيادة سيارة رولز رويس).

Speech Acts, P. 47 (٥)

(٦) لكن هذا الإيماع أن توصيل المحتوى وتوصيل هذا التوصيل هما فعلان منفيران. وإلا وجب أن كل فعل دلالي غير طبيعي أن يكون عند المرسل قصد أول للدلالة على المحتوى للتلقي، ولعند ثلث للدلالة على القصد الأول، ولعند ثالث للدلالة على الثاني، وهكذا إلى ما لا نهاية. وبالتالي تملأ توصيل أي شيء.

كل أنواع الدلالات السابقة التي أتينا على ذكرها، يمكن إجمالها بالمشجر الآتي :



مع الأخذ بعين الاعتبار ان : خفي = غير علني .

قواعد التخاطب

يقوم مفهوم الاقتضاء أصلاً على نظرية خاصة في كيفية استعمال اللغة. فالممارسة اللغوية، بحسب غرايس، نشاط عقلي يهدف إلى التعاون ما بين المتخاطبين. لذلك كان لابد من افتراض توجيهات أو قواعد، صادرة عن اعتبارات عقلية، تتدبر السلوك التخاطبي وتجعله فعالاً وناجحاً. هذه التوجيهات أو القواعد تسمى بهدي مبدأ شامل يطلق عليه غرايس اسم « مبدأ التعاون » the co – operative principle الذي ينص على مايلي :

مبدأ التعاون : إجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، الغرض أو المآل المُسَلَّم به من التخاطب المقود.

أما القواعد، أو كما يسميها غرايس « الحِكَمَ » maxim ، التي تندرج تحت هذا المبدأ الشامل ، فيجري تصنيفها إلى أربع مقولات، مقتبسة عن كانط، هي : مقولات الكمية والكيفية والإضافة والجهة .

١ - مقولة الكمية : وهي تخص كمية المعلومات التي يجب توفيرها. وتؤدي بالقاعدتين :

- I اجعل مشاركتك نفيذ على قدر ما هو مطلوب، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية .
- II لا تجعل مشاركتك نفيذ أكثر مما هو مطلوب .

٢ - مقولة الكيفية : وتتعلق بالقاعدة العامة « حاول أن تكون مشاركتك صادقة true » التي تتخصص بقاعدتين هما :

- I لا تقل ما تعتقد انه كاذب False.
- II لا تقل ما تفتقر الى دليل واضح عليه.

٣ - مقولة الاضافة : وتنفرد بقاعدة واحدة هي : إجعل مشاركتك ملائمة .
هذه المقولة المجملة تخفي ولاشك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق افتتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسب، وتغيير موضوع المحادثة، وحسن التخلص واختتام التخاطب الخ . . .

وأخيرا :

٤ - مقولة الجهة : وهي لا يتم كسائر القواعد بها هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله أو النطق به . قاعدتها العامة هي : كن واضحا. وعنهما تنفرع القواعد :

- I احترز من الغموض obscurity .
- II احترز من الالتباس ambiguity.
- III تحرُّ الإيجاز .
- IV تحرُّ الترتيب .

وبالاختصار ، هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به ، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثل من التعاون والعقلانية والفعالية . بالطبع هذا لا يعني أن عليهم ان يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات . إذ، قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال . بل المقصود من ذلك انه ، حتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة ، يظل السامع يفترض ، خلافا للظاهر ، ان المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق ، حتى يتسنى له التوصل الى معنى ما . فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس .

توضيحا لذلك، إليك المثل الآتي :

أ : أين سمير؟

ب : هناك « فيات » حمراء أمام بيت سعاد.

فجواب (ب)، إذا أخذ حرفياً، لا يفي بسؤال (أ) . فهو يبدو، على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية والاضافة . لكن مع ذلك، لا نعتبر أن (ب)، بجوابه، لا يعبر اهتماماً لما قاله (أ)، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون، بل تقديراً منا بأن هذا المبدأ مازال سارياً، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان الفيات الحمراء . فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميراً يملك فيات حمراء، اقتضى الجواب أن سمير هو في بيت سعاد.

إن أهمية القواعد والحكم المذكورة بالنسبة إلى اللغة تعود إلى أنها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارة التي يُلفظ بها . ولذلك يُخصّس غرايس هذه الاستدلالات باسم « الاقتضاء التخاطبي » Conversational implicature ، تمييزاً لها عن اللزوم أو الاستلزام المنطقي entailment, logical implication ، أو أيضاً الاستنتاج المنطقي logical consequence ، الذي ينحصر بالاستدلالات المبينة على المضمون الدلالي فقط . فالأقتضاء يعتمد، بالإضافة إلى المضمون، على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساساً على التعاون .

هذا الاقتضاء التخاطبي يجري بطريقتين مختلفتين على الأقل، وذلك طبقاً للموقف الذي يتخذه المتكلم من القواعد . فقد يراعي المتكلم القواعد والحكم بشكل صريح إلى حد ما ، تاركاً للمخاطب مهمة توسيع وتظهر ما قيل بالجهود إلى استدلالات مباشرة انطلاقاً من مراعاة المتكلم للقواعد . ففي الاستخبار الآتي :

أ : نقد البنزين من سيارتي !

ب : هناك محطة عند زاوية الشارع .

لا بد للسائل أن يستدل من جواب (ب) أن هذا يعلم أن المحطة مفتوحة وأن فيها بنزيناً، وإلا لما كان متعاوناً . هذا النوع من الاقتضاء التخاطبي الذي يقوم على مراعاة القواعد، نريد أن نطلق عليه مع لفنسن Levinson اسم « الاقتضاء المتعارف » أو « النموذجي » standard implicature .

أما الاقتضاء على الطريقة الأخرى، فيحصل عندما يُخل المتكلم، عن قصد وعلائية، بحكم التخاطب وقواعده، أو كما يعبر عن ذلك غرايس عندما يستخف Flout المتكلم بهذه القواعد . فعندما يعلن مثلاً أحد الأشخاص أمام حضور نسائي أن :

فلانا مات بذلك المرض

أو أن :

فلانا أجريت له عملية في أحد المواضع .

خارقاً بذلك قاعدة الجهة التي تفرض الوضوح، فمن الواضح أن كلامه يقتضي أنه يتجنب خدش مشاعر الآخرين .

نظراً لأهمية كل من الاقتضاء المتعارف والاقتضاء الذي ينجم عن خرق القواعد، ينبغي لنا أن نعرض بالتفصيل أمثلة على كل منها وذلك وفق علاقاتها بالقواعد .

الاقضاء النخاطبي المتعارف

الكيفية

إذا قلت مثلا:

الجامعة مغلقة

فقولني يقتضي أنني اعتقد ذلك، بحكم قواعد الكيفية، هذا ما نشير إليه بالرمز «+» على النحو الآتي:

الجامعة مغلقة «+» أنا أعتقد أنها مغلقة وعندي دليل واضح على ذلك.

إن الاقضاء المذكور هو الذي يعطي تفسيراً لما يسمى بإشكال مور Moore's Paradox، أي للتلفظ الذي يجمع بين الإثبات وعدم الاعتقاد كادعائي بأن:

الجامعة مغلقة ولكني لا أعتقد ذلك.

إذ، من الواضح، أن أمثال هذه العبارة غير مقبولة في التداول فهي تحتل نوعاً من التناقض. لكن تناقضها ليس من النوع المنطقي، لأن كون الجامعة مغلقة وكوني لا أعتقد ذلك لا يتناقضان، بل قد يتفقان. بينما إذا استلزمنا منطقياً، استناداً إلى التعريف أو قاعدة المحمولات، من القول «الجامعة مغلقة» أن «الجامعة غير مفتوحة» وركبنا من هذين القولين عبارة شبيهة بالسابقة، أي عبارة تجمع بين المألوم وسلب اللازم، كان قولنا:

الجامعة مغلقة ومفتوحة

مستحيلًا منطقياً. إذ كون الجامعة مغلقة وكونها مفتوحة هما حدثان لا يمكن أن يجتمعا البتة^(٧).

هذا النوع من الاقضاء التداولي، الذي يصح على الجمل الخبرية، ينطبق أيضاً على الجمل الانشائية كالوعد والامر والاستفهام. يكفي لذلك أن نعمم قواعد الكيفية المقصورة على الصدق بالنسبة للجمل الخبرية، بحيث أنها تتطلب الصراحة في كل أنواع الجمل. فعندها يقتضي السؤال مثلا:

هل عندك سيارة؟

جهل السائل لذلك، ووجود الرغبة في معرفة الأمر. إذن:

هل عندك سيارة؟ «+» أنا لا أعرف ذلك وأريد معرفته.

الكمية

مجازة هذه المقولة تقدم بعضاً من أهم نواحي الاقضاء المتعارف standard لنفترض أن أحداً قال:

لأحمد خمسة عشر ولداً

فذلك يقتضي أن لأحمد خمسة عشر ولداً فحسب، بالرغم من أنه لا يتناقض مع حقيقة هذا القول أن يكون عدد أولاد أحمد عشرين. لكن اقضاء القول لكون أحمد عنده فقط خمسة عشر ولداً، يعود إلى أنه لو كان لأحمد عشرين

(٧) علاوة على ذلك، ثمة فرق آخر بين الاقضاء الذي نحن بصدده واللازم المنطقي - وهو أن اللازم المنطقي ينجم عما هو مقول، بينما ينجم المقضى التداولي من فعل القول ذاته.

ولذا لكان على المتكلم بمُحكم قاعدة الكمية التي تفرض الإخبار بقدر ما هو مطلوب، أن يقول ذلك. فيما أنه لم يفعل، كان بالتالي يريد إبلاغ المستمع أن لأحمد فقط خمسة عشر ولدا.

مثل آخر: عندما يصرح المتكلم بأن:

الْعَلَمُ أَحْمَرُ

فبما أنه لم يُصِف نوعاً أخرى تخبر عن الألوان التي يمكن أن يحتويها العلم، كأن يقول مثلاً « العلم أحمر وأزرق وأبيض »، يقتضي قوله أن يكون « كل الْعَلَمُ أحمر » أو « العلم فقط أحمر ».

كذلك إذا قرع سمعنا هذا الحوار :

أ : كيف كانت مباراة الفريق الوطني أمس في كرة القدم ؟

ب : لقد سجّل الفريق إصابات رائعة.

وعلمنا فيما بعد أن الفريق الوطني قد خسر مع ذلك المباراة، فسوف نعتبر أن جواب (ب) كان يدفع الى التضليل، إذ أن (ب) لم يقدم كل المعلومات التي تتطلبها ظروف السؤال.

من هذه الأمثلة يتضح أن القاعدة الفرعية الأولى من مقولة الكمية التي توصي بإعطاء المعلومات التامة التي تتطلبها الحال، هي القاعدة الأساسية التي يُعتمد عليها لمثل هذا النوع من الاقتضاء. فبتطبيق القاعدة، يرتبط التلفظ utterance عادة باقتضاء تداولي يجعل من الحكم المقصود أقوى الاحكام التي يمكن إطلاقها في الظرف الحالي وأكثرها إفادة.

الإضافة

إلى هذه المقولة يعود الفضل في تقديم أوسع لائحة من المقترنيات. بل إن البعض يذهب إلى أن مقولة الإضافة هي عامة لدرجة أنها تستوعب سائر المقولات. من قبيل المقترنيات المتعلقة بالاضافة، اقتضاء الأوامر الصادرة من أجل تعاون رامن، وفوري. وعليه :

ناول الملح !

+ < ناول الملح الآن !

إن قاعدة الإضافة هي التي تتيح، أكثر من أية قاعدة أخرى، الإيجاز في التخاطب والتخلى عن ذكر أمور مفروغ منها. فعندما يشير عابر سبيل لسائق نغد البنزين من سيارته، إلى أن :

هنالك محطة عند زاوية الشارع

من الواضح أن قوله يقتضى أن تكون المحطة مفتوحة وأن يوجد فيها بنزين. وأحياناً ما يكون الاقتضاء على درجة أكبر من الحيف مما يستوجب بعض التفكير. ففي الحوار :

أ : يبدو أن سميرا منقطع عن النساء هذه الأيام .

ب : لكنه كثيرا ما يتردد إلى العاصمة .

لا بد ، حتى يتم لنا فهم استدراك (ب) ، أن نفترض وجود تناسب ما بين رد (ب) وملاحظة (أ) . لكن ذلك لا يستقيم لنا إلا عند تقدير عدة معلومات مشتركة بين (أ) و (ب) . منها مثلا أن سميرا نادرا ما يأتي إلى العاصمة ، وأنه يسكن في منطقة لا تتيح له الاختلاط بالنساء ، وأن لا داعٍ يجعله يتردد الآن إلى العاصمة سوى حاجته إلى الجنس اللطيف . إلى ما هنالك .

لا شك أن مثل هذه التقديرات هي التي تسد الثغرات التي تظهر أحيانا بين ردود المتخاطبين ، وتبرر بالتالي وجود القاعدة التي تعتمد عليها ، أعني قاعدة الإضافة .

الجهة

أخيرا ، ثمة أنواع أخرى من الاقتضاء تحصل عن مراعاة قاعدة الجهة . هكذا مثلا : إذا لجأ المتكلم إلى الإطناب وقال للمستمع :

أدر مقبض الباب باتجاه عقارب الساعة حتى نهاية الحركة ، ثم اجذبه برفق نحوك .

فطلب المستمع ، في سياق ما ، يقتضي ، وفقا للقاعدة الفرعية الثالثة التي تنص على الإيجاز ، ان يكون المخاطب جاهلا بتفاصيل فتح الباب المذكور وأن يكون المستمع راغبا في عدم إحداث تشويش .

من بين قواعد الجهة ، قد تكون القاعدة الفرعية الرابعة ، التي تتوخى مراعاة الترتيب ، هي الأهم . ففي مثل العبارات الآتية :

١ - وصلت الطائرة ونزل الركاب .

٢ - صرخ بصوت عظيم ومات .

٣ - ذهب فوزى إلى الدكان واشترى قنينة عصير .

٤ - أمطرت السماء وارتوى العشب .

تقتضى الواو ، بسبب قرائن خارجية متنوعة ، الترتيب الزمني . وهذا ما يفسر غرابة العبارات المذكورة إذا ما قلبنا المتعاطفين وقلنا :

١ - نزل الركاب ووصلت الطائرة .

٢ - مات وصرخ بصوت عظيم .

٣ - اشترى فوزى قنينة عصير وذهب إلى الدكان .

٤ - ارتوى العشب وأمطرت السماء .

بيننا ذلك لا يضير في عبارات أخرى حيث الواو مستعملة بالمعنى المطلق . فقولنا :

بيروت عاصمة لبنان ودمشق عاصمة سوريا

لا يختلف بتاتا عن قولنا :

دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان .

من هذا التفسير بواسطة الاقتضاء ، يتبين لنا كيف أنه يمكن التخلص من الاحراج الناجم عن إسناد أكثر من معنى معجمي لحرف الواو . فلسنا بحاجة إلى ادعاء وجود لفظتي «و» أو أكثر : واحدة تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ، وأخرى تدل ، بالإضافة إلى ذلك ، على الترتيب الزمني . إذ أن الترتيب الزمني ، وغيره من المفاهيم الإضافية ، ليست سوى مقتضيات تنجم عن القرائن الخارجة عند مراعاة القاعدة الفرائعية الرابعة لمقولة الجهة .^(٨)

الاقتضاء التخاطبي الحاصل عن خرق القواعد

النوع الثاني من الاقتضاء يحصل عند خرق إحدى القواعد بشكل صريح وسافر ، أو كما يعبر عن ذلك غرايس ، عند الاستخفاف Flouting بالقواعد أو استغلالها exploitation . هذا بالطبع مع احترام مبدأ التعاون العام ، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال موافق للحكم والقواعد ، احتاج المستمع على الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون ، حتى يتوصل عبر استدلالات متتابعة إلى المفتضى الذي يقصد المتكلم بإبلاغه . أما البُنية من هذا الخرق فهي توليد الصور البيانية .

إليك عرضاً مسهباً للصور التي تنجم عن خرق قواعد التخاطب :

الكمية

١ - خرق القاعدة الأولى .

إذا سئل أستاذ فلسفة عن رأيه بأحد طلابه في هذه المادة واكتفى بالجواب بأن « الطالب لا يتوانى عن متابعة المحاضرات ، وهو يجيد تماماً اللغة الانكليزية » ، فهو يكون بذلك قد أخلّ بالقاعدة الأولى لمقولة الكمية لأنه لم يقدم المعلومات اللازمة . وبما أن الإخلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الاستاذ ، إذ من أدرى منه بمقدرة تلميذه ، فالفترض إذن أنه تجنب التصريح بالأفادة المطلوبة خوفاً من الاحراج . أما داعى الإخراج في هذا السياق فلا يمكن أن يكون سوى اعتقاده بأن الطالب فاشل في الفلسفة . لا ريب أنه كان بمستطاع الاستاذ أن يرفض اللعبة ويمتنع بالتالي عن الإجابة ، لكن بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون . إذن ، بالرد قصّد الاستاذ أن يُبلغ مراده للمخاطب بشكل غير صريح ، متوسلاً طريقة بيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح .

(٨) هذه النظرة الثنائية الحديثة تطابق موقف قدماء النحاة العرب . فعند هؤلاء إن الواو لا تليد سوى مطلق الاشتراك والجمع ، أي أنها بعدد ذاتها لا تدل على أكثر من التشريك في المعنى العام . فإن أضافت غير ذلك من ترتيب زمني ، وصاحبة وتعقيب أو مهلة ، ونسبة أو ظرف . الخ . . . فذلك يكون بمقتضى القرائن الخارجة .

من باب العبارات التي تُخلُّ بالقاعدة الأولى ، يمكن اعتبار كحد أقصى الهيئيات tautology البينة ، كقولنا
مثلا :

الحرب هي الحرب !
إما أن تنجيء سعداء أو لا تنجيء !
إن فعل الأمر فقد فعله !
فؤاد فيه ما فيه !

فهذه العبارات لا تُبلغ ، على صعيد المقول أو المنطوق ، شيئا على الإطلاق . ولا فرق بين بعضها البعض من حيث
شروط الصدق ، إذ أنها كلها تعود إلى صور منطقية صحيحة هي على التوالي :

س (حـ) سـ (سـ) ... حـ سـ (سـ)
ب ب
ب ب
ب ب
في (سـ) في (سـ ، فؤاد) ، فؤاد

لنحـ مع ذلك ، فالتلفظ بمثل هذه الأقوال يحمل ، بمقتضى التداول ، مدلولات أخرى مختلفة عن المنطوق . إذ
أنه لما كانت الهيئيات قاصرة عن إفادة المرام ، كان لا بد للمستمع ، إذا صح تقديره أن المخاطب راغب في التعاون
معه ، أن يصل إلى اقتضاء مفيد . ففي حال قول « الحرب هي الحرب ! » ، قد يكون المقتضى مثلا أن من طبيعة
الحرب جلب الهول والدمار والتهجير ، إلى ما هنالك . وفي العبارة الثانية ، أي « إما أن تنجيء سعداء أو لا
تنجيء ! » ، فقد يفهم المستمع في سياق ما أن المراد هو : هائىء روعك فالاضطراب لا يؤدي إلا إلى مضرتك في كلا
الاحتمالين . في الثالثة ، فالفجوى الذي يقتضيه الكلام هو أن الأمر لا يعيننا والشخص المقصود هو الذي يتحمل
مسئوليته . وأما أخيرا قولنا « فؤاد فيه ما فيه » فهو دليل على ما في هذا الفؤاد من هموم ومعاناة . من الواضح أن أمثال
هذه العبارات تستعمل عادة إما للتخلص من موقع حرج أو لاختتام الكلام . لذلك يتعلق إدراك تفاصيل مقتضياتها
بسياق ومقام التلفظ .

٢ - خرق القاعدة الثانية للكمية أي « لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب » .

إذا أراد شخص مجرد الاستفسار عن صحة خبر ما ، ولم يكتفِ المجيب بالتصديق على الخبر ، بل راح يتكلف
الإدلاء برأى وراء الآخر لا يترك شاردة ولا واردة ، مُصرا على صحة كلامه بشكل لا يقبل النقض ، فمن المتوقع أن
يلفت مثل هذا الهذر ، إن كان مقصودا ، انتباه السامع إلى أن المجيب يلجأ بذلك إلى أنه غير مؤمن من صحة
الخبر .

الكيفية

إن الاخلال بقواعد وحكم مقولة الكيفية يؤفر لنا أكثر أنواع الصور البينية .

١ - خرق القاعدة الأولى أي « لا تُقَلَّ ما تعتقد أنه كاذب » .

١ ، ١ . التهكم : شخص ما ، بعد أن يُلَغَّه أن أحد الأصحاب سَرَبَ بعض أسرارهِ إلى أحد منافسيهِ في العمل ، يعلن ، أمام حضورٍ على علمٍ بذلك : « فلان هو من الأصدقاء الذين يمكن الوثوق بهم » . لا ريب أن كذب هذا التصريح ظاهر لأي مستمع ، لأن ما صرح به الشخص المذكور لا يطابق ما يفكر به . فإذا افترض المستمع أن المتكلم لم يرفض مع ذلك التعاون في الحديث بل أراد أن يوصل أمراً ما ، فلا بد له أن يبحث عن قضية لها علاقة بما قيل . والأرجح أن القضية المقصودة هي ، في هذا السياق ، نقض ما صرح به المتكلم .

٢ ، ١ . الاستعارة : اقتضاء المعنى المستعار له يجرى في أغلب الأحيان بطريقة مشابهة لفهم التهكم . فالمنطوق الحرفي للاستعارات مولغوسا قاط . هكذا مثلاً ، هتاف المقيم لعشيقته :

أنت القمر

لا يمكن أن يعني به أنها ذلك الجرم الذي يدور حول الأرض ، بل إنه يريد أن يصفها بأمر له علاقة ما بالقمر . وبما أن الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون النقيض ، فعلى الأرجح أنه يريد أن يُسند إليها صفة شبيهة بتلك للقمر ، كالبياض والحسن الخ . . .

بالنسبة إلى نفس الاستعارة ، قد يختلف المعنى المستعار له وفقاً للظروف والأحوال . فالعبارة :

رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر من فولاذ

تعني ، لدى المعجبين بتاتشر ، فضائل الحزم والقدره . أما إذا قيلت من أحد الخصوم الذين يريدون الخط من سمعة تاتشر ، فإنها تدل على رذائل الخشونة وعدم المرونة وفقدان الأنوثة ، بالرغم من أن كل هذه الصفات تشترك في القوة .

من الممكن ، كما يشير إلى ذلك غرايس ، جمع الاستعارة مع التهكم ، بحيث يترتب على ذلك مستويات من الاقتضاء . مثلاً ، إن قال أحدهم عن امرأة قبيحة :

أطل القمر

فالانتقال يكون أولاً من القمر إلى الحسناء ، ومن ثم إلى نقيضها أي إلى المرأة القبيحة . هذا النوع من التراكيب البيانية المتعددة لا يقتصر فقط على الاستعارة والتهكم ، بل يشمل سائر الصور كما سنفصل ذلك في بحث مستقل .

٣ ، ١ التعريض أو التلويح : ثمة إخلال لقاعدة الكيفية يقع حين ألتلفظ بخطأ صارخ كما في هذا الحوار :

أ - اليس بيروت في ليبيا ؟

ب - وكذلك دمشق في أرمينيا .

حيث (ب) ، برده الظاهر الكذب ، يلوح إلى خطأ (أ) .

٤ ، ١ التفریط litote : ومثاله إن يقال عن رجل حطم كل شيء بأنه « شرب قليلاً » أو « تناول كأساً » .

٥ ، ١ الإفراط أو المبالغة hyperbole : كل فتاة تحلم بضابط .

الإضافة

من الصعب إيجاد أمثلة يحصل فيها الاقتضاء عن حرق حقيقي لقواعد هذه المقولة . إذ أنه من النادر إعطاء جواب لا يمكن إلاّ اعتباره غير ملائم بالنسبة إلى سياق ما . ففي الحوار التالي :

ج : ألا تعتقد يا صاحبي ان فلانة عجوز قحباء !

ج : (باضطراب) الطقس جميل جدا اليوم . أليس كذلك ؟

يمكن تفسير الجواب ، على أنه إنكار لاقتراح (أ) ويلمح له بأنه ارتكب هفوة أو زلة لسان . ولكن ، في ظرف آخر ، قد يقتضى الجواب أيضا لفت نظر (أ) مثلا الى وجود ابن أخ فلانة بالقرب منه .

مثل آخر حيث الاقتضاء هو شبه مألوف :

الابن : لنذهب إلى السينما يا أبي !

الاب : ماذا عن الفروض المدرسية ؟

حيث الأب يريد أن يذكر ابنه بأنه ليس حرا بعد للذهاب إلى السينما .

الجهة

يمكن إيجاد أمثلة على الإخلال بالوضوح بالنسبة لكل قاعدة فرعية من هذه المقولة .

١ - الالتباس : يعني غرايس هنا الالتباس القصدى الذي يريد المتكلم أن يُبلّغه إلى السامع على أنه كذلك . وهذا يقع حينما تحتل العبارة معنيين أو أكثر ، دون أن توجد قرينة تمنع من ذلك . أما المعاني المرادة ، فقد تكون كلها حقيقية على سبيل الاشتراك في اللفظ ، أو بعضها حقيقيا وبعضها مجازيا ، أو كلها مجازية . من الالتباس المبني على الاشتراك قول (٥) أحد العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل ، ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي :

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وفارقته إذ أعوزتك المأكّل
وما اخترت رأي الشافعي تديننا ولكننا بهوى الذي منه حاصل
وعسا قليل أنت لاشك صائر إلى مالك ، فافطن لما أنا قائل .

فما لك ههنا يصلح ان يكون مالك بن انس صاحب المذهب ، ويصلح ان يكون مالكا خازن النار .

ومن باب الاشتراك في اللفظ هذا السؤال الطريف من مقامات الحريري « أيحل للصائم أن يأكل نهارا » ، إذ ان النهار اسم مشترك بين « ضد الليل » و « فرخ الجبارى » .

(٥) رابع : ابن الاثير ، المثل السائر ، القسم الثالث ، صص ٧٧ - ٧٨ .

في بعض الالتباسات ، قد يرجع معنى على آخر ولو كان بعيدا . من أمثلة ذلك ما يحكيه غرايس عن الجنرال البريطاني الذي بحث عند احتلاله مدينة السند Sind رسالة يقول فيها باللاتينية « Pccavi » . فترجمة هذه الكلمة تعنى حرفيا بالانكليزية I have sinned أي أنا أخطأت . لكن من حيث اللفظ ، واضح أن الترجمة الانكليزية مجانسة للعبارة I have Sind ، ألتى تعني « أنا أملك السند » . بالطبع ، لا تحتمل الرسالة بحد ذاتها أي لبس . انها ، لما كانت اللغة المكتوبة بها غريبة عن المرسل والمتلقى ، كان لا بد من الترجمة . ولا شك أنه عند التلطف بالترجمة يظهر الالتباس . فالمعنى الحقيقي للعبارة اللاتينية محتمل ، إذ قد يكون الجنرال البريطاني ، مثلا ، خالف الأوامر ليحتل السند . لكن معنى اللفظ المجانس هو المقصود على الأرجح .

٢ - الغموض . ما يدفع المتكلم للإخلال بالوضوح هو أنه ، يريد حين إبلاغ المخاطب أمرا ما ، إخفاء ذلك الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين ، تفاديا لالتزام أو إخراج أو جرح شعور . هكذا مثلا إذا أحب رجل أن يدعوا أمراته إلى المسرح دون إشعار أولاده المتواجدين حولها بذلك فقد يتوجه إليها بالقول : ما رأيك بلميم سين راء حاء ؟ كذلك مثلا ، إذا أراد رجل استعمال عبارات تتضمن كلمات نابية وبذيئة ، أمام حضور نسائي ، فقد يكتفي بالإلماح أو بكلمات مجزوءة . كقولهم فقط « المنحوس منحوس »^(١٠) دون أن يكمل .

٣ - التطويل والإطناب . لنفترض ورود المقطع الآتي في مقال ناقد موسيقى :

أصدرت السيدة فلانة سلسلة من الأصوات تشبه أغنية « أنت عمري »

بدلا من قوله : غنت السيدة فلانة أغنية « أنت عمري »

فلا شك أن التطويل المقصود يقتضى ان إداء المرأة كان بعيدا كل البعد عن مفهوم الغناء الحقيقي .

خصائص الاقتضاء التخاطبي

لتعيين الاقتضاء التخاطبي ، لا يكفي الاعتداد على الحدس والحزر ، بل لا بد للمخاطب أولا أن يأخذ بعين الاعتبار المعطيات الآتية :

- I المدلول الحقيقي للألفاظ المستعملة .
- II مبدأ التعاون والقواعد المتدرجة تحته .
- III سياق العبارة اللفظي والحالي .
- IV المعلومات الخلفية السابقة .
- V كون المعطيات I - V مشتركة بينه وبين المتكلم .

(١٠) بكلمة التل من : ولو علقنا على فناء قاتوس

ومن ثم عليه أن يتبع الطريقة العامة الآتية حتى يتوصل إلى المقتضى المطلوب :

- I قال المتكلم إنَّ : ب
- II لا داعي للتفكير بأن المتكلم لا يراعى القواعد ، أو على الأقل مبدأ التعاون .
- III لكي يقول المتكلم إنَّ ب ، ويراعى حقا القواعد ومبدأ التعاون لا بد له أن يفكر بـ ج .
- IV على المتكلم ، إن صح أنه متعاون ، أن يعرف أن ثمة معرفة مشتركة^(١١) بيني وبينه بأنه لا بد من افتراض ج .
- V لم يقم المتكلم بأي عمل يمنعني من التفكير بأن ج .
- VI فالتكلم إذن يريدني أن أفكر بأن ج ، وأنه ، عند قوله ب ، أراد اقتضاء ج .

من الطريقة التي يجري بها الاقتضاء ، يمكن تبيان الخصائص الأساسية التي تتمتع بها هذه العملية .
غرايس يستخلص الميزات الآتية :

١ - قابلية النسخ cancellability ، أو قابلية الإلغاء defeasibility .

إن قابلية النسخ هي من المفاهيم الحاسمة في علم التداول ، إذ أن معظم أنواع الاقتضاء تتمتع بهذه الخاصية . فالأقتضاء القابل للنسخ هو الذي يمكن إبطاله بإضافة مقدمة أو أكثر إلى المقدمات الأصلية . وهو بذلك يشبه الاستقراء ويخالف الاستنباط واللزوم المنطقي . ففي الحجج المنطقية يستحيل إلغاء الاستنتاج في أي حال من الأحوال . مثلا ، في القياس الآتي :

كل إنسان حيوان

كل حيوان فان

كل إنسان فان

تلزم النتيجة بالضرورة ، مهما زدنا على المقدمات من قضايا صادقة أو كاذبة حتى لو كانت هذه القضايا مناقضة للنتيجة . أما في الاستقراء ، فكما هو معروف قد تُبطل قضية جديدة النتيجة السابقة . مثلا ، من سبق له أن استدل من مشاهدة ألف خروف وملاحظة أن كل واحد منها أبيض أن كل الخراف أبيض ، ثم وقع بصره على خروف أسود ، فلا بد له أن يتخلل عن استنتاجه السابق ، إذ أن المقدمة المستجدة تجعل النتيجة السابقة غير صحيحة . فالقياس الآتي :

(١١) بالمرة المشتركة بين التكلم والمخاطب لوجه ، لدى كل وجه التدقيق أن : المتكلم يعرف ج ، والمخاطب يعرف ج ، والمتكلم يعرف أن المخاطب يعرف ج ، والمخاطب يعرف أن المتكلم يعرف ج . . . إلى مالا نهاية له .

شاهدت ألف خروف
كل واحد من الألف خروف هو أبيض
الخروف الواحد بعد الألف هو أسود
كل الخراف بيض
هو بالطبع عقيم .

كذلك حال الاقتضاء ، إذ ليس من العسير إبطال مفعوله ، لتعتبر هذا الاقتضاء المباشر بالنسبة لمقولة الكمية :

لأحمد ثلاثة مؤلفات
+ < لأحمد ثلاثة مؤلفات فحسب .

فإنه يكفي لإبطال المقضى ، إضافة جملة اعتراضية من النوع الآتي :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، إن لم يكن أكثر .

بل إنه يمكن إنكار الاقتضاء بشكل صريح دون الوقوع في التناقض ، فيقال مثلا :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، بل عشرة
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، وربما أكثر .

علامة على ذلك ، قد ينعدم الاقتضاء ، إذا ما اتضح من سياق التلفظ ان المقضى المحتمل لم يكن من مراد المتكلم . فلو سأل مثلا رئيس اتحاد الكتاب ، الذي يشترط على الكاتب للانتهاء إليه ان يكون له ثلاثة مؤلفات ، أحد زملاء أحمد مستفسرا :

هل لأحمد العدد المطلوب من الكتب ؟

فالجواب بأن :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

لا يقتضى بالطبع قصر عدد الكتب على ثلاثة ، كما اقتضى الأمر في المثل الأول . إذ أنه يتضح من السياق ان الاستخبار هو عن استيفاء أحمد شروط الانتهاء في التأليف وليس عن العدد المضبوط لكتبه .

بسبب ميزة قابلية النسخ هذه ، يستحيل تأدية الاقتضاء بعلاقة معينة بين المعاني الحقيقية للألفاظ على غرار اللزوم المنطقي .^(١٧)

(١٧) لراى غلاف ، راجع : Lakoff, G., 1975

٢ - عدم الانفكاك non-detachability .

بعدم الانفكاك يقصد غرايس ان الاقتضاء يتعلق بالمضمون الدلالي لما هو مقول ، وليس بالصورة اللغوية . وبالتالي ، يستحيل انفكاك المقتضيات عن التلفظ Utterance بمجرد إبدال الألفاظ بمرادفات لها . هذه الخاصية تعود إلى كل اقتضاءات التخاطب ، باستثناء الاقتضاءات التي تنجم عن قواعد الجهة modality ، لكون الاقتضاءات الأخيرة ترتبط بصورة التلفظ . لنأخذ مثلاً عبارة تمكينية تقتضى عكس المنطوق ، كقولنا :

زيد عبقري

حيث المقصود هو ان :

زيد أبله .

فإذا ما استعملنا مكان العبارة الأولى ، في السياق ذاته ، أية جملة من الجمل الآتية :

زيد نابغة

زيد دماغ كبير

زيد إنسان خارق

فلا شك أنها سوف تشارك العبارة السابقة في مقتضى التهكم ذاته .

عل وجه التحديد ، إن تعلق الاقتضاء بها هو مقول يقع على مستوى التمثيل الدلالي semantic representation بها في ذلك بعض خصائص الصورة المنطقية ، وهذا لا يمكن ان يحصل لا عن البنية السطحية غير المفسرة للعبارة ولا عن مجرد شروطها الصدقية .

أما عن امتناع تعلق الاقتضاء بالبنية السطحية غير المفسرة ، فلأن البنية السطحية قد تحتل عدة تفسيرات ، يتبع عن أحدها مقتضى ما ولا يتبع عن الآخر . لتتأمل في معنى العبارات الملتبسة من النوع الآتي :

لم تُصَب كل الرصاصات المهدف

فهذه تتقبل تفسيرين ، الأول يؤدى بالصيغة المنطقية :

$$\bigwedge_{\text{س}} (\text{رصاصه (س)} \rightarrow \neg \text{أصابت (س)}) \text{ ((المهدف))}$$

أي بالقضية الكلية السالبة ومعناها :

لا رصاصة أصابت المهدف

والثاني بالصيغة :

$$A \rightarrow B \text{ (رخصة (B) } \leftarrow \text{ أصابت (A) الهدف)}$$

أي بسلب القضية الكلية ومعناها :

ليس كل الرصاصات أصابت الهدف .

فالتفسير الثاني فقط يقتضى كون : ^(١٢)

بعض الرصاصات أصابت الهدف

بينما لايجري هذا الاقتضاء على التفسير الأول .

وأما عن عدم الاكتفاء بشروط الصدق لتحسين الاقتضاء ، فلأنه غالباً ما يستحيل تقدير المقترضات انطلاقاً من هذه الشروط وحدها . هكذا مثلاً إذا اخذنا عبارتين على الصيغتين الآتيتين :

ب

ب ٨ (ب ← ب)

فلا ريب انها تشتركان بشروط الصدق ذاتها ، إذ انه كلما صدقت ب كانت ب ٨ (ب ← ب) صادقة أيضاً ، وبالعكس . لكن ، إذا قارنا بين العيشتين الآتيتين للصيغتين المذكورتين :

لقد وقع الامر

لقد وقع الامر ، وإذا ما وقع فقد وقع (أى قد وقع ما وقع)

يبدو ان الثانية فقط تختص بالاقتضاء :

لاجدوى من التحسر على ماقد حدث .

وعليه ، بعض المقترضات على الاقل ينجم عن البنية الدلالية أو المنطقية لما هو مقول وليس عن شروط الصدق بالذات . إذن ، بوجه عام ، لا يمكن اعتبار شروط الصدق لحسان المقترضات بل لابد من الرجوع إلى التمثيل الدلالي أو الصورة المنطقية للعبارات .

ان استيعاب مقترضات مختلفة لتلفظات متساوية في شروط الصدق لكنها متباينة في الصور المنطقية ، هو الذي يسمح بالتمييز بين عدة تلفظات تكاد تكون مترادفة ، وذلك بتبيان الفروق الدلالية القائمة على اختلاف في

(١٢) لاحظ انه يوجد اقتضاء تداولي ولكن لا لزوم منطقي ، إذ قد يصدق سلب القضية الكلية ويكون المقترض كاذباً .

المقتضيات ، وهو بالتالي ينتج تفسير التباين في الأسلوب ، أى في اختيار العبارات التى تتمتع بشروط الصدق نفسها .

بهذه الخاصية الموسومة بعدم الانفكاك ، يتم فصل الاقتضاء التخاطبى عن غيره من أنواع الاقتضاء التداولى كالاقتضاء العرفى والافتراض presupposition . فبالنسبة إلى الافتراض يظهر أن الاقتضاء يرتبط بالصورة اللغوية وليس بالمعنى ، إذ أن قولنا مثلا :

لم يقلح زباد في الوصول إلى القمة ،

يفترض أن :

زيادا حاول الوصول إلى القمة .

بينما قولنا :

لم يصل زباد إلى القمة

وهو قول مرادف للأول ، لا يبدو أنه يفترض ذلك .

٣ - قابلية الحساب Calculability

هذه الميزة تعنى أنه بالإمكان إقامة دليل أو حجة على أى مفتضى من المقتضيات بالطريقة التى سبق تفصيلها ، وذلك بالانتقال من المعنى الحرفى للتلفظ إلى المفتضى المطلوب ، إستنادا إلى مبدأ التعاون والقواعد .

٤ - اللاعرفية non - Conventional

أخيرا ، يتميز الاقتضاء التخاطبى بكونه لاعرفيا ، أى بكونه لايشكل جزءا من المعنى العرفى للألفاظ . إذ أن الوصول إلى المفتضى لا يتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفى ، وكذلك من بعد اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب . وبما يؤكد لاعرفية الاقتضاء هو أن التلفظ قد يصدق بيننا يكون المفتضى كاذبا ، وبالعكس فقول المتكلم :

ضرب عادل زيدا

يقضى وفقا لقاعدة الكمية ان :

عادل لم يقتل زيدا بضربه

والأ يكون المتكلم قد رفض التعاون وذلك بإعطاء معلومات غير وافية بالمطلوب . مع ذلك ، لا يمنع ان يتلفظ المتكلم بالجملة المذكورة في مقام تصديق فيه ويكذب مقتضاها ، وذلك بغية تضليل المخاطب . أما العكس ، أى أن يكذب التلفظ ويصدق المقتضى ، فيحصل في المجازات الكنائية ، كقولنا مثلاً :

يجلس الأسد على عرش الغابة

الذى هو دون شك كاذب ، بينما مقتضاه وهو كون الأسد يسود على الغابة صادق .

وأيضاً مما يثبت لاعرفية الاقتضاء هو أن عبارة ما ذات معنى واحد قد تستتبع مقتضيات تختلف باختلاف المواقف والمقامات . بل إنه في مقام معين يستحيل أحياناً تحديد مجموعة المقتضيات التى تصدر عن تلك العبارة . فالقول :

عادل آلة

قد يقصد به أن عادلاً بارد ، أو انه لايتوقف عن العمل ، أو أنه لايتصرف في الأمور الخ . .

انواع الاقتضاء

في تناولنا للاقتضاء التخاطبى ، تطرقنا إلى تقسيم هذا الاقتضاء إلى نوعين : اقتضاء خصصناه باسم «المتعارف» أو «النموذجي» standard وهو الاقتضاء الناجم عند مراعاة المتكلم للقواعد والحكم ، واقتضاء أكثر تعقيداً يحصل في حال استخفاف Flouting المتكلم بالقواعد المذكورة .

لكن يمكن ، من منظور آخر ، تفريع الاقتضاء التخاطبى ، كما فعل غرايس ، إلى قسمين مختلفين هما : الاقتضاء العام generalized ، وهو الذى يحصل دون أن يوجد بالضرورة سياق حالي معين ، واقتضاء خاص يتطلب وجود مثل هذا السياق : مثال الاقتضاء الخاص الاستدلال من القول :

تبدو القطة في غاية الانشراح

على أن :

القطة أكلت الجبنة .

لأن هذا الاقتضاء لايجوز إلا إذا وردت العبارة الأولى في مجرى حديث معين كالاتى :

- أين اختفت قطعة الجبنة ؟

- تبدو القطة في غاية الانشراح .

وكذلك اقتضاؤنا لـ :

سمير هو السارق

من الخبر أن :

سمير اشترى شقة .

لا يصبح إلا استنادا لمعرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة ، كحصول سرقة بنك ، وعدم تواجد سмир في هذه الفترة ،
وكون سмир معدوم الحال الخ . . ومن شواهد الاقتضاء العام اقتضاء الاسم النكرة أن لا يمت مسماه بصفة قريبة إلى
المتكلم . فقولنا مثلا :

دخلت بيتا واسعا

يقتضى أن

البيت ليس لى .

إذا ما قارنا بين تفريع الاقتضاء التخاطبى السابق إلى اقتضاء متعارف يراعى الحكم واقتضاء مجازي يستغلها ،
وبين التفريع الثنائى الجديد إلى اقتضاء عام واقتضاء خاص ، نجد أنها يتقاطعان بدرجات متفاوتة من التوزيع :

اقتضاء مجازى	اقتضاء متعارف	
		اقتضاء عام
		اقتضاء خاص

فمعظم التلغظات utterance التى تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص . هكذا مثلا لا يمكن تفسير التهكم
دون الرجوع إلى مزاعم وافتراسات assumption خلفية . بينما يبدو أن ثمة استعارات كقولنا :

الهلل منجل

وهيهات مثل :

فؤاد فيه مافيه

الحرب هى الحرب

تفيد المطلوب بشكل مستقل نسبيا عن السياق .

بين أصناف المقترضات التخاطبية المذكورة ، تكتسب المقترضات العامة أهمية خاصة بالنسبة للنظرية اللسانية . ذلك انه من العسير تمييز هذه المقترضات عن المضمون الدلالي semantical للألفاظ ، فافتراضها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات العادية .

من قبيل هذا الصنف المقترضات المنوطة بمقولة الكمية ، والتي تحصل بين العبارات التي تتدرج على نحو سلمي scalar من الاكثر إلى الأقل بحيث ان السابق يستلزم اللاحق . ففي هذه الحال يقتضى الأقل سلب الأكثر . فمثلا بالنسبة للزوج المرتب بحسب الكثرة : (كل ، بعض) يقتضى إثبات البعض سلب الكل . فقول المتكلم :

بعض الاساتذة حضروا الندوة

يقتضى : لم يحضر كل الاساتذة الندوة .

والاستدلال التداولي على ذلك هو أنه :

لو كان المتكلم في حالة تسمح له بأن يثبت العبارة الأقوى ، أى ان كل الاساتذة حضروا الندوة ، لكان خالف القاعدة الأولى من قواعد الكمية حين قضي بأن بعض الاساتذة حضروا الندوة ، لكن بما أن المخاطب يفترض تعاون المتكلم معه وبالتالي عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك ، فهو يعتبر ان المتكلم يريد إبلاغه ، أنه ليس في حالة تميز له لإثبات العبارة الأقوى ، بل انه يعرف ان ذلك الاثبات غير صادق .

من أمثلة هذه المقترضات السلمية المجموعات المرتبة التالية :

< ممتاز ، جيد >

< دائما ، غالبا ، أحيانا >

< واجب ، حلال >

< بالضرورة ، بالواقع ، بالامكان >

< و ، أو >

< ١ ، ٢ ، ٣ ، ... >

حيث اللاحق يقتضى نفي السابق .

اقتصرنا حتى الآن على استعمال كلمة «اقتضاء» لما أسميناه بالاقتضاء التخاطبي . لكن الاقتضاء ، بمفهوم غرايس ، هو مصطلح عام يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التي يمكن الوقوف عليها . فالمقتضى عامة هو القسم من المعنى غير الطبيعي meaning - nn الذي يقابل المنطوق أو المقول What is said المحدد بشروط صدق العبارات .

بالإضافة إلى الاقتضاء التخاطبي ، وهو الاقتضاء الذي يركز على الحكم والقواعد التي سبق تصنيفها ، يتطرق غرايس إلى نوع من الاستدلال غير المشروط بالصدق ، مابين للاقتضاء التخاطبي ، يخصه باسم الاقتضاء

العرفي conventional implicature ، فالإقتضاء العرفي لاينجم عن مبادئ تداولية عليا كنجكم وقواعد التخاطب ، بل انه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق by convention .

من أمثلة الاقتضاء العرفي :

فلان ذكي لكنه كسول

فلفظة «لكن» لها نفس المضمون المشروط بالصدق الذى لحرف العطف «و» ، إذ أن الجملة المركبة بواسطة «لكن» تصدق في حال صدق الجملتين الفرعيتين معا وهما في مثلنا «فلان ذكي» و «فلان كسول» ، إنما بالإضافة إلى ذلك تقتضى لفظة «لكن» تنافرا بين طرفي القضية المركبة . فقولنا السابق يستدعى عرفا أن أحد المتخاطبين لم يكن يتوقع أن يكون فلان كسولا . ومن الواضح أن هذا النوع من الاقتضاء لايتعلق ، كباهو الحال مع المقتضيات غير العرفية ، بحكم أو بقواعد إضافية ، بل فقط بالمفردات نفسها .

كذلك ، من باب الاقتضاء العرفي الدلالة على المنزلة الاجتماعية المنوطة ببعض الألفاظ فعندما نقول بالإنفونية :

tu es le directeur (أنت المدير)

Vous etes le directeur (أنتم المدير)

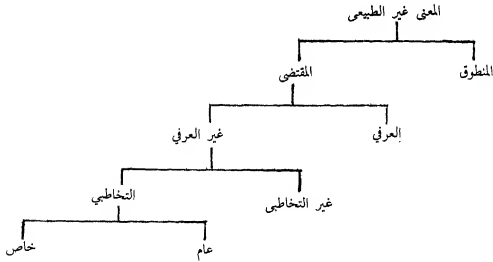
لايوجد فرق بين الضمير « Vous » (أنتم) حين استعماله لمخاطب مفرد والضمير « tu » (أنت) من حيث شروط الصدق . إنما الاختلاف بينها يرجع إلى المقتضى العرفي اللاحق بالضمير (Vous) والدال على علو منزلة المخاطب .

خلافا للاقتضاء التخاطبي ، لايتصف الاقتضاء العرفي بأى من الخصائص التى يتميز بها الأول . وبالفعل ، فالمقتضيات العرفية هى غير قابلة للنسخ non - cancellable ، إذ أنها لاتعتمد على افتراضات assumption حول طبيعة السياق يمكن إلغاؤها . وهى كذلك قابلة للانفكاك detachable لأنها لاتتعلق إلا بمفردات لفظية مخصوصة ، وهى بالتالى تزول عند ابدال المفردات بألفاظ مرادفة لها . فهكذا مثلا ، عند إحلال واو العطف محل «لكن» يبطل مقتضى التنافر بالرغم من بقاء شروط الصدق ذاتها .

وأخيرا فالمقتضيات العرفية لايمكن حساباتها Calculated بالاستعانة بقواعد تداولية ومعلومات سياقية ، لأنها حاصلة بالعرف والاتفاق . فهكذا مثلا ليس من طريقة تحولنا الاستدلال على تنافر وتعاقد بين القضيتين المعطوفتين بـ «لكن» انطلاقا من معرفة شروط صدق هذه الآداء . لذلك ، فإنه من المتوقع أن يكون مضمون المقتضيات العرفية محدودا نسبيا .

علاوة على أنواع المقتضيات التى سلف ذكرها ، توجد أنواع أخرى غير عرفية ، تنجم عن قواعد ومبادئ مختلفة . فثمة قواعد آداب principles of politeness تنتج مقتضيات معقدة جدا . وعلى العموم كل ضوابط يؤخذ بها في استعمال اللغة ، يقابلها مقتضيات تنجم إما عن اتباع هذه الضوابط أو عن استغلالها .

من هذا التشعب لأنواع المقترضيات يظهر لنا أن المضمون المشروط بالصدق لتلفظ ما ، أى المنطوق باصطلاح غرايس ، لا يشكل سوء جزء ضئيل من المعنى التام لهذا التلفظ :



المراجع

- فاخوري ، عادل ، اللسانة التوليدية والتحويلية ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- Brown, P. and Levinson, S., *Universals in language usage: Politeness. Phenomena.* in E. Goody, Questions and politeness, Cambridge, 1978.
- Ducrot, O., *Les echelles argumentatives*, paris, Minuit, 1980
- Grice, H.P. *Meaning*, philosophical Review, 67, 1957
- , *Logic and Conversation*, Harvard Univ. 1967. Halvossen. P., *the Syntax and Semantics of. Cleft Construction*, Austin: Univ of texas, 1978
- Horn, L.R., *On the Semantic Properties of the Logical Operators in English*. Indiana Univ. 1972.
- Jacques, F., *Dialogiques*, Paris, PUF, 1979
- Karttunen, L. & Peters, S. *Conventional Implicature*, 1979
- Keenan, E.O. *The Universality of conversational Implicature.* In: *language in Society*, 5, 67-80, 1976.
- Levinson, S., C. *Pragmatics*, Cambridge, 1983
- Mc Cawley. J., *Conversational Implicature and the lexicon*, 1978
- Recanati, F., *Les enonces performatifs*, Paris, minuit, 1981
- Sadock, J., M., *On Testing for Conversational Implicature*, 1978
- Schiffer, S.R., *Meaning*, Oxford, 1972
- Sperber, D., & Wilson, D. *Irony and the use*, 1981
- Wunderlich, D. *Linguistische Pragmatik*, frankfurt, 1972

أولاً : مقدمة في اللسانيات

تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في أن الأولى تقوم على مراقبة الوقائع اللغوية دون أن تفضل بعضها على حساب بعض باسم بعض المبادئ الجمالية أو التربوية، إذ أن علم اللسان يعتمد على الرؤية العلمية وليس على الرؤية الافتراضية التي كثيرا ما لجأت إليها علوم القواعد القديمة انطلاقا من معيار الخطأ والصواب. لذلك تقف الألسنية الحديثة ذات الرؤية العلمية المجردة على التقيض من علم القواعد التقليدي ذي الرؤية المعيارية الافتراضية، وهي رؤية لم تنج منها قواعد لغة من اللغات بما في ذلك علم النحو العربي- كما سيوضح لنا في سياق هذه الدراسة- على الرغم من اعترافنا بالمجهودات الهائلة التي بذلها علماء النحو والصرف العرب مما يندر لها نظير في اللغات الأخرى.

كذلك تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في نظرتها الى اللغة باعتبارها في المقام الأول أصواتا لغوية تألفت ضمن نسق معين، وهذه الصفة الصوتية للغة هي التي تحظى باهتمام الباحثين الألسنيين. أما الكتابة فهي امر طارئ على اللغة وحديث العهد نسبيا. لقد وجدت اللغة البشرية بصيغتها الصوتية منذ مئات آلاف السنين، ومازال معظم البشر حتى اليوم يتكلمون دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة، ثم إن المرء يتعلم كيف يتكلم قبل أن يتعلم كيف يقرأ، واستعمال الكتابة أمر لاحق على استعمال اللغة وليس العكس. ومن المدهش حقا أن نجد بهذا الخصوص واحدا من علماء العربية القدامى قد توصل الى هذه الحقيقة الهامة في دراسة اللغة، وهو ابو الفتح بن جني، حيث ذكر في كتاب «الخصائص»: «باب القول على اللغة وما هي: اما حدها فانها

محاولة ألسنية في الأعمال

أحمد المحم

أستاذ في جامعة تلمسان في الجزائر .

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم^(١). وقوله إنها «أصوات» يعني أنه يستبعد جانب الكتابة في دراسة اللغة، تماماً كما يفعل الدرس اللغوي الحديث. لكن هذا الاكتشاف المثير لابن جني لم يترك أثراً في الدرس اللغوي عند علماء العربية القدامى، ربما لأنه جاء متأخراً زمنياً، حيث عاش ابن جني في القرن الرابع الهجري، أي بعد أن كان علم النحو العربي قد اختط طريقه وتصلب عوده. وعلى العموم سوف نرى أن ابن جني قد توصل بمجهود فردي ذى عدد من الحقائق العلمية التي تطابق إلى حد بعيد ما يقرره الدرس اللغوي الحديث والتي خالف بها علماء عصره ومن سبقه دون أن يستطيع مع ذلك تعديل مسار الدرس اللغوي عند علماء العربية.

هناك نقطة أخرى أبرزتها اللسانيات الحديثة، وتنطلق من سابقتها، هي أن اللغة مجموعة من الدلائل. إن كل لفظة أو عبارة هي دليل لغوي، وبهذا الدليل اللغوي وجهان: وجه صوتي ويسمى الدال، ووجه قيمي هو المدلول، أي قيمة الدليل ومعناه. فإذا تغير الدال أو جزء منه استتبعت ذلك تغير في المدلول. وعلى سبيل المثال ليس الفرق بين (كَتَبَ) و (كَاتَبَ) هو فقط في الصورة الكتابية من حيث زيادة حرف الألف في الثانية، بل هو فرق صوتي قبل كل شيء أي أنه اختلاف الدال في الأولى عن الدال في الثانية. ويشتمل الدال في الأولى على ألف قصيرة (الفتحة) تل فاء الفعل، بينما يشتمل الدال في الثانية على ألف طويلة تل فاء الفعل، أي أن الفرق هو في طول المصوت الداخلي الذي يلي فاء الفعل، فهو صوت قصير في الأولى وطويل في الثانية، وهو فرق طفيف كما نرى. لكن هذا التغير الطفيف في الدال أدى إلى تغير في المدلول، إذ أن مدلول (كَتَبَ) غير مدلول (كَاتَبَ). لكن علم النحو العربي لم ينظر إلى المسألة من جانبها الصوتي ليعتبر عن الأثر الذي يحدثه تغير الدال في المدلول، بل اكتفى بمحاولة استنباط القواعد التي تضبط تغير المصوت. ولذلك نظر إليها من جانبها الكتابي فقط^(٢).

هذا الموقف الذي اتخذته علماء النحو والصرف في وضع قواعد العربية، أي الرؤية المعيارية الافتراضية والوقوع تحت تأثير خداع الكتابة، هو ما سوف يطبع الدرس اللغوي عندهم وهو الذي سوف يؤدي إلى التعقيد الذي نعرفه اليوم قواعد اللغة العربية.

ثانياً : الاعلال من منظور لساني

ولايضاح هذا الواقع اخترنا مسألة في علم الصرف ما زالت تثير حتى اليوم كثيراً من اللغطل حولها وتسبب للدارسين صعوبات جمة، وهي مسألة الاعلال. وقد سمي الاعلال كذلك نسبة إلى حروف العلة، وهي الواو والياء والألف ثم يلحقون بها الهزمة. أما أنها حروف علة فلأنها كما يقول الاستراباذي «لا تسلم ولا تصح، أي لا تبقى على حالها في كثير من المواضع عند مجاورتها لما يخالفها من الحركة والحرف، فهي كالعليل المنصرف المزاج المتغير حالاً بحال^(٣)». وأوضح من هذا التعريف أنه لا يستجيب لطبيعة اللغة، وهي طبيعة فيزيائية قبل كل شيء، فكان

(١) أبو القاسم عثمان بن جني : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار (دار الكتاب العربي بيروت (بلا تاريخ) ، ج ١ ص ٣٣

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا السامية ، انظر : التدرية مارتيني : مبادئ اللسانيات العامة - ترجمة د . أحمد الحمو (مشتورات وزارة التعليم العالي ، دمشق ١٩٨٥) ، ص - ١١ و ص ١٩ .

(٣) رضي الدين الاستراباذي : شرح الكافية . قلا عن د . عصام نور الدين : أبنية الفصل في شافية ابن الحاجب . (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٢) ، ص ٢٠٨ .

أصوات اللغة أشخاص آدميون يصيبهم الاعتلال والمرض وتعتري أمزجتهم انحرافات وتقلبات. لذلك ترفض اللسانيات الحديثة مثل هذه النظرة وتري أصوات الواو والياء والألف وكذا الحركات على أنها مصوتات بخلاف بقية أصوات اللغة كالسين والميم التي تعتبرها من الصوامت. كذلك لا تميز النظرة الحديثة بين الواو والياء والألف من جهة وبين الضمة والكسرة والفتحة من جهة أخرى إلا في طول المدة الزمنية، فتعتبر الأولى مصوتات طويلة وتعتبر الثانية مصوتات قصيرة. أما الهمزة التي أحققها النحاة العرب بحروف العلة في مسألة الاعلال فسوف نرى لاحقاً أنها لا تدخل في عداد المصوتات. بل هي من الصوامت.

وما يجدر ذكره هنا أن ابن جني قد تنبه الى الطبيعة الواحدة لكل من حروف المد (حروف العلة) والحركات، حيث ذكر في «باب مضاربة الحروف للحركات، والحركات للحروف» من كتاب الخصائص: «أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمى الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الألف الصغيرة». ثم يقرر: «فإذا ثبت أن هذه الحركات أبعاداً للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشيعت ومطلت تمت ووفت جرت مجرى الحروف»^(٤).

لكن النحاة العرب اعتبروا أن الحركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية، فعاملوها غير معاملتهم لحروف المد. وسوف نرى لاحقاً أنهم أخطأوا في ذلك مما أدى بهم الى استنباط قواعد غير دقيقة. كذلك سيوضح لنا في سياق هذا البحث أن الحركات تقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة حروف المد، فكلها من المصوتات. وقد تنبه الشيخ الرئيس ابن سينا بدوره في «رسالة أسباب حدوث الحروف» الى الطبيعة الواحدة لحروف المد والحركات، بل ذكر أيضاً نسبة الأولى الى الثانية من حيث طول المدة الزمنية في النطق، حيث قال: «ولكني أعلم يقيناً أن الألف المدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف الى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوتة الى الضمة، والياء المصوتة الى الكسرة»^(٥). وإذا كان ابن سينا لم يقرر بشكل نهائي نسبة المصوت الطويل الى المصوت القصير من حيث المدة الزمنية، فهي ضعف أم أضعاف، فإن الرأي قد استقر حالياً على أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير وأن الحركة تعادل من حيث زمنها نصف زمن حرف المد. لكن ما يلفت النظر أن ابن سينا قد استعمل مصطلح «مصوت» في وصفه لحروف المد والحركات. والحقيقة أنه استعمل أيضاً مصطلح «صامت»، مما يعني أن الأسنسية الحديثة لا تنفرد بهذا الاكتشاف، أي تقسيم أصوات اللغة الى صامت ومصوت، بل أن علماء اللغة العرب من عرف هذا التقسيم ولكن دون أن يترك أثراً في مسار علم النحو والصرف. وهكذا ميز ابن سينا بين الواو الصامته والواو المصوتة، وبين الياء الصامته والياء المصوتة. أما الألف فلا تكون إلا مصوتة. وقد وجد أن الواو الصامته قريبة من الفاء في مخرجها وأن الياء الصامته قريبة من السين والزاي^(٦). كذلك عرف ابن جني مصطلح «مصوت» واستعمله في كتاب «الخصائص»، حيث ذكر في «باب في مطلق الحروف» مايلي: «والحروف المطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة. وهي الألف والياء والواو»^(٧).

(٤) الخصائص ٣١٥/٢ - ٣١٦.

(٥) الشيخ الرئيس ابن جني الحدين بن مبداه بن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف، لتحقيق محمد حسان الطيان ويحيى علم. (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٣)، ص ٨٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٥ - ٨٣.

(٧) الخصائص، ١٢٤/٣.

ولنبداً الآن في مسألة الاعلال. يعرف علماء الصرف الاعلال بأنه «ما تتعرض له أصوات العلة من تغيريات، بحلول بعضها محل بعض، وهو ما يسمونه (الاعلال بالقلب)، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها، ويسمونه (الاعلال بال حذف)، أو بسقوط بعض عناصر صوت العلة، وهو ما يسمونه (الاعلال بالنقل أو التسين)»^(٩). فيما يلي سوف نعالج الحالة الأولى، أي الاعلال بالقلب. وسوف نستشهد على ذلك بمثال ما يسميه الصرفيون «الفعل الأجوف»، أي ماكانت عنيه (الحرف الثاني) حرف علة، مثل (قَالَ) و (بَاغ). يقول الصرفيون أن أصل (قَالَ) هو (قَوَّلَ) وأن أصل (بَاغ) هو (بَيَّغَ) وأنه لما تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، فصارت (قَوَّلَ : قَالَ) و (بَيَّغَ : بَاغ). لكن الصرفيين لما يوضحوا لنا لماذا تنقلب كل من الواو والياء إلى ألف اذا تحركتا وانفتح ما قبلها. علما بأن مخرج كل مصوت من هذه المصوتات الثلاثة - الواو والياء والألف - مختلف عن مخرج الآخر. ثم ان تغير المصوت في الدليل اللغوي يعني تغير الدال، وتغير الدال يؤدي الى تغير المدلول - كما أسلفنا - ، أي أن (قَوَّلَ) لا يمكن أن تكون (قَالَ) لما بينهما من فروق في المصوتات. والأمور الثاني - وهو الأهم - أن الصرفيين لم يخبرونا من أين جاؤوا بهذا الأصل المزعوم (قَوَّلَ) الذي بناوا عليه نظريتهم. إن لغة العرب لم تعرف هذا النوع من الألفاظ ولم ترد لها أشباه في إخوانها الساميات، علما بأن النحاة والصرفيين القدرسي لم يلتفتوا إلى اللغات السامية الأخرى، شقيقات العربية - في محاولة تعقيد اللغة العربية. وبديهي أن الألسنية الحديثة ترفض أن تبني على ما هو خارج اللغة أو ليس منها، فكيف إذا كان قائما على مجرد وهم أو افتراض. ومع ذلك لا بد للمرء أن يتساءل من أين جاء الصرفيون بهذا الأصل المزعوم، ولماذا افترضوه دون سواء. الجواب يكمن فيما يسمى عندهم «الميزان الصرفي». لقد وجدوا أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها إلى أصول ثلاثية، أي ذات ثلاثة صوامت، فوضعو وزن (فَعَلَ) ليشتقوا منه بقية الأوزان. ولذلك سمو الصامات الأولى فاء الفعل والثاني عينه والثالث لامه نسبة إلى صوامت الوزن (فَعَلَ) .

وواضح من ذلك انهم اولوا اهتمامهم للصوامت دون المصوتات التي اعتبروها معتلة لا تثبت على حال ولا يصح الركون إليها. وهكذا راحوا يزنون الافعال والاسماء من مجردة ومزيدة. ولكن عندما وصلوا إلى ما يسمى بالفعل المعتل، أي ماكان فيه حرف علة، لم يستجب الوزن الذي وضعوه لهذه الحالة، إذ ان وزن (قَالَ) لا يمكن أن يكون (فَعَلَ)، لذلك كان لا بد من الزعم والافتراض. لقد وجدوا ان الصوت الثاني في الصيغ الأخرى المشتقة من الفعل الأجوف إما أن يكون واو كما في (قال يقول قولاً)، وإما أن يكون ياء، كما في (بأع يبيع بيعاً). ومن هنا تنفتحت أذهانهم عن هذا الأصل المزعوم (قَوَّلَ) ويبيح. ولقد أكد لنا ابن جنبي توهم النحاة لذلك الأصل، حيث ذكر في الخلاص :

«هذا الموضع كثير الإيهام لاكثر من يسمعه، لاحقيقة تحته، وذلك كقولنا: الأصل في قام قوم وفي باع بيع . . . وليس الأمر كذلك، بل بضده، وذلك انه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه .

وإنما معنى قولنا : انه كان أصله كذا : انه لوجاء مجيء الصحيح ولم يُعَلَّل لوجب ان يكون مجيئه على ما

(٩) د عبدالمصبر شامون : الفصحى الصوتية للبنية العربية (مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠)، ص ١٦٧ . وانظر أيضا الشيخ أحمد الحلواني : هذا العرف في فن الصرف (القاهرة ١٩٩٩) ص ٢٨٨ و ٢٨٩

ذكرنا. فلما ان يكون استعمل وقتا من الزمان، ثم انصرف فيها بعد الى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده احد من اهل النظر^(٩).

الا ان هذا الاصل المزعوم قد أوقعهم في تعقيدات لا حصر لها، حيث واجهوا من الكلمات ما تحققت فيه شرطهم دون ان تنقلب الواو او الياء الى الف. لذلك راحوا يحصون الالفاظ ويضعون الشروط والقيود حتى بلغ عددها عشرة شروط^(١٠) مما جعل مسألة الاعلال من اعقد مسائل الصرف العربي.

وقد جرت في العصر الحاضر محاولات شتى لتبسيط مسألة الاعلال على يد دارسين عرب وأجانب ولما يلي سوف نستعرض بايجازاتهم هذه المحاولات قبل ان نعرض لرأينا في هذه المسألة محاولين وضعها في اطارها الصحيح.

رأى فريق من علماء الساميات ان الأفعال المعتلة ذات أصول ثنائية وليست ثلاثية وأن اصل (قال) هو (قَلَّ) واصل (يقول) هو (يَقُلُّ) وإنما جاءت الالف في (قال) والواو في (يقول) من اطالة الصوت الداخلي القصير - اي حركة الفاء - مما جعل هذه الأفعال تدخل في نظام الفعل الثلاثي.

والرأي الثاني الذي قال به بعض علماء الساميات لا يبتعد كثيرا عن موقف علماء الصرف العرب.

لقد رأى هذا الفريق أن الأفعال المذكورة كانت منذ البدء ثلاثية وان المصوتات الطويلة (حروف العلة) فيها جاءت نتيجة القلب أو الحذف : إن أصل (قال) هو (قَوَّلَ) وأصل (قِيلَ) هو (قَوَّلَ) وأصل (يَقُولُ)^(١١). وواضح ان كلا الفريقين قد اعتمد على الظن والتخمين وأن نظرياتهم لم تخرج عن كونها محض افتراض قد يصح وقد لا يصح، ولذلك لا يمكن الركوز الى أقوالهم مهما اظهرت من الحذق والاتساق المنطقي. أخيراً جرت محاولة ثالثة على يد الدكتور عبدالصبور شاهين جمع فيها بين الرأيين السابقين واقترب بذلك كثيرا من الحقيقة. لقد وجد أن أصل (قال) هو (قول) وإنما سقطت الواو في الأصل مما أدى الى التحام المصوتين القصيرين - الفتحة التي على الفاء والفتحة التي على الواو - في مصوت طويل واحد هو الألف باعتبار أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين، أي أن حرف المَدَّ يعادل حركتين قصيرتين. وقد مثل ذلك من خلال استعمال الحرف اللاتيني أو الكتابة الصوتية: إن (قَوَّلَ) هي qawwala ، فإذا سقطت الواو (a) اتصلت الفتحتان القصيرتان قبلها وبعدها فصارت الكلمة (قال): qalla ، وكل ما حدث هو اسقاط الواو لتخلص من ثلاثية المقطع في (قَوَّلَ) واستبدال مصوت طويل بذلك هو الألف^(١٢). لقد حاول د. شاهين في هذا التفسير أن يستفيد من بعض معطيات اللسانيات الحديثة، لاسيما ما يتعلق منها بنسبة المصوتات القصيرة الى الطويلة، الا انه وقع مع ذلك في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الصرفيون القدامى عندما انطلق من اصل مفترض غير موجود، هو (قَوَّلَ). ولقد رأينا أن هذا الأصل المزعوم لم تعرفه اللغة العربية وأن النحاة قد ابتدعوه من لدن أنفسهم لمطابقة اليزان الصرفي (قَوَّلَ) الذي كان أيضا من وضعهم^(١٣). وفي رأينا أن الحل الأمثل ينبغي أن ينطلق مما هو موجود في اللغة فعلا دون اللجوء الى افتراضات ومزاعم لا أساس لها.

(٩) الخصاص ج ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(١٠) انظر شذا العرف ص ١٦٢.

(١١) انظر هنري ليش : العربية الفصحى - تعريب الدكتور عبدالصبور شاهين. (دار المشرق ، بيروت ١٩٨٣) ، ص ٢٠١.

(١٢) انظر د. عبدالصبور شاهين. النحج الصوتي للجينة العربية ، ص ٨٢ - ٨٥ و ص ١٩٢ - ١٩٥.

وفي سبيل ذلك سوف نستعرض أولاً اسناد الفعل الأجوف الى ضيائر الرفع في الماضي والمضارع ثم نحاول استنباط القواعد التي تضبط عملية التحول التي تطرأ على هذا النوع من الأفعال :

الماضي

الشخص جنس	المتكلم	المخاطب	الغائب
أنا	مفرد قُلْتُ - تُتْ يَعُتْ - تُتْ	قُلْتَ - تْ يَعُتْ - تْ	قَالَ - بَاغْ
	مثنى	قُلْتُمَا - تُمَا يَعُتُمَا - تُمَا	قَالَ - ا بَاغْ - ا
	جمع	قُلْتُمْ - نَا يَعُتُّمْ - نَا	قَالَ - و بَاغْ - و
أنت	مفرد	قُلْتَ - تْ يَعُتْ - تْ	قَالَ - تْ بَاغْ - تْ
	مثنى	قُلْتُمَا - تُمَا يَعُتُمَا - تُمَا	قَالَ - تَا بَاغْ - تَا
	جمع	قُلْتُمْ - نَنْ يَعُتُّنْ - نَنْ	قَالَ - نْ بَاغْ - نْ

المضارع

الشخص جنس	المتكلم	المخاطب	الغائب
أنا	مفرد أَقُولُ - أَيْعُ	تَقُولُ - تَيْعُ	يَقُولُ - يَيْعُ
	مثنى	تَقُولُمَا - ان	يَقُولَان - ان
	جمع	تَقُولُونَ - نَيْعُ	يَقُولُونَ - ون
أنت	مفرد	تَقُولُ - يَنْ	تَقُولُ - تَيْعُ
	مثنى	تَقُولُمَا - ان	تَقُولَان - ان
	جمع	تَقُولُونَ - نْ	يَقُولُونَ - نْ

ان نظرة فاحصة على صيغ الفعل الماضي سوف تكشف لنا بوضوح تام أنها تشترك في الأعم الأغلب بجذر واحد هو (قُل . . qul) ، ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى صيغ الفعل الماضي عند اسناده الى الشخص الغائب، حيث يبدو أن جذره هو (قال qal) باستثناء جمع الاناث، حيث يعود الجذر الى حالته الأصلية (قُل . .) . لنلق الآن نظرة ثانية على صيغ الفعل المضارع وسوف نرى أنها تشترك جميعا بجذر واحد هو (قُول . . qul) باستثناء جمع الاناث في المخاطب والغائب، حيث أن جذرها هو جذر الماضي (قُل . .) . إذا استثنينا الآن - وبصورة مؤقتة - مسألة تصرف الفعل الماضي مع الشخص الغائب لتبين لنا أن للفعل الأجوف جذرين، واحداً للماضي هو (قُل . .) وآخر للمضارع هو (قُول . .) . وأنه لا فرق بينها إلا في طول المصوت الداخلي، فهو قصير في جذر الماضي وطويل في جذر المضارع . ثم إن هذين المصوتين من جنس واحد : حركة الضمة في جذر الماضي وحرف المد الواو في جذر المضارع . وتبعاً لذلك نستطيع أن نقرر الآن أن جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي .:

قُل - قُول
qul qal

الكلمة، بل نشأتا عن إطالة المصوت القصير في الجذر الأصلي . وسوف يتأكد لنا ذلك لاحقاً من خلال استعراض بقية المشتقات .

لنعد الآن إلى جذر الماضي مع الشخص الغائب (قال)، الذي يمتاز عن مثيله مع المتكلم والمخاطب بوجود حرف ألف في وسطه، فما هي هذه الألف ومن أين جاءت ؟

لكي نقرر في أمر هذه الألف ينبغي أن نقارن بين صيغة الماضي عند اسناد الفعل الى الشخص الغائب وبين صيغته عند اسناده الى المتكلم والمخاطب .

وهنا نلاحظ أن صيغته في الحالة الثانية تتألف من الجذر (قُل . .) مضافاً إليها لاحقة تتغير حسب الشخص والعدد والجنس . فاللاحقة (. . نا) في (قُلْنَا) مشتقة من ضمير الرفع المنفصل (نحن)، واللاحقة (. . ت) في (قُلْتَ) مشتقة من (أنت) أو أنها صيغة مختصرة من هذا الضمير . وكذلك فإن اللاحقة (. . تا) في (قُلْتَا) مشتقة من الضمير (أنتما)، واللاحقة (. . تُم) في (قُلْتُمْ) من الضمير (أنتم)، و (. . تِ) في (قُلْتِ) من الضمير (أنتِ) و (. . تَنْ) في (قُلْتُنْ) من الضمير (أنتُنْ) .

هذا يعني أن اللواحق المذكورة هي صيغ مختصرة من ضمائر الرفع المنفصلة وأنها تدل على الشخص والعدد والجنس . أما في حالة اسناد الفعل الماضي الى الشخص الغائب فإن اللواحق أمرها مختلف . وباستثناء (نَ) أي نون النسوة في (قُلْنَ) - وهي صيغة مختصرة من (هُنْ) فإن بقية اللواحق لا تدل على الشخص بل على الجنس والعدد فقط . ان (. . تا) في (قُلْتَا) تدل على التأنيث، لكنها لا تدل على الغيبة . وكذلك (. . ت) تاء التأنيث في (قُلْتَ) تدل على التأنيث والافراد ولا تدل على الشخص الغائب ولا علاقة لها بضمير الرفع (هي) مثلاً لا علاقة للاحقة (كُتِبَ) في (قُلْتَا) بضمير الرفع (هما) .

أما اللاحقة (.. و) في (قالوا) فإنها ليست أكثر من علامة لجمع الذكور سواء في الأفعال أو في الأسماء. وإذا كانت تقترب في الأسماء مع النون إلا أنها قد تفقدها في حالات معينة معروفة. ثم إنها تقترب بالنون في الفعل المضارع (يقولون).

هذا يعني أو وجود النون أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول (.. و) والتي تدل على الجنس والعدد دون الشخص. ويكفي أن نشير إلى أنها تبدل في المضارع على جمع الذكور للشخص الغائب وللشخص المخاطب، أي أنها لا تختص بشخص دون شخص بما يؤكد أنها لا تحمل دلالة على الشخص. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اللاحقة (ا.. ا) في (قالا) التي تدل على التثنية، ولذلك سماها القدامى (ألف الاثنيين). وهي تدل على التذكير لخلوها من تاء التانيث مقارنة مع اللاحقة (.. تا) في (قالتا). أخيرا بقيت لدينا الصيغة (قالَ)، وهي صيغة قد خللت ظاهريا من لاحقة تصاف إليها لتدل على مادلته عليه اللواحق الأخرى عند أسناد الفعل إلى الشخص الغائب.

لكن الحقيقة أن صيغة (قالَ) ليست خالية تماما من اللواحق، إذ إن الفتحة التي في آخر الفعل هي لاحقة حقيقية تدل على مادلته عليه زميلاتها من اللواحق الأخرى. فإذا كانت الألف - وهي مصوت طويل - تدل على التثنية فلماذا لا تدل الفتحة - وهي مصوت قصير - على الأفراد، علما بأن الفتحة تعادل نصف الألف وهي من جنسها كما رأينا. وإذا كان المرء يجد صعوبة في قبول هذه الفكرة فلأن علم الرسم العربي يبرز المصوتات الطويلة دون القصيرة، أي أننا نكتب الألف دون الفتحة وكذلك الواو دون الضمة ومثلها الياء دون الكسرة. أما من حيث النطق فلا تقل الوظائف الطويلة التي تؤيد المصوتات القصيرة في شيء عن الوظائف التي تؤيد ميثلاها من المصوتات الطويلة. وبالتالي لا مناص لنا أن نقرر بأن الفتحة في (قالَ) هي لاحقة حقيقية تدل على مادلته عليه بقية اللواحق مع الشخص الغائب، أي على الجنس والعدد. وهنا لابد أن يرسم في ذهننا السؤال المشروع التالي: إذا كانت هذه اللواحق الخمسة - باستثناء نون النسوة - تدل على الجنس والعدد فقط، فما الذي يدل على الشخص الغائب إذن؟ إذ لابد من دال يدل عليه. وجوابنا أن الألف التي في وسط الفعل (قالَ) هي الدال الممكن الوحيد على الشخص الغائب. ونستطيع أن نبرهن على ذلك بأنه حيث دلت اللواحق على الشخص لم تظهر هذه الألف. فهي لم تظهر عند اسناد الفعل إلى الشخص المتكلم لأن لواحق الفعل تدل عليه بالمثل، بل لم تظهر عند أسناد الفعل إلى الشخص الغائب في جميع الأنثاء لأن نون النسوة قد دلت عليه.

ماذا يعني ذلك؟ يعني أن الألف دخيلة على الفعل مثلما أن اللواحق دخيلة عليه أيضا. أي أن الألف لم تنشأ عن انقلاب الواو في (قَوْلَ) ولا عن انقلاب الياء في (يَتَيَّ)، بل أضيفت هذه الألف إلى الفعل من خارجه، وهذا يلغي فكرة (الاعلال بالقلب) من الأساس. وقد رأينا سابقا أن الواو بحد ذاتها ليست أصلية في الفعل بل هي ناشئة عن إطالة الصوت الداخلي القصير - أي الضمة في (.. قُلْ) - لتصبح مصوتا طويلا في جذر المضارع، أي واو في (.. قُولَ)، وبالتالي ليس من شأنها أن تنقلب أو تتحول بل هي خاصة بجذر المضارع وحده.

لقد توصلنا حتى الآن إلى فكرتين أساسيتين جديدتين بشأن الاعلال، تقوم الأولى على أن حرف المد في جذر المضارع قد نشأ عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي، وليس عن أصل مزعوم مثل (قَوْلَ) و (يَتَيَّ).

وتقوم الفكرة الثانية على أن - الألف في (قَالَ) و (بَاغ) دخيلة على جذر الفعل وتؤدي وظيفة محددة هي الدلالة على الشخص الغائب لحالّ اللاحق من هذا المبدول . فيما يلي سوف نتوسع قليلا في شرح هاتين الفكرتين : بخصوص مبدأ استخلاص بعض صيغ العربية من بعض عن طريق إطالة المصوتات الداخلية القصيرة استطاع هنري فليش^(١٣) أن يحصر الصياغة الاسمية في اللغة العربية في سبع صيغ أساسية خالية تماما من المصوتات الطويلة وبين كيف أن اللغة العربية قد طورت من هذه الصيغ السبع أخرى كثيرة بلغ عددها سبعا وعشرين صيغة ، وذلك عن طريق ما أسماه «التحول الداخلي» أي من خلال اشباع المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا . كما بين أن الأمر نفسه شائع في صيغ الأفعال وأن بعض الصيغ قد انشقت من بعض بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير ، مثل : قَتَلَ . فاعَلَ ، تَفَعَّل . تَفَاعَلَ^(١٤) ، مما يشير إلى أن الظاهرة شائعة جدا في اللغة العربية وأنها لم تأت ببذعة في اللغة حينما نسبنا أصل جذر المضارع إلى جذر الماضي . ثم إن العربية قد اتبعت هذا المنهاج مع الصوامت مثلما اتبعت مع المصوتات .

أليست صيغة (قَتَلَ) مشتقة من صيغة (قَتَل) وذلك من خلال تضعيف الصامت الأوسط في الفعل ، أي من خلال ما يسمى تشديد الحرف ؟ وقياسا على ذلك فإن إطالة المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا هي ظاهرة مشابهة ، وما ينطبق إذن على الصامت ينطبق أيضا على المصوت . لقد اشتقت (قَاتَلَ) من (قَتَلَ) بواسطة اشباع الفتحه التي تلي الصامت الأول فانقلبت إلى ألف ، وكذلك اشتقت (قَتَلَ) من (قَتَلَ) بواسطة مضاعفة الصامت الثاني ، أي أن اشباع الفتحه في (قَاتَلَ) يشبه تشديد التاء في (قَتَلَ) ، فهي تؤدي كلها في نهاية المطاف إلى مضاعفة عنصر صوتي داخل السجع ، سواء أكان صامتا أم مصوتا . وما يقال هنا عن التضعيف ينطبق بالطريقة نفسها على قُلْ .. قُولْ .. أَوْع .. أَوْعِيع .. ، مما يعني أن جذر المضارع قد نتج عن جذر الماضي بواسطة إطالة أو مضاعفة المصوت الداخلي القصير . ونستطيع بطريقة معكوسة أن نبرهن على أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين . لقد عرف عن بعض العرب أنهم يعملون في حالة المقطع المديد (صامت + مصوت طويل + صامت مضعف) إلى تقسيم المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين منفصلين بواسطة همزة ، فبدلا من قراءة (ولا الضالّين) يقرؤون (ولا الضالّين) حسب رواية ابن جني^(١٥) . هذا يعني أننا نستطيع تجزئة المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين مثلما نستطيع تجزئة الصامت المضعف إلى صامتين متتاليتين .

أما بخصوص المبدأ الثاني في أن الألف في (قَالَ) و (بَاغ) دخيلة على جذر الفعل وليست ناشئة عن انقلاب الواو أو الياء ، فهناك أكثر من شاهد على ذلك . إن الألف التي في اسم الفاعل ، مثل : بِحَالٍّ وبائع ، هي الألف نفسها التي في الفعل الماضي (قال) و(باع) ، أي أن تلك الألف تدل على الفاعل ولا شيء غير . وقد تنبه قديما إلى ذلك ابن مضاء الأندلسي في كتابه «الرد على النحاة» عندما ذكر أن النحاة يقولون في مثل (زيد ضارب عمرا) ، أن (ضارب) ضميرا مستترا تقديره هو فاعل ، لكن ابن مضاء يرى أن (ضارب) تدل على الصفة وصاحبها فلا داعي للتأويل^(١٦) .

(١٣) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٢ وما يليها .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٤١ وما يليها .

(١٥) الخصائص ج ٣ ، ص ١٤٧

(١٦) ابن مضاء العرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٤٧) ، ص ١٠٠

وصاحب الصفة هو الفاعل . وإذا كان ابن مضاء لم يحصر الدالّ على الفاعل في الألف وتركه بلا تحديد ، إلا أنه أقرب كثيرا من الصواب عندما رأى أن شيئا ما في اسم الفاعل يدل عليه وأنه لا حاجة بالتالي إلى تقدير ذلك الفاعل تقديراً . أما الصرفيون فيقولون بأن أصل (قائل) هو (قاول) وأصل (بائع) هو (بايع) وأن الهمزة قد انقلبت عن الواو في (قاول) وعن الياء في (بايع) ، وكانوا قبل ذلك قد قرروا بأن الألف في (قال) قد انقلبت عن الواو في (قَوَّل) كما انقلبت في (باع) عن الياء في (بيع) ، مع أن الواو في (قاول) هي الواو نفسها في (قَوَّل) والياء في (بايع) هي الياء نفسها في (بيع) .

كيف إذن انقلبتا إلى ألف في (قال) و (باع) بينما انقلبتا إلى همزة في (قائل) و (بائع) ، علماً بأن الألف لم ترك قائمة في هاتين الصيغتين الأخيرتين ؟ إن اطراد القاعدة يقتضي أن تكون الألف في اسم الفاعل قد انقلبت عن الواو والياء وليس الهمزة . لكن الحقيقة أنه لا الألف ولا الهمزة قد انقلبتا عن الواو أو الياء المفترضتين . ويبدو أن هناك من الصرفيين من تنبه إلى ذلك فابتدع تفسيراً مختلفاً ، وهو أن الهمزة في (قائل) و (بائع) قد انقلبت عن الألف في (قال) و (باع) وليس عن الواو في الصيغة المفترضة (قاول) أو عن الياء في الصيغة المفترضة (بايع) ^(١٧) . إن هذا الافتراض يعني أننا هنا أمام سلسلة لا متناهية من الانقلابات التي لا تخضع لقانون ، حيث أن الواو في (قَوَّل) والياء في (بَيَّع) قد انقلبتا إلى الألف في (قال) و (باع) ثم انقلبت الألف الجديدة نفسها إلى همزة في (قائل) و (بائع) . لكن هذا الفريق من الصرفيين لا يخبرنا من أين جاءت الألف في صيغة اسم الفاعل ، مع أنها تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه الألف في الفعل الأجوف ، مما يؤكد أن هذه الألف التي في اسم الفاعل هي الألف في الفعل الأجوف وأنها لن تنقلب بالتالي إلى همزة .

إن هذا الاختلاف في التفسير ناتج عن عدم توصل علماء الصرف إلى حقيقة التنغيرات التي تطرأ على المصوتات وإلى عدم فهمهم للطبيعة الفيزيائية لهذه المصوتات . وسوف نعود إلى مسألة أصل الهمزة في سياق هذا البحث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الألف في الفعل المنقوص هي الألف نفسها التي رأيناها في الفعل الأجوف وفي اسم الفاعل . وسواء أوردت هنا مقصورة أم ممدودة فإن هذا لا يغير شيئاً من واقع الأمر ، لأنه شأن من شؤون علم الرسم العربي . إن الألف لاترد في الناقص الواوي أو اليائي إلا في صيغة الماضي عند اسناده إلى الشخص الغائب ، مثل : (قضى) و (بكى) و (دعا) ، باستثناء حالات قليلة تظهر فيها الألف في المضارع أيضاً ، مثل : (سعى - يسعى) . هذا يعني أن الألف في الفعل المنقوص تسلك السلوك ذاته الذي رأيناه في الفعل الأجوف . لكنها لا تظهر هنا إلا مع المفرد المذكر ، بينما تختفي مع المثنى والجمع والمؤنث بسبب دخول لواحق العدد والجنس على الفعل . أما مع المفرد المذكر فإن اللاحقة التي تدل على العدد والجنس ، أي الفتحة ، هي ذات طبيعة واحدة كالألف بحيث تندمج معها وتختفي ، لأنه لا يمكن تحريك الألف بالفتحة . فالألف في الفعل المنقوص دخيلة على جذر الفعل وتدل على الشخص الغائب وليست منقلبة عن واو أو ياء .

وكما رأينا في الفعل الأجوف فإن الواو والياء في مضارع الفعل الناقص ليستا أصليتين بل نتجتا عن إطالة المصوت القصير في صيغة الماضي . إلا أنها تظهران في ماضي الفعل الأجوف في هيئة مصوت قصير ، بينما تظهران في

(١٧) انظر عبد الرحمن : التطبيق الصرفي (بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٤) ، ص ٧٦ .

ماضي الفعل المنقوص في هيئة حرف صامت . وسوف نرى لاحقا أن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، مما يجعل المبدأ الذي استنبطناه في حالة الفعل الأجوف يصح أيضا في حالة الفعل المنقوص ، أي أن جذر المضارع قد نشأ عن جذر الماضي من خلال إطالة المصوت القصير .

إذا كان المصوت الطويل في جذر المضارع قد نتج عن إطالة المصوت القصير في جذر الماضي ، فما هو أصل الواو والياء الصامتين في المصدر (قُولَ) و (يَبِيعُ) ؟ إن ما درج علماء الصرف على تسميته بالمصدر ليس مصدراً في حقيقة الأمر بل هو مشتق من جذر المضارع ، مثلاً أن جذر المضارع قد اشتق بدوره من جذور الماضي ، أي أن - (قُولَ) قد اشتقت من (.. قُولَ) وإن (يَبِيعُ) قد اشتقت من (.. يَبِيعُ) ، مما يعني أننا أمام متوالية اشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم
أَوْ : قُلْ ← قُولَ ← قَوْلَ

وتفصيل ذلك كما يلي :

ذكرنا أن جذر المضارع (.. قُولَ) و (.. يَبِيعُ) قد نتج عن جذر الماضي (قُلْ) و (يَبِيعُ) وذلك بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير في هذا الأخير . كما ذكرنا أيضاً أن المصوت الطويل يعادل ضعفي المصوت القصير ، أي أن المصوت الطويل يتألف من مصوتين قصيرين :

فتحة + فتحة = ألف طويلة
ضمة + ضمة = واو طويلة
كسرة + كسرة = ياء طويلة

ولو نظرنا الآن إلى جذر المضارع (.. قُولَ) و (.. يَبِيعُ) لوجدنا أنه يشتمل على مصوت طويل نتج عن اندماج مصوتين قصيرين . وبمقارنة بالاسم (قُولَ) و (يَبِيعُ) سوف يتضح لنا أن النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع قد سقط وحل محله مصوت قصير من نوع آخر هو الفتحة ، ولذلك تحركت القاف في (قُولَ) والياء في (يَبِيعُ) بالفتحة . لكن النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع قد بقى على حاله وظهر في هيئة واو صامتة في الاسم وياء صامتة في الاسم الثاني .

ويمكننا تمثيل ذلك على الشكل التالي :

إن جذر المضارع (.. قُولَ) عبارة عن ق + كُ + ع + ل
وكذلك جذر المضارع (.. يَبِيعُ) عبارة عن ب + يَ + ع + ر + ع

وعندما حلت الفتحة في الاسم محل المصوت القصير الأول من جذر المضارع صارت على الشكل التالي :

ق + ع + ع + ل
ب + ع + ع + ر + ع

هذا يعني أن الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يُبْع) ليستا سوى النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع ، وأن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، فكان (قَوْل) هي في أصلها (قُ ل) وأن (يُبْع) هي في أصلها (بَ بَ ع) . ولوجربنا نطقها على هذا الشكل ، أي نطق الضمة دون صامت قبلها ونطق الكسرة دون صامت قبلها أيضا لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن نطق الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يُبْع) مع فارق واحد ، هو أننا نطق في أول الضمة وكذا في أول الكسرة بصوت الهزمة ، وبسهولة الهزمة نحصل على التوالي على واو صامتة وعلى ياء صامتة ، مما يؤكد أن كلا من الواو الصامتة والياء الصامتة ليستا في الأصل سوى مصوت قصير ، أي ضمة في حالة الواو وكسرة في حالة الياء بعد تسهيل الهزمة التي في أول كل منهما . أما من أين جاءت الهزمة ولماذا ، فهذا ما سوف نشرحه بعد قليل في مبحث الهزمة . ولو أردنا التعبير عن ذلك بلغة اللسانيات الحديثه لقلنا بأن جذر المضارع في (.. قَوْل ..) و (.. يبع ..) يشتمل على مصوت طويل بينما يشتمل الاسم (قَوْل) و (يُبْع) على مصوت مزدوج مؤلف من مصوتين قصيرين متعارضين : فتحة وضمة في (قَوْل) وفتحة وكسرة في (يُبْع) . وما قلناه عن المتواليات الاشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

يمكن التعبير عنه على الشكل التالي :

مصوت قصير ← مصوت طويل ← مصوت مزدوج

بقي أن نشير إلى أن تحول مصوت طويل إلى مصوت مزدوج لا يقتصر في اللغة العربية على الحالة التي نحن بصدها ، بل هنالك حالات أخرى أيضا يحدث فيها مثل هذا التحول . وحالة النصب في الفعل المضارع المعتل الآخر إذا كان متصيا بالواو أو الياء هي حالة مماثلة يتحول فيها المصوت الطويل إلى مصوت مزدوج . أن فعل (يدعو) ينتهي بمصوت طويل في حالة الرفع ، لكنه ينتهي في حالة النصب (لن يدعو) بمصوت مزدوج هو الواو الصامتة والفتحة . وكذلك فعل (يرمي) في حالة الرفع و (لن يرمي) في حالة النصب . والفرق بين حالتنا السابقة وهذه الحالة هو أنه في حالة الاسم (قَوْل) و (يُبْع) حلت الفتحة محل النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع ، بينما حلت الفتحة في حالة الفعل المضارع المنصوب (لن يدعو) و (لن يرمي) محل النصف الثاني من المصوت الطويل ، أي أن الواو الطويلة والياء الطويلة في الحالة الأولى قد تحولتا إلى فتحة متبوعة بضمة وإلى فتحة متبوعة بكسرة في (قَوْل) و (يُبْع) ، بينما تحولتا في الحالة الثانية إلى ضمة متبوعة بفتحة وإلى كسرة متبوعة بفتحة في (يدعو و يرمي) . وهكذا نتج في الحالتين مصوت مزدوج .

ثالثا : حقيقة الهزمة

أوضحنا حتى الآن أن فكرة انقلاب المصوتات بعضها عن بعض فكرة غير صحيحة وأنها قد قامت على افتراض وجود أصول متوهمه اخترعها النحاة من بنات أفكارهم لمطابقة الميزان الصرفي الذي وضعوه . كذلك بينا أن أقصى ما يمكن أن يحدث للمصوت هو أن يتحول إلى مصوت من جنسه أو إلى مصوت مزدوج - كما رأينا آنفا . أما ما خلا ذلك فوهم لا أساس له . ولكن ماذا عن انقلاب المصوتات إلى همزة حسب ادعاء الصرفيين ؟ انهم يقولون بانقلاب

الواو في (قاول) إلى همزة في (قائل) وانقلاب الياء في (بائع) إلى همزة في (بائع) ، أي أنهم يفترضون أصل (قائل) : قاول وأصل (بائع) : بايع انطلاقاً من الأصول المفترضة (قَوْل) و (بَيْع) . وواضح أن الصنفين هنا قد لجأوا مرة ثانية إلى الافتراض والظن ، مما تفرضه اللسانيات الحديثة . والأمر الثاني أن الهمزة ليست من جنس المصوتات بل هي من الصوامت ، وهذا مالم ينكره القدماء . لكنهم مع ذلك أخطأوا في فهم الهمزة . وقبل أن نبحت عن أصل الهمزة في أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) سوف نستعرض بإيجاز موقف القدماء من الهمزة لتبين الأسباب التي جعلتهم يقعون في الخطأ .

لقد أجمع القدماء تقريباً على أن الهمزة من الأصوات المجهورة ، مع أن الدراسات الصوتية الحديثة لم تترك مجالاً للشك في أن الهمزة لا تدخل في عداد المجهورات . ويرى فريق من الدارسين اليوم أن الهمزة صوت مهموس ويفضل فريق آخر أن يعتبرها لا مجهورة ولا مهموسة ^(١٨) .

ويبدو أن من أسباب وقوع القدماء في الخطأ أنهم قد أخذوا بما أورده سيبويه في «الكتاب» حول الهمزة دون تمحيص . لقد ذكر سيبويه أن الهمزة واحدة من الأصوات التسعة عشر التي عدها مجهورة وعده من بينها أيضاً المصوتات الطويلة الثلاثة : الألف والواو والياء ^(١٩) ، مما سوغ له ولبن بعده القول بإمكانية انقلاب المصوتات إلى همزة .

ماهي حقيقة الهمزة إذن ؟

ينبغي التأكيد قبل كل شيء أن الهمزة ليست من حروف المباني وأن وجودها أو عدمه لا يغير شيئاً من مدلول الكلمة بخلاف بقية أصوات اللغة التي يؤدي استبدال واحد منها بغيره أو سقوطه إلى ظهور نَسَج صوتي جديد يحمل مدلولاً مختلفاً . وعلى سبيل المثال ، ان قولنا (يومنون) دون همزة لا يدل على غير ما يدل عليه قولنا (يومنون) ينطق الهمزة .

وفي المقابل لو أسقطنا من كلمة (يومنون) حرف النون مثلاً لظهر لدينا نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يومون) * . ولو أبدلنا من الميم قاف لظهر لدينا أيضاً نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يوقنون) . وهذا ما ندعوه في اللسانيات الحديثة «الوظيفة التمييزية» . وتعني هذه الوظيفة أن غياب صوت لغوي من أصوات النسيج الصوتي أو حلول صوت لغوي آخر مكانه يؤدي إلى ظهور نَسَج صوتي جديد بمدلول جديد ، لأن كل صوت لغوي يميز من خلال وجوده أو عدمه وكذلك من خلال موقعه أيضاً بين نَسَج صوتي وآخر . ولذلك سميت وظيفته بالوظيفة التمييزية . أما غياب الهمزة في النسيج الصوتي فلا يؤدي إلى ظهور نَسَج صوتي جديد ولا إلى تغير في المدلول الذي يحمله النَسَج ، لأن وظيفة الهمزة ليست تمييزية بل هي «وظيفة تباينية» قبل كل شيء . ومعنى الوظيفة التباينية أن الصوت اللغوي يساعد في أن يسهل على السامع عملية تحليل الكلام إلى وحدات متعاقبة ^(٢٠) . ان وظيفة التباين

(١٨) انظر كمال محمد بشر : علم اللغة العام - الأصوات (القاهرة) : دار المعارف بصر ١٩٨٠ ص ١١٣ .

(١٩) سيبويه . الكتاب (القاهرة) : مطبعة بولاق ١٣١٦ هـ ، ج ٢ ص ٤٠٥

(٢٠) انظر : التدرية مرتبته ، مبادئ اللسانيات العامة ، ص ٥١ .

* والأصح يومنون

هذه غالباً ما تكون منوطة بالنثر في أكثر اللغات المعروفة . لكن الهمز في حقيقته ليس الا نوعاً من أنواع النثر . وكانت العرب تنبر بأشكال مختلفة منها الهمز والمد .

ثم ان تعريف ابن سينا للهمز في «رسالة أسباب حدوث الحروف» يؤكد هذه الحقيقة فالهمزة عنده «حرف قوى من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير»^(٢١)

كذلك فالهمز لغة هو الضغط أو النثر ، لذلك لا عجب ان العرب كانت تسقط الهمز من كلامها في مناسبات كثيرة ، ومنها قولهم^(٢٢) «وَيْلَيْهِ» بمعنى 'ويل لأمره' ، وحكاية أحمد بن يحيى قول المرأة لبناتها وقد خلا الاعرابي بهن «أفي السؤ تَيْتِيَه» (تريد : أفي السوء أنتيَه) . كما ورد في القراءات اسقاط الهمزة في مواضع عديدة ، منها قراءة الكسائي «بأ أنزَيْك» (البقرة ٤) وقراءة ابن كثير «أنها تحْدَى الكبر» (المذثر ٣٥) . أخيراً ذكر ابن جني أن أصل لفظ الجلالة (الله) هو «الاه» فحذفت الهمزة وأضيفت (ال) التعريف ، وكذلك كلمة (الناس) فإن أصلها «أناس»^(٢٣)

الا انه تواجها في اللغة العربية ألفاظ تبدو فيها الهمزة أصلية لأول وهلة بحيث لا يمكن اسقاطها أو تسهيلها أو ابدالها . ويتجلى هذا الامر على نحو خاص عندما تكون الهمزة متحركة ، كما في مطلع الالفاظ التالية : أحوال ، أسمى أو اذا وردت في موقع العين مثل : سأل وسئل وسؤال أو في موقع اللام مثل : بدأ ودرأ وما فنيء .

لنتأمل نطقنا للاسماء المبدوءة بأداة التعريف (ال) اذا وقعت في أول الكلام ، كقولنا : الرجل ، الباب الخ . . . انه لا يخطر ببالنا أننا نبدأ هنا بنطق الهمزة مع أننا لا نملك نطق صوت الالف في مطلع هذه الالفاظ دون نطق الهمزة في أولها . ذلك ان الهمزة تشكل جزءاً لا يتجزأ من مطلع (ال) التعريف مثلاً لا يعتمد على الرسم في اللغات الأخرى الى كتابة همزة في مطلع هذا النوع من المصوتات مع ان الهمزة موجودة . ومثال ذلك في الألمانية Achten (احترم) و Essen (أكل) و Irdisch (دنيوي) ، وفي الانجليزية After (بعد) و Us (حالة المفعول من ضمير المتكلم الجمع) و Increase (زيادة) ، وفي الفرنسية Amour (حُب) و Eau (ماء) و homour (دعابة) ، وفي الفارسية «است» (يكون) و «ایشان» (هم) و «اسب» (حصان) و «آب» (ماء) . و «اطاق» (غرفة) .

وفي كل هذه الامثلة توجد همزة في مطلعها لانها مبدوءة بمصوت . لكن اللغات الأخرى لا تكتب الهمزة بل تكتب المصوت فقط لان الهمزة ليست الا جزءاً من المصوت اذا ورد غير مسبوق بصامت . ودليل ذلك ان صوت الهمزة يخفي من مطلع هذه الامثلة جميعاً حالما يصبح مصوت المطلع مسبوقاً بحرف صامت ، ومثال ذلك في الألمانية ان كلمة Essen (أكل) تصبح Messen (قاس ، كال) اذا دخل عليها الصامت (m) في اولها ولا يبقى فيها اثر للهمزة ، ومثلها في الانكليزية كلمة Increase اذا دخلت عليها an (اداة التنكير) ، وفي الفرنسية تختفي الهمزة من مطلع Amour اذا دخلت عليها أداة التعريف فتصبح l'amour ، وفي الفارسية تختفي الهمزة ايضاً من مطلع

(٢١) رسالة أسباب حدوث الحروف ، ص ٧٢

(٢٢) انظر الحصاص ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١

(٢٣) المرجع نفسه .

«است» اذا دخلت عليها الهاء فتصبح «هست» (بمعنى موجود) ، مما يشير الى ان ما كان في مطلع تلك الكلمات ليس همزة بل مصوتا وأن الصوامت التي ادخلت عليه تحركت به فاختلف صوت الهمزة .

ويقاسا على ذلك فان ما يتوهمه المرء من وجود همزة في (سأل) ومشتقاتها ليس الا مصوتا داخليا ، اي ان الهمزة في (سأل) هي في حقيقة امرها ذلك المصوت القصير الذي نسميه فتحة والهمزة في (سئل) هي كسرة ، والهمزة في (سؤال) هي ألف مدودة ليس الآ .

ولو كتبنا كلمة (سؤال) هكذا «سأل» بلا همزة فسوف نطقها بلفظها الاصلي نفسه ، لان الهمزة ليست الا من خداع الكتابة . ويمكننا هكذا تطبيق المبدأ المذكور على بقية الامللة .

يبقى اخيرا نوع واحد من انواع الهمز اذا ورد في آخر الكلمة بعد الالف ، مثل : ماء ، هواء وغير ذلك ، وقد شرح ابن جني هذا النوع من الهمز بما يقترب كثيرا مما قلناه عن وظيفتها التباينية بالفهم اللساني الحديث . لقد ورد في «الخصائص» تحت «باب في مطل الحروف» ما يلي : «والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة . وهي الالف والياء والواو . اعلم ان هذه الحروف اين وقعت وكيف وجدت ففيها امتداد ولين الا ان الاماكن التي يطول فيها صوتها ، وتتمكن مدتها ، ثلاثة . وهي أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذكر . فالهمزة نحو كساء ، ورداء ، وخطيئة ، ورزينة ، ومقرؤة ، ومخبوءة . وانما تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأي منشؤه ، وترأخى مخرجه ، فاذا أنت نطقت بهذه الاحرف المصوتة قبله ، ثم تتأدب بهن نحوه طلعن ، وشعن في الصوت ، فوفين له ، وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك اذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، ألا تراك اذا قلت : كتاب ، وحساب ، وسعيد ، وعمود ، وضروب وركوب ، لم تجدن لدنات ، ولا ناعيات ، ولا وافيات مستطيلات ، كما تجدن كذلك اذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد»^(٢٤) . ويستفاد من قول ابن جني ما يلي :

١ - ان الهمزة تختلف عن بقية الصوامت في الوظيفة التي تؤديها داخل النسخ الصوتي .

٢ - ان وظيفتها هي اطالة المصوت الذي يقع قبلها وإبرازه أكثر من سواه .

وهذه الوظيفة يؤديها النبر عادة ، وبالتالي فان ابن جني قد أشار هنا بخصوص الهمزة الى ما نعينه في اللسانيات الحديثة بالوظيفة التباينية . فإذا فهمنا الهمز على أنه نوع من أنواع النبر اتضح لنا لماذا كان الهمز شائعا في بعض لهجات العرب دون بعضها الآخر ، ولماذا رفض الرسول (ﷺ) أن يخاطبه أعرابي «يا نبيء الله» لأن الهمز لم يكن شائعا في لهجة قريش^(٢٥) . وبما أن هذا هو حال الهمزة ، فلها حقيقة وجودها في أساء الفاعل مثل (قاتل) و (بائع) ؟

من المعلوم أن عين اسم الفاعل تكون متبوعة دائما بكسرة ، أي بمصوت قصير اصطلاح على تسميته بالكسرة ، مثل (قاتل ، مانع ، طالع ، الخ . . .) . الا أن أساء الفاعل التي اشتقت من أصل ثنائي أو معتل لا يوجد فيها في مكان العين سوى المصوت القصير ، أي الكسرة . وبما أن الألف في اسم الفاعل قد باعدت بين فائه وبين تلك الكسرة ، صرنا نطلق بالكسرة عارية عن أي صامت قبلها .

(٢٤) الخصائص ، ١٢٤/٣ - ١٢٥

(٢٥) انظر الخصائص ، ٢٨٣/١ .

وبناء عليه فإن ما يوجد في مكان العين من اسم الفاعل (قائل) و (بائع) هو الكسرة فقط ولا شيء سواها .
ونستطيع أن نكتب أسماء الفاعل هذه على الشكل التالي : (قائل) بدلًا من (قائل) و (بائع) بدلًا من (بائع) .
لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد هنا همزة ، إلا أن وجودها ليس ناشئًا عن انقلاب الواو في (قائل) أو انقلاب الياء في (بائع) ، بل يرتبط بها ذكرناه سابقًا عن خصائص الهمز فالهمزة تقوم هنا بوظيفة الفصل بين مصوتين متتابعين : الألف الطويلة والكسرة القصيرة . والسبب الثاني لوجود الهمزة هنا هو أن المرء لا يستطيع لأسباب فيزيولوجية أن ينطق بالمصوت لوحده عاريا عن أي صامت قبله دون أن يبدأ بنطق الهمزة . فلا نستطيع نطق ألف قصيرة (فتحة) ولا طويلة لوحدها دون أن نبدأ بنطق همزة في أولها ، والشيء نفسه ينطبق على الواو والياء سواء أكانتا حرف مد أو حركة قصيرة .
هذا يفسر ما قلناه آنفا عند الحديث عن أصل الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (يُبْع) ، إذ أن هذين الصوتين ليسا سوى ضمة بعد تسهيل الهمزة الإلزامية التي في أولها بالنسبة للواو ، وكسرة بعد تسهيل الهمزة الإلزامية التي في أولها بالنسبة للياء . لذلك نستنتج أن الهمزة التي توهمها الصرفيون في عين اسم الفاعل ليست في حقيقة الأمر سوى المصوت القصير غير المسبوق بحرف صامت ، ووجود الهمزة تابع لوجود ذلك المصوت وليس نتيجة انقلاب عن واو أو ياء لا وجود لها أصلا . ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سوف نقوم بالتجربة البسيطة التالية :

نأخذ اسم الفاعل (قائل) ونحلله إلى الوحدات الصوتية التي يتألف منها نسجه الصوتي : قائل = صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + صامت (تاء) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) ولو أسقطنا الآن من هذا النسج الحرف الصامت الذي في موقع العين ، أي التاء ، فإن مايتبقى هو تاء اسم الفاعل (قائل) :

صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) = قائل = قائل .

ونستطيع إجراء مثل هذه التجربة على كلمات أخرى ، مثل : (قائل) بإسقاط الباء أو (قائل) بإسقاط الحاء ، وسوف نحصل على نتيجة مماثلة .

والأمر نفسه يصح في اسم الفاعل (بائع) . فلو أخذنا اسم الفاعل (بائع) وأسقطنا حرف الراء من موقع العين مع الإبقاء على الكسرة التي لحقت بالراء ، فإن مايتبقى هو بالضبط اسم الفاعل (بائع) ، أي (بائع) . وهكذا يتضح بكل جلاء أن أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) هي شُج صوتية خلا موقع العين فيها من حرف صامت وبقيت الكسرة لوحدها في موقع العين ، وهي الكسرة التي تلحق عادة عين اسم الفاعل في غير المعتل .

ذكرنا آنفا بأن الهمزة صوت مهموس عند بعض علماء الأصوات في العصر الحاضر وغير مجهور ولا مهموس عند فريق آخر ، لكنها على أي حال ليست مجهورة . لماذا إذن وقع علماء الصرف الرب في الخطأ حين عدوها مجهورة ؟ أغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى ماذكرناه عن طبيعة الهمزة التي يرتبط نطقها غالبا بنطق المصوتات . وبما أن المصوتات مجهورة ، فإن نطقها قد أثر في نطق الهمزة فبدت لهم هي الأخرى مجهورة . وهذا ماسهل عليهم القول بإمكانية انقلابها عن المصوتات كما رأينا . ويستطيع كل إنسان أن يتفحص بنفسه الجهر والمهمس في أي صوت لغوي يشاء . اذ يكفي أن يضع المرء إبهامه وسبائته على عنقه حول منطقة الأوتار الصوتية ، فإذا شعر بهتزاز الترتين كان الصوت مجهورا ، وإلا كان مهموسا . ولو جرب أن ينطق بحدلي كلمتي (قائل) و (بائع) لشعر بكل وضوح بهتزاز

الوترين الصوتيين في موقع العين ، مما يقدم دليلا اضافيا على أن عين (قائل) و (بائع) عبارة عن مصوت قصير مجهور هو الكسرة .

وابعا : استنتاجات

لقد تطرقنا في سياق هذا البحث إلى أمور عديدة ومختلفة . وفيها يلي سوف نرى ما يترتب عليها بالنسبة لعلم النحو العربي :

أولا : ذكرنا بأن الفتحة التي تلحق بنهاية الفعل الماضي في (قَالَ) و (بَاعَ) ليست حركة اعراب أو بناء ، بل هي دال على مدلول هو الافراد والتذكير ، مثلما أن ألف التثنية هي دال بدورها ، ومدلولها التثنية والتذكير . ويتربط على ذلك بأن قول النحاة في اعراب (قَالَ) : «فعل ماضٍ مبني على الفتح» قول لا سند له ، لأن هذه الفتحة في نهاية الفعل غير الفتحة التي تلحق بآخر الاسم . وما يصدق على الفتحة هنا يصدق على جميع الحركات التي تلحق بآخر الفعل في اللغة العربية . ان فكرة البناء والاعراب في الأفعال لا تشير إلى أي وظيفة ، اذ ماعنى أن نقول بأن الفعل الماضي مبني على الفتح أو السكون أو أن الفعل المضارع مرفوع بالضممة أو منصوب بالفتحة ؟ ان مثل هذا الكلام لا يقود إلى شيء مادام لا يشير إلى الوظيفة التي تؤديها الضمة أو الفتحة ولا إلى الوظيفة التي قد يضطلع بها الاعراب أو البناء في الأفعال . كذلك فإن قول النحاة أن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح ، لأن الاعراب يعني الرفع والنصب والجرح . لكن الفعل المضارع لا يكون مجرورا بالكسرة أبداً وكذلك لا يكون منونا ، وبالتالي إن الاعراب والبناء صفتان تختصان بالأسماء دون الأفعال ، ولابد إذن من البحث عن المدلولات التي تحملها الحركات عندما تلحق بأواخر الأفعال .

فأما الفعل الماضي فلا تلحق به الفتحة إلا عند اسناده إلى الشخص الغائب ، وقد تعرفنا على المدلول الذي تحمله تلك الفتحة . وفيما عدا ذلك فإن السكون هو الصفة المميزة لآخر الفعل الماضي عند اسناده إلى الشخص المتكلم أو الشخص المخاطب .

وأما الفعل المضارع فيكون على حالات ثلاث : فلما أن تلحق الضمة بآخره ، كقولنا (يقولُ) و (يضرِبُ) ، وإما أن تلحق الفتحة بآخره ، كقولنا (أن يقولُ) و (أن يضرِبُ) ، أو أن يكون آخره ساكنا كما في جالة الجزم (لم يقلْ) و (لم يضرِبْ) .

يقول النحاة بأن الفعل المضارع يكون مرفوعا إذا تجرد عن الناصب والجزم . ويتربط على هذا الكلام أن الحالة الطبيعية للفعل المضارع هي الرفع ، وأن النصب والجزم هما حالتان طارئتان على الفعل المضارع . لكن مثل هذا التعليل يسقط من حسابه أي وظيفة يمكن لهذه الحركات أن تشير إليها أو أن تؤديها . والأولى بنا أن نبحث عن هذه الوظائف وتلك المدلولات التي تحملها كل حركة ، فهذه الحركات ليست في حقيقتها إلا دالٌّ تدل على مدلولات محددة . ولو أمعنا النظر قليلا في حالة المضارع المرفوع لوجدنا أنه يدل باستمرار على «التقرير والاثبات» شرط ألا تلحق به (قد) التي تفيد التوقع . فقولنا «رايت محمدا يذهب إلى السوق» فيه تقرير وثابت لحدث معين دون ربطه بأي شيء آخر . أما في قولنا : «قلت لمحمد أن يذهب إلى السوق» فهذا يعني أن الفعل لم يقع بعد ، وليس هناك

ما يؤكد وقوعه مستقبلا ، أي أنه مازال معلقا بظروف مستقبلية . ولذلك نقترح إطلاق صفة «التعليق والاستقبال» على حالة الفعل المضارع المنصوب . وتنطبق هذه الصفة على المضارع المنصوب بأن أولبن أو باللام سواء أكانت للتعليق أم للحدود .

فكل هذه الحالات تفيد معنى التعليق والاستقبال لحدث معين . أخيرا فإن السكون الذي يلحق آخر المضارع يفيد معنى عدم وقوع الفعل أو الحدث الذي يدل عليه الفعل . وسواء جاء الفعل بعد أدوات النفي أو بعد لا الناهية فإن السكون يشير هنا إلى امتناع حدوث الفعل . ولذلك نقترح إطلاق صفة «الامتناع» على الفعل المضارع إذا لحق بآخره السكون .

ويترتب على هذه النظرة إلى الحركات التي تلحق بالفعل المضارع أمران هاما : أولها أن النصب والجزم في الفعل المضارع ليسا ناشئين عن أدوات يسمونها أدوات النصب والجزم ، بل عن الوظيفة التي يراد للفعل أن يؤديها في الجملة . فالصفة في آخر الفعل هي دال ومدلوله التقرير والاثبات ، والفتحة هي دال ومدلوله التعليق والاستقبال ، والسكون هو أيضا دال ومدلوله الامتناع . وإذا كنا قد توصلنا إلى ذلك مستعينين بالمعطيات التي وفرتها اللسانيات الحديثة ، فإن بعض القدماء قد توصل إلى ذلك ولكن دون تمكنهم من تقديم برهان على ذلك . ففي معرض حديث ابن جني عن نظرية العامل شكك بالعوامل اللفظية والمعنوية وانتهى إلى القول : «فأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعقل من الرفع والنصب والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره»^(٢٦) . والفرق بين ماقرهه - ابن جني وبين ماقرئناه أن ابن جني قد نسب ظهور الحركات الاعرابية إلى المتكلم ونسبناها نحن إلى الوظيفة التي تؤديها في القول . أما النتيجة فواحدة .

وعندما جاء ابن مضاء القرطبي بعد ذلك بقرنين استند إلى كلام أبي الفتح ابن جني واتخذ موقفا مماثلا في كتاب «الرد على النحاة» فقال :

«قصدى من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوى عنه ، وأنه على ما أجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعائهم أن النصب والخفض والجزم لا تكون إلا بعامل لفظي وذلك بين الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جني وغيره»^(٢٧) . لكن ابن مضاء اكتفى بأن نفى فكرة العامل بادلة عقلية ومنطقية دون أن يشرح الوظيفة التي تؤديها تلك الحركات . والأمرا الثاني أن تسمية الفعل المضارع لاتشير إلى الوظيفة أو الوظائف المنوطة بهذا الفعل في الجملة ، علاوة على كونها غير صحيحة . ان تسمية الفعل الماضي تشير إلى الزمن الذي يقع فيه الفعل ، لكن تسمية المضارع علاقة لما بمسألة زمن الفعل لا من قريب ولا من بعيد ، أي أنها لاتعبر عن الوظيفة المنوطة بهذا الفعل . ثم انها تسمية غير صحيحة لأن المضارع لا يضارع غيره في شيء . لقد أطلق النحاة على الفعل المضارع هذه التسمية لاعتقادهم أنه يضارع الاسم - وربما اسم الفاعل بالذات - في حركات الاعراب . وقد رأينا أنفا أن الحركات التي تلحق بآخر الفعل ليست حركات اعرابية كالحركات التي تلحق بآخر الاسم . مثل (كتابٌ وكتاباً وكتاب) ، بل هي دوال على مدلولات وظيفية محددة . وبالتالي فإن تسمية هذا الفعل بالمضارع أمر يحتاج لاعادة النظر فيه . لكن هذه التسمية تشير إلى الأساس غير الوظيفي الذي قام عليه النحو العربي منذ بدايته ، وكنا قد أشرنا إليه في بحث سابق^(٢٨) . وهو أن النحو العربي قد قام في الأساس لضبط حركة أواخر الكلام عندما بدأ اللحن يفتش على ألسنة

(٢٦) الخصائص ١/١٠٩-١٠١

(٢٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ، ص ٨٥ .

(٢٨) انظر مجلة «المقتطف العربي» ، العدد رقم ١٠٦ تاريخ ١٩٨٧/١٢ بعنوان : «حول واقعا اللغوي» ، ص ٦٧ ومايلها .

الموالي من غير العرب في البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي ، وذلك خوفا من ضياع اللغة العربية في تلك الاقطار وخشية من وقوع القرآن الكريم تحت طائلة التحريف والتزوير . ولقد نزل القرآن بلغة معربة يرتبط فيها مدلول الكلمة داخل الجملة بحركتها الاعرابية . فاذا تغيرت الحركة تغير المدلول . واذا كان ذلك الحافظ لحركة تقعيد اللغة العربية أمرا مقبولا في البداية ، الا أنه شكل فيها بعد عائقا أمام فهم صحيح لطرائق وآليات عمل هذه اللغة ، وهو أمر مازلتا نعاني منه حتى اليوم .

ثانيا : ذكرنا أن مصوت الألف يدل في الفعل الأجوف والناقص وكذا في اسم الفاعل على الشخص الغائب ، أي أن مصوت الألف هنا هو بمثابة دال على الفاعل . لكن هذا يتعارض مع فكرة أساسية في النحو العربي هي فكرة الضمير المستتر . لقد دأب النحاة على أن يعربوا (قَالَ) بأنه وفعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو في محل رفع فاعل . ومادام لدينا دال بارز ومنطوق على الفاعل هو مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل ، فما حاجتنا إلى دال لانراه ولا نلمسه وإنما نفترض وجوده افتراضا . لكن نفي فكرة الضمير المستتر يفرض علينا الاجابة عن بعض الاسئلة المتعلقة بمواضع الضمير المستتر الأخرى :

١ - كان مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل هو الدال على الفاعل في الفعل الأجوف والناقص ، فما هو الدال على الفاعل في الفعل الماضي الصحيح إذا أسند إلى ضمير الغائب ؟

٢ - ما هو الدال على الفاعل في بعض مواضع الفعل المضارع حيث يقول النحاة بوجود ضمير مستتر ؟

بخصوص الفعل الصحيح مثل (صعد وضرب) يبدو للوهلة الأولى أن لادال على الشخص الغائب لأن لواحق الفعل عند إسناده إلى الشخص الغائب لاتدل إلا على العدد والجنس . فما هو الدال على الشخص إذن ؟ والجواب هو «الدال صفر» . والدال صفر بالمفهوم اللساني الحديث يعني خلو إحدى الصيغ من دال منطوق بالمقارنة مع صيغ أخرى تشتمل على دال خاص بها . فإذا كانت صيغ الفعل الماضي تشتمل على دال على الشخص عند إسناده إلى ضائير المتكلم والمخاطب ، وهو الدال الممثل باللواحق ، فإن خلو صيغة الفعل الماضي من دال خاص بها عند إسناده إلى الشخص الغائب هو دال بحد ذاته ، وهذا مايسمى بالدال صفر . وهنا قد يرد إلى الذهن الاعتراض التالي : ماالفرق إذن بين أن نقول بالدال صفر أو بالضمير المستتر ، مادام الدال على الشخص الغائب غير موجود في الحالتين . والجواب على ذلك أنه اختلاف من حيث المبدأ . فالقول بالضمير المستتر يعني القول بوجود شيء غير موجود أصلا ، أما القول بالدال صفر فهو إقرار بعدم الوجود ، ومن ثم اعتبار عدم الوجود هذا دالاً بحد ذاته .

أما بخصوص الفعل المضارع فإن النحاة حددوا مواضع الضمير المستتر كما يلي :

١ - عند إسناده الفعل إلى ضمير المتكلم .

٢ - عند إسناده إلى ضمير المخاطب المفرد المذكور .

٣ - عند إسناده إلى ضمير الغائب المفرد . وواضح من هذا التحديد أن النحاة ينظرون إلى مانعته لواحق الفعل على أنها دوال على الفاعل ، ولذلك أطلقوا عليها اسم ضائير الرفع المتصلة . وعند خلو الفعل من هذه اللواحق ، افتراضوا وجود ضائير استندوا إليها وظيفة الدلالة على الفاعل . أما بوادي الفعل التي جمعوها في «أنيت»

أو «نأيت» فإنهم اعتبروها من علامات الفعل المضارع واطلقوا عليها لذلك اسم «حروف المضارعة» (كذا ١) . لكننا سنرى بعد قليل أن حروف «أنيت» هذه هي دوال حقيقية على الفاعل في الفعل المضارع ، وأن لواحق الفعل التي اعتبروها ضائراً رفع ليست في الواقع أكثر من دوال على العدد والجنس ، أي أنها تشارك البواديء في الدلالة على الفاعل .

لنعد إلى إسناد الفعل إلى ضائراً الرفع الذي وضعناه في القسم الأول من هذا البحث ، وسوف نسجل الملاحظات التالية :

١ - يمتاز الفعل المضارع على الفعل الماضي باشتماله على بواديء ولواحق ، بينما خلا الفعل الماضي من البواديء .

٢ - أن بعض صيغ تصريف الفعل المضارع تخلو من اللواحق ويكتفي بالبواديء ، مثل : تَـ/ضرب بالمقارنة مع تَـ/ضرب/ين ،

٣ - أن اللواحق تلحق بالفعل المضارع لمنع اللبس عندما تتشابه البواديء بحيث لا تستطيع الدلالة على العدد والجنس ، مثل تصريف المضارع مع ضائراً المخاطب .

إن البادئة (أ .) في (أقول) و (أضرب) هي اختصار واضح وصريح من ضمير الرفع (أنا) ، وهي تدل على الشخص والعدد ولا تحتاج بالتالي إلى لاحقة إضافية . الشيء نفسه يمكن أن يقال عن البادئة (ت .) في (تقول) و (تضرب) ، إذا أنها صيغة مختصرة من ضمير الرفع (نحن) . أما عند إسناد الفعل المضارع إلى الشخص المخاطب فيلاحظ أن جميع صيغ تصريف الفعل هنا تشترك ببادئة واحدة هي (ت .) مما استوجب وجود لواحق تدل على العدد والجنس ، أي أن البادئة (ت .) تدل على الشخص المخاطب بينما تدل اللواحق على العدد والجنس . وقد شذت عن هذه القاعدة صيغة واحدة من صيغ المخاطب هي صيغة المفرد المذكر ، حيث خلت من لاحقة تدل على العدد والجنس . وهنا يمكن القول أن الدال صفر يدل على العدد والجنس بالمقارنة مع بقية الصيغ التي اشتملت على لواحق خاصة تدل عليها . ولحاجة للتذكير أن اللاحقتين (ان .) و (ون .) تدلان بالترتيب على التثنية والجمع ليس فقط في الفعل المضارع وإنما في الأسماء أيضاً ، مثل (كاتبان) و (كاتبون) . كذلك يدل المصوت الطويل ، أي الياء في اللاحقة (ين .) على المثنى المفرد ، مثل (تضريبن) ، وهي موجودة أيضاً في الضمير المنفصل (أنيت) وفي الضمير المتصل (يك) وفي الضمير الاشاري للمؤنث (اسم الإشارة) ، أي - (هذي) و (هذه) . ويرى هنري فليش أن الضمير (أنيت) كان قديماً (أنتي) والضمير (يك) كان قديماً (كي) وأن الكسرة الطويلة (الياء) هنا هي بالتالي من مخلفات اللغة القديمة^(٢٩) .

عند إسناد المضارع إلى الشخص الغائب نلاحظ وجود نوعين من البواديء ،

(ي .) تدل الغائب المذكر و (ت .) تدل على الغائب المؤنث :

وعند أمن اللبس أمكن استعمال البادئة (ي .) لجمع الاناث ، مثل (يضربن) و (يأتين) ، وأيضاً بهدف التفريق بين الغائب والمخاطب .

(٢٩) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٠ و ص ١٣١ .

بقي أن نشير إلى أن التشابه الثانوي بين صيغة المخاطب المفرد المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثني المذكر وبين صيغة الغائب المثني المذكر وبين صيغة الغائب المثني المؤنث يعود إلى المنشأ المختلف للبادئة (تـ) في كل حالة . ففي حالة المخاطب يبدو أن التاء مشتقة من ضمائر الرفع للمخاطب التي لا يخلو واحد منها من حرف التاء . أما في حالة الغائب فهي علامة للتأنيث ، لاسيما أن دلالة التاء على التأنيث أمر شائع ومعروف في اللغة العربية .

نستنتج مما تقدم أن بؤادى المضارع ليست علامات للمضارع ، لأنه لا يحتاج إلى مثل هذه العلامات . ويكفي المرء أن يقارن النسخ الصوتي لجذر المضارع مع النسخ الصوتي لجذر الماضي حتى يميز الأول عن الثاني . فجذر الماضي من فعل (ضرب) هو (ضرب) بعد حذف البؤادى واللواحق .

ويستطيع المرء بنظرة واحدة أن يدرك اختلاف المصوتات بين الجدرين ، مما يكفي معه للتعرف على جذر كل منها . وقد أشار ابن جني إلى ذلك في «الخصائص» إذ اعتبر أن اختلاف المصوتات بين صيغتي الماضي والمضارع هو بمثابة تعبير عن زمن كل منهما :

«وذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، إذ الغرض في صيغ هذه المثل إنها هو لإفادة الأزمنة ، فجعل لكل زمن مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد - الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان .

فمن ذلك أن جعلوا بازاء حركة فاء الماضي سكّون فاء المضارع ، وخالفوا بين عينيها .

فقالوا : ضرب يضرب ، وقتل يقتل ، وعلم يعلم» (٣٠) .

لكن النحاة اعتمدوا الشكل المكتوب في تقرير ذلك ، وهو الشكل الذي لا تظهر فيه المصوتات القصيرة (الحركات) ، لذلك راحوا يفتشون عن علامات تدركها العين لا السمع ويجدوهم في بؤادى الفعل لعدم ورودها في صيغة الماضي واعتبروها من علامات المضاربة . ولو أنهم اعتمدوا الشكل المنطوق لادركوا اختلاف المصوتات بين صيغة الماضي وصيغة المضارع . وأغلب الظن أنهم لم يأخذوا بفكرة جدر الفعل للسبب نفسه ، أي لاعتداهم الشكل المكتوب دون المنطوق . حيث أنه لا فرق في الكتابة بين الجدرين في الفعل الصحيح . ولو أنهم فعلوا ذلك لفتشوا لبؤادى الفعل المضارع - عن وظيفة غير التي ظنوها ، أي وظيفة الدلالة على الفعل المضارع . كما أن هذا الاعتبار أوقعهم في التناقض . فبما أنهم اعتبروا البؤادى مجرد علامات للمضارع أصبحوا مضطرين للفتيش عن الدوال على الفاعل في اللواحق ، ولم يفتنوا إلى أن بعض هذه اللواحق موجودة في الأسماء أيضا ، مثل (ان) التي تدل على التثنية و (ون) التي تدل على جمع المذكر . وبدلا من أن ينسبوها إلى وظيفتها الأصلية ، وهي وظيفة الدلالة على العدد ، نسبوا إليها وظيفة جديدة هي الدلالة على الفاعل .

وهكذا اعتبروها في الأسماء مجرد حروف ، بينما اعتبروها في الأفعال ضائراً رفع متصلة .

وتلخيصا لما تقدم نستطيع أن نقول أن بؤادى الفعل المضارع تشترك مع لواحقه في الدلالة على الفاعل . والدال على الفاعل في قولنا (يكتبون) هو البادئة (يـ) . بالاشتراك مع اللاحقة (ون) . ولو أردنا تجريد هذا الدال

عن جذر الفعل حصلنا على دال مركب من جزأين منفصلين : (يـ . وـ) . وتسمي اللسانيات الحديثة هذا النوع من الدوال «الدال المنقطع» ، أي أن (يـ) . تمثلان الدال المنقطع للمدلول «غائب جمع مذكر»^(٣١) . وإذا نظرنا إلى يودىء الفعل ولواحقه على هذه الصورة أي باعتبارها دوال على الفاعل ، انتفت حاجتنا إلى افتراض وجود ضائر مسترة مقدرة تقديرا ، مما يخرج بالنحو العربي من دائرة الغيبيات إلى دائرة الموجودات .

ثالثا : ذكرنا بأن هناك متوالية اشتقاقية هي :-

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

وتعني هذه المتوالية أن جذر المضارع قد اشتق من جذر الماضي وأن الاسم قد اشتق بدوره من جذر المضارع ، هذا يعني أن الماضي أسبق من المضارع وأن الفعل أسبق من الاسم . إلا أن مثل هذه النتيجة تخالف ما هو شائع لدى أكثر علماء العربية الذين رأوا أن الاسم سابق على الفعل في الزمان وسموه لذلك مصدرا وأن المضارع سابق على الماضي .

ولا شك أن بعض الأسس غير الصحيحة التي بنوا عليها آراءهم قد قادت إلى تلك النتائج الغريبة . إن التعرف على حقيقة الأسبقيات في اللغة يعني اكتشاف الآليات الصحيحة التي تعمل اللغة بموجبها .

ولقد كشفنا بما لا يدع مجالا للشك كيف اشتق جذر المضارع من جذر الماضي وكيف اشتق الاسم بدوره من جذر المضارع . ويؤكد هذا الاكتشاف من جديد أن علماء العربية القدامى قد جانبوا الصواب في بعض مآذهبوا إليه ولم يتوصلوا دائما إلى الآليات الحقيقية التي تعمل داخل اللغة . على أننا نجد سنداً قويا لدى ابن جني فيما ذهبنا إليه ، إذ توصل أبو الفتح إلى النتائج نفسها التي توصلنا إليها ، وإن كان عن طريق مختلف ، وذلك بفضل ما كان يتمتع به هذا الرجل من نظر ناقب في شؤون اللغة ونظرة علمية تقترب كثيرا من نظرة اللسانيات الحديثة إلى اللغة . لقد ذكر في «الخصائص» تحت عنوان «باب في هذه اللغة : أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟» مايلي :

«فلن قلت :

هلا ذهبت إلى أن الاسماء أسبق رتبة من الأفعال في الزمان ، كما «أنها أسبق رتبة منها في الاعتقاد ، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه ، إذ كان الواجب أن يبدؤوا بالاسماء ، لأنها عبارات عن الأشياء ، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي بها تدخل الاسماء في المعاني والأحوال . . . ؟ قيل يمنع من هذا أشياء :

منها وجود أسماء من الأفعال ، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصح لصحته ويعتدل لاعتداله ، نحو ضرب فهو ضارب ، وقام فهو قائم . . . فإذا رأيت بعض الاسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه . . . وأيضا فإن المضارع يعمل لاعتلال الماضي ، وإن كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي»^(٣٢) . ومما يؤسف له حقا أن كثيرا من آراء ابن جني التي خالف بها علماء اللغة ممن سبقوه لم يأخذ بها المتأخرون ممن جاءوا بعده ، مع أنه أصاب بها كبداية الحقيقة . ولو أن المتأخرين فعلوا ذلك لوفروا علينا عناء كثيرا وحالوا دون تقهقر اللغة الفصحى أمام العاميات في العصور التالية .

(٣١) بداية اللسانيات العامة ، ص ١٠٠

(٣٢) الخصائص ٢/ ٣٤ - ٣٥

تهيد :

يتجه البحث في هذا المقال إلى المجاز والاستعارة ، بوصفها عنصرين من عناصر التطور الدلالي ، وطرق تحول المعاني . ولابد هنا من تأكيد مذهبنا إليه في بحوث سابقة من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدهما فني يثير في المتلقي هزة انفعالية ، ويبحث إيجاء ولذة شعورية ، والآخر ، بعضه كان من النوع الأول ، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمني طويل فقد تألقه الفنى ، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمي ، وفارق المعجم الشعري الحى ، وغدا بذلك مجازاً زاوياً ، وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفنى أصلاً ، إنما وضع أساساً بوصفه نقلاً غير تصويرى ، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية La nomination Cognitive . نحوقولنا (رجل الكرسى) ، و (عق الزجاجة) ، و (الخرطوم) دلالة على الانبوب المطاطى المستعمل في نقل المياه ، و (عين الباب) و (رأس الجبل) وغير ذلك . والأمثلة على هذا النحو الأخير كثيرة ، وهى تمثل مبدأ من مبادئ التطور اللغوى في معظم اللغات الحية . وقد تنبه إلى هذا كثير من الدارسين في القديم والحديث ، في لغتنا وفي غيرها من اللغات المعروفة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المقال مخصص لرصد ذلك الجزء من التحول المجازى من النوع الذى كان فناً ، ثم غدا أسلوباً لغوياً ، لأن بين هذين الحدين ضرباً شق من تطور اللغة عبر المجاز . أما الأمثلة التى كانت مدار البحث والتحليل فهى مستمدة من مجموعة مختارة من الشعر العربى الحديث الذى يمثل مدرسة الإحياء والتراث وامتدادها ، ولاسيما فى مصر والشام ، ولا شك فى أن النظر المتعمق فى (مستوى) الشعر العربى الحديث اللغوى يصبح كثيراً من

صور من تطور لغة الشعر العربى
الحديث عن طريق المجاز

أحمد محمد قدور

وقد ارتبطت صور كثيرة من هذا المجاز بالمرحلة القديمة من حياة البشر ، وغدت - على الرغم من التقدم الحضارى - عالقة في الأذهان ، وشائعة في الاستعمال إلى درجة يمكن أن توصف بأنها محل اشتراك عدد من اللغات . نحو : «الأسد ، والذئب ، والثعلب ، والشمس ، والبدرة» .

وقد تنبه كثير من الدارسين إلى هذا النوع من الرمز المجرد لمعان مشتركة لأشكال العدول عنها إلى غيرها جادة أو طرفة . فالمساحة الدلالية هذه الرموز أصبحت واسعة وعمامة^(١) .

وفي الفصحى المعاصرة يجد الدارس عددا من هذه المجازات الرمزية التي انحدرت من صور بلاغية قديمة ، فقدت بسبب كثرة التكرار قيمتها الإيحائية الفنية ، وغدت قريبة من الأساليب اللغوية .

ويمكن أن نعد في هذا الجانب عددا من المجازات الشائعة ، نحو : الأسد ، والنجم والشيل ، والسيف ، والبدرة ، والذئب ، والثعلب ، والنسر . . . ويلاحظ - وهنا - كثرة الأساليب المجازية الدائرة حول أمثال هذه الكلمات .

والصور البلاغية الداوية والاستعمالات المرتبطة بالمرحلة القديمة للحياة ، ليست المصدر الوحيد لهذا المجاز الرمزي ، فالمذاهب الأدبية الحديثة أذاعت بين الشعراء رموزا وأشكالا فنية ذات دلالة . ولا يخفى ماللتجاه الرمزي من أثر في شيوع عدد من الرموز

المقولات التي غدت (جاهزة) يتداولها الدارسون من غير تمحيص . وإن الطريق إلى تجاوز تلك المقولات لابد أن يكون عن طريق الدرس المثالي لأهم الظواهر الدلالية في الدلالة الحقيقية ، والمجازية والثقافية - الرمزية ، وهو ما تنبته إليه أنظار الدارسين المحدثين من النقاد واللغويين .



١ - التطور الدلالي عن طريق المجاز الرمزي :

نقف في هذا البحث عند قسم من أقسام البحث المجازي^(٢) ، هو «المجاز الرمزي» ، والتطور الذي سعى إلى تبيينه - وهنا - يتخذ اتجاهين : الأول منها يختص بطبيعة المجاز وتحوله إلى رمز . فالصورة يمكن استئثارها مرة على سبيل المجاز ، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح فإنها تغدو رمزا لدى شاعر معين^(٣) .

ويشكل الاستعمال المتكرر للمجاز لدى الشاعر منظومة رمزية خاصة ، فالصور المجازية التي نشعر بجديتها وإبتكارها لدى شاعر ما في عمل من أعماله تغدو بعد ظهورها في أعمال تالية خصائص فنية خاصة . . . تتخذ شكل المجاز الرمزي.

غير أن هذه المنظومة قد تكون مجالا لاشتراك عدد من الشعراء في زمن معين أو ضمن اتجاه فني ، فتغدو عندئذ منظومة عامة تنحصر جيلا أو اتجاهها لدى مجموعة من الشعراء .

(١) ياردين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، ويعمل ، الفن الرمزي ، ص ١٤

• انظر مقالتنا حول «الدلالة في المجاز والاستمارة» في : الموقف الأدبي ، العدد ١٦٥/ كانون الثاني ١٩٨٨ م اتحاد الكتاب العرب ، دمشق . ومقالتنا حول «التطور الدلالي في العربية الفصحى» في : عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر ، ١٩٨٦ م ، وزارة الإعلام ، الكويت

المجازية ، يتجلى في صوغ الصفة «سيفان» للدلالة على الرجل المشوق كالسيف^(٣) . إضافة إلى الاشتقاقات الفعلية الأخرى .

وإن استمداد كثير من الصور المجازية القديمة ، وتوظيفها في الشعر الحديث ، كان موضع نقد ، إذ اتجه النظر إليها لدى بعض الدارسين بحسب معايير الجودة والتقليد ، لتسويج الهجوم على كل قديم إلى درجة الاتمهان والابتذال^(٤) .

واتخذ البحث لدى بعضهم الآخر صورة الانتقاد الساخر ، فمارون عبود يقف عند بناء الصورة في شعر الأخطل الصغير ، ويتناول بعض الدلالات المجازية ، نحو : «الليث والنسر والسيف» ، ويعيب الشاعر على استعمال الأساليب العربية القديمة والمجازات العامة المبتذلة^(٥) .

وقد فات هؤلاء التفريق بين المجاز الذي يعد في الأساليب المجازية للغة والمجاز الفني الذي يدرس في نطاق الصورة ، ويقوم على أساس الجودة والابتكار أو الاحتذاء والتقليد .

والأجدى عندنا هو تحليل المجاز من خلال العلاقة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، وخصوصية الشعر من جهة ، ومن خلال التجربة الإنسانية الضاربة في القدم من جهة أخرى .

المجازية ، كالبلبل «الشاعر» ، والنسر «الشاعر» ... والفن» ، والنسر «الشاعر» .

أما الاتجاه الثاني - من اتجاهات التطور ههنا - فمختص بالتطور اللغوي الدلالي «الحقيقي» وفيه تفقد المجازات معظم قدراتها الإيجابية ، وتغلو دلالات لغوية تضاف إلى رصيد المعجم .

وتتسع العربية لضروب من الاشتقاقات المنحدرة من كلمات شاعت دلالتها المجازية . ونضرب أمثلة قليلة - ههنا - على أن تتخذ مواضيعها في الأجزاء التطبيقية لاحقاً ، فالشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٦) ، وتتولى أمه اللبوة رعايته والدفاع عنه ، ومن هنا جاء تشبيه المرأة التي تعطف على أولادها ، وتضرب على تنشئتهم بعد فقد الأب باللبوة التي ترعى أشبالها وتدافع عنهم . وقد رافق هذه الدلالة المجازية تطور اشتقائي (من اسم إلى فعل) ، فقيل : أشبلت فلانة بعد بعلمها : صبرت على أولادها ...^(٧)

ونعرض مثالا آخر هو كلمة «ذئب» التي تدل على حيوان له صفات مشهورة نحو : الحسة والغدر والخث . ومن المجاز الشائع تشبيه الإنسان بالذئب إذا خبث ، وقد رافق التطور المجازي ظهور اشتقاقات من الاسم «ذئب» إلى الفعل مجرداً ومزيداً . فيقال : ذئب فلان ذابة : خبث كالذئب ، وتذابته الريح : أثته من كل جانب فعل الذئب^(٨) .

وهناك ضرب من الاشتقاق في دلالة «السيف»

(٣) لسان العرب ، ١/١ ، ٣٥٢

(٤) أساس البلاغة ، ص ٢٢٨

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٦) لسان العرب ، ٩/١٦٦ - ١٦٧ ، وأساس البلاغة ، ص ٢٢٧

(٧) جبران خليل جبران ، الداع والطرائف ، ص ٤٩

(٨) عبود ، مارون ، على المحك ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، بيروت ، ط ١ ، رابعة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠ - ٤٩ ، ٨٩

عددا من المجازات التي تتحول إلى رموز دينية وصوفية، نحو الشمس، والأسد والصخرة، والنمر...^(١١)

وفي الجوانب الدلالية للدكتور فايز الداية مواضع متعددة حللت فيها مجازات وتشبيهات سائدة تصلح دليلا على اشتراك العربية واللغات الأجنبية في كثير من الأساليب المجازية، نحو: الكلب، والثعلب، والذئب، والخنزير.^(١٢)

ويجد شيوخ هذه المجازات لدى الشعراء المعاصرين تفسيرا يربط الشعر العربي، حديثه بقديمه، ويبدو أن الصلة بين الشعر الحديث والقديم هي التي كانت تزيد في اعتقاد الشعراء على محفوظهم، واستمداد الصورة القديمة، واعتمادهم عليها اعتمادا كبيرا.

فالشعر يعتمد إلى حد بعيد على التعلم، وعلى شعر سابق، كما أنه يمتد تاريخيا في ثقافات متنوعة، وغالبا ماتستعمل الكلمات في الشعر لتستدعي استعمالها الشعرية السابقة، ومن الطبيعي أن يؤلف شعر حضارة من الحضارات نظاما دلاليا ومجازيا متناسكا^(١٣).

إن لغة الشعر - باختصار - مغط من اللغة الأدبية يعتمد الدلالة المجازية، والعلاقات السياقية، ويشكل التاريخ الثقافي عامة، والاستعمال الشعري خاصة أساسا للغة الشعر الرمزية.

فالمجازات التي عايناها مارون عبود وإيليا حاوي وعصبة الشعراء^(١٤) وغيرهم على الأخطل الصغير^(١٥) لا يمكن أن تقتصر على المدلول الضيق للكلمة، وعلى الرغم من أنها مستمدة من عصر سالف غير عصرنا فقد أصبحت تعني معنى عاما، هو بمثابة الرمز لمعان متعددة، مثل القوة والعنف والبأس، وإن استعمال الشاعر كلمة «قنبلة» أو «مدفع» عوضا من السيف أو الرمح في هذا المجال لا يغير من حقيقة المعنى شيئا، وبالتالي لا يضيف عليه صفة الجدة والطلاقة إن لم يسء إليه. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأسد، وهو التشبيه القديم، فالأسد مازال رمزا للبأس في ذهن البشر برغم تقدمهم المادي في وسائل الفتن^(١٦).

وقد تنبه عدد من الدارسين والنقاد إلى صيرورة عدد من الصور القديمة رموزا ومجازات لغوية، وتشبيهات سائدة. فالفيلسوف «هيجل» يميز بين التطور الدلالي والاستعمال المجازي، والرمزي. يقول: «... وشيء آخر أمر الدلالة المستخدمة كرمز، فالأسد على سبيل المثال يعتبر رمز الشجاعة، والثعلب رمز المكر، والدائرة رمز الأبدية...»^(١٧) وصورة الأسد لاستحضار فينا فقط المعنى الذي لها من حيث هي رمز - البطل - بل تقدم كذلك الموضوع نفسه في وجوده الخفي.^(١٨)

ويرصد صاحبا نظرية الأدب - وايرين وويليك -

(٩) لمحة، د. عبد محمد، الأخطل الصغير، حياته وشعره، ص ٣٢٠ - ٣٢٥

(١٠) لجعل الإشارة إلى أننا استعنا شعر الأخطل الصغير أساسا للتطبيق، وقد أحصينا جميع المواضع المتعلقة بهذا الجانب في شعره إضافة إلى أمثلة أخرى اخترناها من الدواوين والكتب الأدبية والقديمة.

(١١) الدقاق، د. عمر. نقد الشعر القديم، ص ١٧٢ - ١٧٥

(١٢) (١٣) هيجل، الفن الرمزي، ص ١٢ - ١٤

(١٤) وايرين وويليك، نظرية الأدب، ص ٢٠٥ - ٢١٤

(١٥) (١٦) الفراء، د. فايز، الجوانب الدلالية، ص ٣٨٤ - ٣٨٥

(١٧) هو، غرامر، مقالة في النقد، ترجمة يحيى الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣ م، ص ١٣٤

ويسلك: بحث المجاز - ههنا - خطين متعاكسين ، الأول : من الحقيقة إلى المجاز ، والثاني : من المجاز إلى الحقيقة . ويكون ذلك يتبع الأصل الحقيقي الذي تطور إلى مجاز ، ويتبع المجاز الشائع الذي تطور إلى استعمال حقيقي أو معرفي .

* العلم ، العلم أصلا : الرؤية أو الجبل ، ثم أطلقت على الرجال عن طريق المشاهدة . وقد شاع استعمالها إلى درجة غدت تعد في الاستعمال اللغوي . وفي أساس البلاغة مثالان يثبتان بالأصل الحسي . يقول : «هو من أعلام العلم الخافقة ، ومن أعلام الدين الشاهقة»^(١٨) ، فالأعلام الأولى مأخوذة من دلالة الأعلام على «الرايات» ، والأعلام الثانية مأخوذة من دلالة الأعلام على «الجبال» بدليل ورود الصفتين : الخافقة والشاهقة .

واستعمال كلمة الأعلام للدلالة على الرجال الأفذاذ والمشهورين شائع في العربية على مدى عصور متتابعة . وغدت هذه الدلالة متداولة في كتب التراجم والسير قديما وحديثا^(١٩) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «علم» للدلالة على الشاعر عروة صاحب غفراء : «علم الهوى من آل عذرة عروة .»^(٢٠) . وترد أيضا للدلالة على أحد زعماء الكفاح الوطني الحديث : «ياله من علم في علم .»^(٢١) ، وقد جمع الشاعر - ههنا - بين دلالتَي : علم «الرجل» ، وعلم «الرأية» في نمط يدعى في البلاغة العربية المجاز اللغوي .

ولا يعني استعمال المجاز القديم أن الشاعر «تقليدي» غير مجدد ، فالعمل عليه - ههنا - لا يكون في استعمال هذه المجازات أو تلك - بل في سياقها ، وارتباطها بتجربة الشاعر من غير أن تبدو منبئة عنها .



ونختار أمثلة محدودة لرصد الظاهرة المدروسة ، لأن البحث يسعى إلى تقديم مادة صالحة لأن تكون أساسا لبناء أحكام صحيحة ، ولتفهيم التطور اللغوي عن طريق المجاز ، دون أن يدعي الإحاطة بالجوانب الدراسية للمجاز عامة .

ولا يخفى ما لغياب الدرس التأسيسي للمجاز من أثر سلبي في دراسة الخصائص الفنية . والحاجة ماثرة ماسة إلى تكاتف الجهود لإنشاء معجم شعر «صوري» يتقرب الصور المجازية من خلال تطورها التاريخي ، ويميز الحديث منها من القديم .

ومثائل خطتنا في هذه الفقرة ما ترسمناه في الفصل الأول ، وخاصة في تقصي الأصول الحسية للدلالة ، وتمييز الحقيقة من المجاز . وعمدتنا في هذا الجانب معجم أساس البلاغة للزحخشري مع مراجعات متعددة للأصول الأخرى من معاجم وكتب لغوية وبلاغية . ويوثق الجانب الحديث من خلال المعاجم الحديثة والداوين القريبة زمتا من الأخطل الصغير ، إضافة إلى اجتهادات مصدرها السماع .

(١٧) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٣١٢

(١٨) من كتب التراجم مثلاً : «الدرر الكامنة في أعلام الملة الثامنة والابن حجر المقلاي ، و «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ، ومن الكتب الحديثة والأعلام غير الدين الزركلي ، وسلسلة «أعلام العرب» في مصر ...

(١٩) شعره ، ص ٢٨٨

(٢٠) شعره ، ص ٣١٢

مثال للشجاعة ، وقد عدَّ الإمام عبدالقاهر أمثلة من هذا المجاز في الاستعارة والتمثيل العامي لشيوعه^(٢١) .

وقد مر بنا في تضاعيف هذا الفصل ما يدل على صيرورة هذا المجاز رمزاً شائعاً يرتبط في أذهان البشر بمعاني القوة والبأس والاستتال .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «أسد» في موضعين ، ففي الحديث عن شباب لبنان يرد قوله : «قضى على الأسد دهر لآذام له . .»^(٢٢) ، وفي الحديث عن كفاح العراق الحديث يرد قوله : «أسد العراق . .»^(٢٣)

ويلحق بالدلالة المجازية الرمزية - ههنا - ما يتعلق بالأصل الحقيقي ، فالأسد له أماكن سكن مخصصة الدلالة ، نحو «العرين» و«الغيل»^(٢٤) . وقد غدت شائعة الاستعمال بدلالاتها المجازية على «الوطن» لارتباطها بأصل المجاز «الأسد» . ولا يخفى على الدارس أن هذا الاستعمال يركز على خصيصة بارزة يشخصها أناس في مجتمع كلامي خاص بوصفها تشبيهات سائلة . ففي «الأسد» تكون السمة البارزة : الشجاعة والإقدام وجهها لوجه ، وفي «العرين» تكون السمة البارزة : المنعة والحماية المصون من الاعتداء . .»^(٢٥)

والمواضع التي وقفنا عندها في شعر الأخطل الصغير

* الشبل ، الشبل ولد الأسد إذا أدرك الصيد^(٢٦) . وفي أساس البلاغة دلالة مجازية من هذه المادة . يقول الزعزعي : «أشبليت فلانة بعد بعلمها : صبرت على أولادها ولم تتزوج ، ومنه أشبليت عليه إذا عطف ، وتقول : هي في إشبائها كاللبوة على أشبائها»^(٢٧) .

والدلالة المجازية - ههنا - واضحة وقد رافقها تطور اشتقائي (من اسم إلى فعل) . ودلالة الشبل على ولد الأسد مخصصة أصلاً ، ثم انتقلت إلى الدلالة على الصغير المرجو خيره وبأسه تشبيهاً له بأشبال الأسد .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الأشبال» بدلالاتها المجازية في حقل يضم دلالات أخرى كالأسد والعرين والفيل . . ففي الحديث عن بني حدان ترد كلمة «الأشبال» في السياق التالي :^(٢٨)

ملاعب الصيد من حدان مأسلوا
إلا الأهلة والأشبال والقضب

وفي الحديث عن فتیان الأمة حديثاً يرد قوله وليست من الأشبال فتية أمة . .»^(٢٩)

وقوله أيضاً : «أشبال ذا الوطن الجريح . .»^(٣٠)

* الأسد ، الأسد معروف ، وهو في عرف العرب

(٢١) لسان العرب ، ١١ ، ٣٥٢

(٢٢) الزعزعي ، أساس البلاغة ، ص ٢٢٨

(٢٣) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٢١

(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨

(٢٦) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإحجاز ، تحقيق د . محمد رشوان الداية رد . فايز الداية ، ص ١٣٧

(٢٧) شعرو ، ص ١٣٧

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣

(٢٩) الثعالبي ، أبو منصور ، فقه اللغة ودرر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت د . ث . ص ٣٠٢

(٣٠) الحواشي الدلالية ، ص ٣٨٥

الفعل مجردا ومزيّدا . ويبدو من خلال ماقدمنا فهم الزخشرى للتطور اللغوي ، وكشفه عن طريقه : المشابهة ، وانتقاء عنصر أساسي من دلالة الكلمة «حركة الذئب ودورانه . . . خبثه ، افتراسه»

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الذئب» بدلالته المجازية في موضع واحد . ففي الحديث عن تحكم المستعمر وأذنايه في الوطن يرد قوله : «ياأمة غدت الذئب تسوسها . . .»^(٣١)

* النسر ، النسر طائر من الجوارح ، حاد البصر ، قوي . من رتبة الصقريات ، وهو أكبر الجوارح حجما^(٣٢) ، ويمثل النسر في العربية رمزا للقوة والشمم ، والرفعة . وقد ذهب الأستاذ العقاد إلى أن هناك اشتباها بين النسر والعقاب في استعراك العرب ، جاء من وصف النسر بالصفات التي تنفرد بها العقاب ، فالنسر ليس من عتاق الطير . . . ويقع على الجيف ، وقلبا يصيد ولا يغالب له . . .»^(٣٣)

وفي هذا العصر غدا النسر شعارا لكثير من الأقطار العربية^(٣٤) ، وفي مجال الطيران تطلق كلمة «نسر» على الطيار امتداحا . وقد وردت بهذه الدلالة في شعر أحمد شوقي .^(٣٥)

تستعمل فيها كلمتا «العرين والغيل» للدلالة على الوطن . ففي حديثه عن «مصرع النسر» - المقصود ههنا أحد الزعماء - ترد كلمة العرين في قوله «ورمى الذعر في العرين الضراغم»^(٣٦) وفي الحديث عن كفاح لبنان يرد قوله : «إليه لبنان . . . أين العرين ؟ . . .»^(٣٧) ، وفي رثاء أحد الزعماء يرد قوله : «دخل الغيل على رثاله قدر . . .»^(٣٨)

* الذئب ، الذئب معروف بالافتراس والخسة والغدر ، وفي الأمثلة والآراء المتقولة عن عدد من النقاد والدارسين - في هذه الفقرة - مايدل على شيوع الدلالة المجازية الرمزية لكلمة «ذئب» ، وقد تنبه «يوجين نيداء» إلى هذا المجاز بوصفه من التشبيهات السائدة^(٣٩) .

وفي أساس البلاغة مايؤكد ذبوع الاستعمال المجازي وتطوره إلى الدلالة الحقيقية ، يقول الزخشرى : «من المجاز : هو ذئب في ثلة ، وهم أذؤب ، وذئاب ، وهم من ذويان العرب : من صعاليكهم وشطارهم ، وقد ذؤب ذآبة : خبث كالذئب . وأكلهم الذئب - أي السنة . وتذآبته الريح : فزعته . وتذآبته الريح : أنه من كل جانب فعل الذئب»^(٤٠)

ويتسع التطور - ههنا - لضروب من الاستعمالات المجازية التي رافقها تطور اشتقائي «من الاسم إلى

(٣١) شعر ، ص ٢٤١

(٣٢) شعر ، ص ٢٨٣

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣١٣

(٣٤) الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٥ - ٣٨٥

(٣٥) أساس البلاغة ، ص ١٤٠

(٣٦) شعر ، ص ٢٩٧

(٣٧) للمجم الوسيط ، ٢ / ٩١٧

(٣٨) العقاد ، حياض محمود ، أشادت مجتمعات ، ص ١٤٧ - ١٤٨

(٣٩) للمجم الوسيط ، ٢ / ٩١٧

(٤٠) الشوقيات ، ١٥٥ / ٢ ، الحلائية رقم (٢)

شجر»^(٤١)، ثم استعملت للدلالة على المنزل، يقول الزخشرى: «وكر الرجل: اتخذ طعاما عند بناء وكره أو شراؤه... ومن المجاز: مآدار في فكري نزولك في وكرى»^(٤٢)

وتمثل دلالة «وكر» على المنزل الذي يتخذه الإنسان تطورا ضمن المحسوسات - من التخصيص إلى التعميم - وقد وردت بهذه الدلالة في أساس البلاغة من غير أن ينص على أنها من المجاز.

غير أن هناك تطورا آخر في الفصحى المعاصرة - مصدره السماع - يتجلى في إطلاق كلمة «وكر» على المكان الذي يتخذ مطلقا للجريمة، وللدلالة على غتبا الخارجين على القانون.

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «وكر» للدلالة على «الوطن» و «المنزل»، ففي الحديث عن جبل لبنان يرد قوله: «إيه وكر النسر...»، والقصيدة تحمل عنوان «وكر النسر»^(٤٣) وفي الحديث عن كفاح لبنان الوطني يرد قوله «أيام وكرك في النسر مقدس»^(٤٤)، وفي الحديث عن أبي الطيب وإخفاق طموحه في إدراك الإمارة، يرد قوله: «إذن لا تكلت أم الشعر...»

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «نسر» بدلالاتها المجازية على البطل والمقاتل الباسل، ففي حديثه عن جبل لبنان يرد قوله: «قل لوكر النسر قدست وكر...»^(٤٥)، وفي الحديث عن استغلال الغرب لبنان وجوع أهله يرد قوله: «لبنان مالفراخ النسر جائعة والأرض أرضك...»^(٤٦) وفي رثاء أحد الأعلام يرد قوله: «النسر ذا نرق على هضباته...»^(٤٧)، وفي قصيدة يرثي فيها «فصل بن الحسين»، - وهي بعنوان مصرع النسر - يرد قوله: «ذلك النسر كيف خلق وانقض...»^(٤٨)، وفيها أيضا: «هكذا مصرع النسر...»^(٤٩)، وفي موضعين آخرين ترد كلمة «النسر» متضامة مع كلمة «وكر»^(٥٠).

ونشير إشارة موجزة إلى قصيدة شهيرة لعمر أبي ريشة، هي قصيدة «نسر»^(٥١) وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن نسر أبي ريشة صورة رمزية دلت على اضطرابه وترجحه بين عالم الفن، والواقع، وشقائقه في حياته على الأرض...^(٥٢) وفي فخر بدوى الجبل بلباء المناضلين يرد قوله: «نحن النسر ومن نعمي جوانحن...»^(٥٣)

ويمكن أن نتبع كلمة «نسر» كلمة أخرى ملازمة لها، هي كلمة «الوكر»، والوكر أصلا مكان الطير على

(٤١) شعر الأخطل الصغير، ص ٤٦

(٤٢) المصدر السابق، ص ٥٩

(٤٣) المصدر السابق، ص ١٧٧

(٤٤) المصدر السابق، ص ٢٤١

(٤٥) المصدر السابق، ص ٢٤٢

(٤٦) المصدر السابق، ص ٤٩، ٨٦

(٤٧) ديوان أبي ريشة، ١/ ١٥٨

(٤٨) الأثر، د. محمد صبري، الشعر في سورية، ص ١٢٤

(٤٩) بدوى الجبل، ديوانه، ص ٢٧٠

(٥٠) الندائي، قفة اللغة، ص ٣٠٣، واللسان، ٢٩٣/٥

(٥١) أساس البلاغة، ص ٥٠٧، ٥٠٨

(٥٢) شعر الأخطل الصغير، ص ٤٦

(٥٣) المصدر السابق، ص ٨٦

قديماً إلى الدلالة على الرجل الذي يشبه السيف أو يتقلده ، وقد عرف لهذا الاستعمال صور متعددة كالتشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل - بإطلاق الجزء على الكل - وفي الفصحى المعاصرة يشيع استعمال كلمة «السيف» للدلالة على المحارب والمناضل في مقام المدح . ومن هذه الدلالة مواضع متعددة في شعر أحمد شوقي وأنور العطار وعمر أبي ريشة وبدوي الجبل . . .^(٥١)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «السيف» بدلالتها المجازية في عدد من المواضع ، ففي حديثه عن تاريخ الشام وعراقة أهلها يرد قوله :^(٥٢)

نسلتهم أمضى السيوف فهذه
لابن الوليد وتلك للجراح

وفي رثاء هنانو يرد قوله : «سقط السيف بعد طول الضراب من يد المجد . . .»^(٥٣) وفي قصيدة «الجابي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :^(٥٤)

ألا سيف من الإيمان
يبسرى السيف مسنوناً
يجلي عن سما الأوطان
هذا الذل والهوان

وعطل الوكر . . .^(٥٥) وفي وصف الهجرة ، والتفاف الصغار حول أمهم ، يرد قوله : «تجمعوا في الوكر حول حامة جلجلها الأسي»^(٥٦)

* السيف ، السيف : نوع من السلاح وقد شاع استخدامه في القتال في عصور سابقة ، وبلغت أساؤه أو صفاته خمسين اسماً أو صفة^(٥٧) ، ومن السيف اشتقوا أفعالا متعددة نحو : سافه : ضربه بالسيف ، واستاف القوم وتسايفوا : تضاربوا بالسيوف ، وأساف وساياف وسيف وسيف . . .^(٥٨)

ويبدو أن تشبيه الإنسان بالسيف قديم وشائع ، ويدل على ذلك اشتقاق الصفة «سيفان وسيفانة» للدلالة على الرجل والمرأة إذا كانا ممشوقين كالسيف^(٥٩) . وفي دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر استعمالات مجازية لمادة «سيف» عدها المؤلف في التمثيل العامي^(٦٠) .

ويلاحظ الدارس عدداً من التسميات المعرفية المتطورة عن طريق المشابهة ، نحو : السيف الساحل الممتد في البحر ، والسملك الذي يشبه السيف ، والليف من السعف . . .^(٦١)

ويبدو أن الاستعمال المجازي لكلمة «السيف» تطور

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧

(٥٦) السيوطي ، للزهر ، ٤٠٥/١ - ٤٠٩

(٥٧) لسان العرب ، ١٦٦/٩ - ١٦٧ - والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١

(٥٨) اللسان ، ١٦٦/٩

(٥٩) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٠٥

(٦٠) لسان العرب ، ١٦٧/٩ - والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١

(٦١) الشوقيات ، ١٧/٣ ، وظلال الأيام للعطار ، ص ٩٨ ، وديوان أبي ريشة ، ٥٨/١ ، وديوان بدوي الجبل ، ص ٢٣٤

(٦٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٣٤

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٤

ورجل شمس^(٣٦) وقد عذها الزمخشري في المجاز ، وهي من الدلالات المتطورة التي غدت تدخل في مجال الحقيقة .

ويبدو للدارس من خلال الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة^(٣٧) أن تشبيه الإنسان رجلاً كان أم امرأة بالشمس شائع متداول ، وقد لوحظ فيه معاني الرفة ، والظهور ، والنور الموجودة في دلالة الشمس الحقيقية ، ويمثل هذا التشبيه ، تشبيه الإنسان بالقمر والبدر والهلل والكوكب والنجم والمصباح .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «شمس» في نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدها : المجاز الذي يتعلق بوصف الرجل أو المرأة بالرفة والبهاء والجمال . ومنه قوله في رثاء أحد الزعماء^(٣٨) :

كفنوا الشمس برميحان وورس
يا لشمس آذنت من عبد شمس

وقوله أيضاً : «عربي يصدع الشمس بشمس»
وقوله في رثاء فيصل : «أطلعت شمس فيصل منك مصابيح ..»^(٣٩) ، وقوله في وصف «سلمى» رفيقة الصبا : «وأرثنا إذ غابت الشمس شمساً»^(٤٠)

ويمثل هذا الاستعمال ماورد في شعر بدوى الجبل ، ففي رثاء «غازي» يسرد قوله : «مصراع

وفي قصيدة «رائد عربي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي^(٤١) :

يصرع السيف في غمار من المجد
فلا يرتضي سوى الدم غمداً
أنت أغنية السيف إذا شا
رت لتبني مجداً ويهدم مجداً

وعن سيف الدولة وأبي الطيب يرد قوله : «سيفان في قبضة الشهاب ..»^(٤٢)

وتخذ المجاز- في الموضع الأخير- شكلاً من مجاز الجذور اللغوية الذي يتعمق في معنى الأسماء والألقاب ، ليشير عدداً من المدلولات^(٤٣) ، فعلي بن حمدان عرف بلقب «سيف الدولة» حتى طغى على اسمه ، والأخطل الصغير يثير في المتلقي بذكر كلمة «سيفان» ثلاثة معان ، هي : معنى السيف السلاح ، ولقب سيف الدولة ، ومجاز : السيف الرجل العلم أى «علي والفتني» .

* الشمس ، الشمس : النجم الرئيس الذي ينشر الضياء ، وقد لوحظ معنى التحول وعدم الاستقرار في عدد من الدلالات المتطورة قديماً ، نحو «شمس فلان إذا ند ، ولم يستقر تشبيهاً بالشمس في عدم استقرارها»^(٤٤) ، ومنه : «شمس : أظهر العداوة ،

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٦

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٢١

(٣٧) رائق ، ك ، ذ ، المجاز اللغوي ، ترجمة عبدالواحد اللؤلؤ ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٥٤

(٣٨) الأصفهاني ، القراءات ، ص ٢٧٧

(٣٩) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٢٤١

(٤٠) ابن الأثير ، النحل السافر ، تحقيق ، محمد محي الدين عبدالحاميد ، البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٩ م ، ١/٥٩

(٤١) شعراء ، ص ٣١٢

(٤٢) شعراء ، ص ٢٤٠

(٤٣) شعراء ، ص ٨٢

العلم الذي يستضاء بعلمه أو قيادته ، وعلى الإنسان الموصوف بالصباحة والوضاءة رجلا كان أم امرأة . ويظهر في هذين الاستعمالين تطور ضمن المحسوسات : نور الصبح ، وإشراق الوجه ، وتطور من الحسي إلى المجرد : نور الصبح ، ونور العلم والهداية .

وفي التطور عن طريق التسمية المعرفية - لتطور الأدوات المستعملة - عرفت كلمة « مصباح » الدالة على المصباح الكهربائي Lampe électrique^(٨٦)، وتنافسها في مستويات أخرى من الفصحى المعاصرة كلمات أخرى نحو : « النور » و « الفسؤ » و « لمبة » المعربة^(٨٧).

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة « مصباح » بدلالاتها المجازية في موضعين ، ففي حديثه عن امرأة هجرها يقول^(٨٨) مهلا فمصباحك لم يأتلق إلا بما من شعلتي تقبسين وفي رثاء فيصل يرد قوله^(٨٩) :

أطلعت شمس فيصل منك للعر
ب مصابيح من شقوق الغمام
ويرد الاستعمال الأول إلى الدلالة على النضارة والثائق ، وفي الثاني ، يرد إلى الدلالة على الآمال

الشمس . . .^(٩٠) ، وفي رثاء « هنانو » يرد قوله : « ورثت الشمس من عبد شمس . . . »^(٩١)

ثانيها : مجاز يقترب من الاستعمال الحقيقي في إطلاق كلمة « شمس » على المصابيح الكهربائية الحديثة . وقد ورد منه مثالان ، ففي حديثه عن حياة المدن الحديثة يرد قوله^(٩٢) :

والكهرباء هنا تشع شمسوها
وسراج أكثر من هناك الأنجم
وفي وصف قصر الحاكم - متصرف لبنان - يرد قوله^(٩٣) :

لمن القصر بدت فيه الشمس
فعلل وجه السدجى منها نهار
* المصباح ، المصباح : السراج الذي يستضاء به ، وأصله منظور عن طريق المجاز المرسل ، لأن المصباح هو قرط السراج ، ثم أطلق على السراج والقنديل^(٩٤) . ويلاحظ تطور دلالة « صبح » إذا أشرق الصبح إلى الصباحة والجلال والبهاء والنور في الوجه خاصة ، ومنه مارواه الزمخشري : « من المجاز : رأيت المصابيح تزهر في وجهه . . . »^(٩٥)

ويبدو أن دلالة « الصباحة » غدت من التطور الدلالي الذي يعد في باب الحقيقة . أما الدلالة المجازية فتنتجلى في تشبيه الإنسان بالمصباح أو استعارته له دلالة على

(٨٤) ديوان ، بندي الجبل ، ص ٢٠٩

(٨٥) ديوانه ، ص ٢٣٢

(٨٦) شعر الأخطل الصغير ، ص ٩٢

(٨٧) شعرو ، ص ٢٠٢

(٨٨) لسان العرب ، ٥٠٦/٢

(٨٩) أساس البلاغة ، ص ٢٤٧

(٩٠) المعجم الوسيط ، ٩٠٤/٢ ومادة لخصه ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢

(٩١) المصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢ ، وشاعين ، د . عبدالصور ، في علم اللغة العام ، جامعة حلب ٨١ - ١٩٨٢ م ، ص ٢٥

(٩٢) شعرو ، ص ٨٤

(٩٣) شعرو ، ص ٢٤٠

والأحلام التي أطلعها شمس فيصل للعرب من خلال الفلام .

وهناك استعمال مجازي آخر يمكن أن يفرد في جانب متميز ، وهو استعارة المصباح للدلالة على نور العلم والهدى دون أن يشير إلى علم أو امرأة موصوفة بالجمال .

ويمثل هذا الاستعمال تطورا من الحسي - دلالة المصباح بأنواعه - إلى المجرى أي النور الذهني والإشراق الفكري .

ويرد من هذا النوع مثال واحد في شعر الأخطل الصغير ، ففي حديثه عن الفن ، يقول :^(٨٤)

إنني سكبت بها البيان على السلا
في عزلتي وجعلتها مصباحي

وأمثلة هذا الاستعمال كثيرة ، ومنها القديم والحديث ، وفالفريسي صاحب «المصباح المنير» جعل كلمة «مصباح» عنوانا لمعجمه مثلا . وهناك أمثلة أخرى من الاستعمال الحديث ، منها ماورد في الشعر نحو قول أنور العطار : «ياسنا الفن أنت مصباحي ..»^(٨٥) وما ورد في الدراسات الأدبية ، نحو قول أحمد الشايب في تاريخ النقد : «نتخذة مقياسا .. ومصباحا نهتدي به في إنشاء ..»^(٨٦)

* النجم ، النجم : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا أنحص^(٨٧) ، ويلاحظ الدارس تطورا ضمن المحسوسات من التخصيص إلى التعميم ، فقد خرجت دلالة «النجم» الذي يطلق في السماء إلى كل مايطلع ويظهر^(٨٨) ، وهناك تطور دلالي آخر يتمثل في دلالة نجم «على الجزء» ، لأن الدُّن كان يؤدي «نجوماء» أي لدى كل نجم . ومنه : «أنزل القرآن نجوما ..»^(٨٩)

وفي تطور آخر من الحسي إلى الذهني نجد دلالة التنجيم وهي النظر في النجوم تطورت إلى معنى التفكير والتبصر . «ويقال للإنسان إذا تفكر في أمر ينظر كيف يدبره : نظر في النجوم ..»^(٩٠)

وقد أشرنا في تضاعيف هذا الفصل إلى أن دلالة «نجم» - واحدة نجم السماء - محدثة ، فالنجم قديما هي شجرة ممتدة على وجه الأرض .^(٩١)

والتطور المجازي يتجلى في دلالة «نجم» قديما و«نجم ونجم» حديثا على الإنسان العلم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامعة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه

(٨٤) شعره ، ص ١١٧

(٨٥) العطار ، نور ، ظلال الأيام ، ص ٥٨

(٨٦) إبراهيم ، طه أحمد ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت . من مقدمة أحمد الشايب ، ص (٨٧)

(٨٧) لسان العرب ، ٥٧٠/١٢

(٨٨) المفردات ، ص ٤٨٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٤٤٨ ، واللسان ، ٥٦٨/١٢ ، والكليات للكفوي ، ٣٣٠/٤

(٨٩) لسان البلاغة ، ص ٤٤٨

(٩٠) لسان العرب ، ٥٧١/١٢

(٩١) المعجم الوسيط ، ٩٠٥/٢

ويصح لبشران كلما ذر نجم
فيه ولى عن أفقه وانهارا

وفي تحية شعرية يزجها إلى أحد أمراء آل سعود ،
يرد قوله : «أيها النجم من سعد رعاك الله ..»^(٩٤) وفي
قصيدة يصف فيها جمال سلمى الكورانية يرد قوله :^(٩٥)

وتمتت نجمة في أذن جارها
لما رأها وجئت عند مرأها
قصت نجيمتنا الحسناء بدعتها
عن نجمة الشط والأذان ترعاها

* الكوكب والكوكبة : أحد كواكب السماء
والنجم^(٩٦) ، ويبدو أن معنى الإشراق والبريق في دلالة
الكوكب تطور إلى تسمية كل ما يظهر فيه ذلك
كوكبا^(٩٧) ، وهو تطور ضمن المحسوسات .

أما وصف الرجل بأنه كوكب ، فقد جاء في
اللسان : «غلام كوكب : إذا ترعرع وحسن وجهه ..»
وهذا كقولهم له بدر .. ، وفي موضع آخر :
«الكوكب : سيد القوم»

ويستفاد من ذلك أن القدماء تنبهوا إلى التطور الذي
جاء من كثرة التشبيه بكل ذى نور ، نحو الشمس
والقمر والبدر والمصباح والنجم والكوكب .

العلماء بالنجوم في حديث نبوي^(٩٨) ، وتشبيه أصحاب
النبي (ص) بالنجوم في حديث آخر .^(٩٩)

ويستفاد من بعض المرويات أن هناك ارتباطا في
بعض المعتقدات بين ولادة الإنسان ، وظهور نجم
جديد يدل عليه .^(١٠٠)

والتطور الحديث غدا أكثر شيوعا في إطلاق كلمة
«نجم ونجمة» على الفنان والفنانة وكل من يوصف
بالتألق في مجالات الحياة كالسياسة والاجتماع والفن ..
وهذا التطور مماثل لما في اللغات الأجنبية ومتأثر به على
مايلدو ، ففي الفرنسية «Astre» فنان شهير
و«Etoile» أيضا نجم ، كوكب أى فنان وراقص
عالمي ورجل شهير .^(١٠١)

وقد وقعت في أحد امتدادات البحث التوثيقية على
عدد من المواضع التي استعملت فيها كلمة «نجم»
بدلالتها المجازي في شعر أحمد شوقي .^(١٠٢)

وفي شعر الأختل الصغير ترد كلمة «نجم ونجمة»
بدلالتها المجازية على العلم من الرجال ، والموصوفة
بالجمال من النساء . ففي حديثه عن جبران خليل
جبران يرد قوله :^(١٠٣)

(٩٢) المنذرى ، التزيين والتزيين ، تحقيق مصطفى حيار ، الباب الحلي بمصر ، ط ثانية ، ١٩٥٤ م ، ١٠/١٠٠

(٩٣) الكاظمي ، حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار العلم ، دمشق ، ١/٢٧

(٩٤) ابن كثير ، السيرة ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الباب الحلي بمصر ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م ، ١/٢١٣

(٩٥) المنهل الوسيط ، ص ٧٢ ، ٣٤٧

(٩٦) الشوايف ، ١/١٣٨ ونجم سوربة ، ١/٤٥ ونجم الملك ، ٢/١٥٠ ونجم البلاء

(٩٧) شعره ، ص ١٠٠

(٩٨) الفري والشباب ، ص ٣٢

(٩٩) شعره ، ص ٥٤ - ٥٥

(١٠٠) تختلف دلالة «نجم» عن «الكوكب» في الاصطلاح الحديث . فالنجم : جرم سماوي مضيء بذاته ، أما الكوكب فهو جرم يستضيء بضوء الشمس ويدور حوله

المعجم الوسيط ، ٢/٧٩٣ ، ٩٠٥

(١٠١) لسان العرب ، ١/٧٢٠ - ٧٢١

والتزامن هو تعبير يدل على وصف المدرك الحسي الخاص بحاسة معينة بلغة حاسة أخرى أى بالمفردات الدالة عليها ، نحو وصف الصوف بأنه غملي أو دافئ ، أو ثقيل أو حلو ، ووصف دوى النغير بأنه قرمزي^(١١٦) .

ويبدو أن هذا المصطلح حديث النشأة ، فقد جاء في معجم المصطلحات العربية أنه ظهر عام ١٨٩١ م في «قاموس القرن»^(١١٧) . ويذهب الدارسون إلى أن «بودلير» هو صاحب الفضل في انتشار المصطلح وتداوله^(١١٨) .

غير أن مايعنينا في هذا الجانب هو دراسة التزامن من وجهة لغوية - دلالية تقوم على تحليل الاستعمالات اللغوية المتزامنة على أساس البحث المجازي .

ففي نظرية الأدب «لوارين وويليك» يعدّ المؤلفان التزامن شكلا من أشكال التحول المجازي ، وهناك خاصة أخرى تعزى في بعض الأحيان للأديب والشاعر بخاصة وهي التزامن «synaesthesia» أو ربط الإدراكات الحسية الناشئة من إحساسين أو أكثر . وأشيعها بين الأدباء ربط السمع بالبصر ، السمع الملمون ، واعتبار صوت البوق قوزيا ، وغالبا ما يكون التزامن الحسي تقنية أدبية وشكلا من التحول المجازي .^(١١٩)

وفي التطور المجازي نميل إلى أن تطور كلمة «كوكب» مماثل لتطور كلمة «نجم» ، فالكوكب : الفنان والزعيم والبارع الجبال^(١٢٠) .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الكوكب» بدلالتها المجازية على الرجل الشهير أو الزعيم العلم . ففي حديثه عن عراقة الشام يرد قوله :^(١٢١)

هو منبت لكأرم هو مطلع
لكوكاب هو ملعب لجياد

وفي موضع مماثل يرد قوله :^(١٢٢)

الشام منبتهم وكم من كوكب
هاد وكم من بلبل صداح

وفي معجم المسرحيات العربية والمعربة ترد كلمة «كوكاب» للدلالة على الممثلين والممثلات ، وقد وردت في العنوان التالي : «فهرس كوكاب المسارح التمثيلية من ممثلين ، وممثلات»^(١٢٣)



٢ - التزامن الحسي :

وينفرد التزامن الحسي «synesthesie» بجانب من المجاز الحديث في الفصحى المعاصرة ، وهو واحد من سبل التطور الدلالي في الصورة الفنية .

(١٢٢) المجلد الوسيط ، ص ٧٢ ، ٢٤٧

(١٢٣) شمره ، ص ١٤٠

(١٢٤) شمره ، ص ٢٣٤

(١٢٥) فاخر ، يوسف أسعد ، معجم المسرحيات العربية والمعربة ١٨٤٨ - ١٩٧٥ ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٩٨

(١٢٦) روية ، مجدى ، وبهتديس ، كامل ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤

(١٢٧) المصنف السابق ، الموضع نفسه

(١٢٨) هورليك ، لويس ، الفن والأدب ، ص ١٧ - ١٨ ، ومختار ، د . محمد ، الأدب ولغاه ، ص ١١٠

(١٢٩) وارن وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٨٥ - ٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٦

بالنمو، والحشونة، والوضوح مع أن الوضوح للمرميات لا للمسموعات، والصفات الأخرى للملموسات.^(١١٦)

ويدخل التزامن لدى بعض الدارسين في المجاز الشائع في لغة الخطاب، وفي الأدب، على حين التمس له آخرون أمثلة ترجع إلى الكتاب المقدس والإلياذة والأوديسة^(١١٧).

ويمكن أن تنتهي من هذا الدرس إلى أننا ننظر إلى التزامن على أنه تطور ضمن المحسوسات، وأنه يخضع لما تخضع له بقية الأنماط المجازية من ابتداء وبسبب كثرة التداول حتى تغلو بعض أمثله أقرب إلى التعبير الخرفي منها إلى المجاز الفني أو الصورة المؤثرة انفعالياً. ويظهر هذا التحول من المجاز الفني إلى الاستعمال اللغوي «الخرفي» في بعض الأمثلة التي نقلها صاحباً نظرية الأدب، نحو «صوت جميل» وصفة «حلو» التي تخص اللوق ثم استعملت لوصف الروائع، والأنغام، والمناظر^(١١٨).

ويبدو من خلال المواضع التي وردت في شعر الأخطل الصغير من هذا النوع «التزامن» أنه يمكن أن تجعل في قسمين استناداً إلى تصنيف «أولان» وقياساً على أمثله. ويكون التطور في الأول من حاسة إلى أخرى، ويكون في الثاني بتطور معطيات حاسة معينة إلى المادى، والمجرد الذهني، وهو خروج على الحقل الدلالي للحواس.

وفي الجوانب الدلالية ينقل الدكتور فايز الداية تصنيفاً للتطور يقوم على نقل الأسماء للمشابهة بين المعاني، ويعدّ أولان - وهو صاحب التصنيف - التزامن واحداً من أقسام نقل الأسماء. «ومشابهة المعاني إنما تكون:

أ - ذات جوهريّة: في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة، والورقة الطبيعية، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية.

ب - متزامنة حسياً: وذلك بتشبيه الصوت باللون «يعزف بطريقة أكثر زرقة»، واللون بالرائحة «الأبيض المنعش».

ج - انفعالية: عندما يشبه إحساس ما شيء مادي رابطة بينهما بعض الخواص «صدقة دافئة»، و«خلق حلو، طيب»^(١١٩).

ولعل أقدم تفسير للالتزامن، واتجاه الدرس اللغوي فيه ما أورده الدكتور محمد مندور في الأدب ومذاهبه، فقد عدّ «التبادل أو التعادل» Correspondance اتجاهها لغوياً خاصاً بالبحث في وظيفة اللغة، وإمكاناتها، ومدى تقيدها بعمل الحواس، وتبادل تلك الحواس، على نحو يفسح أمام الكاتب أو الشاعر مجال اللغة، وتسخيرها لتأدية وظائف الأدب.^(١٢٠)

ويعدّ محمد مبارك التزامن - من غير أن يسميه - نوعاً من النقل من الحسي إلى الحسي نحو وصفنا للصوت

(١١٠) الداية، فايز، الجوانب الدلالية، ص ٣٨٠ و ٤٩-٤٩٠ Giraud, la sem-antique.

(١١١) مندور، د. محمد، الأدب ومذاهبه، ص ١١٠ - ١١١

(١١٢) المبارك، محمد، لغة اللغة وخصائص العربية، ص ٢٢٢

(١١٣) وهبة ومهندس، المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٨٤، ميكل، د. أحمد، الآداب، بيروت، عدد ١١/١٨/١٩ تشرين الثاني، ١٩٧١ م، ص ٢٣

(١١٤) دارين وويليك، نظرية الأدب، ص ٢٠٦

ومن الواضح أن دلالة «سطع» مرتبطة بحاسة البصر التي تدرك المحسوسات المرئية ثم تطورت دلالة الانتشار والانبعاث في ضوء الصبح إلى الدلالة على كل منتشر أو منبعث ، نحو: سطع الغبار ، وسطعت الراحثة : فاحت وعلت وانتشرت ، وسطع السحاب ، وسطع البرق ...

وتُصورُ في دلالات أخرى معنى الارتفاع والاستطالة الموجود في دلالة «سطع الصبح» فقول : سطاوع عمود الحياء ، وعنت سطاوع ، طويلة ومتنصبة ، ويصح أن يعد في هذا التطور معنى سطع بيدي : رفعها مصفقا^(١١٨) .

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» يقول الشاعر: ^(١١٩)

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حمرا وأنغاما حزانا

إن دلالة «تسقي العدى أكؤسا» تعد من المجاز القديم ، ففي «أساس البلاغة» : «من المجاز : تساقوا كأس الموت ، وساقته إياها ..»^(١٢٠) أى حارب بعضهم بعضا . أما دلالة «الأنغام» فهي مرتبطة بحاسة السمع التي تدرك الأصوات . غير أن الشاعر عمد إلى تجسيد الأنغام وجعلها مما يدرك بالذوق الحسي : الشرب . ويبدو أن دلالة «تسقى» متطورة قديما إلى دلالات ذهنية تاجرة على الحواس ، نحو :

ويضمّن القسم الأول الدلالات المتعلقة بالحواس ، وما ينتج عن تزامنها وتبادلها المواقع التعبيرية من أشكال مجازية ، على حين يضمّن الثاني مجموعة من الدلالات المجازية الدلالية التي تخرج فيها معطيات حاسة معينة من حقلها الدلالي لتندو استعمالا لغويا متطورا من المجاز .

آ - نقف في هذا القسم عند عدد من الدلالات اللغوية المتطورة عن طريق التزامن : من الحسي إلى الحسي ، أى من حاسة إلى أخرى .

ففي قصيدة بعنوان «الشام منبتهم» يقول الشاعر: ^(١٢١)

في كل رابية ، وكل حنية
عصاء تسطع بالشذا الفسواح

ودلالة : سطع الشذا ماثلة لما عدّه الزمخشري من المجاز ، يقول : «من المجاز : سطعت رائحة المسك ، وأعجبني سطوع رائحته»^(١٢٢) ويبدو من خلال مراجعة أصول مادة «سطع» أنها مرتبطة أصلا بسطوع الصبح لإضاءته وانتشاره . ويقال للصبح إذا طلع ضوءه في الساء قد سطع .. أول ما ينشق مستطिला ، وفي حديث السحور : كلوا واشربوا لايهيدنكم الساطع المصعد .. وأشار إليه . يعني الصبح الأول المستطيل .. فلذلك قيل للعمود من أعمدة الحياء سطاع ، ومنه عنت سطاوع إذا طالت وانتصبت^(١٢٣)

(١١٥) شمر الأنطال الصغير ، ص ٢٢٢

(١١٦) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٢١٠

(١١٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ١٥٤/٨ - ١٥٥ - ١٥٥

(١١٨) الصدر السابق ، ١٥٥/٨

(١١٩) شمر ، ص ١٨٠

(١٢٠) أساس البلاغة ، ص ٢١٥

وقد نبه الأصفهاني إلى أصل الدلالة ، وما تطور منها من دلالات مجازية ، يقول : «والس يقال فيها يكون معه إدراك بحاسة اللمس ، وكني به عن النكاح ، فقيل : مسها .. وكني بالسن عن الجنون ، قال : وكالذي يتخطبه الشيطان من المس» ، والسن يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى ...»^(١٢١)

ويمكن أن نعد دلالة «مس العطر» من التطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم . وفي مواضع كثيرة ترد مفردات تدل على العطر والشد والأريج في سياقات تقوم على التجسيد المتزامن .

ففي قصيدة بعنوان «الفردوسي» يقول الشاعر :^(١٢٢)

هل للأزاهر عن أمانها خبر
عن شاعر سكب الأطباء في فيها

وفي قصيدة بعنوان «عيد الحبيب» يقول :^(١٢٣)

النور والعطر رقرقان في أفق
من المباسم مدّ الظن والظفر

وفي قصيدة بعنوان «الصبا والجبال» يعتمد الشاعر على تجسيد «العبر» في قوله :^(١٢٤)

سكر الروض سكرة صرسته
عند مجرى العبير من تهديك

استقى الأخبار والمعارف أي أخذها وتلقاها من مصادرهما .

وفي موضع آخر نجد الشاعر قد عمد إلى تجسيد «الغناء» ، وهو عما يدرك بالسمع وجعله مما يتناول أو يتذوق عن طريق الشم . ففي قصيدة بعنوان «بابي أنت وأمي» يقول :^(١٢٥)

غنني واسكب غناك ولماك
في فمي فذبت فاك ، هل أراك
وعلى قلبي يدأك ورصاك

وفي جانب آخر نجد أمثلة للتزامن بين حاسي اللمس والشم ، ففي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، يقول الشاعر :^(١٢٦)

ملعب الأحلام ما أح
سلاك حلو المبتم
وإذا مسك عطر
في أهازيج النسم
تنبرى الريشة والأو
تار والحبّ النغم

وبدل أصل «مس» على اللمس باليد^(١٢٧) ، ثم تطورت الدلالة إلى كل ما يلامس الجسد أو يقع أثره عليه أو يصيبه ، نحو مس الماء والوسط والمرض .. وغيرها من المحسوسات .

(١٢١) شعرة ، ص ٢٦٣

(١٢٢) شعرة ، ص ٣٣٥

(١٢٣) لسان العرب ، ٦/ ٢١٨

(١٢٤) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٦٧

(١٢٥) شعر الأقطب الصغير ، ص ٧٣

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٣١٨

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٥

إجمالاً على أنها مجازية ولو عن طريق الحساسية الأدبية واللغوية .

وهناك «بعض العبارات» وهي طبعاً أكثرها ابتداءً - قد قبلها الجمهور، وتفهمها كصفة الخلاوة التي تطلق قبل كل شيء على الطعام ثم على الصوت واللون واللمس، بل وأخيراً على السجية الخلقية. «^(١٣٦)

وترتبط الدلالة اللغوية لمادة «حلا» بحاسة الذوق : حلا الشيء صار حلواً وحل الطعام : جعله حلواً . . غير أن الدلالة خرجت إلى مجموعة من المعاني المجازية . ففي أساس البلاغة : «من المجاز : حلي فلان في عيني . . وحليت الشيء في عين صاحبه، وهو حلو اللقاء، وحلو الكلام، واستحليت هذه الجارية، واحلوت لي . . وجارية حلوة العينين، وتحالت المرأة : أظهرت حلوتها . «^(١٣٧)

ويظهر التطور - هنا - في توسع الدلالة وخروجها من التخصص بحاسة الذوق الحسية إلى الدلالة على كل ما يروق ويمس من منظر، وسلوك، وخلق وكلام . . إضافة إلى دلالاتها في وصف معطيات الحواس الأخرى كالشم والسمع . وفي نظرية الأدب ينقل المؤلفان عن «كامبل» صاحب فلسفة البلاغة قوله : إن صفة «حلوا» وهي في الأصل تخص الذوق يمكن أن تستعمل الآن للروائح والأنغام والمناظر. «^(١٣٨)

وفي قصيدة بعنوان «مرحبا مصر» يجسد «الأريج» وينقله من الشم إلى اللمس والبصر . يقول :^(١٣٩)

ليس تألو الرياض أن تروظ الزهر
بر وأن تجمع الشدا ليس تألو
لتريق الأريج سكبا وبهتا
نا على وجه مصر حين يطل

وفي قصيدة بعنوان «ثم إن قلبي» يجسد «الشدا» ويجعله ماء . يقول :^(١٤٠)

وإذا النسيم وأنت في بحر الشدا
غرق دنا من وجنتيك ليلثما

وفي موضع واحد من قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» اجتمع ضربان من التزام أحدهما من السمع إلى البصر، والآخر من اللمس إلى البصر . فقد عمد الشاعر إلى تجسيد «الأين» وجعله مما يرشف بالعين . يقول :^(١٤١)

وأنيأ باحت النجوى به
عربيا رشفته مقلتاننا

ب - ونقف في القسم الثاني عند عدد من معطيات الحواس التي توسعت دلالاتها، وخرجت من خصوصية التزام . وسوف يبدو من خلال الأمثلة أن هذه المعطيات تمرّت لجوانب متعددة من التطور، حتى عد معظمها في الاستعمال اللغوي، ولم تعد نشعر

^(١٣٨) : نفس السبق . ص ٦١

^(١٣٩) : نفس السبق . ص ٦١

^(١٤٠) : نفس السبق . ص ١٨١

^(١٤١) : هزيت . الفن والأدب . ص ١٩

^(١٤٢) : فرجعتري . أساس البلاغة . ص ٩٤

^(١٤٣) : وادي وويك . نظرية الأدب . ص ٢٠٩

بالإحساس الداخلي Affectivité^(١٣٥) ، وقد ذهب بعض المحدثين إلى عد هذا التطور من التطور غير المحمود الذي لأمسوخ له^(١٣٦) . وفي الموضع الرابع ترد وماحلاكه للدلالة على جمال الطبيعة ، وترد عبارة وحلو المبتسم للدلالة على جمال الإشراق . وتوظف الدلالة - وهنا - لوصف جمال لبنان ومظاهر الطبيعة فيه

وتماثل دلالة «مرء صار مرأ التطور الذي تبيّنه في مادة «حلا» ، فدلالة «مرء الشيء صاراً مرأ ، وأمر الشيء...» مرتبطة بحاسة الذوق التي تميز الطعم . غير أن هذه الدلالة توسعت إلى وصف كل مستكره من منظر وكلام وأمر... وفي أساس البلاغة (من المحجاز نزل به الأمان : الحرم والمرضى ، ولقيت منه الأمانين ، ومر عليه العيش وأمر ، وما أمر فلان وما أحل...)^(١٣٧)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «مرء» في موضعين ، ففي قصيدة بعنوان «سلي الليل» ترد قوله^(١٣٨)

سقيت سرارات الحياة فلم أجد
كمثل الذي يقيه من كفك المجر

وفي قصيدة «عروة وعفراء» مرّ بنا موضع وردت فيه كلمة مرّ في قوله : «مر الشقا بحلاوة الوجدان»^(١٣٩)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «حلا» في مواضع متعددة ، ففي قصيدة بعنوان «وداد» يصف جمال ابنته ، ويقول^(١٤٠)

حلاوة مهمما يزد

يوم عليها تزد

وفي قصيدة بعنوان «أحل الحب» يرد قوله^(١٤١) وإن كان أحل الحب أول قبلة... ، وفي قصيدة بعنوان «عروة وعفراء» ، يقول^(١٤٢)

يمشي لمنزله بنفس مغالب

مرّ الشقا بحلاوة الوجدان

وفي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، ويقول^(١٤٣)

ملعب الأحلام ما أحـ

للك حلو المبتسم

ففي الموضع الأول ترد كلمة «حلاوة» لوصف الجبال الحسي ، وفي الموضع الثاني ترد كلمة «أحل» لوصف اللذة الحسية في القبلة ، وفي الموضع الثالث ترد عبارة «حلاوة الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» متطورة في الفصحى المعاصرة إلى معان متعددة ، منها دلالتها على حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم ، وما يتعلق

(١٣٤) شعرو ، ص ١٠١

(١٣٥) شعرو ، ص ٢٧٧

(١٣٦) شعرو ، ص ٢٩١

(١٣٧) شعرو ، ص ٣٣٥

(١٣٨) عبدالتور ، د ، جهور ، المعجم الأدبي ، ص ٢٨٩

(١٣٩) المبارك ، محمد ، لغة اللذة وخصائص العربية ، ص ٣٣

(١٤٠) أساس البلاغة ، ص ٤٢٦

(١٤١) شعرو ، ص ٧٢

(١٤٢) شعرو ، ص ٢٩١

ونقف في ختام البحث في تطور المواد المتعلقة بالذوق عند تطور الكلمة الدالة على الحاسة نفسها «ذائق» . واللوق حاسة تُميّزها خواص الطعم وبوساطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه - اللسان. (١١٧)

غير أن التلوق لم يعد مقتصرًا على الذوق الحسي بل تطوّر إلى معنى «التعرّف» أو الملائمة الحسية ، وتطور إلى الدلالة على مد النظر إلى النساء وتفحص مواطن الجمال فيهن .

وفي الأدب والفن تدلّ مادة «الذوق» على حاسة معنوية ، أو ملكة الإحساس بالجمال ، والتمييز بين حسنات الأثر الفني وعيوبه (١١٨) . وتطورت دلالة «الذوق» أيضا إلى شؤون الحياة والمجتمع كالذوق في اختيار الملابس ، واللوق في المعاملة والمجاملة ، والذوق في ترتيب المنزل ...

وفي أساس البلاغة يعدّ الزغشري دلالة «ذقت الطعام» الأصل الحسي ثم يعدّ الدلالات المتطورة جميعا من المجاز . يقول : «من المجاز : ذقت فلانا ، وذقت ماعننه . . وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعا عليه ، وما ذقت اليوم في عيني نوما ، وذائق القوس : تعرّفها ينظر مامقدار إعطائها ، وذق قوسي لتعرف ليها من شدتها ، وقد ذاقتها يدى ، وتذواق التجار السلعة ، وذائق كفي فلانة إذا مستها . وفي الحديث «إن الله يبيض الذواقين والذواقات كلما تزوج أو

تزوجت مدّ عينه أو مدت عينها إلى أخرى ، أو آخر .» (١١٩)

ويمكن أن تردّ أمثلة الزغشري إلى ثلاثة أضرب ، الأول : اللمس «ذاقها يدى» والثاني : البصر «الذواقون والذواقات» ، والثالث : الحس المعنوي الفني «حسن الذوق للشعر» ، إضافة إلى الأمثلة التي تدل على التعرف ، نحو : ذاق القوس ، تذواق التجار السلعة ...

وفي شعر الأخطل الصغير تردّ مادة «الذوق» في عدد من المواضع . ففي قصيدة بعنوان «السلول» ، يقول : (١٢٠)

لا لا أنسام ولا أفوق كسرى
أنا لست من يحميا لفجير غد

وإنّ دلالة «أذوق كرى» من المجاز القديم الذى ذكره الزغشري ، وقد غدت هذه الدلالة استعمالا لغويا لا يثير في المتلقي حزة انفعالية .

وفي قصيدة بعنوان «هند وأمها» يقول : (١٢١)

عسرتهم واحدا واحدا
وذقت السدى ذقته مرتين

وتقترب دلالة «ذقت الذى ذقته» من معنى التعرف ، ومعاناة الشيء . وفي قصيدة بعنوان «سلمى الكورانية» يقول الشاعر : (١٢٢)

(١٢٣) للمجم الربيط ، ١ / ٣١٨

(١٢٤) عبدالنور ، د . جبر ، المجمد الأمي ، ص ١٨

(١٢٥) الزغشري ، أساس البلاغة ، ص ١٤٧

(١٢٦) شعرة ، ص ٢٥٤

(١٢٧) شعرة ، ص ٢١٩

(١٢٨) شعرة ، ص ٥٥

اهتمامنا كان موجهاً إلى رصد التطور الدلالي الحقيقي دون غيره من جوانب التطور وبجالاته .

آ - ففي جانب من جوانب الدرس المجازي - وهنا - نفق عند عدد من الصور المتطورة بتأثير الترجمة ، وما ينشأ عنها من إشراب الكلمة العربية دلالة الكلمة الأجنبية ، فتعدو أكثر ارتباطاً بالعصر ومعطياته .

وأول مانقف عنده تركيب وصفي هو «ابتسامة صفراء» ، وتقوم الصورة - هنا - على تجسيد الابتسامة وإعطائها صفة لونية «الصفرة» ، وتختص هذه الصفة في نظام الألوان «السيبولوجي» بالدلالة على القلق وعدم الاستقرار والذبول ، وشحوب الحياة .

وقد ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي إلى عدّ هذا التركيب الصوري المجازي من التعابير الأوربية المترجمة . يقول : «ضحكة صفراء أو ابتسامة صفراء» ، وهو في الفرنسية «Rile jaune»^(١٤٦)

ودل السياق الذي وردت فيه هذه الصورة في شعر الأخطل الصغير على ارتباطها بجر المرض والشحوب ، فالحديث كان عن مرض أحمد شوقي في لبنان .^(١٤٧)

والتركيب الثاني هو «وجهك المستعار» ، ونمىل إلى عدّه تعبيراً مترجماً ، أو متأثراً بالمعاداة الأوربية الحديثة في وضع الأقمعة المستعمارة في الحفلات التنكرية . ويبدو - هنا - تطور الدلالة الحسي إلى الدلالة على المظهر الكاذب والرياء والخداع .

إذا أرتك الجبال الغيد كاسية
فالشط أذوق منها حين عراها

وعلى الرغم من أن دلالة «أذوق منها» عامة غير مخصصة ، فإنه من الممكن أن تعد في الذوق الفني الذي يختص بالجمال الحسي .

وفي قصيدة بعنوان «شاعر النيل» يقول :^(١٤٨)

أنت والنيل ضفتان لمصر
تنبئان الأذواق والأزاقا

وإنّ إنبات الأذواق - هنا - دلالة مجازية يمكن أن تسلك في الذوق الفني الذي يدل على ملكة الإحساس بالجمال في جميع مناحي الفكر والأدب والفن .



٣ - أثر التطور الدلالي الحديث في تراكيب مجازية شائعة :

ويختص القول في هذه الفقرة للدرس عدد من التراكيب المجازية «الصور الفنية» ضمن سياقها النظامي syntagmatique . وتعزى جذة الصورة - هنا - إلى ورود كلمة متطورة دلاليا فيها ، أو قيامها عليها ، ويلاحظ أثر الترجمة في حداثة عدد من الصور ، إضافة إلى ارتباط بعضها بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أننا وقفنا عند عدد من الصور المجازية ضمن المواد المحللة في القسم الأول ، غير أن

(١٤٦) شعره ، ص ٢١٤

(١٤٧) السامرائي ، د . إبراهيم ، لغة اللغة المقارن ، ص ٢٨٩

(١٤٨) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٩

ودل السياق على استعمالها للدلالة على المجد والنصر
والتضحية . يقول: (١٥٧)

يباجهاداً صفتى المجد له

لبس الغار عليه الأرجوانا

وفي سياق صورة فنية ترد عبارة «قوس من النور»
للدلالة على شاهنامة الفردوسي ، ويبدو أن هذا
التركيب المجازي مستمد من دلالة «قوس النصر» ،
وهو عقد من خشب أو نحوه يقام فوق الطريق العام في
شكل قوس ويزين بالمصابيح والأعلام ونحوها . . (١٥٨)
وتماثل هذه الدلالة التعبير الفرنسي Arc de triomphe

يقول الأخطل الصغير: (١٥٩)

قوس من النور مساجت تحته أمم
وغسابة من طبقى غنى الردى فيها

ب- وفي قسم آخر من التراكمات المجازية الحديثة ،
ترد مجموعة مستمدة من السياق الاجتماعي والحضاري
الحديث .

ونقف عند تركيب وصفي هو «البالي الأحمر» ، وهو
تركيب مجازي يدل على انتهاب الملذات في النوادي
اليلية ، أو السعي إلى تبعية الشرب والملذات في مكان
آخر .

ودل السياق الذي وردت فيه هذه العبارة على

وفي الفرنسية Masque قناع ، وجه مستعار ،
ومظهر كاذب ، ورياء . bal Masque حفلة راقصة
تنكرية . (١٦٠)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد عبارة «وجهك
المستعار» في موضع واحد . يقول: (١٦١)

فناهب العيش لا أبأ لك نهبا
وأطرح عنك وجهك المستعارا

وفي أحد أعداد مجلة «الأدب» وقفت على التركيب
نفسه وارداً في شعر تحليل حاوي ، وفي افتتاحية
العدد . (١٦٢)

والتركيب المجازي الثالث ، هو «لبس الغار عليه
الأرجوان» ، ودلالة «إكليل الغار» مستمدة من
الفرنسية على ما يبدو ، فالغار Laurier إكليل ،
وانتصار وتكلم بالمجد . (١٦٣)

وفي المعجم الرسيط «الغار : كان الرومان يتخذون
منه إكليلاً يترجون به القائد المظفر أو الشاعر الملقى رمز
لمجده .» (١٦٤)

وقد أضفت كلمة «الغار» المتطورة عن طريق
إشراها معنى الكلمة الفرنسية وما تحمله من دلالة
ثقافية ، جدة وحداثة في التركيب المجازي الصوري .

(١٥٦) جلالوز - د. حيدر - وليفرس د. سبيل ، التعليل الوسيط ، ص ٤٤ ،

١٥٣) شعرة ، ص ٩٦

(١٥٤) مجلة الآداب ، بيروت ، عدد ٧ ، ص ٩/٩ ، تموز ١٩٦٦ م ، ص ٣٠٢

(١٥٥) المهن الوسيط ، ص ٩٧

(١٥٦) المعجم الوسيط ، ص ٢٠٦٦

(١٥٧) شعرة ، ص ١٨٩

(١٥٨) المعجم الوسيط ، ص ٢٠٧٦ ، المصطلحات العلمية والفنية ، ص ٢٦/٣

(١٥٩) شعرة ، ص ١٦٦

بجو عصرية هو تنويع ملكة الجبال في حفل ذي رسوم معلومة .

ويبدو أثر التقليد الحديث «تنويع ملكة الجبال» في السياق كله ، فدلالة «التاج» غدت رمزا للتكريم ، ويبدو أنها مستمدة من صفر التاج لدى الرومان ووضعه على رؤوس الملوك والشعراء والعظماء .

وقد وردت عبارة «صفر الغار» للدلالة على التكريم في شعر الأخطل الصغير،^(١٦٦) كذلك وردت عبارة «ترى تاجا يصفر» للدلالة على مكانة عمر بن أبي ربيعة وسبقه .^(١٦٧)

ونميل إلى عد هذه التراكيب من التراكيب الحديثة دلاليا ، وبجازيا ، ولا يخفى أثر التقاليد الاجتماعية الحديثة في تطورها .

ج- ونلمح مواقع التطور الدلالي في تراكيب مجازية شائعة . وسوف نقف عند ثلاث مواد استمدت منها الصور المجازية .

فالإكليل كلمة معروفة قديما بدلالاتها على التاج المزين بالجوهر ، وقد وردت كلمة «التاج» مرادة كلمة «الإكليل» ، في موضعين من لسان العرب .^(١٦٨)

ويبدو التطور الحديث في دلالة «الإكليل» على طاقة من الورد والزهر ، وقد تعددت أغراض الأكاليل في عصرنا ، وأهمها مايقدم في مناسبات الزواج والأفراح ،

ارتباطها بالجو الاجتماعي الحديث . ولا يخفى - ههنا - أثر الصفة اللونية «الحمرة» ، فالحمرة من الألوان المهيجة وترمز غالبا إلى اللذة والمتعة الحسية . يقول الأخطل الصغير:^(١٦٩)

غنّي بابلبي ، واسقي ياجدوني
اللبيالي الحممر لسي والشراب

كذب الواشي ونخاب
من رأى الشاعر تاب
عمره فجر من الحب
ولسيل من شراب

وترد تراكيب متعددة مستمدة من دلالة «تاج» ، و«عرش» غير أن مايمتنا ههنا هو ارتباط التعابير المجازية بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

ففي مناسبة تنويع «ملكة الجبال» ، ترد كلمتا «تاج» و«عرش» في السياق التالي:^(١٧٠)

الصبا والجبال ملك يديك
أنى تاج أعز من تاجيك
نصيح الحسن عرشه فسالنا
من تراهها له فدل عليك

ويلاحظ - ههنا - توسع في الاستعمال المجازي في عبارات غدت شائعة الاستعمال ، نحو «عرش الشهرة» و«عرش العلم» و«عرش البطولة» . ونقف عند تركيب «عرش الحسن» فالعرش في هذا السياق مرتبط

(١٦٠) شعره ، ص ٦٩

(١٦١) شعره ، ص ٤٥

(١٦٢) المرقى والشباب ، ص ١٧٩ - ١٧٧

(١٦٣) شعره ، ص ١٥١

(١٦٤) لسان العرب ، ٢١٩/٢ ، ٢٩٥/١١ - ٥٩٦

وفي شعر عمر أبي ريشة دلالة مماثلة ، يقول :^(١٧١)
ودعنا إلى لقاه فبينا إل
حب والشج حامل إكليله

وهناك كلمة أخرى دارت على السنة أكثر الشعراء المعاصرين ، وهي «الملاك» ويلاحظ أن هذه الكلمة غدت رمزا للجمال والطهر والبراءة . وقد فارقنا هذه الدلالة أصلها الحسي الذي يدل على الرسول الذي يجعل رسالة ، والمملك المرسل إلى الأنبياء ، وغدت من المجاز الحديث .

ودلالة «الملاك» محدثة ، وتدل على ملك نوراني يتشكل بأشكال مختلفة .^(١٧٢) وقد استعملت هذه الكلمة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية . وهي واردة في عهده القديم للدلالة على «رسول الرب» أي «ملاك» .^(١٧٣)

وفي موضعين من مواضيع كثيرة يظهر التطور المجازي . ففي قصيدة بعنوان «عشت فالفب بشعراها» يقول :^(١٧٤)

من ملاك فني برديتها مقيم
جسد طاهر وروح كريم
وعيا فيه ترى الحسن حيا

والأتراح ، وقد ذهب المعجم الوسيط إلى النص على حداثة هذه الدلالة .^(١٧٥)

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «إكليل» في عدد من التراكيب المجازية المتطورة من دلالة الإكليل الحسية . ففي الحديث عن «الزهاوي» ترد عبارة «إكليل الأدب»^(١٧٦) ، وفي الحديث عن «شاعر النيل» ترد عبارة «أكاليل من زنود وأجباد»^(١٧٧) . . وفي الحديث «مصرع النسر» ، ترد عبارة «الأكاليل من ذؤابة هاشم»^(١٧٨) ، وفي حديث الشاعر عن شعره يرد قوله : «صغت الأكاليل من نور ومن أرج للعيد . . .»^(١٧٩) .

وتشير المواضع المذكورة إلى تطور دلالة «الإكليل» المجازية إلى رمز للرفعة والمكانة السامية ، وترد في الموضوع الأخير إشارة إلى أكاليل الفرح في الأعياد . فقصائد الشاعر أكاليل توج بها الأعياد ، ومجال الطرب والشعر .

وهناك دلالة مجازية مستمدة من دلالة «الإكليل» في طقوس الزواج المسيحي ، والإكليل - ههنا - غذا رمزا للقاء الحبيبين في يوم الزواج . وترد كلمة «الإكليل» للدلالة على الزواج عن طريق المجاز المرسل في قوله :^(١٨٠)

وأنه سوف يسعى سعي مجتهد
حتى يوطيء للإكليل مسراها

(١٧٥) المعجم الوسيط ٢ : ٧٩٦

(١٧٦) شعره . ص ١٦٦

(١٧٧) شعره . ص ٢١٣

(١٧٨) شعره . ص ٣٣٨

(١٧٩) شعره . ص ٣١٨

(١٨٠) أغرى ولنا . ص ١٢١

(١٧١) ديوان أبي ريشة . ١ : ٢٤٣

(١٧٢) المعجم الوسيط . ٢ : ٨٨٦

(١٧٣) سفر التكوين - الإصحاح ١٦ . الآية ٧ - ١١

(١٧٤) شعره . ص ١٥٣

وفي الشعر الحديث ترد كلمة «هيكِل» بدلالاتها المجازية في مواضع كثيرة، ففي ديوان الشوقيات «هيكِل الحرية»^(١٧٦) و«هيكِل الأسجاح»^(١٧٧)، وفي ديوان أبي ريشة «هو ذا هيكِل...»^(١٧٨) وليس في هيكِل مجال لشمشوم»^(١٧٩)، وفي الشعر المعاصر للطاهر مكي يرد قول فدوى طوقان «أنا هنا وحدى بهيكِل ذكرياتي...»^(١٨٠)، ومن قصائد الشابي المشهورة قصيدة بعنوان «صلوات في هيكِل الحب»^(١٨١)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «هيكِل» للدلالة على موضع الذكرى، والقداسة، ففي وقوفه أمام الصحراء العربية يرد قوله عن نفسه: «إحدى الشموع أمام هيكِلك الرهيب»^(١٨٢) وفي تحية موجهة إلى نضال فلسطين يرد قوله: «فلسطين ياهيكِل الذكريات...»^(١٨٣)، وفي سياق الحديث عن اكتشاف الكهرباء، يقول علي لسانها: «لتحجبت... ولما دنس هيكلي»^(١٨٤)

وتشير المواضع الثلاثة إلى استعارة دلالة «هيكِل»: بيت العبادة، وتوظيفها في سياقات مجازية.

ويسوّغ اتجاه الدرس وقوفنا عند جانب آخر من الدلالة، «فالهيكِل»: الضخم من كل شيء، والفرس، والبناء المشرف. وتشير الأصول إلى دلالة

وفي قصيدة بعنوان «أترى يذكرونه»، يقول: ^(١٧٥)

قلت أهواك ياملاكي فردت
مقلتهاه . لكن تلعمش فوه

ويبدو استعمال كلمة «ملاك» في كلا الموضعين دالا على جمال المحبوب، وبراءته وطهره. وهي صفات ملحوظة في دلالة «الملك النوراني». ويمكن أن تعد كلمة «ملاك» رمزا من الرموز الدينية في الشعر الحديث.

وفي مواضع أخرى، ترد كلمتا «ملاك» و«ملك» للدلالة على المحبوب أو الملك النوراني في سياقات مجازية. ^(١٧٦)

والهيكِل هو بناء البيعة برمته أو صحنها، وموضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان. وقد نص الوسيط في طبيعته الأولى على حداثة هذه الدلالة. ^(١٧٧)

ويبدو للدارس تطور دلالة «هيكِل» في الشعر الحديث عن طريق المجاز إلى معنى مستحدث يدل على بيت الشاعر، وملاذنه، ومكان ذكرياته، وأشواقه. ومن الواضح أن هذه الدلالة للمجازية متطورة من دلالة «الهيكِل» على بيت العبادة وما يحدث فيه من مناجاة وبيع ودعاء.

(١٧٥) شعره، ص ٢١٤

(١٧٦) شعره، ص ٤٨، ٤٩، ٢٠٣، ٢٢٢، وملاكه، ص ٢٠١، ٢٠٤، ٢٨٧، وملكه

(١٧٧) الحجم الوسيط، ١٠٠١/٢، ط. أول، تصوير، د. ت

(١٧٨) الشوقيات، ١٥٢/٢

(١٧٩) المصدر السابق، ١٥٣/٢

(١٨٠) ديوان أبي ريشة، ١٨٩/١

(١٨١) المصدر السابق، ٢٤٩/١

(١٨٢) مكي، د. الطاهر أحمد، الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط. أول، ١٩٨٠، ص ٢٢٥

(١٨٣) الشابي، أبو القاسم، أغاني الحياة، دار مصر، القاهرة، ط. ١٩٥٥، م، ص ١٢١

(١٨٤) شعره، ص ١٦٥

(١٨٥) شعره، ص ٢٩٩

(١٨٦) شعره، ص ٣٥٣

كلمة «عرس» على فرحة الاستقلال ، والنصر ، أو الشهادة ، وترتبط الشهادة بدلالة العرس من جانب اجتماعي ووطني ، فقد غدا سماع نبا الاستشهاد مدعاة لإطلاق الزغاريد ، ومن هنا جاء وصف الشهادة بأنها عرس .

ويمكن أن تنتهي إلى أن كلمة «عرس» غدت تطلق على كل فرح مهما كان نوعه ويشكل الاستعمال المجازي في الشعر أساسا لهذا التطور .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «عرس» في مواضيع كثيرة ، وسوف نقف عند أهم التراكيب المجازية ، ونحيل إلى الباقي . ففي قصيدة بعنوان «ليالي الجهاد» ، ترد عبارة «عرس البطولة» في السياق التالي^(١٨٧) :

أو كقيشارة علاها غبار الـ
مجد غنت عرس البطولة قبلا
وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناء» ، ترد عبارة «عرس الأحرار» ، في قوله^(١٨٨) :

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حرا ، وأنغاما حزاني

وفي مواضيع أخرى ، ترد كلمة «عرس» للدلالة على الفرح عامة . نحو «نحن عرسان للغناء والشعر»^(١٨٩)

«هيكل» على أنماط ضخمة من الشجر ، ثم انتقلت إلى التحيل تشبيها ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارء على أهل الجزيرة العربية هو «بيت النصارى» ، وفي دلالة «الهيكل» تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات .^(١٩٠)

والتطور الحديث في هذا الجانب مستمد من دلالة «البناء» ، ففي الفصحى المعاصرة غدت كلمة «هيكل» تدل على بناء أساسي في المصطلحات الأدبية والفنية والصناعية .

ففي المجال الأدبي النقدي ، يقال مثلا «هيكل القصيدة» و«هيكل القصة» . ويلاحظ أيضا ظهور المصدر الصناعي الجديد «الهيكلي» ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي structuralisme . وقد ترجم إلى «بنوية» ، و«بنائية» ، و«بنائية» أيضا^(١٩١) .

د- وفي مواد أخرى يلاحظ الدارس أثر المجاز في شيوع الدلالة ، ويعد المجاز في هذا الجانب سببا من أسباب التطور باتجاه التعميم .

فالعرس : الزفاف ، والتزويج ، وليمتها ، غير أن هذه الدلالة توسعت عن طريق المجاز في تراكيب شائعة في الفصحى المعاصرة ، نحو : عرس المجد ، وعرس البطولة ، وعرس الأحرار .

ويلاحظ الدارس إطلاق كلمة «عرس» على الأفراح والمناسبات التي استجلت في حياتنا ، نحو إطلاق

(١٨٧) الغاية : د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣
(١٨٨) المسند : د . عبدالسلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٠٤ ، وعورتك ، الفن والأدب ، ص ٢٧٣ ويندوز ، ص د . محمد ، الأدب ومداه ، ص ١٢٤ ، والموقف الأدبي ، عدد ١٣٥ - ١٣٦ ، نموذج - آب ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٠ والفكر العربي المعاصر ، عدد ١٩ / ١٨ ، شياط - آذار ١٩٨٢ م ، ص ٩٧

(١٨٩) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٣

(١٩٠) المصدر السابق ، ص ١٨٠

(١٩١) المصدر السابق ، ص ٣١

والناس في عرس ، فيبست الزغاريد في الخلق وذالت
دولة ووئذ استقلال .»^(١٩٦)

والأحلام هي عبارة عما يراه النائم في نومه من
الأشياء ، ولكن غلبت «الرؤيا» على ما يراه من الخير
والشيء الحسن ، وغلب «الحلم» على ما يراه من الشر
والقيح ، ومنه قوله تعالى : «أضغاث أحلام»^(١٩٧) ،
ويستعمل كل واحد منها موضع الآخر.^(١٩٨)

وفي أساس البلاغة ومن المجاز : أحلام نائم
للأمان الكاذبة^(٢٠٠) . ويبدو أثر الاستعمال المجازي في
تطور دلالة «الأحلام» إلى كل ما يلد على الرغبة ،
والأمل ، والأمنية والطموح ، إضافة إلى الدلالة على
مفهوم «الأحلام» في التحليل النفسي الحديث ، وما
استحدث له من مصطلحات ، نحو «أحلام اليقظة» ،
وهو ضرب من التخيل يربخي الفرد فيه العنان لنفسه
فيهم بين صور خيالية لذيفة مشبعة برغبات لم تتسع في
الحياة الواقعية .^(٢٠١)

ويبدو أن هناك علاقة ما بين ما يراه النائم في نومه ،
وما يتمناه في صحوه وحياته ، وقد شغل تحليل الأحلام
نفسيا كثيرا من مدارس التحليل النفسي الحديثة .

و«خُتّ لعربك عرس الشعر .»^(١٩٩) ، و«عرس
ماجت البشائر فيه»^(٢٠٠) في وصف استقبال روح حافظ
إبراهيم في جنة الخلد . و«عرس أهازيجه حم .» في
وصف ذكرى الاستقلال^(٢٠١) ، و«عاد العرس
مأساة» ، في وصف نكبة لبنان بحكامه بعد فرحة
الاستقلال .^(٢٠٢) ، و«إسلام فارس أعراس»^(٢٠٣) في
وصف فرحة الفرس بالدين الجديد . وترد أيضا في
مواضع أخرى في سياق صور فنية تقوم غالبا على
المشابهة .^(٢٠٤)

ونماثل ماوقفنا عنده مواضع متعددة في الشعر
الحديث ، ففي شعر أبي ريشة «عرس المجد»
و«عروس المجد»^(٢٠٥) ، وفي شعر بلوى الجبل «حملت
زغردة العرس لكم» في وصف فرحة الاستقلال^(٢٠٦) ،
وفي مختارات الشعر العربي المعاصر ، يرد قول سليمان
العيسى «العرس عرس المجد لم تر أمتي أشهى وأحل»
وقوله : «أنا من عربك في الشبال تمرّ بي الأعراس
عجلي» ، وقوله : «عرس العروبة .»^(٢٠٧)

وفي آخرين نثرين : «وإذا هو رأى الأعراس
والأفراح أيام فيصل .»^(٢٠٨) ، «ولكن النكسة حلت

(١٩٢) المصدر السابق ، ص ٧٥

(١٩٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢

(١٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٣١

(١٩٥) المصدر السابق ، ص ٣٣٨

(١٩٦) المصدر السابق ، ص ٧٤

(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢١

(١٩٨) ديوان عمر أبي ريشة ، ٤٣٧/١

(١٩٩) ديوان بلوى الجبل ، ص ٩٥

(٢٠٠) (٥) ، (٦) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩

(٢٠١) المطار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (٥)

(٢٠٢) الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر ، ص ١٤

(٢٠٣) (٩) يوسف ، نية / ٤٤/

(٢٠٤) لسان العرب ، ١٢/ ١٤٥

(٢٠٥) أساس البلاغة ، ص ٩٤

(٢٠٦) المصطلحات العلمية والفنية ، ١/ ١٧٢

وفي شعر الأخطل الصغير ترد تراكيب مجازية كثيرة ، ويبدو أن المجاز - ههنا - تحول إلى حقيقة ، ويؤيد ذلك شيوع الاستعمال في الفصحى المعاصرة .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم التراكيب المجازية ، ونحيل بعدئذ إلى الباقي ، ففي مواضيع متعددة ترد كلمة «حلم» للدلالة على الأمنية ، نحو «حلم عربي»^(٢٠٧) ، وللدلالة على الرغائب «حلم اللهو والشراب»^(٢٠٨) ، وللدلالة على الآمال «أنشدت أحلامي على فارغ من خشب القلب»^(٢٠٩) ، و«ياقصور المني على شفق الأحلام .. أطلعت شمس فيصل للعرب مصابيح»^(٢١٠) ، و«أعيادك البيض أحلام مجنحة»^(٢١١) . ومواضيع أخرى كثيرة .^(٢١٢)

وفي مواضيع مماثلة ترد كلمة «الأحلام» في شعر أبي ريشة «مابلغنا بعد من أحلامنا ذلك الحلم الكريم ..»^(٢١٣) ، و«يشرح لي أحلامه»^(٢١٤) ، و«سرت وملء الدرب أحلامي»^(٢١٥) ، ومواضيع أخرى^(٢١٦) .

وفي مختارات «الشعر العربي المعاصر» ، يرد قول سليمان العيسى «ويجسد الحلم الكبير على شفاة الحاضر ..» و«أهلا فتي العرب وحلمهم»^(٢١٧) . وفي مقدمة «ظلال الأيام» : «أيام سعدنا بأحلام الشباب» و«وقف شعره على تقديس الألم العبقري فبكى الأحلام الضائعة»^(٢١٨) .



(٢٠٧) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٤٩

(٢٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٠٩

(٢٠٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٢١٠) المصدر السابق ، ص ٢٤٠

(٢١١) المصدر السابق ، ص ٣١٨

(٢١٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩

(٢١٣) ديوان أبي ريشة ، ١٤٤/١ - ١٤٤/١ ، ٤٤٥

(٢١٤) المصدر السابق ، ٣٩٥/١

(٢١٥) المصدر السابق ، ٣٥٦/١

(٢١٦) المصدر السابق ، ٩٣/١ ، ٨٤ ، ١١٩ ، ١٩٥ ، ٣٥٥

(٢١٧) مكي - الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٣٣٥ - ٣٣٧

(٢١٨) النظار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (م ، ي)

المصادر والمراجع

- إبراهيم، طه أحمد تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الحكمة، بيروت، د. ت.
 ابن الأثير، صباه النبين للقي السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، الباء الحلبي بمصر، ١٩٣٩ م
 ابن كثير السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الباء الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ، ١٩٦٤ م
 ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، وتصويرو، د. ت.
 أبوريشة، عمر ديوانة، دار العودة، بيروت، ط. رابعة، ١٩٨١ م
 الأشتري، د. محمد صبرى الشعر في سورية بين الحريين، أمثلة مستنتجة في كلية الآداب جامعة حلب، ١٩٧٢ م - ١٩٧٢ م
 الأصغهبالي، الرغائب المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة - بيروت، د. ت.
 بدوى الخليل (محمد سليمان الأحمد) ديوانة، دار العودة، بيروت، ط. أولى، ١٩٧٨ م
 التتاليهي فله اللغة ورسر العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
 جبران، جبران خليل البدائع والطرائف، مكتبة كرم، دمشق، د. ت.
 الجرجاني، عبدالقاهر دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمد وصرمان الداية، دار قتيبة، دمشق، ط. أولى، ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م
 الجورى، بشارة (الأحطل الصفي) المحوى والطيب، دار المعارف، ١٩٥٣ م
 شعر الأحطل الصغير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. ثالثة، د. ت.
 خياطة يوسف، ومروعتي، نديم المصطلحات العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠ م
 داهر، يوسف أسعد معجم المسرحيات العربية والعربية، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٨ م
 الدادية، د. فايز الجوابية الدالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الملاح، دمشق، ط. أولى، ١٩٧٨ م
 الدفاق، د. عمر. فنون الأدب المعاصر في سورية، دار الشرق، حلب، ط. أولى، ١٩٧١ م
 نقد الشعر القومي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨ م
 رضى، ك. ك. المجلد الأدبي، ترجمة د. عبدالواسد لؤي، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨ م
 الزبيدشرى (محمود بن عمر) أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م
 السامرائي، د. إبراهيم. فقه اللغة للفران، دار المعلم للملايين، بيروت، ط. ثالثة، ١٩٧٨ م
 السوطي المخر في علوم اللغة وأثرها، تحقيق محمد أحمد جواد المولى وملي محمد الجبوري ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الباء الحلبي، القاهرة، د. ت.
 الشامي، أبو القاسم إلهاني الحياة، دار مصر، القاهرة، ط. أولى، ١٩٥٥ م
 شامون، د. عبدالصبور في علم اللغة العام، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب، ١٩٨١ - ١٩٨٢ م
 الشهابي، مصطفى الفسطاط العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، حامية الفول العربية، القاهرة، ١٩٥٥ م
 شوقي، أحمد الشوقيات، مطبعة لا تخفامة، القاهرة، ١٩٥٣ م
 عيود، مارون. على الملحك، دار الثقافة، ودار مارون عيود، بيروت، ط. رابعة، ١٩٧٠ م
 عبدالنور، د. جبريل للمعجم الأدبي، دار المعلم للملايين، بيروت، ط. أولى، ١٩٧٩ م
 عبدالور، د. جبريل، المنهل الوسيط (فارس)، دار المعلم للملايين ودار الآداب، وادريس، د. سهيل بيروت، ط. أولى، ١٩٧٢ م
 الجطار، أنور. فلال الأيام، مطبعة البرهاني، دمشق، ١٩٤٨ م
 العنقاد، عباس محمود أشتات معجمتات في اللغة والأدب، دار المعارف بمصر. ط. ثالثة، د. ت.
 قبيحة، د. مليد محمد الأحطل الصغير، حياته وشعره، دار الأفاق الجبلية، بيروت، ط. أولى، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م
 الكائد حلوى، حياة الصحابة، تحقيق محمد علي دولة، دار القلم، دمشق
 الكفوري، أبو البقاء الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ط. ثالثة، ١٩٨١ م، ١٩٨٢ م
 المارك، محمد. فقه اللغة وعناصر العربية، دار الفكر، بيروت، ط. سابعة، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨١ م
 مجيع اللغة العربية للقاهرة المعجم الوسيط، دار الفكر، ط. ثالثة، د. ت.
 السدي، د. عبدالسلام الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط. ثالثة، ١٩٨٢ م
 مكى، د. الطاهر أحمد الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط. أولى، ١٩٨٠ م
 مندور، د. محمد الآداب ومناهج، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
 النشري الترغيب والترهيب، تحقيق مصطفى حيار، الباء الحلبي بمصر، ط. ثالثة ١٩٥٤ م
 هو، غراهام مقالة في النقد، ترجمة محي الدين صبيح، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٣٣٣ هـ، ١٩٧٣ م
 هورنك، لويس الفن والآداب، ترجمة د. بدر الدين قاسم الرضاوي، مراجعة د. عمر شخاير، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٥ م
 هيل، الفن الرمزي، ترجمة جورج طرابايني، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩ م
 وقبة، وسجنى والمهندس، كامل معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩ م
 ويليك، رينيه، وادريس، أومنت نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبيح، مراجعة د. حمام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. ثالثة، ١٩٨١ م

الدوريات

- مجلة الآداب ، بيروت ، العدد / ٦ / ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
 مجلة الآداب ، بيروت ، العدد / ٧ / ، تموز (يوليو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
 مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ - ١٩) ، شباط - آذار ، ١٩٨٢ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٢٠ / ، نيسان ، ١٩٨١ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٢٢ / ، حزيران ، ١٩٨١ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق العدد / ١٣٥ - ١٣٦ / تموز - آب ، ١٩٨٢ م
 مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٣٨ - ١٣٩ / ت ١ ، ت ٢ ، ١٩٨٢ م

المراجع باللغة الفرنسية

- Dubois (J.), Giacomo (M.), Guespin (L.) Marcellesi (J.B.),
 Mevel (J P.).
 Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.
 Guiraud (P.)
 La semantique, Oue sais-je? presses universitaires de France 8e edition, Paris 1975.



عندما خصصنا المبحث الرابع للزراعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، ضمن سياقها التاريخي والثقافي ، عللنا هذا المسلك بأهمية دمج المستوى الدلالي للمتن ورؤية الشاعر للعالم في بنية شعرية أشمل ، تربطها بالمتن علاقة مرجعية دالة ، وذلك بمقتضى إجرائية المنهج الذي اخترناه وحاولنا الإفادة من طرائقه . فحتى تستوفي بنية المتن تماسكها دلالياً وروياً كان من اللازم أن نلحقها ، وفق ما فعلنا ، بالحقول الشعري الذي أنتجها وحدد لها ملامحها التكوينية ، وعلى ضوء هذا أليس من الوارد والحتمي القيام بنفس المسلك إزاء الحقول الشعري السوداني الموسوم بنزعة الزنوجية ؟ نقصد أليس في الإمكان دمج هذا الحقول الشعري ، المرجعي مبدئياً ، في بنية شعرية تشمله هو الآخر ، وتتيح لنا فهمه بشكل أوسع مما رأينا ؟ وبالتالي ألا يجوز أن ينتقل المرجع من وظيفته التفسيرية للمتن إلى وظيفة أخرى تجعل منه بنية قابلة لأن تُفسَّر هي في حد ذاتها ، اعتماداً على بنية أكبر ، أو على مرجع المرجع ؟ كل ما نساءدنا حوله ممكن وجائز ، بل وضروري أيضاً ، نظراً إلى (أن دراسة هذه البنية الأوسع تستلزم بدورها القيام بدورها في بنية أخرى تتعالق معها ، وتحتويها)^(١) .

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي

بغيسى بوصالة

هذا إذن ما سنلجأ إليه في المبحث الرابع ، بحيث سنتصب مقاربتنا على بنية شعرية ، نحوز ، بالقوة وبالفعل ، أواصر مرجعية مع ما حددناه كنزعة زنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، وهذه البنية الشعرية المقصودة هي الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، مؤطرا بإطاره التاريخي والثقافي .

ونحنياً لأي تماؤ مفرد ، قد يجرنا إليه هذا المسلك ، نبادر إلى القول إن ما ستقوم به لا يتعلق ببحث ما في

من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية إيمي سيزير عام ١٩٣٩ ، وتبناء على الفور ليوبولد سيدار سنغور^(٢) ، وقد وردت الكلمة لأول مرة ضمن ديوان سيزير المشهور (مذكره عودة إلى بلدي) الذي نشر في العام نفسه .

هذا ما يتعلق بمفهوم الزنوجة وبولادتها ، ورثها تفصيل الحديث في جل ما يرتبط بالزنوجة ، من حيث تسديدها المفهومي ، ومن حيث ردود الفعل التي خلقتها ، نرى لزما أن نعود إلى فترة ما قبل ولادة الكلمة ، إلى المهدات التي سبقتها ، وبالتالي إلى الأفكار والطروحات التي راجت في العالم الأسود قبل أن ترسم الزنوجة كحركة فكرية على يد الثلاثي المعروف ليوبولد سيدار سنغور ، وإيمي سيزير ، وليون داماس . فهل يعقل مثلا أن تكون الزنوجة قد نهضت ، كمشروع حضاري في انقطاع عن إرهابات مبكرة ؟؟ طبعاً لا ، وحتى مع عدم حيازة تلك الإرهابات لنفس المدلول الذي التصق بالزنوجة ، فهي ترشح بتحليل مقارب للتحليل الذي أعطته الزنوجة لمختلف إشكاليات العالم الأسود . إن تلك الإرهابات تبقى ذات وزن كبير أثناء أي تناول للزنوجة ، لأنها تدلنا على الانشغالات التي استبدت بالفكر الزوجي ، في ظل التجربة التاريخية المريرة التي مر بها السود وهم يواجهون مشروع تدمير هويتهم . إننا نقصد بهذه الانشغالات مواقف ووجهات نظر لا تخلو من تماسك ، مظان كتابات ثلة من المثقفين السود ، ممن سبقوا جبل سنغور وسيزير وداماس .

وربما أمكن إرجاع بقطة الوعي الزوجي إلى القرن الثامن عشر ، إلى أحد الفلاسفة الأفارقة ، إنه أموغينا

احتمالات التأثير التي من الجائز أن تكون للشعراء الزوج الأفارقة - الأمريكيين على الشعراء السودانيين ، أو استكشاف قرائن ما لانتمكاس شعر أولئك على شعر هؤلاء ، فنحن لا يمتنا لا هذا ولا ذلك ، وإنما الذي يعيننا في الأساس هو محاولة التقاط ما يمكن أن نعتبره نقاطاً للتشابه والتشارك بين الشعراء ، أو ما يمكن عده ، باللغة الغولدمانية ، عناصر تمثالي بنيوي ، لا تنحصر في تناظرية المكون الدلالي - الرؤيوي في كليها ، بل وتمس سياقاتها التاريخي والثقافي . لكن قبل أن نشرع في تحليل مختلف جوانب الشعر الزوجي الإفريقي - الأمريكي ، أليس من المجدي أولاً تناول الكلمة - المفتاح ، الزنوجة ، وتفكيك مدلولها ، وما رافق هذا المدلول من حشيات ، وصولاً إلى تبيان مضاعفاتها المتعددة ، جماليا ودلاليا ورؤيوي ، على كامل الفعاليات الثقافية لدى زونج إفريقيا وأمريكا والأنتيل .

يقول ليوبولد سيدار سنغور في استجواب سئل خلاله عن مفهوم الزنوجة : (للكلمة معنى مركب : موضوعي وذاتي ، موضوعياً تعني الزنوجة ، مثلاً حددت ذلك ، « مجموع القيم الحضارية للعالم الأسود » ، أما ذاتياً فإنها تعني الطريقة التي يتخلدها أي زنجي أو أية مجموعة سوداء في ممارسة القيم الأيلة إلى حضارتها^(٣) . هذا هو التعريف الذي سطره سنغور للزنوجة ، وسواء أخذنا من هذا التعريف المعنى الموضوعي ، أو أخذنا المعنى الذاتي ، ففي المحصلة نكون حيال رؤية وجودية خاصة تشترط ممارسة الفرد الأسود ، كما تشمل سائر العالم الذي يحيا به السود . لكن هناك شيء يجب أن نشبه وهو أن كلمة الزنوجة ، كصيغة لغوية ، لم تكن من وضع سنغور ، إذ أن أول

(٢) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre. in (Magazine litteraire) no. 195-Mai 1983-P. 31.

(٣) ب. س. لوبد : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٩٦ .

تضحاً في الحديث عن هذه الخصوصية ، هي فترة الميلاد الرسمي للزوجة . فالجوهري في استحضارنا لأمو هو هذا المقال بالذات ، فهو وثيقة تضيف إلى قيمتها التاريخية ، التي لا جدال فيها ، قيمة أولية تتضح في تعبير أمو عن وعي بالدونية وبالاختلاف ، وأيضاً عن وعي بأهمية تجاوز هذه الدونية القسرية ، ثم التنظير لاختلاف الهوية الزوجية عن الهوية البيضاء ، مع العلم أن الإحساس بالدونية والاختلاف هو الذي حرك كل الأوعية الزوجية التي سبقت ميلاد الزوجية أو تولدت من صلبها . لقد كان أموجل لاهوت ومنطق وميتافيزيقا ، بيد أن ما تكتسبه الوثيقة الأتفة من وزن يفوق وزن كل ما خلفه من تراث نظري ، ولعل الفضل في اكتشاف تلك الوثيقة يعود إلى الزعيم الإفريقي قوامي نكروما . هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختيار أمو - بعد استعادته لحريته - العودة إلى مسقط رأسه له دلالة القصوى في رأينا ، إذ فضل الرجوع إلى إفريقيا بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي أتاحتها له إقامته في أوروبا . إن العودة من لدن فيلسوف ، لن يجد حثاً في قارته مناخا علميا مواليا ، تأخذ بعدا عميقا ، فهي اختيار وجودي دال ، ووعي بضرورة الانسداد إلى فضاء وثقافة ذاتيين ، داخلهما يجب أن يتأمل ويبدع بدل المكوث في فضاء وثقافة غربيين .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن التاسع عشر فسوف نواجه علما آخر كان لأراه ، ولا شك ، أثر ملموس في مفهوم « الشخصية الإفريقية » ذي الصلة الوثيقة بمفهوم الزوجة ، إنه إيدوارد ويلمت بلايدن ، المفكر الزوجي الدائع الصيت ، خصوصا في أوساط المثقفين السود الناطقين بالإنجليزية وكما كان للثقافة الغربية فعلها في تلمل وعي الفيلسوف أمو ، يقدم بلايدن مثالا إضافيا

آفير أو أمو فينسيا الإفريقي ، أحد المسكوت عنهم في تاريخ الفلسفة الإنسانية . فلقد كان لإحساس هذا الفيلسوف بمأزقه العبودي - بحيث أخذ من إفريقيا إلى أوروبا كمعد في بداية الأمر - تأثير كبير في تفتح وعيه على هويته المغايرة ، وفي إدراكه حيوية التسلح بالمعرفة الغربية ، الفلسفية خاصة ، لكي يتمكن من التنظير لمأزقه العبودي ولغايرة هويته ، باعتبارهما مأزقا ومغايرة يهمان ملايين من إخوانه السود . وهكذا كان حرصه على التكوين الفكري لشخصيته ، وعلى النهل من نفس الثقافة الغربية التي تسوغ استعباده واستعباد أبناء جنسه ، فكان نبوغه الفلسفي في ألمانيا مشارا انتباه الأوساط الفلسفية وقتئذ ، بل ولقد أوصلته المعبية الفكرية ، وهو الأسود المستعبد ، إلى التربع على كرسى التدريس الجامعي في جامعات « هال » و « ينتربغ » و « إينا » خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر . ومن هنا كان ضروريا أن تفضي هذه التجربة المنفردة ، أي قدرة أسود على امتلاك الثقافة الغربية ، إلى نشوء وعي لدى أمو بجدارته الإنسانية ، وبأحقية السود في وضع حقوقي يعيد إليهم الاعتبار ، فكتب مقالا باللاتينية تحت عنوان « حقوق الأفارقة بأوروبا » ، وبما لا ريب فيه أن (هذا المقال ذو أهمية ، ذلك أنه يؤكد إلى أي حد كان أمو على وعي بوضعيتهم كإفريقي ، وإلى أي حد كان أيضا منشغلا بمشكلة الاسترقاق وبالشروط الاجتماعية للسود في أوروبا)^(٤).

فالمقال بمعالجته الريادية لمشكلة الاسترقاق ، ولاصطدام السود المثقلين إلى أوروبا بمنأى اجتماعي مغاير ، يبقى في نظرنا عطة أساسية في سيرة الفكر السنزوي ، ومعلمة مضبئة تكشف عن إدراك للخصوصية السوداء - قبل فترة الثلاثينات التي شهدت

لما أسهمت به هذه الثقافة ، بشكل غير مباشر ، في تحسس مثقف أسود لإشكالية علاقته بتاريخه الخاص ، وبالثقافة البيضاء التي لا تتوانى عن تحطيم تاريخه ذلك ، ومن لب هذه الثقافة المعادية صنع بلايدن منظوره النقدي لأوضاع العالم الأسود ، ويبحث في احتمالات تجاوز السود لما يطبع أوضاعهم من انقصام واختلال على أكثر من وجه .

لكن إذا كان آمو قد نهل من معين الثقافة اللاتينية السائدة آنذ في أوربا ، فإن بلايدن قد متح من مصادر ثقافية أنجلو ساكسونية ، بفضل استقراره لفترة في الولايات المتحدة ، وعلى شاكلة آمو فقد تقلد هو الآخر منصب الأستاذية بجامعة « ليبيريا » ج كما أفادته زيارته لأوربا في الاطلاع على ثقافتها .

إن بلايدن ينتمي إلى تلك الفئة من المثقفين الزنوج التي رجعت ، ضمن من رجعوا ، إلى إفريقيا بعد صدور قانون العودة الأمريكي الذي خول للعبيد المحررين تأسيس كيان وطني في ليبيريا وسيراليون ، فتولد لدى هذا المفكر شعور بعمق الفوارق بينه وبين أبناء جلدته على المستويين الثقافي والاجتماعي . فهو القادم من أمريكا ، والمفتتح على الفكر الغربي ، والقادر على استيعابه ، في حين يبرز إخوانه السود تحت نير الجهل ، مع عجزهم عن تحليل إشكالية علاقتهم بالعالم الأبيض المسؤول عن أوضاعهم . وهو المثقف الزنوجي المشحون بالقيم وبالتقاليد الغربية ، بينما يعيش هؤلاء الذين ظفروا في إفريقيا في بؤس فظيع ، وهذا ما دفعه إلى أن يصب جماع تفكيره على تأسيس خطاب يكفل تفسير هذه المفارقة العميقة ، ويقدّر على تحليل عناصرها ،

بحثا عن تأصيل مغايرة سوداء عن الثقافة البيضاء ، هذه الثقافة التي كان بلايدن على وعي بمضاعفاتها على شخصيته الوجودية والفكرية . وبهذا يعد (أول مثقف أسود فكر تفكيراً زنوجياً خالصاً وجعل من إفريقيا وحدة أصيلة متميزة عن سواها)^(٥) ، فإنه يرجع (مفهوم الشخصية الإفريقية » وهو ما كانوا يردونه إلى نكروما ، فقد كان من مفاهيمه التي تردد فيها يجتذب ويقول^(٦)) ، وعلى ذكر نكروما لا بد أن نشير إلى التأثير الذي كان لأفكار بلايدن على أطروحته ، بل إن ذلك التأثير لم يقتصر على نكروما وإنما تعداه إلى أغلب مثقفي إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، وكذا قطاع واسع من مثقفي إفريقيا الناطقة بالفرنسية . وعلى أي فقد (يطول شرح النظرية التي انتهى إليها بلايدن ، فهي تذكر من عدة وجوه بالنظرية التي استنبطها ليوبولد سيدار سنغور ودعاها الزنجية)^(٧) .

وفي نفس القرن يمكن أن نذكر دائماً إسماً آخر اقترن بدوره بنفس المنظور الفكري للمسألة الزنوجية ، ويتعلق الأمر هذه المرة بالفكر الزنوجي الأمريكي ويليام دي بوا الذي شرع ابتداء من عام ١٨٩٠ في الدفاع عن أصولية الشخصية السوداء في المجتمع الأمريكي . لقد عرف ديوبوا كرجل فلسفة ، درس في جامعتي « هارفارد » و « برلين » ، واختتم مساره التعليمي بالحصول على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، لكن بموازاة اهتماماته الفلسفية كانت له اهتمامات أخرى بقضايا العالم الأسود والشخصية السوداء . وعلى الرغم مما طبع أفكار ديوبوا من تجزئية ، مردها إلى اقتناعه بالفوارق الواردة بين السود الأفارقة وسود الشتات على مستوى الأولويات

(٥) قاسم الزميري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٤٩ .

(٦) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقي) ص ٦٧ .

(٧) قاسم الزميري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

القيح في الوقت نفسه . إن الطلبة تنوح وتضحك ، إذا كان يجلوهم سماعها فذلك يسبب لنا فرحا عظيما . أما إذا كانوا لا يحبون سماعها فلا يمتنا ذلك أبدا . نحن نبني معابدنا كما يجلو لنا ، ونقف بأنفة وإياه وقد تحورنا من الذك والعبودية»^(٨).

ولا ريب أن البيان يكشف ، بكثير من الوضوح ، عن البرنامج النظري لتيار «البقطة الزنوجية» ، وهو برنامج يخدم مشروع التعبير عن الشخصية الزنوجية داخل محيط إثني وثقافي أبيض ، كما يبين عن جراحة فكرية في الإفصاح عن وعي أسود أمريكي ، متحرر من ثقل المركبات التارخية التي راكمتها عقود من المحاصرة والاضطهاد .

وإجمالا فقد شكل مشروع «البقطة الزنوجية» بوتقة انصهرت فيها روافد فكرية عديدة ، بحيث يحضر التراث الزنوجي والمسيحية ، مثلما تحضر الشيوعية السوفياتية وفلسفة اللاعنف الغاندية . ولا شك أن طبيعة هذه الروافد تبين نوعية الاختيارات الفكرية والإيديولوجية لتلك الجماعة من المثقفين الزنوج الأمريكيين ، فبقدر ما أولوا للتراث الزنوجي أهمية كبيرة جيلبتهم إلى المسيحية قيمها الإنسانية كالعادلة والإخاء . . وكما انتقوا من الشيوعية معاداتها للاستغلال الرأسمالي آثارهم في الغاندية تمجيدا لقدرته القتالية الروحية الشرقية على مغالبة الجبروت والاضطهاد الأبيضين . وهكذا عملوا على استثمار كل هذه الروافد لتحليل مجمل المآزق العالقة مع العالم الأبيض ، مع تركيزهم على ضرورة التخلي عن (وضعية التسول

النضالية بحيث كان (يدافع عن حقوق سود أمريكا ناظرا إليهم كأمركيين ، ويثير في الإفريقيين حية إنجاز تحررهم على أرضهم»^(٩) ، قلنا على الرغم من هذه التجزئية فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن جهده في تحليل بعض مآزق السود السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص . إن خطاب دي بوا يشهد إلى ما هو (إيديولوجي أكثر من انشده إلى ما هو حضاري في كليته وشموليته ، ومع ذلك فإن الزاوية الأكثر مردودية في هذا الخطاب تتجلى أولا في تأثيره القوي على أفكار وأطروحات كل من جورج بادمو ، وقوامي نكروما ، وجومو كينياتا ، الذين هم أقطاب ما يعرف بمفهوم « الشخصية الإفريقية » ، وثانيا في تحول الخطاب المذكور إلى ما يشبه الإنجيل لدى مجموعة من المبدعين الزنوج الأمريكيين التأم شملهم حول تيار زنوجي أمريكي يدعى «البقطة الزنوجية» ، إذ استمد هذا التيار الكثير من مركزاته الفكرية مما سطره دي بوا حول الشرط اللاإنساني للسود في مجتمع أبيض واضطهادي كالمجتمع الأمريكي ، وكان من بين أعضاء هذا التيار لانغستون هيوز ، وكلود ماك كي ، وكوني كولن ، وستير لينغ براون ، وجان تومير . . . الذين أصدروا بياننا مشهورا حددوا ضمنه بعضا من مواقفهم وتصوراتهم حيال المسألة الزنوجية ، وما جاء في هذا البيان : (نحن بناء الجيل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصلنا الزنوجية دون أي شعور بالخجل أو الخوف . فإذا كان ذلك يروق للبيض فسكون سعداء كثيرا . وإذا كان لا يروقهم فلا نبالي بذلك أبدا . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن

(٨) — Lylian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du xx e siècle) P. 15.

(٩) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة و المرقلة ، ش ٢٠ العدد ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

الثقافي التي كان عليها الأمريكي الأسود^(١٠)، وعلى ضرورة «امتلاك وعي بالهوية»^(١١).

لقد ساد هذا التيار لفترة امتدت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٨، الشيء الذي يؤكد سبقه التاريخي على نشوء الحلقة الباريسية التي اقترنت ذكرها بمفهوم الزنوجة، بل إن تماسك التصورات وتشيع النصوص الإبداعية بروح زنوجية أصيلة، وهما ما ميزا كتابات أعضاء «البقطة الزنوجية»، صنعنا شهرة هذه الأخيرة (فوصل تأثيرها شيئا فشيئا إلى جزر الأنتيل الفرنسية، وكوبا، وهاييتي، ثم فرنسا حيث كانت تتبلور النخبة الفتية للمستعمرات الإفريقية)^(١٢)، وهذا يفيد وصول أصداء معينة من وراء المحيط إلى مقهى «مونمارتر» الباريسي حيث كان يجتمع سنغور وسيزير وداماس، زيادة على ما كان لزيارات لانغستون هيوز وكلود ماك كاي لباريس من آثار لا تكرر على توجهات الثلاثي الناطق بالفرنسية.

إن استعراضنا للمحطات الفكرية التي سبقت الولادة الرسمية لمفهوم الزنوجة يهدف إذن إلى تجلية المسار الذي سلكه الوعي الزنوجي قبل فترة الثلاثينات، فالمفهوم لم ينبثق من فراغ، ولم ينهض في أرض يباب، وإنما ولد في نطاق تراث مهد له وغذاء حتى استوى إقاعا على يدي كل من سنغور وسيزير وداماس. وإذا كان لنا أن نسمي ما استعرضناه بالوسائط الفكرية الممهدة للزنوجة، يمكن، بالمقابل، أن نستعرض

الوسائط الإعلامية التي احتضنت أقلاما عرفت بإسهامها في تأسيس الزنوجة، وذلك من خلال الكتابة في مجلات وصحف أصبح تاريخها جزءا من تاريخ الحركة الزنوجية. (ففي عام ١٩٣٢، ظهرت بباريس مجلة صغيرة طبعت رسميا، وبمعنى من المعاني، بداية الأدب الزنوجي المكتوب بالفرنسية)^(١٣)، وقد تأسست على يد مجموعة من الطلبة المارتينيكيين الذين كانوا يدرسون بباريس، أشهرهم سيزير، ثم انضم إليهم السينغالي سنغور والغوياني داماس. كان اسم المجلة هو «الدفاع المشروع»، ولعل في هذه التسمية ما يدل على غلط التحليل الذي ارتآه هؤلاء الطلبة، فالمسألة تتعلق إذن بموقف دفاعي: دفاع عن الهوية، ورد الاعتبار لمجموعة إثنية خضعت لعنف متعدد مورس عليها، عنف عيودي وعنف استعماري وعنف ثقافي... وبموازاة هذا الدفاع أعلنت المجلة عن انحيازها إلى القوى المناهضة لكل تلك الأشكال من العنف، فكان تضامنها مع الأمية الثالثة ومع المثل التي اعتنقها الحزب الشيوعي الفرنسي.

ومادام الحقل الإبداعي الذي ألف بين هؤلاء الطلبة هو الحقل الشعري فقد نزعوا إلى إبداع كتابة شعرية متحررة من نفوذ الجمالية الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية، ومفتحة على التقنية الشعرية للبرناسيين والسرياليين، إلى جانب تأثرهم بشعراء تيار «البقطة الزنوجية». ومع إدراك هؤلاء الطلبة لضيق أفق الاختيار على مستوى لغة الكتابة، فإنهم حاولوا تطويع

— Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de negritude) In :

(١٠)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنس، لستني ١٩٧٩ - ١٩٨٠، العددان الثاني والثالث، ص ٥٣٤.

(١١)

— Ibid, P. 534

— Lytian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du xx e siecle) P. 21.

— Lytian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturge noirs du (١٣) - XXe siecle) P. 75.

القيم والتقاليد الغربية فكان (من الختمي أن يؤسس هذا الموقف القاعدة لثورة ثقافية أصيلة، ومن هنا كان ميلاد حركة الزنوجة^(١٦))، أما المبدعون الذين كانوا يسيرون الصحيفة فهم سنغور، وسيزير، وداماس، ثم التحق بهم كل من ليونار سانت قيل، وأرسطوتيد موجي، وبيراجوديوب، وأوسمان سوس، والأخوين أشيل.

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية توقفت الصحيفة، بسبب تشتت الملتفين حولها، فقد انضم سنغور إلى الجيش الفرنسي والتحق بالبحرية، أما سيزير فقد عاد إلى المارتينيك ليصدر مجلة باسم «مدارات»، بحيث ستفرز هذه المجلة بعض الأساء الثقافية اللامعة ومنها فراتزفانسون، وإدوار كليسان، وروني ديوسير، وجورج ديسبورت ينسنا اختار داماس الصمت والانسحاب نتيجة متاعب سياسية. لكن الإحباطات التي تولدت عن اختفاء الصحيفة كمبر حيو للثقافة الزنوجة بباريس سرعان ما تبددت، وذلك إثر ظهور مجلة جديدة حملت إسماً يليقاً هو الآخر وهي مجلة «الحضور الإفريقي» التي ظهرت بفعل جهد ومثابرة رعييل آخر من المثقفين السود المتواجدين بباريس كالسينغالي أليون ديوب، والغوادولوين بول نيجير، وكريتيرويان، والعاجي برنار دادبي، والداهوميين أبيني وبيهانزان، وأخيراً الملقاشي رابيمانانجرا.

وقد صدر العدد الأول من «الحضور الإفريقي» في يناير ١٩٤٧، بكل من باريس وداكار، ثم تلتها أعداد

بنية اللغة الفرنسية حتى تستوعب أساطير من الثقافة السوداء، مما يعني عزوفهم عن كثير من القيم التعبيرية في اللغة الوسيطة الإجمالية، و(ضمن هذا العزوف الذي هو تطلع إلى تحرير الأسلوب، كان تطلع المجلة إلى تحرير الخيال والشخصية الزنوجيين)^(١٧). ونظراً للمضغوط التي اعترضت «الدفاع المشروع» سواء من طرف غلاة الفرنسيين، أم من طرف البورجوازية السوداء في الأنتيل لم تتمكن إلا من إصدار عدد واحد (يونيو ١٩٣٢). ثم جاءت بعدها صحيفة «الطالب الأسود» التي طالبت مدة صدورها بالمقارنة مع «الدفاع المشروع»، إذا انطلقت في عام ١٩٣٤ لتتوقف عام ١٩٤٠. ومرة أخرى نواجه تسمية لا تخلو من دلالة، ففي الوقت الذي كان في الإمكان صوغ عناوين ذات إجماع أدبي تعتمد أصحابها تسميتها بـ «الطالب الأسود» كنوع من الإفصاح عن خطاب أدبي قادم إلى باريس من وراء البحار، أبدعه مبدعون ينتمون إلى ثقافة تتحضر للأخذ بمصيرها. لقد تركزت جهود الصحيفة على إنضاج وعي أسود جماعي يوحد بين سود إفريقيا وسود الأنتيل داعية إلى التخلص من الأفكار القبلية والإقليمية، وإلى تجنب الذوبان في الحضارة البيضاء، وفي نفس الاتجاه (طالب «الطالب الأسود» بالحرية الإبداعية للزنجي خارج كل تقليد غربي، إلا أنها ذهبت بعيداً فعينت الوسيلة التي سيتمكن بها الأسود من تحقيق تحرره من أي احتواء: هذه الوسيلة تكمن في العودة إلى النابئ الإفريقية^(١٨))، أي الرفض المطلق لأية رابطة مع الغرب من غير رابطة اللغة، والتحرر من

— Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poeie negro-africaine) in

(١٤)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفايس لستي ١٩٧٩ - ١٩٨٠، المعداد الثاني والثالث من ١٧٨.

— Lillian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du (١٥) XXe siècle) P. 79.

— Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poeie negro-africaine). in

(١٦)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفايس - لستي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ المعداد الثاني والثالث، من ٤٦٧.

المثقفين البيض ، (وجدت جمهورها شيئاً فشيئاً خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك التاريخ ، وخلقت حركة أدبية جديدة بين الزنوج النساطقين بالفرنسية)^(١٧) ، إن سيزير (« سيكتشف مهانته » حين كان بفرنسا يبيع شهادة الإجازة في الآداب)^(١٨) ، وإثر ذلك مخاطب سنغور قائلا : (يجب علينا أن نثبت زنوجيتنا)^(١٩) .

كلما بدأت قصة الزنوجية ، لكن ماذا يعني أن يثبت سيزير وسنغور زنوجيتهم ؟ يعني أن يتشبها بحضارتها ، وأن يحكفا على تاريخها ، وأن يتركها مسافة كافية بينها وبين الحضارة البيضاء ، على أن ترك المسافة لا يشير إلى قطيعة نهائية بقدر ما يشير إلى ضمان تماسك الذات السوداء ، وتزويدها بالثقة في حضارتها وفي تاريخها ، ثم شحنها بروحيتها الجماعية لأن (البحث عن روح جماعية يعد أمراً معقولا ومقبولا عندما نذكر بأن كلا من سنغور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة ، أتوا من جهات متفرقة من العالم ، وتبناين ظروفهم الاجتماعية ، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم وأسماهم ، وربما الأصول المشتركة البعيدة ، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة فليس هناك أفضل من البحث عن روح جماعية)^(٢٠) . وعليه فقد (تأمل ثالث الزنوجة ذلك كله ثم انتهوا إلى أنهم رسل لبلادهم ، وأن عليهم إثبات حقهم في الحياة أولا ، ثم تحطيم خرافة « التفوق الأبيض » ثانيا ، ثم إنشاء أدب يحمل الحب والأمل للعالم ، ولو أدى ذلك إلى الاشتداد في استرداد وجههم المفقود الذي حاول المستعمرون طلاءه باللون الأبيض وتزييف أوصاله)^(٢١) .

منظمة تضمنت مواد ونصوصا تدور حول قضايا العالم الأسود وخاصة الثقافية منها ، وهكذا عاجلت قضايا الآداب الشفوية ، والموسيقى الزنوجية الإفريقية - الأمريكية ، كالجاز مثلا ، كما لم تغفل إضاءة جوانب من الفلسفات الإفريقية ، وجوانب من المعتقدات لدى زنوج الأنتيل كالقودو الهايتي . ولم تكنف المجلة بإصدار أعدادها المنظمة ، بل وإزت ذلك بإصدار منشورات في مختلف الحقول الثقافية عرفت بـ (منشورات الحضور الإفريقي) . وما لا شك فيه أن انضمام أسماء وازنة ، سواء من العالم الأسود ، أو من فرنسا ، إلى الأعضاء المؤسسين قد حدى تطور المجلة وذبوعها وسمعتها العالمية ، ومن بين هذه الأسماء سنغور ، وسيزير ، والأمريكي رينشارد رايت ، والداهومي بول هازومي ، وسارتر ، وجيد ، وموني ، وبالايندي . كانت هذه إذن نظرة على ما دعوا به بالوسائط الفكرية والإعلامية التي اعتمدتها الحلقة الباريسية في إطلاق صيحة الزنوجة كعقيدة تتوخى توحيد العالم الأسود ، فأمو ، وبلايدن ، ودي بوا ، وأعضاء تيار « البقطة الزنوجية » هم الذين أرسوا المقدمات الفكرية الأساسية لولادة الزنوجة ، في حين مثل متابر « الدفاع المشروع » و« الطلاب الأسود » و« الحضور الإفريقي » المجال الإعلامي الذي رعى الزنوجة ودعم حضورها وأمدتها بأسماء مبدعة إضافية . ولتعد الآن إلى المفهوم في حد ذاته ، فقد قلنا سابقا إن الفضل في ابتكار كلمة الزنوجة يعود في المقام الأول إلى إيمي سيزير الذي أوردها في ديوانه (مذكرة عودة إلى بلدي) (١٩٣٩) ، ومن ثم شاع تداولها بين المثقفين السود ، وفي حلقات وكتابات

(١٧) جيرالد مور « سبعة أبناء من إفريقيا » ترجمة : علي شلش ، ص ١٩ .

(١٨)

(١٩)

(٢٠) الدكتور محمد عبد القوي سموي : (نقلا عن إفريقيا) ص ٢١٢ .

(٢١) علي شلش : (الكوان من الأسب الإفريقي) ، ص ١٣ .

— Frantz Fanon : (peau noire, masques blancs) P. 156.

— Stantis Adolevi : (Negritude et negrologues) P. 16.

ملغاشي ، وهذا أمريكي والآخر مارتينيكي ، لأول مرة توعدت عقيدة الانتباه الواحد والمصير الواحد . وتعد هذه العقيدة أحد أهم مكاسب الزوجية ، إذ يسرت وحدة الصف إمكانية تأسيس خطاب فكري يهم جماع العالم الأسود ، في قضايا المادية والروحية ، بقطع النظر عن عوامل اختلافه المصطنعة . وقيل الحديث عن مختلف المدارس الشعرية الزوجية فجاء بنا أن نسط القول في أبرز جوانب هذا الخطاب ، وأن نتناول أهم الإشكاليات التي استقطبت بال أصحابه ، إلا أننا سنركز أكثر ما يمكن على آراء سنغور باعتباره الناطق الرسمي باسم الزوجية ، ويشفع له في هذه الخطوة المعينة وغزارة كتاباته النظرية بالمقارنة مع رفاقه .

وربما اعتبرنا العلاقة مع الغرب أسخن جبهة واجهت الزوجية ، سواء على مستوى المکتوب النظري أم على مستوى الإبداع الشعري ، لماذا هي أسخن جبهة على الإطلاق ؟ الغرب هو معقل أزلمات الذات السوداء ، فالاصطدام بالغرب هو الذي أنشأ السؤال المركزي حول مصداقية الكلام عن حضارة سوداء لها القدرة على صيانة العالم الأسود من خطورة الهيمنة الثقافية البيضاء ، كما تستطيع إفحام أماليب التشكيك المنهجي للبيض في تاريخ السود وثقافتهم ، لذا انكبت الزوجية على تحليل هذه الزاوية لأنها المدخل الرئيسي لمشروع الهوية الزوجية وتصليب منطق البناي .

وهكذا شرعنا الزوجية في الحديث عن وجود حضارة سوداء ، وعن ثلاثة هذه الحضارة ، وعبريتها ، بل وإخصابها لكثير من الحضارات الإنسانية ، وإن كان هناك شيء جدير بالذكر فهو الدور الذي مارسته كتابات

بهذا يتجلى نوع التحليل الذي اتخذته الثلاثي المؤسس للزوجية ، فهناك الإيمان بجذارة العالم الأسود وبجذارة حضارته وتاريخه ، وهناك أيضا إزماع ضمني على تفكيك إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، التي اغتالت ثقة السود في جذارتهم بين الأمم والأجناس . إن الزوجية أقرب إلى صرخة الوليد الذي يطل معلنا عن حياته بعد تعاقب ألوان من الموت المادي والنفس ، حملتها عهود الاضطهاد الأبيض ، وهي أيضا سلاح واثق من الاستيعاب الحضاري ، ومن الإحساس بالدونية أمام النموذج الحضاري الغربي ، ولذلك التفت الثلاثة حول أهمية تحويل الزوجية إلى عقيدة لحماية الشخصية السوداء ، وتلافي الاختلافات الجغرافية والاجتماعية ، إذ أن ما يوجد بين السود هو لوهم وهويتهم المشتركة . ولستمع إلى سيزير متحدثا عما يجمعه مع سنغور (إن ما يجمعنا هو الرفض المتصلب لأن نكون مستلبين ، لأن نفقد روايتنا ببلداننا ، وبشعوبنا ، وبلغاتنا)^(٢٢) ، إذن فقد أتى وأن تحطيم سلطة اللون ، من حيث كونها حاجزا أمام ملازمة الشخصية السوداء هويتها الحقيقية ، فاللون في نظر سنغور (أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية)^(٢٣) ، أو كما يقول الكاتب الهايتي روني دويستر (لقد صُير اللون حاجزا منيعا بين جنسي الأسود وما حققه في التاريخ)^(٢٤) .

لأول مرة عمت ، بفضل الزوجية ، حساسية مشتركة بين المثقفين السود بباريس ، فاندثرت تلك الدعوات الإقليمية التي زكاهما الاستعمار ، من مثال هذا سينغالي والآخر عاجي ، وهذا كاميروني والآخر

— Aime cesaire, (Negre rebelle) in (Le Monde de dimanche) No. 11463-dimanche 6 decembre 1981-P. 1.

(٢٢)

(٢٣) الدكتور محمد عبد الغي سموي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢٤) روني دويستر : (الأسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا) ، (الناطق الإفريقي) ص ٣٠٠ .

الزنوجي ، وقدرته على خلق أنماط عقلانية ،
وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وفنية حملت
سمات متميزة .

فقد عرفت المجتمعات الإفريقية فكرة الألوهية
فأبدعت طقوسها التعبدية الخاصة ، بينما قام نظام
الحكم لديها على قواعد وأصول تكشف عن غير قليل من
الضبط والتنظيم ، وعلى صعيد الاقتصاد توصلت تلك
المجتمعات إلى تحقيق حاجاتها الحيوية ، أما الفائض
فكان يُسوّق إن بالنقد أو بالقيضة ، في حين لم تعرف
المجتمعات المذكورة التفاوت الطبقي ، مادامت الحياة
تقوم على أساس التعاضد والتكافل ، وهو ما دفع سنغور
إلى الحديث عن اشتراك إفريقية أصيلة . وعندما نتكلم
عن الفنون فلا نعتقد أنه يمكن القفز على ما خلفه
الفنانون السود من تحف ورائع ، خاصة في المعمار
والنحت ، و(أقدم إنتاج فني إفريقي يصل إلى القرن
الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) ، ومع بداية العصر
الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية في القرن السادس
الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو SAO في القرن التاسع .
وفي القرن الثالث عشر ظهرت الإمبراطوريات الإفريقية
الكبيرة (اليوروبا وبنين) واعتباراً من القرن الخامس
عشر ظهرت إمبراطوريات الكونغو وداهومي . . . الخ
وقد أنتجت هذه الممالك أعمالاً فنية عديدة وهامة حتى
القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوروبيون ، ومنذ
ذلك التاريخ بدأ الفن الإفريقي عملية التراجع (٢٨).
والواقع أن (الفن الإفريقي يؤلف « حكمة مكتوبة »

بعض المثقفين الغربيين المتوربين فيما يخص إعادة تقييم
الحضارة السوداء ، الأمر الذي فتح المجال أمام
الاعتراف بتعددية حضارية ، بدلا من الفكرة القائلة
بالأ وجود لحضارات من غير حضارة الغرب . وإذن غدا
من المشروع أن يشار ، وبشيء من الزهو ، إلى ما حققته
الإمبراطوريات والممالك الإفريقية من إنجازات
حضارية ، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي هذا الإطار
(نخرج بحقيقة وجود قديم جدا ، على يندر متفرقات ،
يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، هو وجود
عناصر نموذجية ، من الحضارات العائدة إلى العصر
الثاني الصحراوي وما يقابله قديما في مصر . وهذا ما
يفسر ، على الأقل ، المشابهات المدهشة بين بعض
مؤسسات مصر القديمة والعوائد الجارية عند سكان
ضفاف النيل الأزرق اليوم (٢٩) ، ولعل هذا يذكرنا
بالتشابه الكبير الذي كان بين الحضارة المروية (٣٠)
والحضارة المصرية القديمة ، والأكثر من هذا يجوز أن
نؤكد (أن المعركة الأكثر أهمية لعلم التاريخ الإفريقي
المعاصر كانت ولا تزال هي معركة مصر القديمة ، التي
اقتربت باسم السينغالي الشيخ أنساديبوب ، إذ تتعلق
القضية بإسهام فائق في مجال المصريات ، والكيمياء ،
والفيزياء النووية ، مثلاً تتعلق بتحديد الصبغة
« الزنوجية » لمصر الفرعونية (٣١) .

أما في القرون الوسطى فيمكن أن يشار إلى
إمبراطوريات غانا والداهومي ومالي والكونغو . . . وإلى
حضاراتها الباذخة ، وهو ما يدل على عبقرية العقل

(٢٥) مازي يلم : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ١٩٥ .

(٢٦) هي الحضارة التي كان يطلق عليها قديما المصريون حضارة « تاهسو » التي تعني حضارة أرض السود ، والمرورية نسبة إلى مروى مستقر تلك الحضارة في أقصى الجنوب من
مصر ، وقد كشف الأرواحون من تطابقات عدة بينها وبين الحضارة المصرية القديمة سواء على صعيد المعتقدات وبنات الحكم أو على صعيد الظالم والمعمار . . .

(٢٧) Elhika M'Bokolo : (L'histoire de l'Afrique revue et corrigée par les africains) in (Mazignie litteraire) No. 195-Mai (٢٧)
1983, P. 40.

(٢٨) محمد عدنان مراد ، (القارة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها) مجلة « الآداب الأجنبية » ص ٣٨ - ٣٩ شتاء ربيع ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٢ .

إلى الاعتراف بالفن الإفريقي الغريب ، المعروف « بفن البنتو » (٣٢).

وعلى صعيد آخر استطاعت المحيلة السوداء أن تدع في المجال الموسيقي ، وأن تبكر آلائها الموسيقية الخاصة التي أصبحت لها شهرة عالمية كالكوروا والبلافون والطنبل الإفريقي . وما يلاحظ أن الموسيقى الزوجية لم تكن تؤلف لمحض الطرب والترفيه بقدر ما كانت تتصل بالتقاليد والطقوس فهي (تقيم حملة على الصعيد الاجتماعي وتحاطب بين الرجال والنساء في المجتمع الذي تمارس فيه . وعلى صعيد أرفع فإنها تقيم تحاطبا وصلة مع الآله وقوى الطبيعة) (٣٣) ، ولعل المشاهد على أصالة وعمق وتعبيرية هذه الموسيقى ذوبها العالمي ، عبر الجاز والراجتيم والبلوز والريكي ، وكذلك تأثيرها القوي على الصرعات الموسيقية الغربية كالروك والبوب .

وما ذكرناه يصدد هذه المجالات يمكن ذكره بصدد الملاحم ، والأساطير ، والحكايات الشعبية ، والأشعار الشفوية ، والمسرح البدائي ، وشخصية الراوي الجوال . . . وكمثال فقد (أصدر بليز ساندراز عام ١٩٢١ « المختارات الزنجية » التي تضم بعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون وعددا من الحكايات العصرية) (٣٤).

كل هذا يفهم المقولة الأنثروبولوجية حول فقر الحضارة السوداء ، إن لم نقل النفي المطلق لوجودها ،

حقيقية ، تاريخيا دون حوادث ، ذلك أننا نستطيع أن « نقرأ » عبر هذه الآثار تنظيم مجتمعاتها ، وتسلسلها ، وبنائها السياسية ، لا نقرأ الممارك ، ولكن النظام السياسي ، ونظام النقود وما ينطوي عليه الاقتصاد من قيم أخلاقية عبر الكتل المنحوتة (٣٥) ، التقنيات الزراعية ، الأعمال والأيام ، والألعاب ، والصيد والرقص) .

وعلى ضوء هذا فليس من المثير حفا أن ينهر الفنانون الغربيون أمام القطع الفنية التي أبدعها الفنانون السود الفطريون ، وأن يعجبوا بالإمكانات الجمالية الهائلة التي ترشح بها الصور والمنحوتات الإفريقية (وهكذا قام الفنانون الأوروبيون المعاصرون بكسر طوق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال العصور الماضية ليعتمدوا حرية التحرك والتعبير تماما كما فعل الفنان الإفريقي منذ آلاف السنين (٣٦) . ويدون مبالغة نستطيع القول بأن التعجبية ، كاتجاه تشكيلي طليعي ، تدين بشكل أو بآخر ، للثروة الفنية الزوجية ، ويظهر ذلك جليا في أعمال بابلو بيكاسو - ١٨٨١ - ١٩٧٣م) ، وجورج براك - ١٨٨٢ - ١٩٦٣م) ، وهنري ماتيس - ١٨٦٩ - ١٩٥٤م) الذين افتننوا (بالطبيعة المباشرة والمستقلة لهذه الأعمال وجنوحها نحو تبسيط الشكل) (٣٧) ، وفي ذات المنحى (نشر أبولنير بالاشتراك مع بول غليوم عام ١٩١٧ « المجموعة الأولى من التماثيل الزنجية » الأمر الذي دعم الحركة الرامية

(٢٩) روجيه غارودي : (حوار أحضارات) ترجمة : الدكتور هادي العوا ، ص ١٥٤

(٣٠) (أثر الفن الإفريقي على الحركة التكيفية الأوربية) ترجمة : ميسون أبو حبيب - مجلة (آفاق عربية) ص ٤ ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٣١) حسين هادي : (فن تحت الإفريقي) مجلة (فنون عربية) السنة الثامنة ١٩٨٢ ، المجلد الثاني ، العدد ٦ ، ص ٤٠ .

(٣٢) خليل شطا . (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) - ٢٠ العدد ٣٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

(٣٣) أولاولوا ميدايي : (مكانة الموسيقى التقليدية في المجتمع الإفريقي خصوصاً في نيجيريا) مجلة (الثقافة العربية) ص ٩ ع ٩ ، أغسطس آب ١٩٨١ ، ص ١٥٧ .

(٣٤) خليل شطا (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) - ص ٢٠ العدد ٣٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

كونها مذهباً للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفاً مضاداً ويتنعم الاتصال والتكيف مع الفرنسيين . ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل ، وعندما نشبت الحرب أوقبلها تحولت إلى مذهب يصلح للحصار مع الإدارة الاستعمارية (٣٦) . وقد جاءت هذه الليونة مع التدرج الفكري والإيديولوجي الذي عرفته الزنوجة ، وبخاصة سنغور ، إذ سيبدأ الحديث عن نوع من الانفتاح على الحضارة الغربية ، والدعوة إلى تشييد حضارة ثنائية في تجاوز لكل عصبية ولكل استعلاء حضاري ، (ويرجع فضل سنجور فيما كتبه وأخذ به دائماً في أنه يعيد الرجل الأسود على كل المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه الحضارات المختلفة وخصوصاً حضارة الرجل الأبيض السلي كان العدو الأول والذي أصبح أهم صديق (٣٧) .

أما الإشكالية الثانية التي عكفت عليها الزنوجة فهي الموقف من العقيدتين المسيحية والإسلامية ، والموقف في حد ذاته يعني المفاضلة بين العقائد الوثنية والزنوجية وبين ديانتين سماويتين ، وفي هذا الموضوع ترى الزنوجة بأن عقائد الأسلاف ليست بذلك الشكل الذي توجد عليه في الأدبيات الاستعمارية والكنسية والآنثروبولوجية ، أي كونها عقائد لا إيمانية يتبعها قوم يجب انتشلهم من كفرهم الفطري ، بل العكس ، لأن الزنوج يرون بأنهم مكتشفو فكرة الرب للإنسانية ، وعندهم أخذتها مصر القديمة ، لتنتقل إلى حضارات أخرى . فما يلوح مجرد ممارسة عقائدية وثنية يضمم تصورا يرى بأن هناك قوة إلهية مفارقة للبشر ، ولأنها تملك قدرات معجزة ، هذه القوة هي ما يعرف بـ « موتو » ، وإن اتخذ أسماء متعددة

ومادام الأمر كذلك فقد اقتنع المثقفون الزنوج بأهمية العودة إلى ماضيهم الحضاري وقراءته قراءة جديدة حتى تتاح لهم المباحة بخصوصيتهم ، دونما مركبات ، وبهذا شعروا بأنهم يجرون من ورائهم تاريخاً طمسته أو شوهته جهود من الهيمنة والاضطهاد . إن المطلوب هو بناء موقف جديد من النموذج الحضاري، الغربي ، والتحرر من جاذبيته ، وبالتالي من مطلقيته ، أي تحليل الذات السوداء من انتماسها ومن ذوبانها الشائهة في حضارة البيض . وبالنسبة لآيد أن نشير إلى عمق الأزمات النفسية التي استمضت أعراضها في أنحاء كثيرة من العالم الأسود ، من جراء الانتقال من النمط الحيواني التقليدي إلى النمط الحيواني الحديث ، وعلى سبيل المثال جرى خلال عام ١٩٦١ بحث ميداني حول الأعراض النفسية بمنطقة أيبوكوتا بنيجيريا من قبل نفسانيين وأنثروبولوجيين من جامعة « كورنيل » فتوصلوا إلى أن (عدد الأعراض النفسية الفسيولوجية والأعراض العصبية التي وجدت بين سكان يوروبا أكثر من التي وجدت بين سكان شمال أمريكا (٣٨) .

ويعد هذا الانفصام من بين ما حفز الزنوجة على التنبيه إلى غنى الحضارة السوداء ، وإلى التمسك بقيمها ، وعدم الارتقاء كلياً في حضارة البيض بما هي حضارة مفارقة للبيئة السوداء . وفي إطار إعادة التقييم الحضاري انصافت الزنوجة إلى مواقف استعلائية أحياناً ، صدرت عنها أفكار تؤيد تفوق الحضارة السوداء على نظيرتها البيضاء ، وتدعو البيض إلى الاستفادة من التراث الأسود ، (وعندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر ، ثم اقتربت من

(٣٥) ب. س. لويد (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة: شوقي جلال ، ص ٢٧٠ .

(٣٦) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣٧) الدكتور جوزيف جودت عثمان : (مالرو ، سنجور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن - ع ٣ - أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٩٠ - ٩١ .

أحدهم على الخلد الأمين^(٤٠)، بينما اقترن الإسلام به (كبرى المصائب . انه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد يحتاج كل السودان الأوسط^(٤١))، وهي نفس الفكرة التي كان يرددها النخاسون البيض ، من كون المسلمين هم أول من استعبد السود . بعد هذا لنا أن نتصور إذن رد الفعل الذي سيكون للزوجة من الديانتين معا ، قد نرجح لا محالة رد فعل يدعو إلى معاداة الديانتين والحذر من تعاليمهما ، بيد أن الأمر الواقع كان أكثر من أي رد فعل حاسم ، ونقصد بالأمر الواقع تغلغل المسيحية والإسلام في وجدان كثير من السود ، وهذا ما صيغ حضورهما بشيء غير قليل من المقارنة .

ففي حين يدعو بعض المثقفين الزواج إلى استثمار قيمتي الأخوة والعدالة المسيحتين وإدماجها في التراث العقائدي الزواجي (للاحاطة مدى المصادقة التي تغلف إيمان الزواج المسيحيين في إفريقيا وأمريكا والانتيل كموقف من تحريف المثل المسيحية ومن الاضطهاد الأبيض) ، نجد فئة أخرى منهم تناصر الإسلام كعقيدة مضادة لإيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري . وينبغي هذا الطرح على وضعية الزواج المسلمين بالولايات المتحدة ، فجماعة المسلمين أتباع الإنجيا محمد تعطي للإسلام بعدا انتقاميا ، مما يجعله عقيدة ثأرية من مسيحية الأبيض المظطهد ، وبهذا اكتسب الإسلام (ز صبغة عنصرية غريبة عنه منافية لروحه ونصوصه) . وقد أدرك الزعيم الزنجي الشهير

اختلشت باختلاف الجهات والمجتمعات الإفريقية ، فهو « الورمنو » عند اليوروبا بنيجيريا ، و« فارو » عند البامبارا بجالي ، و« منغو » في إفريقيا الشرقية ، وهو « أكزير » عند الإثيوبيين ، و« لقبيا » في الداهومي ، و« اورمانكوما » عند الاكان في غانا .

ويقتضي الاعتقاد في فكرة الإله تلبية أوامره ، كالقرب والتقوى وتكريم الموق والتعاون والمحبة . . . ثم تحجب نواحيه التي هي نفاثس هذه الأمور . ولا شك أن هذا ما تتضمنه الديانات السماوية ، مع مراعاة الاختلافات الواردة عند كل مقارنة ومن ثم (قبل الافريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا في الذي سمعوه من أهل الديانتين جديدا جديدا بخلاف^(٣٨)) . ومع ذلك (لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الإفريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين ، عشرة قرون الآن والإسلام يلتقط طريقه بالتجارة واللقاء المسلم أحيانا والحرب بعض الأحيان ، قرنان أو أكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس مازالوا على دين آبائهم^(٣٩) .

فحسب الزوجة ليس بوسع العالم الأسود أن يسقط من ذاكرته مختلف العدايات والمكابدات التي ابتلى بها بتزكية من الكنيسة ، وفي المقابل لا يمكن نسيان الدور الذي قام به المسلمون في تدشين عهد الاسترقاق بإفريقيا ، فالمسيحية (استعملت في كثير من الأحيان لتخديرهم وتعليمهم إدارة الخلد الأيسر إذا ما صفع

(٣٨) جمال محمد أحد : (وجدان إفريقي) ص ٢١ .

(٣٩) نفسه ، ص ٢٥ .

(٤٠) مفرح عبد الرحيم : تجربة الاستعمار وأخطأ التحرر القتالي في البلاد الأسوية والإفريقية (ص ١٧ .

(٤١) دانييل بولم : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ٨٣ - إشارة :

(أ) من المعلوم أن اليهودية لم تحقق انتشارا كبيرا كالذي حققته المسيحية والإسلام ، بحيث يفتقر منتقوها لثة ، ويتمركزون في أوروبا ويعرفون بالقلتنا .

(ب) بصدد دور المسلمين في استبعاد الأفارقة نوضح أن إيرادات هذه الوجهة من النظر لا ينبغي تبنيها ، وإذا كان المسلمون قد انفردوا بعض السود كميد لاهم في بسطوا مصلحتهم ، بل لقد وصل الكثير منهم ، في ظل الإسلام ، إلى مراتب سياسية سامية (كاتورو ، لؤلؤ ، المليك ...) وإلى مراتب علمية هامة (باثوث) .

العقائدية الثلاثة : التراث العقائدي الزنوجي والمسيحية والإسلام ، ضمن أخلاقية انفتاحية وتسامعية ، لمّا في هذا التركيب من نتائج إيجابية سيغتني بها المشروع الحضاري الأسود .

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الأطروحة تستنسخ نفس الأطروحة السنغوية حول ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لصالح تأسيس حضارة كونية جديدة .

إذا كان هذا ما طرحته الزنوجة بخصوص الإشكاليتين السالفتين فماذا يتعلق بمعالجتها للفكر الماركسي ؟ وهل كان للمثقفين الزنوج موقف تجاه نظرية الماركسية استأثرت بحيز لا يستهان به من مساحة الفكر الزنوجي ، بحيث نوقشت جوانب عديدة من هذه النظرية ، مثلاً نوقشت احتمالات إخضاعها لمهام محاربة الاسترقاق والاستعمار وتجاوز وضعيّة الاستيلاء ، وبالتالي لاستعادة الهوية الزنوجية .

إن ما تردد من أفكار ماركسية في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية يعود في الأصل إلى المفكر الأنثيلي جورج بادموور الذي كان قد زار الاتحاد السوفياتي واطلع على التجربة السوفياتية في تطبيق أفكار ماركس وإنجلز ولينين ، وقد أعجب بادموور بهذه التجربة فنتج عن ذلك تحمسه للماركسية ، وهو ما يعرب عنه قائلا (فمن الجوهرية بالنسبة إلينا في إفريقيا أن نفهم أساليب الفلسفة الماركسية وأهدافها حتى نعرف ما قد نتمكن من

مالككم إن كنتم خطأ ذلك الاتهام وخطره فجاهد جهادا كبيرا لتصحيحه حتى استشهد مجاهدا في سبيل ذلك وفي سبيل تحرير الزنوج عامة)^(٤٢) .

لقد اعتبر قوامي نكروما التعددية العقائدية إحدى أزمات العالم الأسود باعتبارها معوقا حضاريا وعيانيا تاريخيا ، (ولكي يبين جيدا فداحة هذه الأزمة قارنها نكروما بـ (الشيزوفرنيا) ، فالتعددية إجمالا هي العدو^(٤٣) . أما الكاتب السينيغالي مامادو ترور ديوب فقد عبر عن رفضه لما عده ديانات طارئة فقال (يجارس الأفارقة حاليا ديانات مستوردة وكل آلهة الأجداد مانت تقريبا . أما أنا ، فإني أجاهر هنا معلنا : إن إلهي لا يزال أسود^(٤٤) . لكن خارج هذين الموقفين اتخذت الزنوجة موقفا مفتوحا لا يقفز على الأمر الواقع كما قلنا قبل قليل ، موقفا يرى أنه لا يحيد عن التعددية العقائدية ، بعيدا عن أي تجاهل مجاني ، أو تنكّر للتأثيرات الثقافية للمسيحية والإسلام في مناح كثيرة من حياة السود .

فالمسيحية متواجدة في الممارسة السوداء كمعتقد وكثقافة ، وكذلك يحضر الإسلام ، سواء كسلوك إيماني أو كتجمل ثقافي ، (وتشير بعض الأبحاث التي أجريت مؤخرًا في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقيا كغانا وساحل العاج والسنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة العربية الإسلامية)^(٤٥) .

لذلك وجدنا سنغور ، فضلا عن اعتناقه الكاثوليكية ، يدافع عن أطروحة تركيب التيارات

(٤٢) مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والتبعية) تجربة الاستعمار وأباطم التحرر اللغوي في البلاد الأسبوية الإفريقية (ص ١٨)

(٤٣) — Paulin J. Hountondji (Sur la "philosophie africaine") P. 204.

(٤٤) ملامدو ترور ديوب : (الزنوج والعرب في مواجهة المستقبل) ترجمة . خليل فريجات . مجلة (الكتاب العربي) ص ٢ - ٩ ، ١٩٨٣ ، ص ٣٩ .

(٤٥) الدكتور إبراهيم الزين صهيون : (لمحات تاريخية عن دور السودان والسودانيين في انتشار الإسلام في أفريقيا) مجلة (أدب) كلية الآداب - جامعة الخرطوم - ع ٤ -

١٩٨٩ ، ص ١٢٥ .

إلني سيزير فقد كان رأيه أن يؤخذ لا من الماركسية فقط ، وإنما من السريالية أيضا ، وذلك بمقدار ما يتقدم قضية استعادة الهوية الزنوجية ، فهي في نظره تياران فكريان طليعيان يرفضان ، كالزنوجة ، منظومة القيم الاضطهادية في الثقافة البيضاء ، يلتقيان معها في مناهضة الاستعمار والرأسمالية . . . ويسهل الأمر بسيزير إلى أن يصبح عضوا قياديا بارزا في الفرع المارتيستي للحزب الشيوعي الفرنسي . وإذا كان هذا شأن سيزير فإن زميله سنغور سيهتم هو الآخر بالماركسية ، على أن اهتمامه هذا أتى ضمن بحثه عن إمكانيات الأخذ من جميع التيارات الفكرية التي يمكن أن تحسب المشروع الحضاري الزنوجي ، لذا (ازداد تقييمه الدراسي للماركس عمقا من خلال نشاطه السياسي . بيد أن ما يجذبه من فكر ماركس هو الأفكار والقضايا الإنسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ ونعني بها القضايا الأخلاقية والتحرر الاقتصادي)^(٤٦).

والخلاصة هي أن الزنوجة لم ترفض رفضا قاطعا الحوار مع النظرية الماركسية ، لأن كل المعطيات كانت تحت على هذا الحوار ، فمن جهة لقي كل من سنغور وسيزير وداماس وليبر في الحزب الشيوعي الفرنسي مساندا قويا لقضايا وتطلعات العالم الأسود ، كما وجدوا فيه خير مناصر لأحقية السود في الذود عن هويتهم ، ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء المثقفون أن الاتحاد السوفياتي يبقى أكثر انسجاما ، بالمقارنة مع الدول الغربية ، فيما يخص الموقف من المسألة الاستعمارية ، فلم يتورط السوفييات مثلا في احتلال إفريقيا ، ولم يتوانوا عن المطالبة باستقلال الأقطار الإفريقية ، وهذا ما زاد في

أن نقبسه منها ونجعله يتلاءم مع حاجياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، دون أن نقبله جملة كمقيدة^(٤٧).

إن بادامور باعتناقه الواعي للماركسية سيفتح الباب أمام مجموعة من المثقفين الزنوج الناطقين بالإنجليزية ، الذين أسعفهم تكوينهم الإنجليزي على الاطلاع على أفكاره للأخذ بها كأداة لتحليل بنيات المجتمعات التقليدية الإفريقية ، ومن هؤلاء قوامي نكروما ، وجوليوس نيري . فكلاهما ينفي توفر تراكمات مادية ضخمة في المجتمعات التقليدية الإفريقية ، وكلاهما ينفي حصول أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في تلك المجتمعات ، إذ طبعتها البساطة على المستوى الاقتصادي ، والتكافل على المستوى الاجتماعي ، ثم يؤكدان على تداخل البينيتين التحتية والفقوية في أنماط الحياة الإفريقية الأمر الذي يساعد على القول بتوصل السود إلى اشتراكية فطرية نتيجة أحوالهم الخاصة .

أما الناطقون بالفرنسية فقد تم تعريفهم على الماركسية في سياق احتكاكهم بالتيارات الفكرية المتعاقبة في فرنسا ، بحيث (وجد الإفريقيون المتحدون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الأفكار الماركسية عن كتب خلال أيام دراستهم في باريس)^(٤٨) . وهكذا تمسح الشاعر إيتين لير ، وهو أحد أعضاء جريدة « الطالب الأسود » للماركسية ومبادئها ، مدافعا عن استرفاد قيمها الفكرية والجمالية في الكتابة الشعرية الزنوجية ، في حين عارض تيار معين داخل هيئة « الطالب الأسود » هذا الحماس بدعوى أن الماركسية لا تبرح كونها جزءا من الثقافة البيضاء التي هي ثقافة هيمنية واضطهادية . فيما يخص

(٤٦) جورج بادامور : (دليل للاشتراكية الإفريقية) جلة (الحلال) السنة ٧٣ ، المجلد ١٠-٧ يوليو ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

(٤٧) ب . ص . لويدي : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوفي جلال ، ص ٣٠٠ .

(٤٨) ب . ص . لويدي : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوفي جلال ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

تلميح صورة الماركسية في الكتابات الزنوجية . وعلى صعيد آخر أبانت دراسات بادمو ونكروما ، التي وصلت أصدافها حتما إلى الحلقة الباريسية ، عن تقارب ما بين الطابع المشاعي والمباواتي للحياة الإفريقية والمجتمع اللاصفاوي في التصور الماركسي ، ومن هنا إلحاح الزنوجة على توافر تجسيدات اشتراكية في بنية المجتمعات الإفريقية التقليدية ، الأمر الذي يجعل من الاشتراكية أحد مكونات الحضارة السوداء ، ومن ثم فإن ستغور (جعل الاشتراكية الإفريقية القضية الرئيسية في كتاباته)^(٤٩) طوال فترة الخمسينات .

إلا أن المعضلة الكبرى التي انتصبت أمام دعاة الزنوجة هي معضلة اللغة^(٥٠) ، فالافتراض أن يصل الفكر والإبداع الزنوجيان إلى الإنسان الأسود ، نظرا إلى أنه معني قبل غيره بهذا الفكر وبذلك الإبداع ، أي بخطاب يحمل رسالة البحث عن هوية مشتركة لعموم السود ، لكن الواقع شيء آخر ، بل مصادق ، فالفكرون والمبدعون الزنوج إما يكتبون بالفرنسية ، أو بالإنجليزية ، أو بالإسبانية ، أو بالبرتغالية . فنحن إذن بلزاء وضع انفصالي مازوم ، إذ يتم ذم الاسترقاق والاستعمار واليز العنصري ، كما يتم نقد الثقافة البيضاء ، وفي نفس الوقت تتم الكتابة عن هذه الأمور بلغات البيض ، وهي لغات لا يجوز ، بأي حال من الأحوال ، تفتية فمها من تروطها التاريخي في تدمير

الهوية الزنوجية . إنه مأزق وأي مأزق ، ولو أن سارت يحاول التأكيد على إيجابيته ، ففي رأيه تعتبر الكتابة بلغات المضطهد نوعا من الانتقام التاريخي ، ثمarse الزنوجة داخل اللغات الغربية ، بحيث يعمد المفكرون والمبدعون الزنوج إلى تكسير قواعد هذه اللغات وتلوين صفاها ، مما ينتج لغات هجينة يتداخل في أحشائها المعجم الغربي والمعجم الزنوجي .

وإذا ما تجاوزنا هذا الرأي وجدنا قرائن عدة كلها تثبت بأن المعضلة اللغوية هي من الجذرية بكان ، ولذلك كانت بالفعل مثار جدالات عميقة وصلت إلى حد التشكيك في مصداقية الحركة الزنوجية نفسها ، (إذ يتوجه الأدباء الزنوج إلى جمهور ينتمي إلى حضارة سماعية ، مستخدمين كتابة يجعلها هذا الجمهور نفسه . ويدول أول وهلة أن الكتابة ليست هي التي كان ينبغي على الأدباء أن يستخدموها من أجل الوصول إلى جمهورهم الأمي ، وإنما الكلمة المنطوقة)^(٥١) ، وهذا يعني (أن الأدب الإفريقي في شكله المكتوب هو نتاج للحضارة الصناعية والبورجوازية ، وهو يجر خلفه فرضيات وحجج ولغة وإيديولوجيا الحضارة الثقافية الغربية^(٥٢) . لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن (مشكلة اللغة هي أخطر مشكلة تواجه هذا الأدب)^(٥٣) ، ومادام الأمر بهذه الكيفية تتساءل : أفلتغلب على هذا الإشكال يتحتم على الكتابة الزنوجية أن تكون باللغات الإفريقية

(٤٩) نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٥٠) حقا إن من أروع مشاكل الزنوجية كوما تتوجه بخطابها الأمي خاصة إلى جمهور ذي ثقافة لغوية في الأصل ، وباستثناء المهمة البسيطة التي يبرمجها الشعراء والروائيون الزنوج الأمريكيون ، بسبب وجود جمهور قاريه ، يتركز قراء الأدب الزنوجي في العواصم السياسية والاقتصادية لإفريقيا واللاتين ، في حين تبقى أغلبية المعنيين بهذا الأدب كما مهملا . لكن الألية ليست رسوما للسلطة من هذا المأزق ، إذ هناك عوامل أخرى تحد من انتشار ما يكتبه الأدباء السود ، ومنها ضعف حركة النشر ، وإذا أخذنا الأدب الفركتوري كنموذج لصفوف ليد بأن نسبة مهمة منه طبع في دكا أو في باريس .

وقد ظهرت في الأوامر الأخيرة مراكز أخرى للطبع منها : يافندي (المطبوعات الرسمية) ، والزائير (المطبوعات الجامعية) ، وباماكو (المطبوعات الشعبية) ، وداكار (المطبوعات الإفريقية الجديدة) .

(٥١) ليبي كيمولي : (الأدب والثقافة في إفريقيا) ترجمة : الطبيب الرياضي ، مجلة (الأنلام) ص ١٢ - ع ١٠ تموز ١٩٧٧ ، ص ٤٦ .

(٥٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(٥٣) علي شلش : (في الأدب الإفريقي ومشكلاته) : مجلة : (الأنلام) ص ١٥ - ع ١ - تشرين الثاني ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .

شرق إفريقيا، وأخذ بعض الأدباء يكتبون بلغاتهم المحلية، كما فعل توماس مافولو الذي كتب بلغة السوتو ملحمة بعنوان «شاكاسا»^(٥٦)، وفي نفس الاتجاه (ترجم نيريري منذ أعوام بوليوس قصير، ويدير بالسواحلية الآن حكومة دولة)^(٥٧)، و(هناك كتاب سنغاليون، منهم الروائي، والشاعر، وكاتب مسرحيات يصدر إنتاجهم في لغاتنا الست المحلية المختلفة)^(٥٨).

وعلاوة على هذا هناك إبداعات لا تحصى كتب بـ «الولوف»، و«البامبارا»، و«الكينونغو»، و«الايونندو»، و«البامليك»، و«البول»،... بل حتى قطب الزنوجية سنغور كتب بعض أشعاره «بالولوف»، و«السيرير»، وهما لغتان عيلاني في السنغال، وبالرغم من هذه الإجازات تظل العضلة قائمة مثلما يظل طموح تعميم هذا المسلك بعدوا عن التحقيق للعوائق التي أسفناها.

لهذا استقر سنغور وأصحابه عند الاختيار الذي لا مناص منه مرحليا ألا وهو الكتابة باللغات الغربية، في انتظار توفر إمكانية الكتابة باللغات الإفريقية لأن (الآدب الإفريقي بمقدوره أن يزدهر باستناده إلى اللغات الإفريقية المتعددة بوصفها لغات وطنية حقة)^(٥٩). إن سنغور على وعي بضرورة هذا الاستناد (ويتضح فقط أن يولد إلى جانب الآدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية آدب باللغات الزنوجية - الإفريقية، مثلما هو الشأن بالنسبة

العديدة، مع ما يطرحة هذا الاختيار من مصاعب جمة؟ وحتى نتضح جسامته هذا الاختيار يجب أن نعلم، على سبيل التذليل، مدى اختلاف العلماء (في تقدير عدد لغات القارة، فمنهم من أحصاها بأكثر من ٧٠٠ لغة كستوني، ومنهم من أضاف إلى الرقم ١٠٠ لغة أخرى كسليجمان، ومنهم من خفضه إلى ٥٠٠ لغة كتيل)^(٦٠).

ثم نتساءل ثانية: كيف يجوز للنص الشعري مثلا أن يصون إبداعيته المحتومة في حالة ما إذا كتب بلغة محلية؟؟ أئن يضطرنا إلى ترتيبه في خاتمة الآدب الشعبي؟ وبالإضافة إلى هذا ألا يحق للقارئ الغربي أن يطلع على الإبداع الزنجي؟ وفي هذه الحالة كيف نبلغ إلى فهمه شعرا مكتوبا بإحدى اللغات الإفريقية؟ هل يجب أن يكتب هذا الإبداع باللغات الغربية والإفريقية حتى يستجيب للجمهورين معا؟ لكن ما جدوى الحديث، ضمن هذه الشائبة اللغوية، عن هوية زنجية متماسكة ومقنعة؟

من المحقق (أن آداب اللغات الإفريقية (الأخاري، السواحلي، المالكاشي، والزلو وغريها) تمتلك إمكانيات هائلة وآفاق إبداعية واسعة المدى، لكن تطورها في أغلبية البلدان الإفريقية يجري في ظروف المعاشية مع الآدب القومي الذي ظهر سابقا باللغات الأوروبية)^(٦١)، وكأمثلة في هذا الصدد حدثت محاولات مختلفة لتدوين الآدب الإفريقي، في

(٥٤) نفسه، ص ١٢٠.

(٥٥) ميخائيل كوركنا نصيف: (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة: هليل يحيى حسن - حلة. (الألأم) ص ١٥ - ٩ - حزيران ١٩٨٠، ص ٩٤.

(٥٦) خليل شطا: (الآدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المجلة)، ص ٢٠ - ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١، ص ٧٦.

(٥٧) جمال محمد أحمد: (ويجند إفريقيا)، ص ٥٦.

(٥٨) أمادولامين سال: (حول الهوية الثقافية وشاكلها) ترجمة: خليل فرجيات، مجلة (الكاتب العربي) ص ٢ - ٦ - ١٩٨٣، ص ٤٤.

(٥٩) ميشال سليمان: (آدب يلتهم في القارة السوداء) مجلة (الفرق) ص ١٩ - ٤ - حزيران ١٩٦٠، ص ١٣.

بأن الشعر الزنوجي يمثل تجربة شعرية واحدة ، فهو على العكس من هذا ، إنه مجموعة تجارب أو تيارات أو مدارس . فهناك الشعر الزنوجي الإفريقي ، وهناك الشعر الزنوجي الأمريكي ، ثم هناك الشعر الزنوجي الأنثيلي ، هذا إذا ما اتخذنا المعيار الجغرافي في التصنيف والتمييز ، أما إذا ما أخذنا بالمعيار اللغوي فإننا نجد أنفسنا حيال شعر مكتوب بالفرنسية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإنجليزية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإسبانية والبرتغالية ، مما يفيد وجود معيارين في التعامل مع الشعر الزنوجي وكلاهما معمول به من لدن الباحثين في هذا الشعر ، وإن كنا نلاحظ رجحان المعيار اللغوي ، لذلك نقترح التوسط بالمعيار الأخير في تناولنا هذا عملاً بما درجت عليه معظم الدراسات الزنوجية .

سوف نستهل حديثنا إذن بالشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، باعتباره الشعر الأكثر ذيوغاً بالمقارنة مع ما كتب بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إضافة إلى أن الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية تميزوا بخصوصية إبداعية ملفتة ، كما اقترن شعرهم بولادة الحركة الزنوجية ، إذ هم المؤسسون لركائزها ، لكن قبل أن نتناول مواصفات هذه المدرسة نورد ثلاث ملاحظات : أ - يتركز هذا الشعر في منطقتين هما إفريقيا وجزر الأنثيل (المارتينيك ، هاييتي ، الغوادولوب)^(٦٥) ، وإذا كنا نلمس توازناً في الكم الإنتاجي بين شعراء إفريقيا وشعراء الأنثيل ، فإن ما نلتمسه بخصوص إفريقيا يدل على تفاوت كبير بين الأقطار الإفريقية الناطقة

للعربية في إفريقيا الشمالية^(٦٦) . على أن شاعراً ينتمي إلى الجيل الموالي لجيل سنغور ، وهو الكونغولي تشيكاي أوتامسي يقدم تحليلًا منطقيًا للمعضلة اللغوية ، وهو تحليل ينتزل مناحي الجدل الذي دار بين دعاة الزنوجية . فبالنسبة إليه (إن الفرنسية تغدو بذلك الأداة المثلى للتعبير عن المنخيل ، والحلم أو المعيش)^(٦٧) ، وقبل هذا (فأن أكتب بالفرنسية لم يكن بالنسبة لي ناتجاً عن اختيار داخلي)^(٦٨) ، ثم إن القضية مفتعلة في جوهرها ، فليس المهم هو اللغة الوسيطة ، وإنما المهم هو (أن أحفظ بثوري لتراجيديات أخرى)^(٦٩) ، أي لقضايا ومشاكل أكثر جوهرية . إذن سواء أخذنا بهذه الوجهة أو تلك فإن (عل الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنتشر في فرنسا ، وإلا فأين المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنجور سيخاطبه في السنيغال ؟)^(٧٠) ، ونفس الشيء يصدق على من يكتبون باللغات الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إذ عليهم أن يدونوا مرحلياً أعمالهم بهذه اللغات ، وإلا فأين يُعثر على قارئهم في نيجيريا وكوبا وأنغولا ؟ هذه أهم الإشكاليات التي تمحور حولها الخطاب الزنوجي ، هذا الخطاب الذي تبلور ضمن ملابس تاريخية وثقافية شكلت السباق العام الذي أبدع داخله الشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيون شعرهم ، ولنا الآن أن نرسم هذا الشعر لنستعرض ألبع رموزه وأبرز قضايا وموضوعاته .

ومقدما نسطر توضيحاً مفاده أنه يلزم تجنب الاعتقاد

— (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre-In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983 P. 31. (٦٠)

— Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 16. (٦١)

— Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) In (Magazine littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 17. (٦٢)

— Ibid, P. 17. (٦٣)

(٦٤) الدكتور محمد عبد الغني سمودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٠٢ .

(٦٥) على الرغم من أن طوبالاً الفرنسية لا تنتمي جغرافياً إلى الأنثيل ، يحكم وقوعها في الجزء الغربي من أمريكا الجنوبية ، فإننا لا نرى مانعاً في إلحاق شعرائها بالشعر الأنثيلي ، إذ أن حامل اللغة (الفرنسية) يعمل شعراءها أقرب إلى شعراء الأنثيل منهم إلى شعراء البرازيل أو الولايات المتحدة .

تختلف في شيء هام مر بنا في شعر الفيتوري ، إذ نجيم دلالة الاسترقاق راسخة في جل النصوص ، وتستحوذ على مساحة وافية منها . فكلهم صرخوا فصولا من مأساة العبودية التي ما انفكت ذيلها مترسبة في ذاكرة السود ، فتخللوا مشاهد اصطيد أسلافهم ، واقتيادهم من الصحاري والسهوب والغابات الإفريقية ، ليشحنوا مغلولين إلى العالم الجديد ، تحمّلهم سفن النحاسين البيض ، وتحيلوا أيضا مشاهد ما بعد الوصول إلى العالم الجديد ، لما كان يوزع أسلافهم على مزارع البيض المتغطرسين ، وعلى مصانعهم ومراقبهم المختلفة ، فهم من صنع رفاة أمريكا ، ومن ثم لا غرابة أن يربط هؤلاء الشعراء المعجزة المادية الأمريكية بمعاناة السود وبمذابهم التاريخي الرهيب .

ومن ناحية أخرى تزاوجت دلالة الاستعمار في شعرهم بنغمة من الإدانة والاحتجاج ، فنادوا بشاعة الاستعمار واحتجوا على الممارسات الاستغلالية للبيض في إفريقيا والأنثيل ، أما دلالة الميز العنصري فلما لم تنمظهر في شعرهم بنفس إلحاح الدلائل السابقتين نظرا لحفلة الميز العنصري في المستعمرات الفرنسية قياسا إلى وطاته في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ، فحين هذه الدلالة ليست غائبة تماما من الشعر المكتوب بالفرنسية إلا أنها لا تحقق نفس الزخم التعبيري الذي نجدها عليه في الشعر المكتوب بالإنجليزية .

وفي موازاة هذه الدلالات نحوا دلالات مضادة استطاعت أن تصوغ تلك الرجة التاريخية التي عرفها العالم الأسود وهو يتوخى استعادة هويته . وهكذا أصبحت دلالة الحرية ثابتا مركزيا في شعرهم ، وصارت

بالفرنسية . فالأقطار المعروفة بغزارة الإنتاج الشعري هي السينغال ، وساحل العاج ، والكونغو ، ومدغشقر ، بينما الأقطار الموسومة بشحها وقلة شعرائها فهي غينيا ، وجزيرة موريس ، أما الأقطار التي تبدو وكأنها تعاني نوعا من العقم الشعري فهي الغابون ، وفولتا العليا ، والتشاد . .

ب - لقد عرف هذا الشعر بدايته خلال الثلاثينات عبر نصوص أو مجموعات شعرية ، لكنه سيبلغ ومعه الزنوجية (أوجه إثر صدور أنطولوجيا الشعر الزنجي والملاغاشي الجديد المكتوب بالفرنسية لصاحبها سنغور عام ١٩٤٨)^(٦٦) ، والتي يمكن عدّها (إعلانا رسميا لميلاد أدب زنجوي - إفريقي باللغة الفرنسية ، أدب راديكالي في مغاييرته للأدب الفرنسي ، وبالتالي إعلانا لطلاق مع أوروبا)^(٦٧) . هذه الأنطولوجيا سيكتب مقدمتها جان بول سارتر ، وإذا كنا على علم بتحرز سارتر من التقديم لأي مؤلف كان أمكننا إدراك قيمة هذه الانفضات من صاحب « الوجود والعدم » باعتباره أحد أعلام الثقافة الغربية . فهي تشكل ، بدون مواربة ، تمجيدا للشعر الزنجوي وتعاطفا مع الزنوجية وضمانا لرواج الخطاب الزنجوي في المحافل الثقافية الغربية والعالمية .

ج - لقد لقي هذا الشعر قبولا وتعاطفا دالين من طرف كتاب وشعراء فرنسيين قد افعلوا عنه واعتبروه تيارا أساسيا في الشعر العالمي ، ومن هؤلاء كامو ، وموتني ، وبروتون ، وأراغون . . .

وإذا ما حاولنا ضبط الدلالات المشتغلة في النصوص الشعرية للذين يكتبون بالفرنسية وجدناها لا تكاد

— Almut Nordmann : (La littérature Neo-africaine) P. 24.

— Lylan kesteloet : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du XXe siècle) P. 133.

(٦٦)

(٦٧)

وصوروا الطقوس والأعراف ، فاستحضروا الكهان والعرافات والحكاة الجوالين بالتوازي مع الحكيم وسير المشاهير من السود ، ونقلوا صخب الرقص الزنوجي وشعائرية الجذبة ، كما ألغوا الفواصل بين الأحياء والموت انسجاما مع الفلسفة الزنوجية التي لا تفرق بين الحياة والموت ، إذ يستمر حضور الموت عبر سلالتهم ، يشعرون روحا إلهية قدسية ، (فهو لاء الشعراء لا يميزون بين « الموت » و « الأحياء » ، بين « الحياة » و « الوجود » . وبالنسبة إليهم فإن الموت يموت (٧١) .

ثم غاصوا في أغوار الماضي فابتعثوا ذكريات الدول السوداء العظمى والجماعات العرقية ذات التأثير ، فقد نفضوا الغبار عن عظمة الممالك النوبية ، وإثيوبيا القديمة ، وأضافوا صفحات من أجداد شعوب الزولو واليامبارا ، متحدثين عن شهائنها وعن نقائنها الأخلاقي .

وعلى مستوى الفضاء جعلوا أشعارهم منطبعة بلونية الطبعيتين الإفريقية والأنتيلية ، في سحرهما البدائي ، وفي تلقائيتها البكر ، فخالطوا بين الكشافة التخيلية للنصوص وبين كثافة غابات الأبنوس ، ثم جعلوا هذه النصوص تهلل بهدير الشلالات الجارية ، وتتسامخ بجلال الجبال المتطاولة ، وتنسرح انسراح الامتدادات الصحراوية ، حركوا في نسجها أمهار إفريقيا والأنتيل ونضربوها بأعشاب السفانا ، ومألوها بأشكال ولغات الوحوش والطيور الاستوائية . . . هذا دون أن يغفلوا امتداح تلك الحميمة التي تشد الأسود إلى فضائه ، أو

الروائح الجورية ملازمة لأكثر من نص ، فتغنوا بثورين سود في هايتي كـ « توسان لوفيرتور » ، و « الملك كريستوف » ، وأشادوا بنضالات ثورين أفارقة كـ « لوموبا » و « كينياتا » . . . كما حرصوا الجموع السوداء على أن تنور على العبودية والاستعمار . أما الإنسان فإنه ارتسم في مخيلتهم كائن أسود ذا ملامح متجذرة في تاريخ وهوية جذيرين بالاعتبار ، أي في الحقيقة الإنسانية السوداء التي حجبتهما غتلف أطوار العنف التاريخي الأبيض .

هكذا يجدوا الجسد الأسود وأعادوا إليه جدارته الجمالية والأخلاقية ، فد (ستغور يؤكد دائما في شعره على الجمال الأسود) (٧٢) ، وفي معظم النصوص الشعرية يلوح الجسد الرجولي كثرة لطافة ذكورية أسطورية هي مصدر قوة السود واحتماؤهم ، أما الأنثى الزنوجية فقد صارت أفروديت أو عشتار ، لها نفس بهائنها وفتنتها .

لقد صاغوا الإنسان الأسود مزارعا لا يكل ، وصيادا يغالب الضواري ، ومحاربا فحلا ونبلا يحمي عشيرته ويستبيل من أجلها ، أي أنهم صاغوه إنسانا فعالا في محيطه الطبيعي والاجتماعي ، تأخذ تموضعاته المجالية بعدا جنسيا غموبيا دالا يصب في الطوقسية الزنوجية ، فد (الحرق ، والغرس ، والأكل ، معناه ممارسة الجنس مع الطبيعة) (٧٣) ، و (في أسطورة دوغون جعل الإله الواحد الأرض أنثى لما خلقها ، ثم تزوج بها لتوه) (٧٤) .

(٦٨) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (تغايا إفريقيا) ، ص ٢١٢ .

(٦٩)

— Jean Paul Sartre : (orphee noir) in (Anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise) de leopold senger P. 31.

— Janheinz Jahn : (Muntu : l'homme africain et la culture neo-africaine) P. 116.

(٧٠)

— Ibid, P. 124.

(٧١)

بل وتطعيم اللغة الفرنسية بجمالية مستقاة من مختلف أنماط الثقافة الشفوية الزنوجية، فوظفوا الملاحم والأساطير والأغاني والحكايات الشعبية، وزاوجوا بين الموسيقى الشعرية الغربية وإيقاعه للموسيقى الزنوجية، كما استعملوا التكرار، بحيث تكثر الصيغ التكرارية، حروفا وكلمات وتراكيب، مما يخلق مضاعفات صوتية في النصوص. ولعل ما يميز الشعر الزنجي عموما عن الشعر الغربي (أن الأول يجب أن يغنى أو بالأحرى أن يتل بمصاحبة الموسيقى)^(٧٢)، وبالرغم من الدرامية المنجحة لبعض النصوص، فإن الغنائية هي الطابع الجوهري لأكثريتها، وهذا يدل على استمرار نفس الروح التي طبعت الشعر الزنجي الشفوي، وإجمالا فإنه (شعر) يتميز بالمرح والحيطة في استعمال الألفاظ والصور والأخيلة كما أن الموسيقى الإفريقية ذات الإيقاع الخاص قد أثرت في عروضه وفي أنغامه^(٧٣).

لكن هذه الجمالية سوف تجر مجموعة من الانتقادات والاعتراضات، فقد نظر إليها البعض من زاوية (أنها الوسيلة الأكثر أمانا لفبركة شعر فولكلوري، لن تستطيه سوى المحافل التي يناقش فيها الفن الزنجي)^(٧٤)، بينما يرى آخرون ب (أن جمالية الزنوجة هي قبل كل شيء جمالية غرائبية)^(٧٥).

وفيا يتعلق بالأسماء الشعرية البارزة في هذه المدرسة فهناك في الحقيقة أسماء كثيرة إلا أن أبرزها، على الإطلاق، اسمان هما سنغور وسيزير.

فسنغور شاعر قبل أن يكون رجل سياسة (رئيس للسينغال من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٨٠ حيث استقال

يغفلوا التعبير عن مشاعر الحنين إلى إفريقيا الحاملة والوديمة، وهو ما جعل سارتر يشبه هذه المشاعر بتعلق «أورفيوس» «بيوربديسي» كسا في الأسطورة الإغريقية. وإذا كانت نصوص كثيرة قد طغى عليها حس نرجسي حيال الذات السوداء وحيال فضائها وحضارتها فسادت الأبيض. وفضاءه وحضارته فإن نصوصا أخرى قد سيطر عليها حس غيري تحول معه الموقف الاستعدادي إلى موقف إنساني انفتاحي ليس نحو الأبيض فحسب، بل ونحو الإنسان ككل.

تلك هي المشاغل الأساسية في الشعر الزنجي المكتوب بالفرنسية، وبذلك استطاع هذا الشعر أن يفتح بصدق انخراطه في التجربة التاريخية لعالم في طريقه إلى استرداد هويته، وللإشارة فإن هذا الشعر بالذات هو الذي أرغم سارتر على تبديل رأيه في الشعر عموما. فنحن نعلم بأن سارتر سبق له أن نزع عن الشعر وظيفته الإلزامية، بدعوى أنه أحد أنماط الكتابة المجازية التي لا تسعف، لثموميتها، على تبيين مقصدها الإنسانية والاجتماعية في حين يكشف الفن الروائي، ككتابة انسيابية أو خطية، عن التزامه بقضايا الإنسان والمجتمع، إلا أن سارتر سيتخلص من هذا التحليل بعد أن توصل إلى أن الرؤية الأوروبية وجهه من وجهه الالتزام.

وعلى المستوى الشكلي نلاحظ بأن تبعية هذا الشعر للقواعد الشكلية في الشعر الفرنسي الكلاسيكي، والرومانسي، والبرناسي، والسريالي، لم تمنع الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية من تطعيم هذه القواعد

(٧٢)

(٧٣) لويس عوض: (الثورة والأدب)، ص ٤٥٠.

(٧٤) Michèle pierre: (Deux générations pour une littérature) in (Magazine Littéraire) No. 195-Mai 1983-P. 29.

(٧٥) Stanislas Adotevi: (Négritude et Negrologues) P. 17.

(٧٥)

وأيضاً كمناضل في سبيل قضية الزواج بجزيرة المارتينيك أحد الأقاليم الفرنسية فيها وراء البحار . إنه بحق الضمير الحي لإخوته والصوت الناطق بآلامهم ومطالبهم ، ومن دواوينه (مذكورة عودة إلى بلدي) ١٩٣٩ ، (الأسلحة الحارقة) ١٩٤٦ ، (شمس ميتورة الجيد) ١٩٤٨ ، (أغلال) ١٩٦٠ ، (مسح) ١٩٦١ ، (أنا الرقائقي) ١٩٨٢ ، هذا عدا كتبه ومقالاته الكثيرة^(٨٠).

وتدور أشعار سيزير حول معاداة الاستعمار ، والاستغلال ، وتحقير السود ، كما تصور ماضي إفريقيا وصنائع إنسانها ، وتتغنى بالألماني التاريخي للسود في التحرر والاعتناق . ف (بالنسبة إلى سيزير يجب على الشاعر أن يجد موهبة النبي الذي لا يقول ما هو كائن فقط ، بل وما يتحتم أن يكون)^(٨١) ، ويوضح انحيازه إلى جنسه قائلًا عن نفسه وعن سنغور (إننا ناطقون بالفرنسية قبلتنا الثقافة الفرنسية ، لكن الأسلحة الحارقة نريد أن نضعها في خدمة شعوبنا)^(٨٢) . لقد أدان الرأسمالية البيضاء ونظر إلى نضالية السود كجزء من الكفاح الأمم ضد الأجهزة الرأسمالية ، وبذلك فهو يلتقي مع أطروحة سارتر المعروفة في هذا الصدد ، وبموازاة ذلك أبان سيزير عن تعلقه القوي بالقيم الزنوجية رابطاً إياها بالقيم الإنسانية التي يتوجب الدفاع عنها . ولا ريب أن قصيدته المطولة (مذكورة عودة إلى بلدي) هي النموذج الذي يستوفي جماع منازعه

بمحض إرادته ، ولعله أجدر الشعراء الزواج الذين يكتبون بالفرنسية بالإمارة الشعرية ، عرف عنه أنه مكث^(٨٣) ، إذ أصدر (أغاني السفل) ١٩٤٥ ، (القرايين السوداء) ١٩٤٨ ، (أغاني من أجل نايت) ١٩٤٩ ، (إيويكات) ١٩٥٦ ، (ليليات) ١٩٦١ .

وشعر سنغور يمكن عده نوعاً من التكريم للذات السوداء ولتاريخها ، إلا أنه يجسد في نفس الوقت مزعجا تصالحيا مع الفكر المسيحي ومع الحضارة الغربية ، بمعنى أنه غير موقعه (من معارضة وعداء شديدتين إلى هدوء وتقبل تام)^(٨٤) . على أن ما يلفت في شعر الرجل هو إحساسه الكبير بالثبات وبالليل ، الأمر الذي صيرها رمزين دالين في نصوصه ، فهو (يقرن دائماً النبات بالمرأة وترتبة إفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح)^(٨٥) ، مثلاً (يجعل من الليل هيكلًا وقاعدة لأشعاره ويؤكد ذلك مجموعته الشعرية التي تعرف بـ «ليليات»)^(٨٦) . ومن حيث التقنية الشعرية يتراوح سنغور بين كلاسيكية كلوديل وسريالية سان جون بيرس ، ولو أنه أكثر إخلاصاً للكلاسيكية ، وقد عمل على استرفاد الجمالية الزنوجية فتدثر شعره من جراء هذا بكثافة شفووية ملموسة أمده بها الشعر الشعبي الزنوجي .

ويقدم سينير ، مثله مثل سنغور ، صورة للمبدع والسياسي كشطاطعين في شخصيته ، فهو معروف كشاعر

(٦٦) من كتاباته النظرية : (مناجى يميل الإنسان الأسود) ١٩٣٩ ، (روح الحمار أو أوليات الثقافة الزنوجية - الإفريقية) ضمن مجلة (المصور الإفريقي) يونيو ، نوفمبر ١٩٥٦ .

(٦٧) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (تعدبا إفريقيا) ص ٢٢١ .

(٧٨) الدكتور جوزيف جودت عثمان (مارو) سنجور وحضارة الإنسان : مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن ، ع ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

(٧٩) حسن المنهي : (الحرق في الأدب الشعبي السنغالي ، سنغور ، ديوپ) ، مجلة (آفاق) ص ١ ، ع ٣ ، جوي ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٣ ، ص ٤٦ .

(٨٠) من بين ما كتب : (توسا لوفيتور) ١٩٦٠ ، ورايميديات (وتنكت الكلال) ١٩٥٦ ، (الملك كريسوف) ١٩٦٤ ، (فصل في الكونغو) ١٩٦٥ ، (عاصفة) ١٩٦٩ .

(٨١) .

— Almut Nordmann : (La littérature neo-africaine) P. 18.

— (Aime cesaire, Negre rebelle) In (Le monde de dimanche) No. 11463-Dimanche 6 decembre 1981, P. 1.

(٨٢) .

المستمدة من التراث الملغاشي، وخاصة جانبها الأسطوري، وهناك شاعر ملغاشي آخر هو فيلابان رانفو، يده لا يرقى إلى شهرة الأولين. أما غويانا الفرنسية فإنها أهدت الشاعر ليون داماس^(٨٣) الذي ارتبط اسمه بالزنجوة هو وزميله سنغور وسيزير. وفضلا عن سيزير ظهرت في المارتنيك أسماء أخرى منها جيلير كراتيان، وليتين ليرو، وبينما عرفت الغوادولوب بشاعريها كي تيروليان، ويول نيجير. ومن هاتيكي نذكر أسماء كل من ليون لالو، وجاك رومان، وجان فرانسوا بريرير، وروني بيلانص، وجان بابتيست، وهي الأسماء التي اختطت للشعر الهاتيكي ملامحه الخاصة داخل المدرسة التي تكتب بالفرنسية. فقد أرقق هؤلاء الشعراء الذاتي بالموضوعي بحيث (إذا كان الشعر الهاتيكي يزخر بأغاني الحب، فإنه وقف في جانبين أساسيين: أولها معانقة الشاعر للوطن الأم، وثانيهما فضح التمييز العنصري)^(٨٤)، ومن جهة ثانية فإنهم اظهروا على إحياء وتوظيف الطقوس النوجية، كديانة القودو، والتبشير بها كمعتقد بديل لمسيحية الأبيض.

هذه إذن نظرة عن الشعر النرويجي المكتوب بالفرنسية وعن رموز الجيل الأول، ذلك الجيل الذي أطلق صيحة النوجية وأرسى لها مبادئها النظرية والإبداعية. وفي الستينات منتظر أسماء من غير الأسماء التي ذكرنا، وستتشكل جيل جديد لم يعيش نفس التجربة التاريخية التي عاشها الرواد، وهذا يعني اختلاف المناظير بين

وتصوراته، وقد (أجمع النقاد على أن هذه القصيدة رئيسية بالنسبة إلى كل الأفارقة ورأوا فيها الظاهرة الثورية لقسم من العالم الثالث وهم النرويج)^(٨٥).

لقد قرأ سيزير لوتريامون، ونوفاليس، ورابامو، وبروتون، وأقام لغته الشعرية على تعقيد فني متطرف، الشيء الذي جعل شعره الأكثر شائكية مقارنة مع باقي الشعر النرويجي المكتوب بالفرنسية. فشعره يزاوج، بذلك، بين التقنية الشعرية والحكاية في تراثه النرويجي وبين التقنية الشعرية السريالية، ومع (أن سيزير يرفض دائما الانتساب رسميا إلى جماعة بروتون)^(٨٦)، فإن هذا الأخير عده في تقديمه لديوان (مذكرة عودة إلى بلدي) (طبعة بورداس ١٩٤٣) أكبر شاعر سريالي أسود^(٨٧)، إذ أن هذا الديوان هو في الحقيقة قصيدة طويلة (فيها بدأ تجربته الطويلة التي قامت على التنكيك السريالي من أجل تشكيل اللغة الفرنسية شكلا جديدا)^(٨٨). وبصفة عامة يمكن أن نقول بأن شعر سيزير يتضمن (كل هاتيك العناصر الموجودة في كتابات النرويج الكاريبيين ويغمسها في مفهوم الزنجوة المفرد)^(٨٩).

ومن غير سنغور أعطت السينغال شاعرين آخرين هما دافيد ديوب، وبيراجو ديوب، مثلما أعطت مدغشقر الشاعرين الكبيرين جان جوزيف رابير فيلو، وجاك رابينا ناجار، اللذين بصموا الشعر النرويجي المكتوب بالفرنسية بكثير من موهبتها وبكثير من الطوايع الفنية

(٨٣) أحمد الطويل: (إلى سيزير الأصالة النوجية والتصور الإقليمي) مجلة: (الأعلام) ص ١٣، ع ٧، نيسان ١٩٧٨، ص ٢٣.

(٨٤) —Jerome garcin : (Alme Cesaire, le soleil du pays natal) in (les nouvelles littéraires) semaine du 25 Novembre au 1er Decembre 1981. No. 2863, P. 42.

(٨٥) ويعد مدة سيجمل بروتون هذه الإضافة مقسمة بين سيزير والشاعر النرويجي الأمريكي المعاصر نيد جونس.

(٨٦) جيرالدور: (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة: علي شلش، ص ٣١.

(٨٧) نفسه، ص ٣٠.

(٨٨) من أهم أعماله الشعرية ديوان (الأصباغ) الصادر عن دار جاليل عام ١٩٣٧، إلا أن السلطات الفرنسية كانت قد صادرة بدهوي معادته للقرب.

(٨٩) حسن المنجي: (نقطة من الشعر الهاتيكي) مجلة: (أفاق) ص ٢، ع ٣، جوي، أوت، سبتمبر ١٩٦٤ - ص ٤٦.

وإلى جانب لانغستون هيوز نجد الشاعر كوني كولن الذي يعد الأكثر تعلقاً بإفريقيا قياساً إلى الشعراء الزنوج الأمريكيين ، ثم هناك الشعراء ستيرلنج براون ، وجيمس ويلدرون . إن الشعر الزنوجي الأمريكي لا يكاد يختلف دلاليًا في شيء عن نظيره المكتوب بالفرنسية ، ما عدا في تركيزه على دلالي الاسترقاق والميز العنصري ، بالنظر إلى خصوصية الوضع الزنوجي في الولايات المتحدة ، ولعل هذه الخصوصية هي التي جعلت (أهم الموضوعات التي يتعرض لها الشعراء الزنوج هي فقدان الحرية ، وعار الرق ، والجوع ، ومحاولات الثورة ، وبؤس الرقيق ، وتمجيد العهد الشائع ، والكفاح من أجل تحرير العبيد ، وهي موضوعات جوهرها سياسي^(٩٠) . فالذاكرة السوداء الأمريكية لا يمكن أن تنسى عذابات العبيد في الجنوب الأمريكي ، ومذلة الأحياء الهامشية في نيويورك وشيكاغو ، أو منع لوسي الطالبة الزنوجية عن الالتحاق بجامعة ألاباما ، ومقتل القس الزنوجي مارتن لوتر كينغ ، الذي تزعم حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج الأمريكيين . ولذلك سيطرت على الشعر الزنوجي الأمريكي دلالات الاسترقاق والميز العنصري ، كما امتلأ هذا الشعر بإدانة الشعراء الزنوج الأمريكيين لهاتين الممارستين من حيث كونها تعبيراً عن أخلاقية همجية وتدميرية ، على أهم لم يصلوا ، رغم الجروح والمهانات ، إلى حد الحقد على البيض ، (بل لقد بلغ بعضهم الإنصاف درجة الاعتراف بما للجنس الأبيض من فضل عليهم^(٩١) . لكنهم جنحوا في المقابل إلى

الجليلين ، كما يعني تباعدا ملموساً بينهما على مستوى مضامين وأشكال الكتابة الشعرية . لقد كان الجيل الأول مثلاً مشغولاً بالتعبير عن قضايا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، وبتمثل ثورات السود ونضالهم من أجل حريتهم وجدارتهم الإنسانية ، أما الجيل الثاني فإنه عايش قضايا وانشغالات طرحتها سنوات الاستقلال ، قضايا وانشغالات من قبيل البناء المجتمعي ، والصراع الطبقي ، والتقليد والحداثة . إن هذا التحول لا يدل في نظرنا على قطعية ما ، ولكنه يشير إلى ما يمكن اعتباره إغناء وتنوعاً لموضوعات الشعر الزنوجي ، ومن أبرز أساءات الجيل الثاني روني دوبيستر ، لامين دياكاتي ، إدوار كليسان ، تشيكايكا أوتامسي ، إدوار مونيك ، هؤلاء الشباب الذين سيأتون لإغناء الدم الجديد والفني للزنوجة^(٩٢) .

أما المدرسة التي يكتب أصحابها بالإنجليزية فهي تشمل شعراء الولايات المتحدة ، وشعراء جنوب إفريقيا ، سواء الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأفريكانية (لغة متصدرة عن الهولندية) ، ثم شعراء المستعمرات البريطانية في إفريقيا .

ومن الأساءات الأساسية في الشعر الزنوجي الأمريكي الشاعر لانغستون هيوز ، فهو الأكثر شهرة بين رفقاء الأمريكيين كما كان له من نفوذ عليهم ، (إنه أحد الكبار بين الشعراء السود ، لأنه مبدع حقاً سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد الموضوعات^(٩٣) . وقد ربطته مع ستغور وداماس علاقة حميمة ، فتعرفا على تصورات تيار « البقطة الزنوجية » الذي أسهنا القول فيه سابقاً .

— Abdallah Bensmail : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine) in

(٩٠)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بطنس - ع الثاني والثالث لسنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٤٧٣ .

— Lylian Kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poètes et dramaturges noirs du

XXe siècle) PP 21-22.

(٩٢) لويس عوض : (الثورة والأدب) ص ٤٤٤ .

السود قصائد ، وأن كل الناس السود إفريقيون ، وأن القصيدة المطلقة هي التجلي الأدبي لإفريقيا وشعبها اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا وروحيا»^(٩٥).

وكالشعر الزنوجي الأمريكي يواجهنا الشعر الزنوجي في جنوب إفريقيا بلهجة الإدانة للميز العنصري ، لأننا لما نذكر جنوب إفريقيا فلننا نذكر إحدى قلاع البربرية المتبقية من عهود الظلام ، فضراوة حياة السود هناك تفوق كل التصورات الممكنة ، بحيث يجرمون ، وهم الأغلبية ، من حقوقهم الإنسانية ، ويتعنون ، وهم في وطنهم ، من حق الانتقال والتجول وإلى جانب هذا العامل المشترك ، نسبيا ، بين الواقعيين الأمريكي والجنوب إفريقي ، هناك عامل الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية في واجهتها الانفصامية ، أي في مستواها التكنولوجي المتقدم ومنظورها التحقيري للإنسان المغاير ، ففي الولايات المتحدة أمكن لشعرائها الزنوج أن يصابوا ما تعينه الحضارة البيضاء ، كما استطاعوا استيعاب آليتها التدميرية عن قرب ، (وفي دولة متطورة صناعيا كجمهورية إفريقيا الجنوبية تركت عمليات التمددين المكثفة آثارها العميقة على الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تضاعفت وتفاعلت بشكل متبادل المشكلة الإنزيمية النمذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة أخرى»^(٩٦).

وهكذا تمحورت كل الأعمال الشعرية الزنوجية في جنوب إفريقيا ، المكتوبة بالإنجليزية والأفريكانية ، حول الميز العنصري ومعاناة السود لمضاعفاته الجسدية

الإعلاء من قدر الذات السوداء ، فتناسوا بوساسة الجسد الأسود ، وامتدحوا الشعر المجدد والمنقوش . ومن زاوية الشكل تركوا علامات إرثهم الزنوجي منتصبة في بنية اللغة الإنجليزية ، بحيث عملوا على تعنيفها بل تزيينها بما استوحوه من الأهازيج والمأثورات الزنوجية ، وبما اقتترضوه من موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم ، الشيء الذي أعطى شعرهم مذاقا شائقا بين المدارس الشعرية الزنوجية . (إن شعر الزنوجية ينشر القرح ولقد قال لوركا « وإن زنوج أمريكا يمثلون هناك أكبر حساسية ودقة لأنهم يأملون ، لأنهم يغنون وكان بإمكانه أن يختصر وهو أمير الشعراء » إن الزنوج بعاطفتهم وحساسيتهم هم اللذة الشاعرية لأمريكا»^(٩٧).

هذا وأعقب جيل « البقطة الزنوجية » جيل جديد ، كالذي حدث في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وقد ساق هذا الجيل تطور مشاغل وهموم السود في الولايات المتحدة ، فانتقل الشعر من مسابرة شعار الحقوق المدنية إلى التعبير عن تمسك الجماعة السوداء والهوية المارقة ، أي من مرحلة الشعور بالانتماء إلى المجتمع الأمريكي إلى مرحلة الانتباه إلى الكليمة السوداء ، ومن بين ممثلي هذا الجيل راب براون ، كارل كارتز ، جاي رايت ، لاري نيل ، ماري إيفانز . .

وعلى أي ، ومهما يكن من تباين بين الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية ونظرائهم الأمريكيين فإهم يلتقون على أكثر من صعيد ، مادام (الشيء الذي يربط بين هؤلاء الشعراء هو ذلك الوعي المذهل بأن الناس

(٩٣) قاسم الزميري : (نظرات في الفكر الزنوجي) مجلد : (الثقافة المغربية) ج ٦ - ١٩٧٢ ، ص ٤٥ .

(٩٤) لامين تايانغ : (الثقافة والشعر الزنوجي الإفريقي عناصر بقاء حضارتها) (الثقافة الإفريقية) ، ص ٣٥٨ .

(٩٥) أحمد مرسي : (مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي) ص ٥٧ .

(٩٦) د. أنثوني بومين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة ، وليد تارصلي - مجلة (الآداب الأجنبية) ص ١١ ، العدد ٢٨ - ٢٩ ، شتاء وريبع ١٩٨٤ ، ص ١٢٢ .

والنفسية ، كما تمحورت أيضا حول معاداة الحضارة البيضاء وأخلاقيتها التدميرية ، وفي نفس الوقت طفحت هذه الأعمال بتطلعات السود إلى بناء جنوب إفريقيا متحررة من رقة الميز والتهميش . وإذا علمنا مقدار القمع الذي يتعرض له الشعراء من قبل السلطات البيضاء أمكننا تقدير الوضعية الحزينة التي يكتب داخلها هؤلاء ، بحيث غالبا ما يكونون عرضة للاعتقال أو الشفي أو الإعدام^(٩٧) ، ويعتبر الشعراء دنيس برووتوس ، ومازيسي كونيبي ، وكوسموبيتريس ، وبريتين برينتنباك^(٩٨) أهم وجوه الشعر الزنجي بجنوب إفريقيا .

أما من نيجيريا فيمكن أن نذكر مجموعة من الشعراء منهم دنيس أوساداي ، وغابرييل أوكارا ، وجون بيبير كلارك ، وجوزيف كاريوكي ، ومن غانا نذكر الشاعرين ميكائيل ديانتاج ، وكاثير منسا . وبالطبع فإن ما يصدق على الشعر الزنجي الأمريكي وعلى الشعر الزنجي الجنوب إفريقي يصدق كذلك على ما أبدعه الشعراء الزنوج النيجيريون والغانيون بشرط احتسابنا للحيثيات الخاصة بكل تجربة شعرية قارية .

وفينا يتعلق بالشعر الزنجي المكتوب بالإسبانية والبرتغالية فإنه يمثل في النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي المستعمرات البرتغالية بإفريقيا (أنغولا ، الموزمبيق ، غينيا بيساو) . وتندمج هذه المدرسة هي الأخرى في نفس الإطار العام للشعر الزنجي الإفريقي - الأمريكي سواء من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الدلالية ، ولا يبعدها عن هذا الإطار سوى ما تعلق بالاعتبارات القطرية ، وبمقتضيات الأداة اللغوية . فلقد عرفت كوبا ، كجزر الأنيل

الأخرى ، استخدام جماعات من السود سخرت للعمل الشاق في مزارع قصب السكر التي تمتلكها الكمبرادورية الإسبانية ، وظل الاسترقاق قائما بكوبا إلى نهاية القرن الماضي . فانشجنت نفسية الزنوج الكوبيين بمرارات وجدت تجسيدها التعبيري في نصوص الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي مقدمتهم الشاعر جوزيه زاكارياس طاليت والشاعر نيكولاكين . وبخصوص هذا الأخير فقد عرفت عنه ميوله الشيوعية بالرغم من انتمائه إلى وسط بورجوازي ، وفي الوقت الذي انجرت فيه البورجوازية السوداء الكوبية إلى التقليد البليس لنموذج الحياة الغربية رجع كين إلى جذوره السوداء . ويدور شعره حول تصوير ظلامية عهد الاسترقاق ، وحول عن السود وآلامهم ، وحول شقاوتهم في مزارع قصب السكر ، كما يكشف شعره عن غمق قاس للهوية ، إذ يجعلنا نشعر بالبعد الاستيعاري لهوية زنوج كوبا الذين انتزعوا من تاريخهم وثقافتهم الحقيقيين وألقوا في مناخ تغربي ، ومن الزاوية الشكلية ضُمن كين نصوصه كثيرا من الأخيلة الزنوجية ، وطبع بأسلوبه الشخصي اللغة الشعرية الإسبانية ، إلا أن الشاعرية الكبيرة لكين لم تعثر على من يطورها ويغنيها ، بالنظر إلى ندرة الشعراء الزنوج الكوبيين المبدعين باللغة الإسبانية .

وعلى العكس من هذه الندرة استطاعت اللغة البرتغالية أن تفرز عددا كبيرا من الشعراء الزنوج ، من أصبح لهم صيت داخل الشعر الزنجي الإفريقي - الأمريكي ، ومن البديهي أن نستحضر في هذا المجال اسم الشاعرين الأنغوليين ، الرئيس الأنغولي الراحل أغوستينيو ، وأنطونيو جاستو ، والشعراء الموزمبقيين المعروفين كالرئيس الموزمبقي الراحل سامورا ماخيل ،

(٩٧) لتقت إلى مثال الشاعر بتايين موليزي الذي أعدته سلطات بريتوريا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

(٩٨) حوكم هذا الشاعر بتسع سنوات سجناً بسبب أشعاره ، وله ديوان (النار الباردة) الذي يعد من كتب في الشعر الزنجي الجنوب الإفريقي .

لم تنحصر إذن في الحقل الشعري ، بل كان لها حضور وكانت لها تجليات في حقول أخرى كالرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالة ، والكتابة النظرية ، والمسرح ، والنحت ، والموسيقى والسينما . . . وإذا أخذنا الكتابة الروائية فسنلاحظ بأنها خلفت الهيمنة التي كانت للشعر على امتداد الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ، وابتداء من الستينات سيصبح للروايتين الزوجية نفس النفوذ الذي كان للشعراء فيها قبل ، وبذلك صارت الرواية الزوجية الحقل الأدبي الأكثر تمثيلا للخطاب الزنجي ، والواقع أن الأساء أكثر من أن تحصر ، ولذلك يمكن الاقتصاد على بعضها على سبيل التلخيص^(٩٠) . فمن الروايتين السينغاليين نذكر عبدلادي سادجي ، وسمين عثمان ، والشيخ حاميدو كنان ، ونذكر من ساحل العاج برناردادي ، ومن الكونغو جان مالونغا ، ومن غينيا كامارا لاي ، ومن مالي سيدو باديان كويات ، ومن الداهومي أولمب بيلي ، ومن جنوب إفريقيا بشير أبراهامز ، وهوت شينستون . أما الروائيون المارتينيكيون فمنهم جوزيف زوبيل ، وإدوار كليسان ، ومن الهايتيين جاك ستيفن أليكسي ، ونينغ من غويانا الفرنسية الروائي الكبير روني ماران الذي حصل على جائزة كونكور الأدبية عام ١٩٢١ إثر صدور روايته (باتولا) ، وقد برزت اللجنة منحه الجائزة بكونه أول رواي زنجي يتمكن من إنجاز رواية تعكس بوفاء الروح الزنوجية . وبخصوص الرواية الأمريكية نستعرض أساء كل من شستيهامز ، وريشارد رايت ، وجيمس بالدوين الذي تميز أعماله بكتابة عنيفة متأججة ، أسلوبيا ومضمونيا ، ومنها رواية (النار في المرة القادمة) .

وفالينتا جانغالانا ، ونعيمة ديسوزا ، ومارسيلينو دوس سانتوس ، بينما اشتهر من شعراء جزر الرأس الأخضر الشاعر أونيسيمو سيلفيرا .

ومن خلال قراءة نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية نلمس مدى الأولوية التي أعطاهها هؤلاء للمسألة التحررية ، مما جعل شعرهم أقرب ما يكون إلى الشعر السياسي بمعناه النقدي ، ولعل هذا التمييز راجع إلى تأخر استقلال بلدانهم بالنسبة إلى الأقطار الإفريقية الأخرى ، هذا إضافة إلى أن بلدانهم حصلت على حريتها توسلا بالكفاح المسلح ، بخلاف دول كالسنيغال وساحل العاج إذ حققتا استقلالهما سلميا . وإذن كان لابد أن يجد العنف الثوري صده الطبيعي في نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية وأن يقتزن الإبداع بالأيديولوجي في هذه النصوص ، وفي شخصية بعض الشعراء (مثال الرئيس أغوستينونيتو وسامورا ماخيل) ، وبالتالي قد (ليس من باب الصدف أن تصبح قصائد أغستينونيتو « نحن عائلون » و « البناء » أغاني حرية لفصائل تحرير أنغولا)^(٩١) . لكن خاراج دلالي الحرية والثورة التزم شعراء هذه المدرسة بتصوير يؤس السود ، وفضح آلية الاضطهاد الأبيض ، كما استعادوا ذكريات العبودية ، وإن كان المؤزيمبيون قد ركزوا أكثر على تصوير الطبيعة الخلابة لوطنهم ، وعلى معاناة المهاجرين من أبناء بلدهم إلى جنوب إفريقيا ، حيث يعملون في مناجم الذهب في ظروف لا إنسانية ، ملوها الاستغلال والعنصرية .

إن الزنوجة كخطاب فكري شمولي كان لابد وأن تمتد آثارها إلى فعاليات ثقافية أخرى ، وأن تستحكم في بنياتها الشكلية والدلالية وفي بنيتها الرؤيوية . فالزنوجة

(٩٠) ميخائيل كود كاتسيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : هليل يحيى حسن - مجلة (الآلام) ، ص ١٥ - ٩ ع - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٨ .
(٩١) معظم هؤلاء الروائيين يمارس كتابة القصة القصيرة أيضاً .

الأشكال ما قبل المسرحية في تراثهم كـ « الباييك » وغنائيات « مفت » و « ساتيريات » اليوروبا والزلولو وامبونجي ، ومجازاة ذلك استمروا طبقوسية القناع والرقص والإيقاع ، وجعلوا الجمهور مندجاً في الفعل المسرحي . ومن المسرحيين الزواج المعاصرين الكاتب الجنوب إفريقي أثول فوغارد ، صاحب مسرحية (عقدة الدم) التي تعالج إشكالية الهوية في مجتمعه ، والكاتبة الغانية إيفواتيودورا سوترلند ، صاحبة المسرحيتين (أنانس غورو) و (سوف تؤدي اليمين) ، وهما عمالان ينمان عن ثقافة أسطورية واسعة المؤلفة لهما ، ثم الكاتب النيجيري وول سويكا الذي ألف مسرحيات مفرقة في زواجيتها ، ومنها (النسل القوي) و (سكان المستنقع) ، هذا دون أن ننسى إيمي سيزير في مسرحياته (مأساة الملك كريستوف) و (فصل في الكونغو) و (عاصفة) ، والمسرحي العاجي برنار داندي صاحب مسرحية (أسميان دوثيل) .

ورغم أن السينما الإفريقية فتية كسينيا العالم الثالث فقد حاول السينمائيون الأفارقة وضعها في نفس الإطار الفكري والإبداعي الذي أطرته به الزنوجة مختلف الفعاليات الثقافية في العالم الأسود . فعلا إن السينما نتاج للحضارة البيضاء ، بيد أن هذه الحقيقة لم تعن توظيف تقنياتها وجمالياتها بغاية تأسيس خطاب سينمائي زنجي يوثق ويستقرى الواقع الأسود ، في قضاياها وتحولاته وأسلته ، لذا تحول مهرجان « أوغادوغو » السينمائي ، الذي ينعقد موسمياً ببوركينا فاسو إلى فرصة للوقوف على إنجازات السينما الإفريقية ، وعلى مدى قدرتها التعبيرية عن نفس المشاغل الوجودية التي تضغط بثقلها على الشعراء والروائيين والمسرحيين الزواج ، وإذا كان لنا أن نعين بعض أساء السينما الإفريقية فلنذكر السينمائي سمين

وفي مجال المقالة والكتابة النظرية ، سبق أن أثبتنا بعض أعمال سنغور وسيزير ، إلا أننا نضيف أساء أخرى كالمرور السينمائي أنثادوب صاحب أكثر من مقال وكتاب حول التاريخ والحضارة الإفريقيين ، وكذلك الكاتب النيجيري أموس توتوولا ، والكاتب والسياسي الكيني جوموكيناتا الذي ألف كتاب (عند سفح جبل كينيا) ، الذي نشرت دارماسيرو ترجمته الفرنسية ، وقد ساهم هذا الكتاب في تأسيس وعي زنجي في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، نظراً لما تضمنه من تحليل لمسألة الاستعمار ولإيمكانيزم البنية القبلية في إفريقيا . وعلى غرار جوموكيناتا اشغل الرئيس الغاني الراحل توامي نكروما بالقضايا الإفريقية ، فآلف كتاباً عديدة منها (الوعوية) و (يجب على إفريقيا أن تتوحد) . على أن ألمع الكتاب الزواج قاطبة هو المارتينيكي فرانس فانون ، ومن المعلوم أنه بدأ حياته العملية كطبيب نفسي ثم انتقل من المارتينيك إلى الجزائر كطبيب منطوق في جبهة التحرير الجزائرية قبل الاستقلال ، وبعد هذه المرحلة عمل مستشاراً للزعيم الكونغولي الراحل باتريس لومومبا . ومن مؤلفاته المعروفة (جلد أسود ، أفئدة بيضاء) الذي حلل فيه أصناف المركبات النفسية لدى زواج المارتينيك كالانفصام والعصاب ، و (الملبون في الأرض) الذي تناول فيه قضايا الاستعمار والثقافة والهوية في العالم الأسود وفي العالم الثالث عموماً .

وفي نفس السياق عمل المسرحيون الزواج على أن يكون مسرحهم من صميم الثقافة الزنوجية ، أولاً عن طريق كتابة نصوص تنصب على موضوعات لها علاقة ببيتهم ، وثانياً عن طريق الاستناد على ما نتجته هذه الثقافة من تقنيات وطرائق فرجوية ، ومن هنا استلهموا تقنية الراوي في الأدب الشعبي الإفريقي ، كما وظفوا

المذكور من أفكار وإبداعات وبالتالي مناسبات لإفلات العالم إلى الصوت الزوجي ، إلى صوت هوية تمارس احتفالها الثقافي . كذا تركزت الأنظار على ذاكار عام ١٩٦٦ وهي تحتضن المهرجان الأول للثقافة السوداء ، وعلى الجزائر عام ١٩٦٩ وهي تؤم المهرجان الثاني ، وعلى لاجوس عام ١٩٧٧ وهي تستقبل المهرجان الثالث ، وبموازاة هذه الملتقيات انعقدت ملتقيات أخرى خاصة بالأدياء الأفارقة ، كملتقى باريس عام ١٩٥٦ وملتقى روما ١٩٥٩ .

وكل حركة فكرية وإبداعية مستجدة وطلعية لم يكن في وسع الزنوجة أن تمر في صمت ، وأن تضمن موقعها بين الحركات الفكرية العالمية دون إثارة ردود فعل موكبة تتوزع بين التحمس لمبادئها وبين الاعتراض على هذه المبادئ تأسيسا على منطلقات وقناعات معينة ، لذلك نرى من المجدي التعرض لردود الفعل التي اعترضت على الزنوجة ورفضت تصوراتها المختلفة .

طبعاً (لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي قامت به « الزنوجة » كحركة أدبية منذ الثلاثينات الأولى من هذا القرن لتحقيق الذات الإفريقية ، والتعبير عن إرادة الوحدة لدى الزوج)^(١١) ، على أن تحليلها لإشكاليات العالم الأسود أنتج أطروحات مضادة حاولت أن تمجد في الكتابات النظرية لسنغور التي تبنتها الحلقة الباريسية وقطاع عريض من المثقفين السود نغرات بغاية الكشف عن تناقضات الخطاب الزوجي وتفككه بل وميتافيزيقته ! فسنغور يرى مثلاً (بأنه يصعب تصور كاتب زوجي - إفريقي قد تساوره فكرة تجاهل الزنوجة أو التخلي عنها ، إذ ما قولنا في كاتب فرنسي قد يتخذ نفس الموقف من فرنسيته ؟ وفي كاتب إسباني أو أمريكي

عثمان ، والمالي سليمان سيسي ، والنيجيري عمرو كندا ، والكاميروني ديكونغي بيبا .

وانخرطت الموسيقى الزوجية هي الأخرى في ذات الهم الثقافي الشمولي ، فعكف الفنانون السود على صياغة أصوات وإيقاعات تعكس ثلاثة تلك الموسيقى وصميميتها ، كما تعكس خلفيتها الطقوسية ، وملازمتها للسلوك اليومي في حياة الأسود ، ومن هنا جاءت فريدة الإبداع الموسيقي الزوجي واحتكاره للذوق العالمي . لقدد المحنا فيسبا سلف إلى موسيقى الجاز والبلوز والراجاتيم والريكي ، لكن علينا أن نلمح إلى بعض مشاهير هذه الموسيقى كمجموعة توري كونددا السينغالية ، والمغنية الجنوب إفريقية مريام ماكيبا ، والفنانين الزوج الأفيكيين من أمثال جوناه جونز ، ولويس أرمسترونغ ، وراي براون ، ونياناسيمون .

وإذا كان هذا شأن الحقول الثقافية التي مرت بنا فيكفينا ، فيما يخص النحت ، أن نشير إلى أن أصالة ما يبدهه النحاتون الزوج هي التي أتاحت ، مثلاً ، لمنحوتات النحات الملاوي وآزي بأن تنصدر أروقة متحف الفن الحديث في نيويورك .

إن الزنوجة كحركة فكرية وإبداعية لم تكن لتكتفي بالإعلان عن نفسها عبر الكتب النظري أو عبر الفعل الثقافي ، بل إنها سنت لنفسها تقاليد ، وخلقت قنوات ووسائل ما كان لها إلا أن تُرسَّم شرعيتها وأن تمجدر حضورها كميثاق يجمع بين مثقفي العالم الأسود .

وهكذا ارتبطت الزنوجة بالأسواق الثقافية وبالمهرجانات والملتقيات التي كانت مناسبات للتداول في شؤون العالم الأسود ، واستعراض ما يزرع به العالم

(١١) حسن المنعي : نداء : نعمة دي سوزا (العلم الأسبوعي) ص ٤ - ع ١٤٩ - الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ ، ص ٣ .

- لآتينى بلإزاء إسبانيته ؟ لا شك أنكم ستزدونه ؟؟ (١٠٢).

هذا الطرح ربما تبدى تعميميا ومطلقا ، لأنه يفترض على مجموعة عناصر ومعطيات تجعل من الخطاب الزنجي خطابا نسبيا لا يجوز إمكانية انسحابه على كافة الزوج . إن الزوجية برأى المعارضين عليها قد ارتكبت أحد أخطائها الكبرى عندما تعاملت مع العالم الأسود ككتلة متجانسة لا تشوبها فوارق أو اختلافات ، بينما واقع الأمور يؤكد لا تجانس العالم الأسود ، فحقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة تتضمن تباعدات ، جوهرية أحيانا ، بين أجزاء هذا العالم ، وإذن فهو عالم متبايز يقي أكثر منه عالما معيشا وملموسا ، إذ لا وجود لروح جوهرية سوداء . نعم إن العالم الأسود يبدي خصائص أصيلة جد ناشئة عن تاريخه وعن محيطه . إن العالم الأسود ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق ولا من الميتافيزيقا (١٠٣).

فهو الخصائص التي تخص الأسود الذي يعيش في مجتمع متقدم تكنولوجيا كالولايات المتحدة فتشرب كيانه بفضاءات إيديولوجيا الاسترقاق والميز العنصري ، هذه الخصائص هل هي نفس ما ينطبق على الأسود الأنغولي الذي يعيش في مجتمع مختلف ، لكنه استطاع أن يغير عمقيا ما يعنيه الاستعمار ، هل الأسود الكوبي أو المارتينيكي هو عين الأسود السينغالي أو الملقاشي ؟ إن الزوجية (تجعل من الزوج كائنات متماثلة في أي مكان وأي زمان) (١٠٤)، وهي بذلك تغض الطرف عن فوارق واختلافات ، تتلبس بأكثر من صعيد ، بين سود

إفريقيا وسود الشتات من جهة ، وحتى فيما بين السود الأفارقة ، وفيما بين سود الشتات من جهة أخرى .

أما بصدد الأطروحة السنغورية حول الانفتاح على الغرب وإنشاء حضارة ثنائية (سوداء - بيضاء) ، فإن المعارضين على الزوجية يرون في هذه الأطروحة دليلا على انقسام ثقافي محقق ، بحيث كيف تتكلم الزوجية عن أصالة العالم الأسود كبديل لشور المجتمع الغربي وتسمى في نفس الوقت إلى عقد صفقة حضارية مع البيض ، وتخلق تعاقدا مستحيل مع قيمهم المادية ، ومن ثم فإن (حلم سنغوري في تشكيل ثقافة إفريقية لآتية مثلا لا يعبر إلا عن الواقع الملموس للتبعية السياسية والاقتصادية والمفروض حسب تعبير « قانون » هو « طلاق » الغرب (١٠٥).

فهذا الانفتاح إن هو إلا غطاء لتعلق تبعي مع الغرب قد تكون له عواقب أروخ حتى من الاستعمار الكلاسيكي . إن الفائدة التي تستجنيها الحضارة الغربية ستكون أكثر من فائدة الحضارة السوداء ، بفعل الطابع الهيميني للأولى ، ولهذا يبدو أن الزوجية قد انجزت إلى نوع من التمرکز الغرب في جاذبية النموذج الحضاري الغربي دونما وعي لتأثير هذا التمرکز ، ومعنى هذا أننا حين نجردها من لونها السوداء تظهر قريبة من الصُّرَعَات الفكرية التوفيقية ، لأنها ضمن هذا الموقف الانفتاحي ، تتراءى مجرد خطاب إنساني مضطرب سرعان ما تنكشف توفيقيته المهزورة لما تتبين تنابذ الروحية الزوجية مع المادية الغربية .

— (pour la negritude) propos recueillis par Michel pierre-in (Magazine litteraire) No. 195 Mai 1983-P. 31. (١٠٢)

(١٠٣) جوزيف كيرزاويو : (مواقف وتقاربات لثقافة إفريقية حديثة) (الثلاثة الإفريقية) ص ٤٠٨ .

— Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 45. (١٠٤)

(١٠٥) من مداولة عبد اللطيف البني ضمن ندوة (الفكر في القرن العشرين) التي نظمها اتحاد كتاب المغرب - (المعلم الأسبوعي) ص ٢ - ع ٥٨ - الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ ، ص ٨ .

الأوساط الثقافية الغربية منهم إلى ملايين السود المعينين بخطابهم الفكري والإبداعي لأنهم قبل أي شيء نتاج للمشروع التنخبي الثقافي للاستعمار، فـ (المتف الإفرقي المتكون في باريس أو لندن ينتمي - بعض الأحيان - إلى وسطه الثقافي بروابط خفية أكثر منه إلى مسقط رأسه) (١٠٧)، وماداموا يمثلون الشريحة المتترة من البورجوازية الصغرى السوداء، التي أفرزها المسلسل الاستعماري، فإن النتيجة هي أن يتوزع ولاؤهم الإيديولوجي والفكري بين الغرب وبين العالم الأسود، وحين كان المزارعون السود في إفريقيا والأنتيل يقاسون شظف العيش ووطأة الاستغلال في حقول الموز وقصب السكر (لم يكن هؤلاء الطلبة في السينغال أو في فولتا العليا، لم يكونوا في فورفرانس، وإنما كانوا في باريس، على ضفاف السين) (١٠٨).

تلك إذن أهم الاعتراضات التي وجهت لها الزنوجة، أما إذا وبدنا تحديد الجهة التي كانت أكثر مناهضة لمبادئها، فإنها متفقو إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الذين كانوا (يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء لا دعوة للبعث) (١٠٩)، لكن قبل بسط مرتكزات هذا الموقف يجدر بنا أن نشير مسبقاً إلى أن أفكار سنغور لم تصل بسرعة إلى أولئك المثقفين بسبب العائق اللغوي، وإذا أضفنا ازدياد الناطقين بالإنجليزية عموماً لكل ما يتصل بالثقافة الفرنسية، اتضح لنا الملابس التي رافقت المناهضة المتحدث عنها. فهذان العاملان وفقاً لحالات بين سنغور وبين (تغلغل آرائه عن الشخصية الإفريقية في إفريقية البريطانية). ولم تصبح تعاليم سنغور مألوفة

فهل يجوز، والحالة هذه، الإبقاء على البعد التحرري للحركة الزنوجية، من حيث كونها حركة استهدفت تخليص العالم الأسود من مختلف أنماط تبعيته للغرب؟ هنا يتكفل بالإجابة أحد المعارضين وهو الشاعر الكونغولي تشيكاي أوتامسي فيقول (كثيراً ما وضع علي السؤال التالي: «هل ترون بأن كتاب الزنوجة قد ساهموا في تحرر إفريقيا؟» وإذا فاجئني هذا السؤال أجيب: «من المحقق أنهم أخفقوا لأن تحرر إفريقيا تم بشكل سيء» (١١٠).

لكن إذا كان البعض قد انتقد في الزنوجة موقفها الانتفاحي، فإن آخرين قد ركزوا على الوجه الآخر من الزنوجة، على مناداتها بالخصوصية والأصالة، فاعتبروا هذه المناداة شوفينية صريحة تتناقى مع واقع القرن العشرين، بل إن الزنوجة قد انحرفت عن الخط الذي كان عليها أن تتبعه، وذلك عندما تحولت من مستوى رد الفعل المشروع تجاه إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري، إلى مستوى الموقف العصبي المتطرف، ومن الذين أخذوا عليها هذا الموقف الشاعر الملغاشي جاك رابيسا نانجارا، بحيث رفض ذلك الاقتران الميكانيكي بين الزنوجة واللون الأسود، لأن الشرط اللوني قد يقضي على قطبية مع المجموعات الإنسانية الأخرى.

وأضافة إلى ما سطرناه من اعتراضات ينطرح اعتراض آخر يمس هذه المرة الطابع التخبيوي والثقافي للحركة الزنوجية، فسنگور وسيزير دأماس أقرب إلى

— (Tchicaya U Tam'si) propos recueillis par Denyse de saivre-in (Recherche, pédagogie et culture) paris AV-Juin (١٠٦) 1982, P. 25.

— Stanislas Adotacvi : (Negritude et Negrologues) P. 18.

(١٠٧) مالك بن نبي : (حول القالة) (القفالة الإفريقية) ص ٣٩٧.

(١٠٨)

(١٠٩) للدكتور محمد عبد الله سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٢٤

التقدمية ، أظهروا بشكل عسود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي يعزل الكتاب السود عن بقية العالم^(١١١)، على أن المثير في موقف حزقيال مغاليل من الزنجية هو أنه (رفضها في زمان كانت الزنجية تبارا يجنف من لا يسبح معه)^(١١٢).

أما من نجيريا فقد عارضها كل من الشاعر دنيس أوسادباي والكاتب المسرحي وول سوينكا ، إذ رفضا في الزنوجة ، كأغلب الناطقين بالإنجليزية ، انشادها إلى (رؤى غزلية للمجتمعات ما قبل الاستعمارية . بينما هما يفضلان نظرة أكثر موضوعية ، وأكثر صفاء ، وأكثر بساطة إلى ذلك الماضي)^(١١٣)، وفي هذا الإطار نظم أوسادباي قصائد تقدر في النزوع الماوضي للزنوجة ، وتستهن نظرهما الأنثروبولوجية إلى ماضي السود ، ومن ذلك قوله :

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا نكون خير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض^(١١٤).

وفي المقابل يقول وول سوينكا (لا أظن أن النمر يتجول معلنا نموته)^(١١٥) وهو يقصد أن الزنوجة ، كذات وروح وممارسة ورؤية ، ليست بحاجة إلى من يُنظر لها ، ويُعَد لتجسيدها ، لأنها ببساطة معطى قائم في العالم الأسود ، وبالتالي فلا معنى لإثارة كل ذلك الضجيج النظري الذي أحدثته الحركة الزنوجية .

لدى الدول الناطقة باللغة الإنجليزية إلا الآن فقط ، بعد تنويع سيكتوري المتكرر بأهمية الإفريقي كإنسان^(١١٦) ويتصدر قائمة المناهضين للزنوجة في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الكاتب الجنوب إفريقي حزقيال مغاليل ، بحيث يتهمها بالتبسيطية ، والانتقاء ، والانقصام ، وبالبعد عن القضايا الجوهرية للسود ، فهي - في نظره - لم تفعل شيئا من غير أسطرة التاريخ الزنوجي والاختار ببلاغة فولكلورية لا تعدم زينة مغرضين في عواصم التروبول ، بينما السود هم أخرج ما يكونون إلى خطاب واقعي كفيلا باستيعاب أسئلتهم الواقعية .

إن المهمة الأكثر إلحاحا وراهية عند حزقيال مغاليل كمواطن من جنوب إفريقيا ، وهي غير السنيغال ، هي مواجهة اليز المنصري مثلا ، ومساعدة السود على استرداد إنسانيتهم ، أما التلغف بخطاب مغرق في رومانسيته ويتعامل مع الأسود ككائن هلامي أو اغترابي فلا يتعدى كونه بذخا فكريا ممجوجا . والأكثر من هذا فإن حزقيال مغاليل يرى بأن الزنوجة تلتقي ، بصيغة أو بأخرى ، مع شعار صيانة الثقافة السوداء المرفوع من طرف يبيض جنوب إفريقيا ، هذا الشعار الذي يستهدف إدامة وتثبيت النمط الحضاري الماوضي ، مما يسهل على البيض تأمين سيطرتهم على الجسد والعقل الأسودين ، (من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملا نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب إفريقيا ذوو الميول

(١١٠) د. ماديديكاري : (التورية في إفريقية) ترجمة : رونالدي جريس مراجعة : محمد محمود الصبيح ، ص ٧٥ .

(١١١) د. أ. تشيربون : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة : وليد فارصلي - مجلة « الآداب الأجنبية » ص ١١ - ع ٣٨ - ٣٩ - شتاء ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢١ .

(١١٢) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٠ .

(١١٣) — (Impressions d'Afrique) propos recueillis par Michel pierre In (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 36 .

(١١٤) الدكتور محمد عبد الله سودي : (تقديرا إفريقيا) ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١١٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

تفتح إنساني أكثر حيوية ، يستمد مصداقيته من المشل والتصورات الحقيقية في الثقافة الزنوجية ، وأيضاً في خلق رؤية متحررة للإنسان وللحياة وللكون ، وفي تأسيس علاقات إنسانية أكثر تنظيماً .

لقد كان مرادنا من استعراض مختلف ردود الفعل التي ولدتها الزنوجة الإحاطة بالأثار والمضاعفات التي تركتها لدى الإلتجنسيا الزنوجية ، والأطلاع على ما أفرزته من جدالات ساخنة في غالب الأحيان ، غير متوخين من وراء هذا الاستعراض إعلان انحيازنا إلى جهة من الجهات ، بيد أن الحياذ إزاء مختلف الأطراف المعنية بالحطاب الزنجي ، لا يمتنعنا من صوغ أسئلتنا الخاصة ومن تعقب أجوبة مناسبة لها : (هل الزنوجة إذن حركة زائفة ومصطنعة ؟)^(١١٩) ، هل هي منزع ثقافي استبد بالطبيعة السوداء ؟ هل هي مجرد فولكلور بشي لا علاقة له بالإنشكاليات المطروحة في العالم الأسود ؟ قد تتوالد أسئلة كثيرة من هذا القبيل إلا أن الموضوعية تمنع بنا إلى القول بأن (هذا المنهج في التفكير أسهم - وما يزال - بنصيب لا يستهان به في التراث البشري)^(١٢٠) ، كيف ذلك ؟ هنا يجب أن نمود إلى مبدأ نشوء الحركة . فالزنوجة أول ما ظهرت ظهرت كحساسية مشتركة بين كافة السود ، فهي الوليد الشرعي لمجمل المخاضات التي عاشها العالم الأسود ، مروراً بتجارب الاسترقاق ، والاستعمار واليز العنصري ووصولاً إلى عهد الحرية وما طرحه من إعادة تقييم ، سواء للماضي الزنجي ، أو للعلاقة مع

ومعها كان حجم الاعتراضات التي طالت الزنوجة وأقطابها ، فإن الموضوعية تحتم علينا القول بأن سنغور لم يكن قط مؤمناً بكمال المبادئ والأفكار التي ضمنها كتاباته النظرية ، أي أنه لم يستبعد إمكانية الاجتهاد والإضافة والتطوير ، مما سيقى الزنوجة من الوقوع في الشبث والانغلاق والوثوقية . وقد قاسمه هذا الرأي عدد من المفكرين والمبدعين الزنوج من أمثال إيمي سيوزير ، وفرانز فانون ، وسيمين عثمان ، ممن اقتنعوا (بأن الزنوجة محكومة بالتطور ، بحيث تمتلك بعداً تاريخياً لا تكفي بتجليته ولكنها واعية به)^(١٢١) .

ولعل الوعي بتاريخية الزنوجة هو الذي حدا بالجيل الثاني من المثقفين الزنوج إلى تجاوز ما اعتبر ثغرات داخل أطروحات سنغور ، إذ أن سنغور ركز ، في المقام الأول ، على إفريقيا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، لكن (بازدياد موجة الحرية في إفريقيا قوة واندفاعاً أخذت تتضح متناقضات مذهب الزنوجة يوماً بعد يوم)^(١٢٢) ، وأجل هذه التناقضات عجز الزنوجة عن استيعاب قضايا ما بعد التحرر ، هذا ما يستدعي تطويرها والانتقال بها من نظرية سلفية إلى أداة فكرية قادرة على الانخراط في قضايا الساعة بالعالم الأسود . لذا ستبلور زنوجة جديدة اختار لها دعائها المقابل الفرنسي Negritude بدلا من Négritude وستكون ولادتها في الكاميرون وليس في باريس ، أما (مبدعها فهو ج.م. أباندا الذي طرحها وأذاعها عام ١٩٦٦ وذلك لأول مرة)^(١٢٣) ، وتتحدد مرتكزات هذه النزعة في

— Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٦)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - المجلد الثاني والثالث لسني ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، ص ٥٣١ .
(١١٧) جبر الدومور - أولي بير : (الشعر الحديث في إفريقيا) ترجمة : عبد الرحمن صالح . مجلة : (الشعر) ع ١٣ - ٢ ، يناير ١٩٦٥ ، ص ٢٨ .

— Jean marie Lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :

(١١٨)

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، ع ٢ و ٣ لسني ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .
(١١٩) جبر الدومور : (سبعة أبياء من إفريقيا) ترجمة : علي شلق ، ص ٣٩ .
(١٢٠) قاسم الجعري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

أحد فروع الدراسة في الجامعات الأوربية والأمريكية ؟ هل لنا أن نذكر بالنفوذ الإعلامي الضخم الذي كان للمسلسل التلفزيوني (الجذور) ، المأخوذ من رواية تحمل نفس الإسم للروائي الزنوجي الأمريكي اليكس هيلي ؟ هل لنا أن ننسى التسمية التي تحملها إحدى الجامعات السوفياتية ، ألا وهي « جامعة » لوموبا للعالم الثالث ؟ ثم هل لنا أن نتغافل عن خطوة علمين زنوجيين بجائزة نوبل للسلام ، أولها الزعيم الزنوجي الأمريكي مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٤ ، وثانيها القس الزنوجي الجنوب إفريقي ديسموند توتو عام ١٩٨٤ ، إضافة إلى حصول المناضل الزنوجي الجنوب إفريقي نلسون مانديلا على جائزة العالم الثالث لعام ١٩٨٥ .

جميع ما أوردناه يدل على المكانة التي صار يحتلها العالم الأسود في الوجدان العالمي ، وبدون الحركة الزنوجية ، ما كان لهذا العالم أن يحقق سمعته الكونية . وإذا كانت هذه الحركة قد بدأت على شكل ثرثرة ثقافية بين سنغور وسيزير وداماس خلال مقامهم الطلابي بباريس الثلاثينات ، إذا كانت هذه بدايتها فإنها غدت مع مرور السنين خطابا متماسكا يقود مسار السود ويفرض على الآخرين التأمل الجدي في إقصاء هذا المسار ووجهة أصحابه .

الأيض ، أو للعلاقة مع الإنسان ككل . إنها هذا خطاب للهوية ، للمغايرة ، ولأما كذلك فلا بد وأن تكتنفها تناقضات ومزالي من السهل التقاطها وترتيبها . إن الزنوجة ، قبل أن تكون فعالية أدبية نشطت في الحقل الشعري أساسا ، هي صوت وصدى ، ومقاربة لإشكالية المصير المادي والروحي لجميع السود ، أولئك لها رؤية الإنتلجنسيا الزنوجية للعالم . صحيح (أن عصرها الذهبي كان في الأربعينات والخمسينات ، أما بعد ذلك ، ومع دخول القارة عصر حريتها ، فقد بدأت في الانحسار شيئا فشيئا^(١٢١) ، مما أفقدها الكثير من حرارتها وطليعيتها ، لكن مع ذلك فهي تجاوزت كونها ملكية ثقافية للسود وحدهم وأصبحت جزءا من الثقافة الإنسانية ، بل ومن التاريخ الإنساني . فنتحن حين نذكر سنغور ، ونكروما ، وفانون ، فإننا نذكر شخصيات كونية أكثر منها زنوجية ، وعندما نستحضر واقعة دخول سنغور للأكاديمية الفرنسية^(١٢٢) ، فإننا نستحضر ضمينا تحية تخص بها إحدى المؤسسات الثقافية العالمية العالم الأسود قاطبة ، وهذا شبيه ما حصل لما منح روني ماران جائزة كونكور عام ١٩٢١ عن روايته (باتوالا) ، فذلك تكريم للزنوجة قبل أن يكون تكريما لشخص الكاتب . هل لنا أن نعرف بأن الأدب الزنوجي ، المكتوب بالفرنسية خاصة ، أصبح في السنوات الأخيرة



(١٢١) على شلش : (الزوان من الأدب الإفريقي) ص ١٣ - ١٤ .

(١٢٢) التحق سنغور بالأكاديمية الفرنسية يوم ٢ يونيو ١٩٨٣ ، إذ أحل مقعد المورخ مول فيست هيريو ، وبذلك يعد أول زنوجي تستقبله هذه المؤسسة .

أشارات :

- هذه الدراسة تمثل فصلاً من رسالة جامعية عنوانها (الترعة الزوجية في الشعر السوداني المعاصر : محمد مفتاح الفيتوري نموذجاً) تقدمنا بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث ، أشرف عليها الدكتور محمد السريغي وتوقفت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٦ .
- رغباً من انتهاء بريتين مرتتباتك إلى عنصر الأفريكاتر بعده الباحثون واحداً من الشعراء الزوج .
- لم نذكر حصول وول سويتكا على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٦ لأننا أنجزنا هذه الدراسة قبل حصوله عليها .

المراجع العربية :

- داني بولم . الحضارات الإفريقية ، ترجمة : نسيم نصر ، منشورات عويدات بيروت - باريس ، الطبعة الثانية ، غشت ١٩٧٨ .
- روجيه غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة : الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت - باريس ، الطبعة الأولى ، أبريل ١٩٧٨ .
- د. مادوهانيكار : الثورة في إفريقية ، ترجمة : روفائيل جرجس ، مراجعة : محمد محمود الصياد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، أبريل ١٩٦٤ .
- جمال محمد أحمد : وجدان إفريقية ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
- مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وأقطار التحرر الثقافي في البلاد الآسيوية والإفريقية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- الدكتور محمد عبد الغني سعودي : إفريقية ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٣٤ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ .
- ب. س. لويدي : إفريقية في عصر التحول الاجتماعي ، ترجمة : شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٨ ، الكويت ، أبريل ١٩٨٠ .
- جماعة من الكتاب : الثقافة الإفريقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٩ .
- جيرالد مور : سبعة أدباء من إفريقيا ، ترجمة : علي شلش ، كتاب الهلال ، ع ٣٢٨ ، بيروت ١٩٧٧ .
- علي شلش : ألوان من الأدب الإفريقي ، المكتبة الثقافية ، ع ٣٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد مرسي : مداخل إلى الشعر الأسود الأمريكي ، الموسوعة الصغيرة ، ع ٩٠ ، بغداد ، آذار ١٩٨١ .
- لويس عوض : الثورة والأدب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- مجلة (الثقافة المغربية) ، ع ٦ ، ١٩٧٢ .
- مجلة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس) ، ع ٢ - ٣ ، ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .
- مجلة (آفاق) ، ع ١ ، ٣ ، جواني - أوت - سبتمبر ١٩٦٣ .
- مجلة (آفاق) ، ع ٢ ، ٣ ، جواني - أوت - سبتمبر ١٩٦٤ .
- مجلة (عالم الفكر) ، ع ٨ ، ٣ ، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧ .
- مجلة (آداب) ، ع ٤ ، ١٩٨١ .
- مجلة (الكتاب العربي) ، ع ٢ ، ٦ ، ١٩٨٣ .
- مجلة (الهلال) ، ع ٧٣ ، ٦ ، يوليو ١٩٦٥ .
- مجلة (الطريق) ، ع ١٩ ، ٤ ، حزيران ١٩٦٠ .
- مجلة (الشعر) ، ع ٢ ، ١٣ ، يناير ١٩٦٥ .
- مجلة (الآداب الأجنبية) ، ع ١١ ، ٣٨ - ٣٩ ، شتاء - ربيع ١٩٨٤ .
- مجلة (الثقافة العربية) ، ع ٩ ، ٨ ، أغسطس ١٩٨٢ .
- مجلة (فنون عربية) ، ع ٢ ، ٢ ، ١٩٨٢ .
- مجلة (آفاق عربية) ، ع ٤ ، ١١ ، تموز ١٩٧٩ .
- مجلة (الأقلام) ، ع ١٢ ، ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

- مجلة (الأفلام) س ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ع ١ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ .
- مجلة (الأفلام) س ١٥ ، ع ٩ ، حزيران ١٩٨٠ .
- مجلة (المعرفة) س ٢٠ ، ع ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٢ ، ع ٥٨ ، الرباط ، الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٤ ، ع ١٤٩ ، الرباط ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية :

- LUCIEN GOLDMANN : marxisme et sciences humaines ed gallimard, PARIS 1970.
- JANHEINZ JAHN : muntu ; l'homme africain et la culture neo-africaine, traduit de l'allemand par brian de martinor, ED DU SEUIL, PARIS 1961.
- PAULIN J. HOUN TON DJI : SUR LA "PHILOSOPHIE AFRICAINE" ED MASPERO, 1977.
- STANISLAS ADOTEVI : negritude et negrologues, COLL 10/18, PARIS 1972.
- FRANTZ FANON : peau noir, masques BLANCS, ED DU SEUIL, PARIS 1952.
- LEOPOLD SEDAR SENGHOR : anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise, ED P.U.F, PARIS 1969.
- LYLIAN KESTELOOT : anthologie negro-africaine : PANORAMA CRITIQUE DES PROSATEURS, POETES ET DRAMATURGES NOIRS DU XX E SIECLE, ED MARABOUT UNIVERSITE, VERVIERS 1967.
- ALMUT NORDMANN-SEILER : la litterature neo/africaine, COLL QUE SAIS-JE ? NO. 1651, ED P.U. F, PARIS 1976.
- magazine litteraire, NO. 195, MAI 1983.
- les nouvelles litteraires, NO. 2863, DU 25 NOVEMBRE AU 1ER DECEMBRE 1981.
- recherche, pedagogie et culture, AV-JUIN 1982.
- le monde de dimanche, NO. 11463, 6 DECEMBRE 1981.



صَدر حَديثًا

أهمية الموضوع :

لا يختلف المتبحرون للتطورات العلمية والتقنية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين على أن العالم يشهد منذ سنوات قليلة ثورة علمية واقتصادية (فرغلي ١٩٨٨) لها أبعاد هائلة في شتى صور الحياة قد تقسم العالم الى مجموعتين : مجموعة منتجة فاعلة ومجموعة أو مجموعات هامشية تابعة (منصور ١٩٨٨) . وإذا استمرت الأمور تسير بشكلها الذي تسير عليه ، فسنصل حتماً الى الدور المخطط لنا وهو أن نكون من أبرز أعضاء المجموعة الهامشية التابعة . والبديل الوحيد لذلك هو أن يأخذ علماءنا وخبرائنا وقادتنا السياسيون والاجتماعيون المبادرة لاستيعاب المتغيرات الجديدة وأن نشترك في ثراء الثورة العلمية المعاصرة ، وأن نلونها ، اذا استطعنا ، بنظرتنا وإسهاماتنا

واللغة والحاسوب أحد المحاور الأساسية ، ان لم يكن المحور الأساسي ، للثورة العلمية المعاصرة . وقد تزامنت ثورة تشومسكي في علم اللغة (تشومسكي ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) مع تطور الحاسوب في الخمسينيات والستينيات . وقد كان لعلم اللغة التوليدي انعكاسات بعيدة المدى في باقي العلوم الطبيعية والانسانية بما في ذلك علم الحاسوب .

وقتل المعلومات المحور الاقتصادي في الثورة المعاصرة فقد تحولت السلع الاستراتيجية من المواد الخام والمصنعة الى السلع المعلوماتية (فرغلي ١٩٨٨) ، لا لقيمتها العلمية فحسب ، بل لكونها أداة الحصول على الثروة والقوة . وبدأت صناعة الأموال والاتصالات ه وتحول جزء كبير من الرأسمالية الصناعية الى الرأسمالية المعلوماتية .

اللغة العربية والحاسوب

تأليف : نبيل علي
عرض وتحليل : علي صبري فرغلي

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

واللغة والحاسوب . فقد بدأ من الواقع أي من التجربة العملية لبناء البرامج ، ولما كانت له أهداف طموحة لتطوير برامج متقدمة للتحليل اللغوي ، فسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك يستحيل دون دراسة علم اللغة التوليدي دراسة جادة ، فترك عمله وتفرغ لمدة عام كامل بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة أحدث نظريات علم اللغة على أيدي منظريها . ويشهد هذا له بالجدية والقدرة على الدخول في أغوار علم جديد وتمثل تطبيقاته الأمر الذي قد ينقص بعض علماء اللغة عندنا للأسف الشديد . كما أنه أقام أكبر مركز لأبحاث اللسانيات الحاسوبية في الوطن العربي ، واستطاع أن يكون كفاءات عربية شابه ويؤهلها علميا وعمليا لتكون طليعة المتخصصين في مجال الحاسوب واللغة العربية على وجه الخصوص .

ويمكن هذه الخلفية نبيل علي من المساهمة الإبداعية في حقل علم اللغة الحاسوبي . يقول نبيل علي في مقدمة كتابه :

« تعكس الدراسة تجربة المؤلف الشخصية على مدى عشرين عاما في مجال العمل التطبيقي والنظري في حقل المعلوماتيات ، ادارة ، وتصميمها وبحثا » .

الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة شاملا تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة ، وأربعة ملاحق . ويعدد المؤلف في المقدمة الدوافع الملحة التي تقف وراء البحث في اللغة العربية والحاسوب ، ويقسمها الى ظوافع تقنية كظهور الجيل الخامس من الحاسوب واختراع الفارشة البصرية والتقدم التكنولوجي الهائل في السنوات الأخيرة ، ودوافع لغوية كقصور الدراسات اللغوية

واللغة هي الشكل الطبيعي الذي يستخدمه الانسان للتعبير عن الأفكار والمعلومات وهي أيضا وسيلة الانسان لاستمرار الحضارة فهي تمكّنه من نقل المعلومات وحفظها وتوارثها جيلا بعد جيل . ولهذا اعتمد التقدم في عصر المعلومات بشكل أساسي على التحام اللغة بالحاسوب . وهذا هو موضوع الكتاب الذي قدمه الى المكتبة العربية نبيل علي ، وفيه دعوة جادة غلصة لعلماء اللغة وعلماء الحاسوب العرب أن يضعوا أيديهم معا من أجل وضع الحاسوب في خدمة الناطقين بالضاد ليتمكنوا من الاستفادة من هذه التقنية أسوة بمتكلمي اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

أهمية الكتاب :

وقد بدأ ظهور الكتب باللغة الانجليزية التي تعالج العلاقة بين اللغة والحاسوب في اوائل الخمسينيات (Weaver 1955) ، وظل الإسهام في قضية المعالجة الآلية للغة حجرا على الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرها من الدول المتقدمة ، وتكررت أبحاثهم في تطويع الحاسوب لاستخدامه في جميع مجالات الحياة ليصبح أداة طبيعة تضاعف من قدرات الانسان شأنه شأن الانجازات التقنية المختلفة في الفضاء والاتصالات والطب ... الخ .

ويأتي كتاب اللغة العربية والحاسوب للدكتور نبيل علي أول محاولة جادة لمعالجة هذا الموضوع معالجة شاملة يطرح فيها قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسوب ويضعها في الأطار الصحيح في ظل ثورة المعلومات المعاصرة . وللدكتور نبيل علي فضل السبق والزيادة في هذا الموضوع .

المؤلف :

يتميز نبيل علي بأن له خبرة عملية وعلمية في مجال

بعلم وظائف الأعضاء وبالمخ البشري وعلاقة الأصوات
وذبذباتها وانتقالها وتمثيلها بعلم الطبيعة ، وعلاقة اللغة
بعلم النفس وعلاقتها بالثقافة .

وعرض نبيل علي بعض الخصائص الكلية الموجودة
في جميع اللغات كالخاصية الإبداعية وما يسميه الانساق
والتناسك ويضع جدولاً (جدول ١ : ٣ صفحة ٤٦ -
٤٧) يمثل عمومية بعض الظواهر اللغوية كالحذف
والإبدال والقلب . . . الخ ، وتطور اللغات بمرور
الزمن ، فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويشيخ ويمكن أن
يموت كاللغة اللاتينية والعبرية القديمة ولغات السكان
الأصليين لأمريكا .

ونطلق نبيل علي من هذا الوصف العام لمستويات
البحث اللغوي والخصائص العامة للغة الانسانية الى
اللغة العربية ويحدد تصوره لمنظومة اللغة العربية
ويعرض السمات المميزة للغة العربية كالتوسط بين
لغات العالم في نظام الكتابة والنظام الصوتي وفي الحالات
الاعرابية والصرف . كما تنسم اللغة العربية بحددة
الخاصية الصرفية فالعنى الدلالي للكلمات يرتبط في
اللغة العربية بالسواكن الأصلية ، وهي السواكن المكونة
للجذر ، ويشق منها مئات الكلمات . كما تتميز العربية
بالحرية النسبية لترتيب الكلمات فيمكن للفاعل أن
يتقدم على الفعل ، كما يمكن للمفعول أيضاً أن يتقدم
على الفعل . . . وهكذا وللغوية نظامها الصوتي
الخاص كعدم السماح بصامتين متتاليتين في أول الكلمة
وعدم السماح بأكثر من صامتتين متتاليتين في المواقع
الأخرى . وللكتابة العربية عدة نظم : كالكتابة المشكلة
والمشكلة جزئياً وغير المشكلة . كما يعرض نبيل علي
لمشكلة ثنائية الفصحى والعامية ويصفها بأنها وصلت الى
درجة مفزعة . ثم يعرض لمسار تطور العلوم بشكل

الحديثة ومشاكل تعليم وتعلم اللغة العربية ودخول
تطبيقات الحاسوب في مجالات العلوم الانسانية
والاجتماعية ، ودوافع عامة وهي حث اللغويين
والحاسوبين العرب على بدء حوار يقضي الى تعاون ملح
وضروري لمعالجة اللغة العربية آلياً ، كما يطرح نبيل علي
الأسس والمبادئ المنهجية في تناول الموضوع وهي مفهوم
المنظمة لكل من اللغة والحاسوب ، اخضاع الحاسوب
للغة لا العكس ، الأنحاء الكلية universal grammar
وخصوصية اللغة العربية ، مقارنة العربية بالانجليزية
وثنائية التحليل والتركيب من منظور التداخل بين اللغة
والحاسوب والتركيز على الجانب التطبيقي .

ونعرض فيما يلي لمختصاً لكل فصل من الفصول
السبعة الأساسية :

الفصل الأول : اللغة العربية من منظور الحاسوب

(صفحة ٢١ - ٨٥)

يؤكد نبيل علي في هذا الفصل أن اللغة منظومة
متسقة ، تقيدتها الضوابط وتحكمها القواعد وتخضع
للتنظير والتفعيد الدقيق وفي داخل منظومة اللغة هناك
منظومات فرعية لها قوانينها الخاصة كما لها علاقات التأثير
والتأثر بالمنظومات الأخرى لنفس اللغة . وهذه
المنظومات تمثل للغويين مستويات التحليل المختلفة ،
فاللغة يمكن تحليلها على مستويات عدة كالمستوى
الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو النحوي أو الدلالي أو
المقامي ، وهناك علاقة تأثير وتأثر بين هذه المستويات
المختلفة ، فالكثير من القواعد الصوتية مثلاً تؤثر في
الصرف ، كما أن الصرف يتأثر بالتركيب ، ولا يمكن
دراسة الدلالة بمعزل عن التركييب وهكذا ، كما يبرز
نبيل علي علاقة اللغة بالعلوم الأخرى تحت ما يسميه
بالعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة ، مثل علاقة اللغة

يسير في اتجاه الصغر المتناهي في الحجم مع النمو المتزايد في القدرة الحاسوبية والتخزينية للمعلومات . وبنه المؤلف أن الثورة الإلكترونية والمعلوماتية المعاصرة تشكل تحديا قاسيا لدول العالم الثالث ، فهي تطرح إمكانيات هائلة لحل مشاكل هذه الدول ، إلا أنها تهدد أيضا باتساع الفجوة القائمة فعلا بين العالم الصناعي والعالم الثالث .

ويحدد المؤلف العناصر الأربعة الأساسية في منظومة الحاسوب وهي العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . ويشرح بالتفصيل مكونات كل عنصر من هذه العناصر ، ثم يوضح اتجاهات تطور نظم الحاسوب والمعلومات ومن أهمها الانتقال من المعالجة المتلاحقة sequential processing الى المعالجة المتوازية parallel processing ولا شك أن عمل المخ الانسانى اقرب للمعالجة المتوازية التي تسمح بمعالجة أنواع مختلفة من المعلومات في آن واحد مع امكانية الاستفادة من نتائج معالجة المعلومات الأخرى في نفس الوقت . وهناك أيضا الاتجاه الى التعامل بالرمز بدلا من الأرقام symbolic programming وتطوير لغات برمجة تقترب كثيرا من اللغات الطبيعية والتوجه لاستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي بعد الاعتماد الكلي على البرمجة الخوارزمية algorithmic programming ، كما يشير المؤلف الى التطور في وسائل تخزين المعلومات واستحداث الأقراص الضوئية بقدرتها الهائلة على تخزين المعلومات .

ثم ينتقل المؤلف الى استعراض البعد العربي للحاسوب وينتقد الفكرة القائلة بوجوب تصميم حاسوب عربي على مستوى العتاد hardware ، وذلك لأن العتاد يمكن أن يلي احتياجات أي مجتمع وأي

عام ، وينطلق من ذلك الى تطور اللسانيات ويحدد لها سبع مراحل يضعها في شكل (١ : ٣) صفحة ٧٢ .

ويطرح المؤلف في هذا الفصل أيضا مشاكل تنظير اللغة العربية ومن أهمها غياب النظرة الشاملة للغة العربية ككل ، وافتقر العربية في الدراسات المقارنة والتقابلية وإغفال الفكر العربي للنظرية التوليدية وطفوان الكتابة عن الجانب الصوتي ، وقصور النظرة الى المعجم رغم أهميته القصوى في علم اللغة الحديث . وينتهي الفصل ببعض التصورات والاقتراحات التي يقدمها المؤلف لتحديث النظرة الى منظومة اللغة العربية ، من أهمها تحليل اللغة العربية في إطار النظريات اللغوية المعاصرة وتحديث أساليب تعليم وتعلم اللغة العربية والتركيز على دراسة الدلالة واستخدام الحاسوب لخدمة اللغة العربية .

الفصل الثاني : منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية (صفحة ٨٧ - ١١١)

يحدد المؤلف في هذا الفصل السمات الأساسية التي تميز تطور الحاسوب في السنوات الأخيرة منها عمومية الاستخدام ، فقد دخل الحاسوب وما زال يدخل جميع مجالات الحياة وساعد على هذا مرونته الواضحة التي تسمح بتشكله كي يفي بالمطالب المختلفة للحياة العصرية فهو في البنوك مثلا يتابع حركة الأموال الداخلة والمنصرفة بدقة بالغة ، وفي شركات الطيران يسجل أسماء المسافرين وينظم كافة المعلومات الخاصة بالرحلات والمسافرين وجهات السفر . . . الخ ، وفي الفصول الدراسية يساعد الطلاب في استيعاب ومراجعة المادة العلمية ، وفي سفن الفضاء يقوم بالعمليات الحسابية البالغة التعقيد وينسق بين كافة الأجهزة العاملة في السفينة ، ومن هذه السمات أيضا أن تطور الحاسوب

للتحليل اللغوي والاهتمام الشديد بصورته formalization الانحاء ، وعلم الحاسوب وتطور الحواسيب السريع سواء من ناحية العتاد أو البرامج ولغات الترجمة ، كما يعرض المؤلف لجوانب الوفاق والخلاف بين اللغة والحاسوب ، فيستعرض أوجه التشابه البنيوي بين اللغة والحاسوب .

ويستعرض المؤلف مجالات استخدام الحاسوب كأداة اللغة وهي الاحصاء اللغوي والتحليل والتركيب اللغويان ، والفهم الآتوماتيكي للسياق ، وتحليل النصوص ، وميكنة المعاجم ، والترجمة الآلية وتعلم اللغة بواسطة الحاسوب ، وينتهي ذلك الجزء بجدول (جدول ٣ : ٥ صفحة ١٤٨ - ١٥٢) لعلاقات الترابط المتبادل بين هذه الاستخدامات المختلفة للحاسوب كأداة للغة . ثم يحدد المؤلف أيضا مجالات استخدام اللغة كأداة للحاسوب وهي : نظم استرجاع المعلومات ، ونظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) ولغات البرمجة الواقية ونظم التعامل باللغة الطبيعية ومعمارية الجيل الخامس وتطبيقات الذكاء الاصطناعي . وكما فعل المؤلف في استخدامات الحاسوب كأداة للغة ، أمى الجزء الخاص باستخدامات اللغة كأداة للحاسوب بجدول (جدول ٣ : ٦ صفحة ١٦٧ - ١٦٨) لعلاقات الترابط بين استخدامات اللغة المختلفة كأداة للحاسوب .

ويتناول المؤلف في باقي الفصل خصائص اللغة العربية، وعلاقتها بالحاسوب ويعرض للمشكلة الحقيقية التي يعاني منها كل من يستخدم الحاسوب في التطبيقات العربية وهي أن الحاسوب لا يقدم لمستخدمي اللغة العربية نفس الامكانيات التي يقدمها لمستخدمي اللغات الأوروبية .

لغة ، وقد أمكن للمجتمع الياباني والروسي وغيرهما تطوير العتاد الموجود حاليا لكافة الاستخدامات الممكنة . ويرى المؤلف أن يتركز جهد العلماء العرب في تعريب ملحقات الحاسوب من طابعات وشاشات مرئية ولوحات مفاتيح ووحدات توليد وتحليل الكلام . كما يقترح تطوير نظم تشغيل ثنائية اللغة ويعدد الطرق المختلفة المستخدمة في تعريب الحاسوب سواء بالاعتماد على البرمجيات أو العتاد ، كما يناقش بقوة بضرورة تعريب لغات البرمجة ونظم قواعد المعلومات ، كما يرى المؤلف ضرورة الاستفادة من الكم الهائل من التطبيقات المتطورة الموجودة باللغة الانجليزية وتعريب بعضها ليكون متاحا للمستخدم العربي ، وتطوير وسائل الترجمة الآلية ، كما يرى ضرورة الاهتمام بالنظم الخبيرة وينتهي الفصل بعدد من التوصيات الهامة منها ادخال اللسانيات الحاسوبية في أقسام اللغات وعلوم الحاسوب وهندسته ، وانشاء معهد متخصص في بحوث تعريب المعلوماتيات ، واستغلال شبكة القمر الصناعي العربي لنشر وعي الحاسوب والمعلومات في الوطن العربي . وينبه المؤلف الى ضرورة التنسيق على مستوى الوطن العربية في إنشاء صناعة عربية للعناصر الأساسية في عتاد الحاسوب ومتابعة مشروع الجيل الخامس للحاسوب وتشجيع جهود الترجمة الآلية .

الفصل الثالث : المعالجة الآلية لمنظومة اللغة العربية

(صفحة ١١٣ - ١٩٥)

يتحدث المؤلف في بداية هذا الفصل عن حتمية اللقاء بين اللغة والحاسوب نتيجة للاتقاء بين الثالوث المكون من نظرية المعلومات بأسسها الرياضية لقياس كمية المعلومات واستحداث أساليب متطورة لترميز وضغط المعلومات وزيادة فاعلية استرجاعها ، وعلم اللغة الحديث بتركيزه على استحداث نماذج رياضية

ثم ينتقل الى مواضيع الخلاف بين اللغة العربية والحاسوب ويذكر منها :

- ١ - تعقد الحاسوبية السياقية .
- ٢ - المرونة النحوية التي تتسم بها الجمل العربية .
- ٣ - ثنائية الفصحى والعامية .
- ٤ - تعدد نظم الكتابة العربية .
- ٥ - قصور وصف اللغة العربية .
- ٦ - قصور أساليب تعليم اللغة العربية وجودها .

٧ - قصور المعاجم العربية من حيث طرق تنظيمها وتبويبها .

وعن الموقف الحاضر لتعريب الحاسوب ونظم المعلومات ينتقد المؤلف إمكانية استيعاب اللغة العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلاً للغة الانجليزية لأن اللغتين تمثلان طرفي نقيض سواء من الناحية اللغوية أو الحاسوبية ولصعوبة العربية مقارنة بالانجليزية . ويرى المؤلف أن عمليات التعريب بشكل عام تميزت بالسطحية ، فقد ركزت على كيفية طباعة النصوص العربية وإظهارها على الشاشة ، كما تميزت بغياب الأبحاث الأساسية في علم اللغة وعدم الشمولية في تعريب المعلوماتيات .

وعدد المؤلف أوجه استخدامات الحاسوب كأداة للغة العربية ، فهو أداة إحصائية ممتازة يمكن استخدامها لاحصاء الجذور العربية ، ولتكرار الكلمات والحروف والحركات والجذور الثلاثية والرباعية ، وبيان التوزيع النسبي للصيغ الصرفية والاعرابية ، ولقياس الانتظامية

ويرى المؤلف « أن الموقف يحتاج منا ، بل يوجب علينا ، اللجوء الى الافتراض والتطويع العلميين والتقنيين الى أقصى حد ممكن ، وعلى أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا ، وفي ظل أهداف تنميتنا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن فيسود الأساس الانجليزي ، ومحاولات التخلص منه ، لا يمكن أن يكون القصد من ورائه هو أن نقذف في البحر الحصاد الهائل للإنجازات العلمية والتقنية في مجال « الانجليزية » بل قصدنا به تأكيد أهمية ترشيد عمليات الافتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشكلات معالجة العربية آلياً » (صفحة ١٧٢) .

ثم يستعرض المؤلف أوجه الوفاق والاختلاف بين اللغة العربية والحاسوب ، ويقصد هنا سهولة المعالجة الآلية للغة العربية ، فيذكر من أوجه الاتفاق (أي ما يسهل المعالجة الآلية للغة العربية) ما يلي :

- ١ - شدة انتظام كثير من خواصها الصرفية والاعرابية والصوتية .
- ٢ - صغر حجم المعجم لتكون نواته من الجذور والصيغ الصرفية .
- ٣ - الفائض اللغوي الذي يسمح بضغط النصوص العربية .

٤ - شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .

٥ - الانتظام الصوتي في اللغة العربية والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها .

ووسائل تمييز النصوص وإبرازها ، وعناصر تنظيم كتابة النصوص ، ووسائل الاختصار . كما يقول نبيل على أن منظومة الكتابة العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفونولوجي ، فكل ما يكتب ينطق عادة . وهو بالتأكيد يقصد هنا الكتابة المشكّلة ، لأن الحركات العربية القصار لا تمثل في الكتابة العادية على صفحات الجرائد والمجلات ، والكتب المطبوعات بشكل عام . وتختلف العربية عن الانجليزية في استخدامها لعلامات التشكيل للدلالة على الحركات القصار وأحرف اللين للدلالة عن الحركات الطوال . كما تكتب العربية على مستويات مختلفة ، فهي إما كاملة التشكيل ، أو جزئية التشكيل ، كما يمكن أن تكتب بدون أي تشكيل على الإطلاق . وتشابك الحروف وتعدد أشكالها حسب نوعية الحروف السابقة واللاحقة ، ولهذا تميز العربية بحساسية سياقية شديدة ، كما أنها تكتب من اليمين إلى اليسار بينما تدخل الأرقام من اليسار إلى اليمين . وتمثل كل هذه الاختلافات تحديات بالنسبة إلى المعالجة الآلية للغة العربية . وبعد أن يعرض نبيل على لظاهرة التشكيل بالتفصيل ، يطرح السؤال الهام التالي : هل تفترض نظم المعالجة الآلية وجود التشكيل سلفاً ، أم يجب أن تسعى لتوليده ؟

ويؤكد نبيل على أهمية عمليات التقييس والمعايرة standardization ، ويتحقق ذلك بالاتفاق على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وتوحيد مخططات لوحات المفاتيح العربية ، وتقييس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، وتوحيد أساليب تحويل الكتابة العربية إلى كتابة صوتية ، ويضع نبيل على تصوره للاتجاه العام لمعالجة الكتابة العربية في شكل (٤ : ٧) والذي نوردته أدناه .

الصرفية للأفعال في اللغة العربية ، كما يمكن استخدام الحاسوب في تحليل وتوليد النصوص ، وبناء المعاجم الالكترونية وفي الترجمة الآلية وفي الفهم الآلي للنصوص اللغوية ، وتعليم اللغة العربية بمعاونة الحاسوب .

ويحدد المؤلف الاطار العام لمعالجة اللغة آلياً بأنه يستند الى وظيفتين أساسيتين : هما التوليد والتحليل .

ويعتقد المؤلف - خلافاً لما هو سائد - أن عملية التمييز أعقد من عملية التوليد ، وسنعود لهذه النقطة في تحليلنا للكتاب .

وحول نظم معالجة المعارف والمعلومات ، يحدد المؤلف أربع نقاط أساسية يختلف فيها الاطار العام لمعالجة المعرفة بالعربية عن اطار معالجتها بالانجليزية وهي :

١ - إضافة معالج التشكيل الآلي .

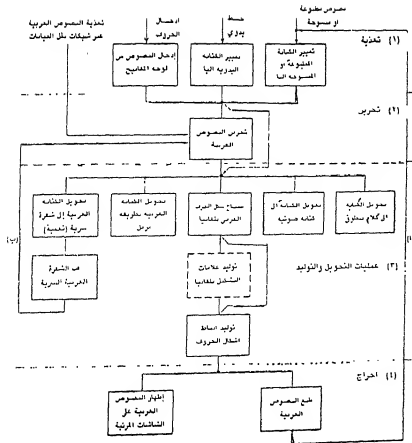
٢ - استخدام عمليتي التحليل الصرفي والنحوي في إزالة اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

٣ - استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات .

٤ - استخدام عنصر الدلالة الصرفية .

الفصل الرابع : المعالجة الآلية لمنظومة الكتابة العربية (١٩٧ - ٢٤٦)

تتكون عناصر منظومة الكتابة بشكل عام من خمسة عناصر هي : الأبجدية ، وعلامات الاملاء والترقيم ،



شكل (٧٠٤) الإطار العام لمعالجة الكتابة العربية آلياً

ثانياً : أن تكون صيغة الكلمة مساوية لاحدى الصيغ السليمة لهذا الجذر .

ويشير المؤلف الى امكانية تغير الصورة السطحية للصيغة الصرفية نتيجة للعمليات الفونولوجية المختلفة كالحذف والاضافة والتضعيف والقلب المكاني ، كما ناقش الانتاجية الصرفية والعوامل التي تحكمها في اللغة العربية ومنها عوامل معجمية ، وصوتية ، ونحوية ، ودلالية ، وصرفية مما يؤكد ما ذكره المؤلف سابقا عن تداخل المنظومة الصرفية مع باقي المنظومات الأخرى في اللغة ، وتوصل الى عدة عوامل يعتمد عليها اطراد الانتاجية الاشتقاقية وهي :

١ - التجرد والزيادة : تزداد انتاجية الصيغ الصرفية مع الصيغ المزيدة .

٢ - طول الصيغة : تزداد إنتاجية الصيغة الصرفية مع زيادة طولها .

٣ - طول الجذر : يزيد الاطراد الاشتقاقي كلما زاد طول الجذر .

وأوضح أن تباين الانتاجية الصرفية له أبعاد هامة في تحديد وتنظيم مواد المعجم . وهناك وجهة نظر تفترض الاطراد العام وترى تجنب ما لا ينطبق ، وهناك من يفترض الشذوذ التام ويرى وضع جميع الكلمات في المعجم ، وهناك من يتخذ موقفاً وسطاً بين الاطراد والشذوذ فيحيل الى المعجم الشاذ فقط أما المطرد فيجري اشتقاقه بواسطة القواعد الصرفية (فرغي ١٩٨٧) .

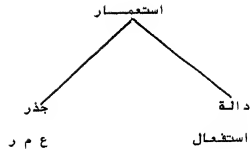
ثم يتناول المؤلف ظاهرة اللبس الصرفي الذي يؤدي بدوره الى أنواع من اللبس النحوي والدلالي ، ويرجع نبيل علي اللبس الصرفي الى الآتي :

الفصل الخامس : المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي (٢٤٧ : ٣٣٢)

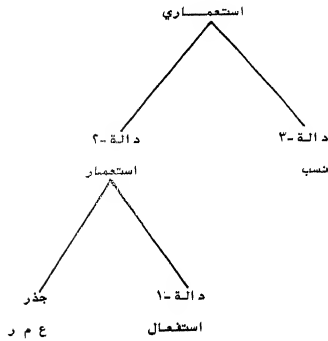
يعد هذا الفصل من أهم فصول الكتاب لأهمية الموضوع الذي يعالجه ، ويعرف نبيل علي الصرف بأنه « فرع اللسانيات الذي يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات » ، ويتفق هذا التعريف مع سيلكيرك (Selkirk ١٩٨٢) التي تنظر الى الصرف باعتباره نحو الكلمة ، ويعرض المؤلف لعلاقة الصرف بكل من النحو والفونولوجي والدلالة ويشير أيضاً الى علاقته بالمعجم ، كما يعرض لخصائص منظومة الصرف العربي وهي : حدة الخاصية الاشتقاقية ، واطراد التصريف ، والصلة القوية بين مباني الكلمات ومعانيها ، وميل الصرف لتركيب الكلمات بالاضافة ، وانتظام بنية الكلمة العربية ، وشدة التداخل بين الصرف والفونولوجي ، كذلك الصلة القوية بين الصرف العربي والمعجم . ثم يتناول المؤلف جوانب الصرف العربي ذات الأهمية للمعالجة الآلية للغة العربية ومنها الخاصية الثلاثية حيث تمثل الجذور الثلاثية نسبة عالية من جذور اللغة العربية ، وكذلك أصل الاشتقاق الذي يقول عنه « فإن محورية الفعل المضارع في العربية ، وفي الساميات عموماً لا ينتاج الى مزيد من التأكيد » (صفحة ٢٧٦) ، كما يوضح المؤلف أنه « يحيل الى اعتبار الكلمة دون غيرها أساساً للاشتقاق » (صفحة ٢٧٧) ، ويقترح صيغة رياضية للأطام العربية في اشتقاق الكلمات من أصولها فيوضح الشكل التالي مثلاً أن كلمة استعمار تشق من أسفل لأعلى كما هو مبين بالشكل التالي :

فلكي تكون الكلمة صحيحة هناك شرطان لابد من توافرها وهما :

أولاً : أن يكون هناك تنابع من الصوامت مسلو لأحد الجذور العربية



بينما يجري اشتقاق كلمة استعماري كالآتي



شكل (١) تيود الاشتقاق

ويشرح نبيل علي المقصود بعملية التحليل الصرفي آليا ، ويعرض لبعض نماذج التحليل الصرفي الآلي كنموذج كوسكونيني (Koskonieni 1983) ذي المستويين ، ونموذج مارتن كي (Kay 1987) ، ثم يعرض نموذج التحليل الذي وضعه المؤلف لشركة العالمية للإلكترونيات ويوضح المؤلف مكونات هذا المعالج الصرفي في الشكل التالي .

يستطيع القارئ أن يرى أن هذا المعالج الصرفي يتكون من أربع معالجات فرعية متخصصة لكل منها وظيفتها محددة وهي : المعالج الصرف - نحوي ، والمعالج الاشتقاقي ، والمعالج الاعرابي ، ومعالج التشكيل . كما يلاحظ أن كلا من هذه المعالجات له جانبان جانب التوليد والأخر للتحليل . وأن المكون اللغوي للبرنامج منفصل عن المعالج ؛ وهذه ميزة كبيرة تمكن من تطوير المكون اللغوي دون الحاجة لتغيير البرنامج نفسه كما أنه يسهل من هذه المهمة .

والمكون اللغوي يتكون بدوره من عدة ملفات منفصلة تحتوي على قواعد التصريف والدمج ، وجذور اللغة العربية ، والهايكال الصرفية ، والصيغ الصرفية ، وقواعد الضبط الاعرابي ، والقواعد الصرف - صوتية morphophonemic rules .

وبعد أن يعرض المؤلف طريقة عمل المعالج الصرفي ، يحدد استخدامات هذا المعالج وهي : ضغط النصوص العربية بالأسلوب الصرفي وعلى مستوى ازدواج الحروف ، واسترجاع النصوص ، وتصحيح الأخطاء الإملائية ، وتحليل النصوص صرفيا ، واستخدام قواعد بيانات النصوص الكاملة ويمكن المعجم .

١ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ومعانيها .

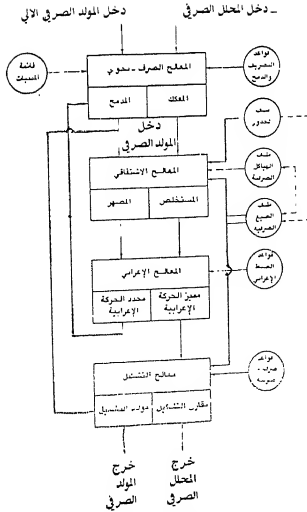
٢ - تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ووظائفها النحوية .

٣ - تعدد العلاقة بين الصيغ الصرفية وموازينها الصرفية .

٤ - اللبس الصرفي نتيجة غياب التشكيل .

وكمثال على حدة ظاهرة اللبس في اللغة العربية ، يورد نبيل علي اثني عشر احتمالا لكلمة « افهم » حين ترد بدون تشكيل .

ثم يتناول الكتاب مشاكل المعالجة الآلية للصرف العربي ومنها تعقد وتداخل عمليات الإبدال والاعلال ، وحدة اللبس الصرفي ، وعدم تأثر عناصر الكلمة بما يحاورها من عناصر فقط بل تأثرها بالعناصر التي تتقدمها أيضا ، وعدم وجود صياغة دقيقة رسمية ومتكاملة لقواعد الصرف العربي ، وعدم توفر بيانات معجمية منهجية عن الانتاجية الصرفية ، وعدم كفاية الاحصائيات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية والحالات التصريفية والاعرابية . ويتقدم المؤلف باقتراحات هامة لمعالجة الصرف آليا وأهمها : أن يكون التعامل مع النصوص العربية بأشكالها المختلفة (أي بالنصوص المشكلة وغير المشكلة) ، وأن يكون تصميم البرنامج بحيث يكون تجزئيا modular ، فيتكون من عدة آليات متخصصة تعكس الوظائف الأساسية للمنظومة الصرفية لا الخطوات الاجرائية للبرنامج ، ومراعاة التكامل بين المعالجة الصرفية والنحوية ، وأن يكون البرنامج قادرا على العمل في اتجاهي التحليل والتوليد .



وبعد عرض مكونات منظومة النحو يبدأ نبيل علي في مناقشة خصائص منظومة النحو العربي، ويحددها في ست سمات :

١ - العلاقة العضوية بين النحو والصرف ويرى في ذلك أن الصرف العربي يطغى على النحو . فالكلمة العربية قادرة على حمل السمات النحوية تصريفاً وإعراباً وتعريفاً وتنكيراً علاوة على ما يمكن أن يدمج بها من أدوات الربط والعطف والضمائر .

٢ - رتبة الكلمات في الجملة العربية ، ويرى الأخذ بالرأي القائل بتأصل الجملة الفعلية (فعل فاعل مفعول) وأن الجملة الاسمية قد تكون جملة فعلية في أصلها .

٣ - المرونة النحوية ، فالجملة العربية تتميز بمرونة ترتيب الكلمات التي تسمح بتقديم الفاعل والمفعول وبإسقاط بعض حروف الجر الملحقة بالأفعال .

٤ - التوسط النحوي ، يرى نبيل علي أن خصائص اللغة العربية تجعلها لغة وسطي بين لغات العالم ؛ فهي لا تتبع انضباط اللغة الانجليزية مثلاً في ترتيب الكلام ، ولكنها في نفس الوقت لا تسمح بالمرونة المطلقة كما في اليابانية والهنغارية ، وهي تمثل حالة وسطي في رتبة الكلمات فهي تجمع بين الجملة الاسمية والفعلية ، كما أن المطابقة فيها ليست محدودة كالانجليزية ولا هي مفرطة كالألمانية مثلاً .

٥ - ضحالة البنية العميقة ، يرى المؤلف أن العربية تتميز بضحالة بنيتها العميقة إذا ما قورنت بالانجليزية ويبرر اعتقاده بوضوح العلاقات النحوية في العربية بسبب وجود سمات ظاهرة للاعراب وكذلك لاستخدام

الفصل السادس : المعالجة الآلية لمنظومة النحو العربي (٣٣٣ - ٤١٩)

يتميز هذا الفصل بأنه يعرض لمنظومة النحو من منطلق النظريات اللغوية المعاصرة (Chomsky 1981, 1986, 1982) ، (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) ، ويبدأ الفصل بشرح لبعض المفاهيم النحوية الأساسية والتي يبنى عليها المؤلف فيما بعد مناقشته وعرضه التفصيلي ، ومن بين هذه المفاهيم فكرة لغة وصف اللغة meta language ، وأقسام الكلام وتصنيفها باستخدام السمات (Jackendoff 1977) ، ثم ينتقل الى العلاقات النحوية المختلفة كعلاقة الرتبة وهي التي تحكم ترتيب الكلام كسبب الجار للمجرور أو الموصوف للصفة في العربية ، والعلاقة الوظيفية النحوية كعلاقة الفاعل والمفعول ، والعلاقة الوظيفية الدلالية التي تفصل بين الفاعل النحوي والفاعل المنطقي ، ثم انتقل الى شرح النموذج الرياضي للغة والمكون من الرباعية (رمز الجملة ، المقولات النحوية ، مفردات اللغة ، قواعد الاحلال المتحررة من السياق) . ثم ينتقل الى المكونات الداخلية لمنظومة النحو ويرى بحثها على ثلاثة مستويات :

أولاً : عمليات التكوينات النحوية الأساسية وتضم قواعد تكوين الجمل المعقدة والبسيطة وأشبه الجمل .

ثانياً : عمليات التحوير والاحلال النحوي وتشمل قواعد الحذف والإضافة والتقديم والتأخير والاضمار .

ثالثاً : عمليات الضبط النحوي وتشمل قواعد المطابقة كاتفاق الفعل مع فاعله والصفة مع الموصوف وقواعد الضبط الاعرابي .

الضمير العائد في حالات التقديم والجمل الموصولة ،
وللصلة الوثيقة بين المباني الصرفية ومعانيها ، واستخدام
الجملة الاسمية .

ثم يعرض الكتاب للثروة النحوية الحديثة
ويستعرض إنجازات النحو التوليدي والنظريات
النحوية التي تفرعت عنه وشرح منطلقات النظريات
النحوية المعاصرة .

ثم ينتقل الكتاب الى مناقشة النحو العربي وأزمته
ويقدم اقتراحات عديدة لتحديثه منها الانطلاق من مبدأ
النحو العام والتحليل المنهجي لعلاقة النحو بالصرف
والدلالة ، ودراسة النحو كمنظومة متكاملة وضرورة
تنوع مناهج التفكير النحوي للعربية ، واستخدام
الحاسوب في إقامة النماذج النحوية للاسراع في حركة
تحديث النحو ، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية
والحاسوبية والاحصائية في الجامعات والمعاهد العربية .

ويتناول باقي الفصل المعالجة الآلية للنحو العربي
ويتعرض للتحديات التي تواجهها ومنها غياب صياغة
رسمية للformalism للنحو العربي ، واسقاط علامات
التشكيل في النصوص المعاصرة ، وتعدد حالات اللبس
النحوي ، وحدة ظاهرة الحذف ، وعدم توفر
الاحصائيات النحوية . ولعالجة هذه التحديات يقدم
الكتاب المقترحات التالية :

١ - استغلال مظاهر المطابقة والاعراب والتضام
والرتبة للمساعدة في فك اللبس الناجم عن غياب
التشكيل .

٢ - فصل قاعدة المعرفة اللغوية عن البرمجة
الاجرائية . وقد أصبح ذلك مبدأ في جميع أنظمة المعالجة

اللغوية الحديثة ، بل حتى في برامج النظم الخبيرة
expert systems .

٣ - « تعاون » الصرف والنحو لفك اللبس الناتج
عن غياب التشكيل .

٤ - استخدام الاحصائيات النحوية والصرفية في
ترشيد عمل المعالج الآلي النحوي .

٥ - التركيز على اللغة العربية الفصحى الحديثة .

٦ - توفير وسائل التعامل مع الاخطاء واقتفاء أثر
tracing المحلل الاعرابي .

وهناك ثلاث خطوات رئيسة يجب اتباعها عند بناء
المعالج النحوي وهي :

أ - تحديد الشريحة اللغوية التي يغطيها المعالج ؛ أي
تحديد أنواع التراكيب اللغوية التي سيتعامل معها ،
وقائمة المفردات ، والصيغ الصرفية .

ب - تحديد نظام التقيد وذلك باختيار نوع الصياغة
الرسمية للقواعد النحوية ، ويكون الاختيار هنا من بين
القواعد التحويلية ، الوظيفية ، المنحرفة من السياق ،
حساسية السياق ، التوحيدية unification
Grammar ... الخ .

ج - اختيار خوارزمية البرمجة ويمكن هنا الاختيار من
شبكات الانتقال transition network ، شبكات
الانتقال المعززة ، شبكات الانتقال المتكررة ، الاعراب
من أسفل لأعلى أو من أعلى لأسفل ، ... الخ .

ثم يصف المؤلف المعالج النحوي الذي يقوم بتطويره
حاليا والذي يتكون من المعجم ، وقاعدة المعرفة

وما تحدّثه من ذبذبات في الهواء acoustic phonetics ومن حيث آثارها السمعية وما يحدث لدى السامع ابتداء من طيلة الأذن الى تمثل معنى الإشارة الصوتية في الدماغ auditory phonetics ، كما يمكن دراسة الكلام على مستوى الفونولوجي حيث نتعامل مع القواعد المجردة التي تحكم تتابع الأصوات والتي تحدّد أي تتابع من الأصوات يكون قانونياً في اللغة المعنية وأياً غير قانوني ؛ فمن المعروف مثلاً أن العربية الفصحى لا تسمح بالتقاء ساكنين في أول الكلام ولا تسمح في أي مكان بأكثر من ساكنين متتاليين ، أما الانجليزية فتسمح بثلاث سواكن في أول الكلمة وأربع سواكن في آخرها ، ومع ذلك فهناك قيود فونولوجية على نوعية السواكن التي يمكن أن تتتابع . كما يبحث الفونولوجي العلاقات التي تنشأ بين الأصوات المجاورة وبينها وبين العناصر اللغوية الأخرى .

والفونيم ، في رأي نيل علي ، هو العنصر الذري للظاهرة الصوتية ، ويتناظر الحرف في الكتابة إلا أن التناظر غير تام بين الحروف والفونيمات . وتتكون منظومة الفونولوجي من ثلاث آليات :

١ - تنوع الفونيمات . فالأصوات اللغوية تتأثر بما يسبقها ويلحقها من أصوات ويتبع عن هذا التأثير والتأثر عدة عمليات فونولوجية كالأدغام والامالة والتفخيم والترقيق والحذف والإضافة والإطالة والتقصير ... الخ .

٢ - التقطيع الصوتي . وهو تقسيم الكلمة الطويلة الى مقطعين أو أكثر فمثلاً كلمة « كتاب » تتكون من مقطعين وكلمة « كتبنا » تتكون من ثلاث مقاطع ، ولكل لغة نظامها المقطعي الذي يحدّد التراكيب

النحوية ، وروتينات البرمجة ، ثم يشرح بانجاز الخطوات الرئيسة للنظام النحوي المقترح للغة العربية ، فهو يبدأ من التحليل العنصري والمعجمي لكلمات الجملة الداخلة ، ثم يبدأ في تطبيق قواعد البدائل المستحيلة وذلك للتخلص من حالات اللبس الزائفة والواضحة في وقت مبكر ، يلي ذلك تطبيق قواعد النحو التكوينية لأشباه الجمل وما يعلوها من مكونات نحوية ، ثم يطبق قواعد الضبط النحوي والاعرابي ، ويربط الضمائر بما تعود اليه وذلك بمطابقة السمات النحوية والدلالية للضمير مع سمات الأسماء وأشباه الجمل الاسمية الواردة ، ثم يقوم بتطبيق قيود الانتقاء الدلالي selectional restriction rules لاستبعاد البنى النحوية التي تتنافس مع منطق دلالات الألفاظ ، وأخيراً توليد التشكيل آلياً بإضافة علامات التشكيل على ساق الكلمة وعلامات الضبط الاعرابي على أواخرها .

وينتهي الفصل بعرض سريع للتطبيقات العملية لثل هذا المعالج النحوي ومنها التصحيح الآلي للأخطاء النحوية ، والتخاطب مع قواعد البيانات باللغة العربية ، والترجمة الآلية وتعليم النحو بواسطة الحاسوب .

الفصل السابع : المعالجة الآلية للكلام العربي (٤٢١ - ٤٥٦)

الكلام فعل حي دينامي وهو الأساس في الحدث اللغوي ، والكتابة ماهي في الواقع سوى أحد أشكال تمثيل الكلام ، فالكتابة إذن تابعة للكلام وليس العكس . ويمكن دراسة الكلام على مستويين : مستوى الفونيتيك phonetic level وهنا نتعامل مع طبيعة الأصوات اللغوية من حيث مخارجها وطرق نطقها articulatory phonetics ومن حيث خصائصها الطبيعية

٢ - رد حروف الكتابة الى أصلها (فمثلا رد كافة أشكال العين الى العين) .

٣ - فك الحروف العربية ذات الطابع الشائبي مثل « لا » الى عناصرها المفردة .

٤ - تحويل سلسلة الحروف المكتوبة الى سلسلة فونيمات منازرة .

٥ - تمثيل سلسلة الفونيمات في هيئة مقاطع .

٦ - تحديد مواضع التبر بتطبيق قواعد اللغة العربية واستخدام المعالج الصرفي ، وتحديد التنغيم المناسب للجملة بعد تحليل الجملة نحريا لمعرفة ما اذا كانت استهفامية أم خبرية . . الخ .

٧ - تطبيق القواعد الفونولوجية ومعطيات التبر والتنغيم .

٨ - توليد الاشارة الصوتية الرقمية بالحصول على البارامترات .

٩ - تحويل البارامترات الرقمية بعد تعديلها الى الاشارة الصوتية المقابلة لها .

ويمثل تمثيل الكلام العملية المعاكسة أي استخلاص الفونيمات من الاشارة الكلامية وتحويلها الى مقابلها المكتوب . ويعتبر التمييز أصعب بكثير من التوليد نظرا لفيض المعطيات الضخم الذي تحمله الاشارة الكلامية ، وللتداخل الشديد بين الفونيمات المتتالية ، وتغير سرعة الكلام ونمط تنغيمه من وقت لآخر لنفس المتحدث ومن متحدث لآخر . ولهذا لا تحقق برامج تمييز الكلام حاليا نجاحا الا في مجال الكلمات المنعزلة ولعدد قليل من المتكلمين .

المسموحة في تكوين المقطع ، وتميز العربية ببساطة واطراد نظامها المقطعي .

٣ - التبر والتنغيم . ويقصد بالتبر تشديد النطق على مقاطع معينة في الكلمة ، ويوضح التنغيم قصد المتحدث وحالته الانفعالية ، فباختلاف التنغيم يمكن نفس الجملة أن تعبر عن الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو السخرية . . الخ .

ويتناول الجزء الثاني من هذا الفصل معالجة الكلام آليا ، وهو موضوع يمثل تحديا هائلا لعدم نقاء الاشارة الكلامية واختلاط الأصوات فيها بالضجيج ، كما أنها تتغير وفقا لانفعالات وطبيعة صوت المتحدث وتأثير وتأثر كل صوت فيها فيما قبله وبعده . وللمعالجة الكلام آليا لابد من توافر العناصر التالية :

١ - توكود coding الاشارة الكلامية وذلك بضغط معطيات الاشارة وإبراز خصائصها المميزة ، وتمثيلها بعدة بارامترات ليسهل مقارنتها ومطابقتها برمجيا .

٢ - برامج معالجة اللغة المختلفة كالمعالج الصرفي والنحوي والدلالي .

والمقصود بمعالجة الكلام آليا هو اما توليد الكلام speech synthesis أو تمييزه speech recognition . ويمكن توليد الكلام المستمر بتكوين الكلمات من وحدات أصغر كالفونيمات أو المقاطع الصوتية ، ثم صهر عناصر الكلمة الصوتية مع مراعاة القواعد الفونولوجية الخاصة باللغة . وبالنسبة للعربية ، يلخص الكتاب خطوات توليد الكلمة المنطوقة فيما يلي :

١ - ادخال النص المكتوب المراد نطقه آليا .

التحليل اللغوي ، فالمعجم اذن هو منظومة ذات كيان شبكي ، يرتبط بعلاقات خارجية متعددة وتوحد داخله بشبكة كثيفة من العلاقات المتداخلة (الفهري ١٩٨٥) . ويعاني المعجم العربي من أزمة حادة تلخص مظاهرها في القصور الحاد في المصطلحات العلمية ، وجود النظرية الى تكوين الكلمات الجديدة ، والاكتفاء بتنظيم مواد المعجم على أساس الجذور والذي يفترض معرفة المستخدم بتفاصيل التحليل الصرفي والقواعد الفونولوجية الخاصة بالاببدال والاعلال والحذف وغيرها ، وإهمال العلاقات المعجمية التي تربط بين الكلمات ، وعدم توافر معاجم خاصة للترادف والتضاد ، وشبه إغفال الكلمات المركبة ، وإغفال البعد التاريخي في رصد الكلمات وتطور معانيها عبر الأجيال .

ولمعالجة أزمة المعجم العربي يضع نبيل علي إطارا عاما « لمنظومة المعجم الموسعة » نلخصه فيما يلي :

١ - تحديث المعجم باضافة المفردات والتعابير الاصطلاحية الجديدة وحذف المهجور منها ، وتحديث العلاقات بين مفردات المعجم ، وتجميع الاحصائيات عن معدلات استخدام المفردات والتعابير الاصطلاحية داخل النصوص .

٢ - صك الألفاظ الجديدة من خلال آليات مختلفة لتكوين الكلمات كالاشتقاق والتشريك والمزج والافتراض ، يُعْ توسيع الاشتقاق وتخفيف القيود على اقتراس المصطلحات الأجنبية واستغلال الرصيد الكبير من مفردات العربية السحيقة .

٣ - الاهتمام بدراسة عمليات الازاحة الدلالية للكشف عن أسرار تغير معاني الألفاظ سواء على مستوى الجذور أو الصيغ الصرفية .

ويرى المؤلف أن العربية تمثل حالة لغوية ملائمة للفهم الأوتوماتي للكلام المستمر والذي له تطبيقات عملية عديدة في بناء الآلات السامعة القارئة ومميز المتكلمين والبريد الصوتي .

الفصل الثامن : ميكنة المعجم العربي (٤٥٧ - ٥٢٩)

المعجم هو القاسم المشترك لجميع مستويات التحليل اللغوي ، وقد اكتسب أهمية كبرى متزايدة في النظريات اللغوية المعاصرة (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) و (Chomsky 1981, 1982, 1984, 1986) فكثير من الظواهر اللغوية التي كان يظن أنها جزء من التراكيب أمكن تفسيرها بطريقة أفضل من خلال معطيات المعجم ومن ذلك مثلا ظاهرة المبني للمجهول .

وتحتوي كل مادة معجمية على معطيات فونولوجية تحدد النطق الصحيح والكتابة السليمة لهذه المادة ، كما تحدد المعطيات الصرفية مقولة الكلمة وصيغتها النصرفية ونوع الاشتقاق وخصائص التصريف ، وتعطي المعلومات النحوية معلومات عن القواعد التي تحكم وجود اللفظ في الجملة وعلاقته بما يسبقه ويتلوها من الألفاظ . فإذا كان اللفظ فعلا تبن إذا كان لازما أو متعديا ، وإذا كان متعديا توضح إذا كان متعديا لمفعول واحد أو لمفعولين ، وكذلك أنواع الكمالات والملحقات ؛ وتصف المعطيات الدلالية المحملات predicates كما تحدد الأدوار الوظيفية والسمات الدلالية لموضوعات الفعل ومكملاته وموصوف الصفة وملحقاتها ؛ كما يعطي المعجم تعريفا لمعنى الكلمة باستخدام المترادفات اللفظية أو شرح المعنى . وليس المعجم مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة التي لا رابط بينها ، بل أنها تتشابه فيما بينها مكونة شبكة هائلة من المفاهيم والعلاقات الأساسية على كافة مستويات

المعجم حقيقية تعبر عن الاستخدام الفعلي للجماعة اللغوية وبذلك لا ينزول المعجم عن متكلمي اللغة .

ويتهيء الفصل بعدد من التوصيات لتطوير وميكنة المعجم العربي من أهمها : ربط تطوير المعجم بتحديث نظام التقعيد للغة ، والفصل بين العربية الحديثة والعربية القديمة ، ومراعاة العامل الجغرافي في الاستخدام اللغوي ، وتلبية احتياجات جميع مستخدمي المعجم ، والانطلاق من منظور دلالي ، ووضع الأسس لتصنيف المعجمي الدقيق بوضع سمات قياسية صرفية ونحوية ودلالية للألفاظ العربية ، والاهتمام بالعلاقات بين الكلمات ، وأخيراً ينتهي الكاتب بذكر عدد من المؤسسات العربية التي تقوم بأبحاث لميكنة المعجم العربي .

الخاتمة (٥٣١ - ٥٥٠)

تناقش الخاتمة ثلاث قضايا : أولها تفسير خلو الكتاب من فصل عن المعالجة الآلية للدلالة في اللغة العربية ، وأرجع المؤلف ذلك للوضع الحالي للمعالجة الآلية للدلالة إذ أنه ما زال في مراحله الأولى ، ولقصور الدراسات الدلالية في اللغة العربية ، وحاجة المعالجة الآلية للدلالة إلى خلفية نظرية في المنطق والرياضيات وأساليب الذكاء الاصطناعي . والقضية الثانية هي العلاقة بين اللسانيات الحاسوبية وتعريب المعلومات ، ويرى هنا أولوية المعالجة اللغوية فهي التي ستقام عليها تطبيقات النظم المختلفة للمعلوماتيات . وتنتهي الخاتمة بقائمة قيمة لسبعة وتسعين بحثاً مقترحاً في كافة مجالات اللسانيات الحاسوبية ، وهي لا شك دعوة مقترحة

٤ - جمع التعابير الاصطلاحية في العربية الحديثة وترتيبها وتحليل العلاقات البنيوية والدلالية بينها ، والتوصل إلى القيد النحوية على استخدامها ودراسة ظاهرة الاستعارة في العربية .

٥ - ترك المهجور من الجذور مثل « أب ا » ، والصيغ غير المستأفة مثل « مفعولاء » واستبعاد المفردات والتعابير الاصطلاحية المهجورة .

٦ - يواجه تنظيم المعجم على أساس الجذر عدة مشاكل : فهو لا يلائم غير المتخصصين من العامة والصغار لأنه يفترض الألمام بالقواعد الصرفية ، ولا يسهل تحديد مصدر الاشتقاق في حالة التعدد ، ويعتمد على قدرة المستخدم على استنتاج خصائص المفردات الصرفية والنحوية ، ولهذا لا بد من إعادة تنظيم المعجم بإضافة بيانات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، وإعطاء تصنيف أدق لأنواع المشتقات لاجلاء اللبس ، وتوضيح خصائص التعددية وال لزوم للأفعال . ويجب أن يراعى في تنظيم المعجم امكانية استخدامه على أربعة مستويات على الأقل : كقائمة مفردات للغة ، وكمصفوفة علاقات صرفية ونحوية ودلالية ، وكقاعدة بيانات ، وكقاعدة معرفة متكاملة .

٧ - بناء قاعدة نصوص لغوية ضخمة من مصادر مختلفة كالموسائق والصحف والتقارير والكتب والمسرحيات والاعلانات . . . الخ ليستخرج منها مؤشرات كمية وأمثلة واقعية للاستخدام الفعلي للمفردات ، وإحصائيات عن طول الجمل وتنوع أساليبها ، ويضمن ذلك أن تكون المعلومات الواردة في

جديدة بينما لا يجد القاريء العادي صعوبة في فهمها واستيعابها .

أولاً : منهجية العرض

تميز الكتاب بمنهجية العرض والالتزام بها في عرض كافة القضايا . وانعكس محور الكتاب وهو الثنائية « اللغة العربية والحاسوب » في كل فصل من فصول الكتاب ، حيث لكل فصل شقان : شق لغوي و شق حاسوبي . والتزم أيضاً بالبدء بالشق اللغوي في كل فصل ، منتقلاً بذلك من السهل - باعتبار اللغة موضوعاً عاماً - إلى الصعب . وفي تناوله للشق اللغوي ، يبدأ من المفاهيم العامة ثم ينتقل إلى الخصوصيات وينتهي باللغة العربية ، وهو بهذا يضمن أن يكون لدى القاريء الخلفية العامة في اللسانيات التي تمكنه من استيعاب وتقدير مشكلات اللغة العربية ، وبالإضافة إلى هذا فهو ينحو نحواً منهجياً سليماً يتفق مع النظريات اللغوية الحديثة التي تهتم بالأبناء الكلية - universal gram- mar وتنظر إلى اللغات المختلفة كحالات خاصة من اللغة الانسانية التي تتوافر خصائصها العامة في جميع اللغات الطبيعية . ويبدأ الشق الحاسوبي في كل فصل بتحديد المنطلقات الأساسية للمعالجة الآلية ، كما يعرض في كل فصل إطاراً عاماً للمعالجة الآلية للمستوى اللغوي الطروح والتطبيقات العملية المختلفة التي تنبثق منها . وكان لهذه المنهجية والالتزام بها في كافة فصول الكتاب أثر كبير في جعل الكتاب سلس القراءة ، سهل الاستيعاب ، فهو يتدرج بالقاريء بطريقة منطقية سليمة وينتقل باستمرار من العام إلى الخاص ويربط النتائج بمقدماتها .

لعلنا الشبان من المتخصصين في اللسانيات أو علوم الحاسوب كي يساهموا في معالجة التحدي الذي يواجه الأمة العربية في ظل الثورة المعلوماتية المعاصرة .

تحليل وتعليق

هذا الكتاب اثره قيم للمكتبة العربية ، فهو أول كتاب عربي في اللسانيات الحاسوبية ، ويجب النظر إليه في هذا الاطار . وقد قدم المؤلف فيه عرضاً شاملاً للجوانب المختلفة في هذا المجال .

الا أن الكتابة في موضوع تخصصي كهذا أمر شائك ، فاذا وجه المؤلف حديثه إلى المتخصصين فقد جههوا عرضاً من المثقفين التواقين إلى معرفة هذا العلم الجديد والمستعدين لبذل الجهد الذهني اللازم لذلك ، وإذا وجه حديثه إلى المثقفين فقد العمق والالتزام العلمي وانزلق إلى الضحالة والعمومية . يتخذ المؤلف قراره باختيار القاريء الذي يغاطبه قبل البدء في الكتابة حتى يحدد مستوى العرض وتناول الموضوع . ولا شك أن نبيل علي قد اختار أن يوجه كتابه للمثقفين العرب وليس إلى المتخصصين ، فقد خلا الكتاب من تفصيلات النواحي الفنية المعقدة والتحليلات النظرية في علم اللغة وأساليب اللسانيات الحاسوبية . وأصبح الكتاب متعة ذهنية للقاريء المثقف ينهل منه دون صعوبة أو ملل ، ورحلة يسلا عائده للمتخصصين في اللسانيات الحاسوبية . ويجب أن نقر بأنه ربما كان يستحيل أن تجمع المعالجة بين الشمول الذي قدم به الموضوع ودرجة أعظم في تناول موضوعات الكتاب ، فقليلة هي الكتب المتخصصة التي يجد فيها المتخصص متعة ذهنية وأفكاراً

مضمون الكتاب

يرى القارئ عنوان الفصل الأول وهو « منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب » ، ويتوقع أن يرى عرضاً للغة العربية من منظور غير لغوي ، ولكنه يجد عرضاً جيداً للغة العربية ، من منظور لغوي ، فيجد عرضاً لكافة مستويات التحليل اللغوي كالتحليل الصوتي ، والصرفي والنحوي . . الخ كمكونات لمنظومة اللغة ، كما يجد عرضاً للعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة بعملياتها بالمنظومة النفسية والاجتماعية والطبيعية . . الخ ، ثم يعرض الكتاب لخصائص المنظومة اللغوية (أي خصائص النحو الكلي) ، ثم ينتقل الى خصائص اللغة العربية ، ثم يتناول تطور اللسانيات وأخيراً يعرض لبعض مشاكل التنظير للغة العربية . والسؤال الملح هنا « أين هي منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب في هذا ؟ » ان ما في هذا الفصل لا يخرج عما ندرسه لطلبتنا في المقرر التمهيدي لعلم اللغة وهو يمثل نظرة علماء اللغة في البحث اللغوي وفي اللغة الانسانية كظاهرة طبيعية . وقد كان من الأوفق لتبيل علي أن يكون عنوان الفصل « منظومة اللغة العربية » فقط .

إلا أن طرح اللغة من منظور الحاسوب هو أمر هام في كتاب كهذا ، وإذا أردنا معالجة هذا الموضوع فيجب أن نذكر أن الحاسوب ينظر الى اللغة بعدة طرق منها :

١ - نظرية اللغة الصورية Formal language

theory

اللغة عبارة عن مجموعة لا متناهية من الجمل an in-
finite set of sentences ، ويمكن للحاسوب أن

يتعرف على أعضاء هذه المجموعة إذا أعطي له وصف دقيق لما يجب أن تكون عليه الجملة . وهذا الوصف الدقيق الذي يتطلبه الحاسوب هو النحو . ومن هنا جاءت الرباعية التي تحدث عنها نبيل علي تحت عنوان النموذج الرياضي للنحو في صفحة ٣٤١ . ويتطلب الحاسوب نحواً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، مما يفرض على عالم اللغة أن يبتعد عن العموميات في تحليله وأن يضع كافة التفصيلات التي تحكم صحة الجملة . ولكي يستطيع الحاسوب أن يبني شجرة الأعراب للجملة فينبغي أن يتكون من مجموعة من المقولات ، ورمز الجملة وعدد عديد من قواعد الانتاج-product-
tion rules ومفردات اللغة . وبدون كتابة نحو اللغة بهذه الطريقة لا يستطيع الحاسوب معالجة اللغة آلياً .

٢ - اللغة كهيكل معلومات information structure . ينظر الحاسوب الى قواعد اللغة ومفرداتها كبنية معلوماتية ، فتمثل كل كلمة من كلمات اللغة في شكل شجرة معلومات تحتوي على المعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المتعلقة بهذه الكلمة ، وتحدد شجرة المعلومات هذه الكلمات والبنيان البني يمكن لهذه الكلمة أن تتحد معه مكونة شجرة معلومات على مستوى أعلى . . وهكذا حتى نصل الى مستوى الجملة . وتتطلب هذه النظرة وضع كل المعلومات اللغوية في المعجم اللغوي الآلي بما في ذلك القيود الخاصة بتكوين العبارات والجمل .

٣ - اللغة كمنظومة رياضية . يجيد الحاسوب اختبار صحة المعادلات الرياضية ، بمعنى أنه إذا أعطي مقولتين

والفكرة هنا أن جميع القواعد موجودة في شكل معادلات equations، وهي تقول بأن الجملة تتكون من أربعة مكونات: فعل ومركب اسمي (الفاعل)، ومركب اسمي آخر (المفعول به) بشرط أن يكون الفعل من النوع الذي يتطلب مركباً اسمياً من مكملاته، وأن هناك جارا ومجرورا أيضاً، وتقول المعادلات التالية إن الفعل والفاعل يجب أن يتفقا في الجنس وأن فاعل الجملة هو المركب الاسمي الذي يلي الفعل، بينما المفعول به هو المركب الاسمي الثاني.. ويمكن قول كل شيء عن الجملة وشروط صحتها النحوية من خلال هذه المعادلات. وهكذا ينظر الحاسوب إلى اللغة كمنظومة من المعادلات.

وفي الحقيقة هذا ما يميز عالم اللسانيات أن يعرفه، هو يريد أن يعرف صورة النحو الذي يمكن أن يقبله الحاسوب لأن هذه الصورة تختلف عما تعود اللساني أن يكتبه وعما يقرؤه في كتب النحو العام. وكان هذا ما يجب أن يكون عليه التركيز باقضية وبكثير من الأمثلة التوضيحية بإعادة كتابة كثير من القواعد التقليدية بالصورة التي تتطلبها المعالجة الآلية.

يستطيع أن يحدد إذا كانتا متساويتين أم لا. وبالتالي فهو ينظر إلى اللغة كشبكة من علاقات المساواة. وبناء على هذا المنهج يستطيع الحاسوب تحويل جميع شجرات الاعراب إلى شكل معادلات المساواة. فإذا أردنا للحاسوب أن يحلل الجملة التالية:

شاهدت سعاد علياً في الحديقة.

وكانت شجرة الاعراب لهذه الجملة ما يلي:

فإن قواعد هذه الجملة تكتب في شكل المعادلات التالية:

جملة = (س - صفر س - ٢ - ٣)

(س - صفر مفعول) = فعل.

(س - صفر جنس) = (س - ١ جنس).

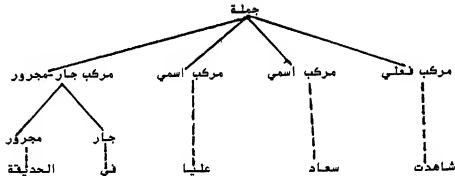
(س - صفر عدد) = (س - ١ عدد)

(س - صفر مكملات) = مركب اسمي.

(س - صفر فاعل) = س - ١.

(س - صفر مفعول) = س - ٢.

..... الخ.



لكتابة الأنحاء في الصياغة الصورية لكل منها . وقد كان للحاسوب ولا يزال أثر كبير في ظهور وتطور هذه النظريات . فها يهيم عالم اللغة اذن أنه يريد أن ينظر الى الحاسوب من خلال ما يستطيع أن يقدمه للغة وللبحث اللغوي ، ولا شك أن الحاسوب يقدم إمكانيات هائلة للبحث اللغوي سواء على مستوى تقديم أدوات تقنية عالية تضاعف من فعالية عالم اللغة أو كاختبار لصحة النظريات والتحليل اللغوية ، أو كمتطلبات عملية تفرض على عالم اللغة معالجتها وحلها ، وأبسط مثال على ذلك الاهتمام الشديد هذه الأيام بعلم الدلالة لأن التقدم في هذا الفرع من اللسانيات شرط ضروري للتقدم في فهم ومعالجة اللغات الطبيعية .

توجد الى جانب ذلك بعض الأحكام غير الصحيحة في أماكن متفرقة من الكتاب مثل :

١ - يقول في حديثه عن ثنائية التحليل والتركيب « تعد عمليات التمييز بشكل عام أعقد من عمليات التوليد ، اذ تتعامل الأولى مع دخل متغير لا يمكن تحديده سلفاً ، ولا يفترض وجوب صحته لغوياً » (صفحة ١٨٧) ، والذي يتتبع أدبيات اللسانيات الحاسوبية يجد أن برامج تحليل اللغات قد سبقت بكثير البرامج التوليدية ، ربما كان ذلك لأننا في التوليد نبدأ من المعنى وننتهي الى النص ، ولما كانت الأبحاث عن طرق تمثيل المعنى في بدايتها الأولى ، فقد أثر ذلك على البرامج التوليدية . والفكرة السائدة الآن هو أنه يجب استخدام نفس التحليل اللغوي في كلا الاتجاهين ، التحليل والتوليد ، غير أن البرامج التطبيقية تتطلب أن تسمح للمستخدم بعمل أخطاء لغوية إلا أن الحاسوب في رده لا

ولنا نفس التعليق على الفصل الثاني من الكتاب والذي عنوانه « منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية » . فهو يحدد الأطار العام لمنظومة الحاسوب في رباعية ، هي : العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . وليس هذا الأطار هو منظور اللغة الى الحاسوب ، بل هو اطار هذه المنظومة من منظور الحاسوب ، ثم يتناول البعد العربي لكل من هذه العناصر وهو يعني تطويع هذا العنصر ليلبي احتياجات المستخدم العربي ، وهذا بالتأكيد شيء جيد . ولكن يبدو لي - وقد أكون مخطئاً - أنه قد يكون من المناسب عندما نتحدث عن الحاسوب من منظور اللغة أن نذكر كيف يمكن للغة استخدام الحاسوب لخدمة البحث اللغوي ، فالمعروف أن علماء الحاسوب واللسانيات الحاسوبية في البلدان المتقدمة استطاعوا بناء أدوات للبحث اللغوي computational tools for linguistic analysis ، وأن استخدام هذه الأدوات قد مكّن علماء اللغة من اختبار صحة نظرياتهم مما كان له أثر في اندثار بعض النظريات والتحليلات اللغوية وقيام غيرها . فقد كان للسانيات الرياضية والحاسوبية الفضل في إظهار أن النحو التحويلي لا يزيد في قوته عن آلة تورينج (ريتشي وبيترز ١٩٧٣) ، وأنه لا يمكن التوصل الى البنية العميقة من خلال البنية السطحية . وأدى هذا الى ظهور نظريات لغوية توليدية غير تحويلية ولا تعترف الا بالبنية السطحية ومن ذلك نظرية « نحو البنية العامة للجملة Generalized Phrase Structure Grammar (GPSG) » والنظرية الوظيفية المعجمية « Lexical Functional Grammar (LFG) » . ولكل من النظريتين برامج حاسوبية

فقد ميزوا بين المجهر وغير المجهر . كما توصلوا لعدد من القواعد الصوتية المختلفة كالإبدال والاعلال ، والحذف ، والإضافة ، والادغام ، وغيرها . كما كانت الصوتيات من أول فروع علم اللغة الحديث ، وقد حققت تقدماً هائلاً ، وإذا جاز لنا أن نتحدث عن أقل الظواهر اللغوية حظاً من حيث الدراسة والبحث ، فلا شك أن أول ما يخطر ببال اللغوي هي الدلالة .

٤ - يقول المؤلف « يمكن القول أن الجمل العربية تنسم بضحلة بنيتها العميقة وذلك إذا ما قورنت بلغات أخرى مثل الانجليزية مثلاً » (صفحة ٣٥٧) . ومن الصعب تقبل فكرة ضحالة أو عمق البنية العميقة للغة ما ، فالبنية العميقة ما هي الا افتراض نظري مجرد من خلق عالم اللغة عن الدلالة التي يتوصل إليها الانسان من البنية السطحية للجمل . ونتجه معظم النظريات اللغوية المعاصرة الى نبذ فكرة البنية العميقة لأنها تعتمد بشكل رئيسي على النحو التحويلي الذي تقوم فيه القواعد التحويلية بتمثيل العلاقة بين البنية السطحية للجمل وبنيتها العميقة .

لا يمكن هذه الملاحظات البسيطة أن تقلل من قيمة وأهمية الكتاب ، فقد حفل بكم هائل من المعلومات القيمة ، وأود أن أذكر نبيل علي بما قاله في صفحة ١٣ « فإن بحثنا هذا لا يعدو أن يكون مجرد بداية ستحتاج حتماً الى التفرع والتفصيل والتمعق » ونحن في انتظار العمل القادم لنبيل علي ليكون إثراء الشاني في علم اللسانيات الحاسوبية .

يجوز أن يأتي بجملته خاطئة نحوياً ، ومن هنا كان لا بد من أحد أمرين : إما أن يختلف النحو المستخدم في التوليد عن النحو المستخدم في التحليل ، أو أن يقوم البرنامج بارخاء بعض القواعد عند التحليل ليتجاوز الأخطاء التي يقع فيها المستخدم . والحالة الوحيدة التي تصح فيها مقولة المؤلف هذه هي حالة التعامل مع الكلام المنطوق .

٢ - وفي صفحة ٢٠١ يقول نبيل علي « هناك لغات فونيمية ، كاللغات الانجليزية والروسية والأسبانية ، يمثل كل حرف فيها فونياً واحداً في أغلب الأمور » وهذا مخالف للواقع ؛ فلم يقل أحد عن اللغة الانجليزية اطلاقاً أنها لغة فونيمية ، خذ مثلاً حرف « بالانجليزية فهو مرة ينطق « س » في كلمة sam ومرة ش كما في كلمة sure ومرة « ز » كما في كلمة dogs ومرة ج كما في كلمة pleasure . والحقيقة أن اللغة الانجليزية غير فونيمية على الإطلاق وقد كان هناك تفكير في أوائل هذا القرن لتعديل طريقة كتابتها حتى تصبح منطقية أكثر ولكن استبعد هذا الرأي لعدة أسباب .

٣ - ويقول نبيل علي في فصل المعالجة الآلية للكلام العربي ما يلي : « الكلام ، أو الصوت اللغوي ، هو بلا شك ، أكثر الظواهر اللغوية تأسلاً وتجلياً ، وهو في نفس الوقت أقلها حظاً من حيث الدراسة والبحث » ، وهذا الحكم ينافي الحقيقة ، فقد كان لعلماء اللغة العرب القدامى فضل دراسة الكلام دراسة وافية وتوصلوا الى وصف دقيق لمخارج اللفاظ ولبعض السمات الصوتية ،

المراجع

- ١ - الفهري ، عبد القادر القاضي . المعجم العربي : نماذج تحليلية جديدة ، دار توفيق للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .
- ٢ - فرغلي ، علي . "Three Level Morphology" ، بحث القى في ورشة عمل عن الصرف العربي ، جامعة ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٨٧ .
- ٣ - فرغلي ، علي . « الحاسب الآلي والعلوم الانسانية » في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٨ .
- ٤ - منصور ، فوزي . « استراتيجية الشباج الحاجات الأساسية كاستراتيجية تنمية » ، الحلقة النقاشية الثانية عشرة ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، ١٩٨٨ .
- 5 — Bresnan, J. (ed.) 1982. *The Mental Representation of Grammatical Relations*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 6 — Chomsky, N. (1957). *Syntactic Structure*. The Hague.
- 7 — (1965). *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 8 — Chomsky, N. 1981. *Lectures on Government and Binding*. Foris, Dordrecht.
- 9 — 1982. *Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 10 — 1984. *Knowledge of Language : Its Nature, Origin and Use*. New York, Praeger.
- 11 — 1986. *Barriers*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 12 — Gazdar, G. et al. 1985. *Generalized Phrase Structure Grammar*. Cambridge, Massachusetts. MIT Press.
- 13 — Jackendoff, R. 1977. *X-Bar Syntax : A Study of Phrase Structure*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 14 — Kay, M. 1987. *Nonconcatenative Finite-State Morphology*. Presented at the *Workshop on Arabic Morphology*, Stanford University.
- 15 — Koskenniemi, K. 1983. *Two Level Morphology : A General Computational Model for Word-Form Recognition and Production*. Doctoral Dissertation, University of Helsinki.
- 16 — Selkirk, E. 1982. *The Syntax of Words*. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.
- 17 — Weaver, W. 1955. "Translation", in Locke & Booth (eds.) *Machine Translation of Languages*, New York, Technology Press of MIT and Wiley.

يعد كتاب « ليبسكي » المعنون « بيرقراطية الخدمات الجماهيرية » أول كتاب رئيسي حول البيروقراطيين المتصلين بالخدمات الجماهيرية ينشر وسط اهتمام أكاديمي متنام بهذا المجال .

وتدور الدراسة حول مكان الفرد في سياق الخدمات العامة ، ويخلص المؤلف ، من دراسته ، الى أن فيها أفضل للسياسة العامة يمكن أن يتحقق ليس من خلال دراسة أنشطة وأعمال المستويات الادارية العليا ، بل عن طريق دراسة العلاقة بين من يقدم الخدمة مباشرة ومن يتلقاها .

وتستند الدراسة الراهنة الى ملاحظات جرى تسجيلها عن السلوك الجماعي لتنظيمات الخدمة العامة ، وتسمى الدراسة كذلك الى تطوير نظرية حول نشاطات بيروقراطيات الخدمات الجماهيرية كما يمارسها العاملون في تلك التنظيمات والمؤسسات .

ويرى المؤلف أن موظفي تلك المؤسسات التي تتعامل مع الجماهيراً ، يشغلون مركزاً دقيقاً في المجتمع الأمريكي في الوقت الراهن . وهو يعرف الموظف الذي يتعامل مباشرة مع الجمهور بأنه « بيرقراطي مستوى الشارع » على حد تعبيره ، وذلك مثل المدرسين وضباط الشرطة والاختصاصيين الاجتماعيين والقضاة والمحامين وموظفي مؤسسات الخدمات العامة ، ومن ثم فهو يشير الى الهيئات التي ينتمي اليها أعداد كبيرة من هؤلاء بوصفها « مؤسسات بيرقراطية على مستوى الشارع » على حد تعبيره ، أي مؤسسات بيرقراطية تتعامل مباشرة مع الجماهير .

ان الأساليب التي يقوم من خلالها أولئك الموظفون العاملون بتلك المؤسسات ، والخدمات والجزاءات ،

بيروقراطية الخدمات الجماهيرية

تأليف : ميشيل ليبسكي
عرض وتحليل : فهد الناصر

مدرس علم الاجتماع

ويعيدون بواسطتها ضروب حياة الناس وفرصهم ،
تشكل السياق الاجتماعي والسياسي الذي يعمل الناس
من خلاله ، وتوجهه .

ويتحكم هؤلاء البيروقراطيون المتعاملون مع الجماهير
في الجدل السياسي أو الخلافات السياسية التي تدور
حول الخدمات العامة وذلك لسببين عامين ، يرجع أولهما
إلى أن الجدل والخلافات حول مجال الخدمات الحكومية
إنما تدور أساساً حول هؤلاء الموظفين العموميين من
حيث مجال عملهم ووظائفهم . أما السبب الثاني فيمكن
في أثرهم للموس على حياة الناس فهم على سبيل المثال
الذين يشكلون - اجتماعياً - توقعات المواطن للخدمات
الحكومية ، كما يصوغون على نفس المستوى أيضاً مكانه
في المجتمع السياسي ، إنهم على حد تعبير ليبسكي
« يسكنون بمفاتيح بعد من أبعاد المواطنة » وهو مقتنع
تماماً بضرورة النظر إلى موظفي المستويات البيروقراطية
الدنيا هؤلاء ، ليس بوصفهم منفذي سياسة فقط ، بل
بوصفهم صناع سياسة المنظمات التي يعملون بها .

ويتسق منطق ليبسكي ، الذي يضيف أهمية بالغة
على بيروقراطي الخدمات الجماهيرية ، أو كما يطلق
عليهم في بعض الأحيان موظفي خط المواجهة الأمامية
في مؤسسات الخدمات العامة - يتسق - مع أغلبية
البحوث والدراسات في هذا المجال ، أي مجال
المؤسسات البيروقراطية .

وقد حدد بيتر بلاو (Blau, 1956) ثلاث
خصائص تشترك فيها تلك المؤسسات بوصفها
خصائص ضرورية لأدائها واستمرارها ، وهي
التخصص في الأدوار والأعمال والمهام ، ووجود قواعد

موضوعية مستقلة ذاتياً عن الأشخاص ، ووجود توجه
عام لإنجاز أهداف وغايات محددة بكفاءة وفعالية .

ويعتمد مدى قدرة التنظيم البيروقراطي على المحافظة
على تلك الخصائص واستمراريتها على التوازن الدينامي
الذي يحرص على استمراره بالنظر إلى علاقته بالبيئة
والوسط العام الذي يوجد التنظيم في إطاره . وتحفظ
البيروقراطية باستقلاليته وتميزها وقدرتها على تحقيق
أهدافها طالما ظلت الرقابة التنظيمية والإشراف وصنع
السياسة ، ووضعها في أيدي أصحاب الحق الشرعي في
ممارسة تلك المهام . وقد تعارضت هذه النتيجة مع حالة
التمركز البيروقراطي "Bureacratization" التي تعني
تكريس الأنشطة والقوة البيروقراطية لخدمة مصالح
المؤسسة البيروقراطية ، أو لخدمة مصالح الصفوة أو
النخبة العليا في التنظيم .

إن آثار التمرركز البيروقراطي ، كما يذهب أيزنشتات
(Eisenstad) يمكن أن تحتوي على تطوير وتنظيم صارم
متعاضد regimentation لبعض مجالات الحياة
الاجتماعية ، ووضع أهداف وخدمات - المؤسسة
لصالح مصالح قوى وتوجهات مختلفة (P. 306) .

ويضرب أيزنشتات مثلاً بالخزب السياسي الذي
يمارس ضغوطاً على من يتوقع تأييدهم له ، وذلك في
محاولة لاحتكار حياتهم الخاصة والمهنية والافراد بها حتى
يجعلهم تابعين للحزب تماماً ومعتمدين عليه .

وبذلك يكون لدى الجهاز الوظيفي للحزب القوة
والنفوذ الذي يمكنهم من تغيير مسار الحزب ورسالته
الحقيقية وذلك بحكم كونهم في خط المواجهة ، فهم على
صلة مباشرة بالمؤيدين المحتملين في دائرة الحزب .

شكلاً من أشكال التقنين التي عادة ما تتجاهل الاعتبارات الانسانية للعملاء . إن ظروف العمل في هذه المؤسسات غالباً ما تضع العاملين بها في مواقف متناقضة على نحو ما يذهب اليه ليبسكي .

إن المهمة المشتركة التي تواجه بيروقراطي الخدمات الجماهيرية تتمثل في التوفيق بين مسؤولياتهم غير المحدودة في اتخاذ قرارات تتعلق بمشكلات العملاء ، وقدرتهم المحدودة على حل تلك المشكلات فعلاً . ومن شأن هذا التوفيق أن يؤدي الى ممارسات تضر بمصالح العملاء ، كأن تقلل من طلبهم للخدمات في حالة تطبيق إجراءات روتينية غير ضرورية ، ووضع العقوبات أمامهم لدى طلبهم لتلك الخدمات .

وينتقل ليبسكي لمناقشة الفروق بين موظفي الخدمات الجماهيرية والمديرين فيذهب الى القول بأن « العاملين في المستوى الأدنى يتميزون بممارسات متعلقة بأعمالهم تختلف عن تلك الممارسات التي يتسم بها المديرين ، فمن مصلحة العاملين أن يقللوا من الاخطار التي يتعرضون لها وأن يقللوا من المتاعب التي يتعرضون لها في العمل وأن يزيّدوا من دخلهم واشباعهم الشخصي . ان اولويات العاملين لا غم الإدارة في جانبها الأعظم الا بمقدار ارتباطها بالانتاجية والفاعلية . اذ يتم المديرين بتحقيق النتائج التي تتفق مع أهداف مؤسساتهم ، (P. 18).

ويركز ليبسكي على ندرة المصادر في وسط يتطلع الى خدمات غير محدودة ، كما يركز على الافتقار الى التجديد الدقيق للمسؤولية Accountability في مؤسسات وهيئات وتنظيمات تتسم بوسائل تكنولوجية تفتقر الى

ويحتل بيروقراطي مستوى الشارع الوضع نفسه تقريباً فمنهم صانعو القرار الذين يتكون احتكاًكاً يومياً مباشراً مع عملاء التنظيمات والمؤسسات ، وهم يستطيعون ، من هذا الموقع ، كما يوضح ليبسكي ، أن يغيروا من المجال الشرعي والوظائف الشرعية للتنظيم وذلك من خلال تقديم « منافع وخدمات أقل » وتوقيع « جزاءات أكبر » على العملاء ، خدمات أقل مما تحدده اللوائح والتشريعات التنظيمية ، وجزاءات أكبر مما تحدده تلك اللوائح أيضاً . وهكذا فإن تأثيرهم يمتد الى بعض مجالات الحياة الاجتماعية بتغييرهم بعضاً من أهداف الخدمة وقد يتم توجيهها لصالح البيروقراطية على حساب مصالح العملاء والمصالح العامة .

وفي ضوء الخصائص الثلاث المشتركة للتنظيمات البيروقراطية التي حددها بيتر بلاو يمكن القول إن بيروقراطي مستوى الخدمات الجماهيرية الذين يتجاوزون سلطاتهم يخاطرون ويتجاوزون خاصية التوازن الدينامي من خلال فشلهم في المحافظة على خاصيتي التخصص في الأدوار والقواعد الموضوعية المستقلة .

وخلال تحديد ليبسكي وتحليله لمشكلات هؤلاء الموظفين وظروف عملهم ، يناقش الصراع بين انفلات العاملين وتصرفهم على هواهم وبين الانساق والتنظيم الاجرائي الضروري في ضوء اعتبارات المساواة ، كما يناقش الصراع بين استقلالية العامل أو الملقب وبين المتطلبات التنظيمية للرقابة الاشرافية . لقد أعطي هؤلاء الموظفون صلاحيات واسعة للتصرف مع العملاء ومعاملاتهم وفقاً لظروف كل منهم ، في نفس الوقت الذي يُتوقع منهم أن ينفذوا الاجراءات التي تتطلب

وقد كشف عن أن كافة موظفي الخدمات الجماهيرية يميلون الى تضيق نطاق الخدمات وتحييدها ، كما يميلون الى التحكم في العملاء وفي ظروف العمل ، ويطورون وسائل سيكولوجية لاختزال التضاوت بين الأداء الذي يتوقعونه من أنفسهم وبين حصيلة الخدمة الفعلية التي يحصل عليها عملاؤهم .

ويعتمد ليبسكي على مجموعة من المصادر التي تمكنه من تقديم وصف وتحليل ممتاز لما يجري في ظروف العمل فهو يفسر - بأسلوب متعاطف مع كل من العاملين والعملاء - الدوافع البرقراطية الكامنة وراء مثل تلك الممارسات ، مثل توزيع الخدمات على أفضل العملاء الذين قد لا يكونون في حاجة ماسة إليها (كما هو الحال حينما تلاحق برامج الارشاد الوظيفي أولئك العملاء الذين من الممكن أن يجدوا فرص عمل دون تدخل تلك البرامج) والاقتصاد في الموارد التي يمكن تحقيق أقصى كفاءة من خلالها وذلك بممارسات مثل تحويل سلطة اتخاذ القرار للآخرين وهلم جرا ، حيث تصبح كل ممارسة من تلك الممارسات بمثابة ميكنازم بقاء فردي وتنظيمي .

لقد أشرنا من قبل الى تعريف ليبسكي لموظفي الخدمات الجماهيرية (مستوى الشارع) بوصفهم أولئك الذين يمتكنون بالجهد بصورة مباشرة إنشاء قيامهم بأعمالهم والذين يتمتعون بخبرة في تلك الأعمال . وإن أردنا المقارنة فقد يكون مفيداً أن نتمعن في تعريف داونز (Downs, 1967) للبيروقراطي وذلك في دراسته المعنونة « في داخل البيروقراطية » ، فهو يعرف

الدقة ، كما تتميز بأهداف غامضة وغير محددة . كما يتم أيضاً بالعوامل التي تسهم في خلق هوة بين العاملين والعملاء . ثم يستكشف أنثذ نتائج تلك العناصر وآثارها ، فالمحصلة سلبية بالنسبة للعملاء ، وأشكالية فيما يتصل بالرقابة التنظيمية ، أما بالنسبة لرضا العاملين عن العمل فهو محدود في أحسن الأحوال .

ويذهب ليبسكي الى أن موظفي الخدمات الجماهيرية - في تلك الظروف يفتقدون الوقت والتدريب والمعلومات التي تمكنهم من الوفاء بزمج الاحتياجات والمطالب المنوط بهم تحقيقها ، وإذا أضفنا الى ذلك غموض أهداف التنظيم وتضاربها بما تعكسه من خلاف سياسي ، فان قياس أداء العاملين ونتائج الخدمات تصبح مسألة نادرة ، أما العملاء فلا حول لهم ولا قوة في التحكم في الموقف ، ومن ثم تقل المنافع التي سيحصلون عليها وتكثر الجزاءات التي يقعون تحت طائلها .

ويسعى ليبسكي الى اختيار نظريته عن التحكم في ظروف العمل ، وهو يضع في اعتباره أن موظفي الخدمات الجماهيرية يعملون في ظروف تنطوي على درجة عالية نسبياً من عدم اليقين وذلك بسبب تعقد موضوع عملهم وهو التعامل مع الناس ، والسرعة التي تتطلبها عملية اتخاذ القرارات ، وكثرة تلك القرارات ذاتها .

وينطوي اختبار هذه النظرية على تحديد ما اذا كانت النتائج السلوكية المشتركة تحدث عبر مهن جماهيرية مختلفة ومتباينة ، ير العاملون فيها بظروف عمل متشابهة .

تدقيقها ومراجعتها إذا ما قورنت بمعظم الأعمال التنظيمية الأخرى ، وكون هذه الأعمال تجري في إطار معايير للعمل (مثل ثقة العميل) مما يقلل من الدقة في التقسيم إلى حد كبير .

وينطبق على موظفي الخدمات العامة ، السمة أو الخاصية الأخيرة التي طرحها « داووز » أيضاً ، والتي يذهب منها إلى استحالة قياس انتاجية الموظف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ يذهب « ليسكي » إلى أن هؤلاء الموظفين يضعون معايير يقيمون أداء العاملين وفقاً لها ، فعل رجال الشرطة أن يقبضوا على عدد معين من المطلوبين شهرياً ، وعلى الاخصائيين الاجتماعيين أن يدرسوا عدداً معيناً من الحالات لكن كفاءة تلك المعايير فيما يتصل بالسلامة العامة أو قدرة العميل عند الاخصائيين الاجتماعيين على التغلب على المشكلات تظل منطوية على إشكاليات مثيرة للجدل .

ويكشف ليسكي وبزيم من التوضيح « عن التعقيد الذي يكتنف تفسير مثل تلك المقاييس الأدائية والانتاجية حين يثير تساؤلات حول ما إذا كانت زيادة معدلات المقبوض عليهم تعني أداء جيداً للشرطة فيما يتصل بمجال القبض على المطلوبين أم أن ذلك هو العكس بمعنى أن ذلك يشير أيضاً إلى تزايد معدلات الجريمة ومن ثم تزايد أعداد المطلوب القبض عليهم .

ويحلل ليسكي أيضاً ، التطبيقات الراهنة للمقاييس الادارية التي صممت لتأمين وتوفير وضمان المساءلة والمحاسبة بين بيروقراطي الخدمات العامة ، لكنه ينتهي إلى استحالة تلك المحاسبة والمساءلة البيروقراطية بين

البيروقراطي بوصفه شخصاً يتسم عمله بأربع سمات أساسية على النحو التالي :

١ - أنه يعمل في تنظيم كبير .

٢ - وهو متفرغ لعمله في هذا التنظيم ويحصل من عمله هذا على النصيب الأعظم من الدخل .

٣ - تتبنى السياسة التي يتبناها التنظيم إزاء العاملين بها على معيار الانجاز أو الاداء الوظيفي .

٤ - ان تقييم انتاجية أي فرد من العاملين لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى أمس سوقية وتجارية من خلال العمليات التبادلية الاختيارية ، دون أن يجري تقييم أداء التنظيم وفقاً للأسس ذاتها .

وبينما يفي بيروقراطيو الخدمات الجماهيرية كما يعرفهم ليسكي بمشطلبات المعيارين الأولين اللذين حددتهما « داووز » ، فإن نقطة أساسية من نقاط أطروحة ليسكي تظل متمثلة في أنه من الصعوبة بمكان إجراء تقييم وأداء هذا المستوى من العاملين ، وهو يسوق أسباب هذه الصعوبة على النحو التالي :

١ - غموض الأهداف ، وذلك مثل توفير السلامة العامة أو تأهيل المواطنين تأهيلاً جيداً .

٢ - ثمة متغيرات عديدة في السلوك الانساني ، وثمة استحالة لتعيين ما يمكن أن يحدث للعمالء في حالة غياب التدخل والاعتراض ، وميل موظفي الخدمات العامة إلى أداء أعمال يصعب

والاختلافات الملموسة في مجالات الخدمات المختلفة .
انه يؤلف تأليفاً ذكياً بين نظرية التنظيم وعلم النفس
الاجتماعي والمنظور السياسي الراديكالي في كل مترابط
ومتناسك .

وهو لا يقدم أهداراً عن قصور أعمال موظفي
الخدمات العامة ، ولا بحث على مساندتهم بل يضع
مشكلة بيروقراطي الخدمات العامة في موقعها من بنية
عملهم في محاولة للكشف عن الظروف التي يمكن أن
تطور القطاع العام الذي يهدف الى الخدمات العامة
بحيث يستطيع أن يقدم خدمات أفضل لعملائه علاوة
على احترامهم وتقدير ظروفهم من ناحية ، والتعرف على
الظروف التي يمكن في ظلها توفير عناصر من العاملين
أكثر كفاءة وقدرة على تقديم الخدمات بصورة فعالة .

ورغم ذلك يخفق « ليسكي » في سد الفجوة بين
التشخيص الذي يطرحه للمشكلة والعلاج الذي
يقترحه لها ، إذ يبدو أن الفلسفة السياسية التي يتبناها
وينطلق منها هي ذلك النوع الذي يشهد تغيرات
اجتماعية واسعة وشاملة حتى يمكن التغلب على
المشكلات الهائلة التي تحوي مجالات الخدمات العامة
بوضعها الراهن . إن تشخيصه ببساطة وفي هذا الضوء -
لا يرحي بعلاج جذري على المدى القريب مع اعترافه
بالمجازفات والمخاطر الفكرية التي تنطوي عليها
محاولة صياغة طرق واتجاهات جديدة لرؤية تلك
المشكلة .

ان أبرز ما يميز دراسة ليسكي يكمن في تطلعه الى
الربط بين ضربين منفصلين من التراث الفكري

المستويات الأولى من العاملين الذين يتمتعون بدرجة
عالية من حرية التصرف فيما يتصل بالجوانب النوعية
(أي التي لا يمكن قياسها كمياً) من أعمالهم .

ويناقش « ليسكي » .. كذلك الأزمة المالية
وانعكاسها على بيروقراطي الخدمات العامة ، ويخلص
من هذه المناقشة الى تحليل الامكانات والوسائل الكفيلة
بزيادة فاعلية الخدمات الحيوية التي يقوم بها العاملون في
هذا المستوى « أي مستوى الشارع والجمهور » .

ورثة نتيجة هامة ترتب على تكيف العاملين في مجال
الخدمات مع المواقف المتناقضة والمتصارعة التي يجدون
أنفسهم فيها ، تتمثل في تحول ما يقومون به بالفعل في
اتصالهم بعملائهم واحتكاكهم بهم ، الى سياسة
تنفيذية . إن ذلك هو ما يجري في مكاتب الرعاية العامة
وفي الفصول الدراسية ، وفي الخدمات الجماهيرية
الأخرى . ويذهب ليسكي الى أن تلك السياسة المنفذة
فعلاً ، تعكس أشكال عدم المساواة ، وغياب العدالة
والتعصب القائمة في هذا المجتمع . وبخاصة ما يتعلق
بالفقراء والأقليات .

ليس ثمة شك في أن تحليل بيروقراطية الخدمات العامة
يساعدنا في الكشف عن الملامح الشائعة والمشاركة
للتعامل مع الناس ، كما أن من شأنه أن يكشف أيضاً
عن السمات الفريدة والخاصة ، في الأوساط المهنية
المختلفة التي تظهر فيها تلك السمات واللامح .

أن المنهج المقارن - في أساسه - الذي ينجح ليسكي
خليق بأن يترسأولات علمية هامة تدور حول الفروق

المؤسسات التعليمية للنهوض بمثل تلك الأعمال المرتبطة بالخدمات العامة والاتصال اليومي المباشر بالجماهير بما يكتنفها من ظروف معينة .

وفي الختام أرى أنه عمل ممتاز في مجال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والإدارة وعلم الاجتماع المهني ، وأرى أيضاً أنه لن نعطي الكتاب حقه ما لم يقرأ بتفاصيل فصوله الستة من قبل المتخصصين ، وهو عمل جدير بالقراءة .

والعلمي ، ألا وهما السياسة العامة وعلم الاجتماع المهني والتنظيمات ، كما تتميز هذه الدراسة أيضاً باحتوائها على تفاصيل مشوقة حول المشكلة التي يتصدى لها ، ومع ذلك فقد أخفقت الدراسة في طرح المشكلات والقضايا وتناولها من وجهة نظر العاملين أنفسهم كتفسيرهم للعمل وما يعنيه بالنسبة لهم على سبيل المثال . أما ما نفتقر إليه تلك الدراسة فهو بعض الاقتراحات حول التأهيل التعليمي للطلبة في

References

- Blau, P. M. (1956). **Bureaucracy in Modern Society**. New York.
- Downs, A. (1967). **Inside Bureaucracy**. Boston : Little Brown.
- Eisenstadt. S. N. (1969). Bureaucracy, bureaucratization, and debureaucratization. In A. Etzioni, **Sociological reader on complex organizations**. New York : Holt, Rinehart and Winston.
- Lipsky, M. (1980). **Street/ Level bureaucracy**. New York : Russell Sage Foundation.

العدد التالي من المجلة
العدد الرابع - المجلد العشرون
يناير - فبراير - مارس
قسم خاص عن
العلوم الطبيعية والانسانية والاجتماعية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) العلوم الطبيعية والإنسانية والإجتماعية

(ب) الطاقة النووية

(ج) الإعلام المعاصر

(د) الفكر العربي المعاصر

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجميع القول في الموضوع الذي تناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبيا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيها بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

٥ ليرات	سوريّا	٧ دراهم	ليرة الإمارات
٤٠ قرشا	القطّانة	٦ ربات	سعوديّة
٣٠٠ مينا	السودان	٤ ربات	سلطنة
٥٠ قرشا	ليبيا	٥٠٠ فلس	بحرين
٥٠٠ بيسة	مستقط	٥٠٥ ريال	يمن الشماليّة
٦ دنانير	الجزائر	٤٠٠ فلس	يمن الجنوبيّة
٦٠٠ مليم	تونس	٤٠٠ فلس	سراة
٧ دراهم	المغرب	٥٠ ليرة	سنة
		٣٠٠ فلا	ردم

بشراكات:

بلاد العربيّة ٥ دنانير

بلاد الاجنبية ٦ دنانير

ل قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
ل بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع اعم وعنوان المشترك إلى :

ارة الاعلام - الاعلام اناجي - ص.ب. ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

الشم

٤٠٠ فلس